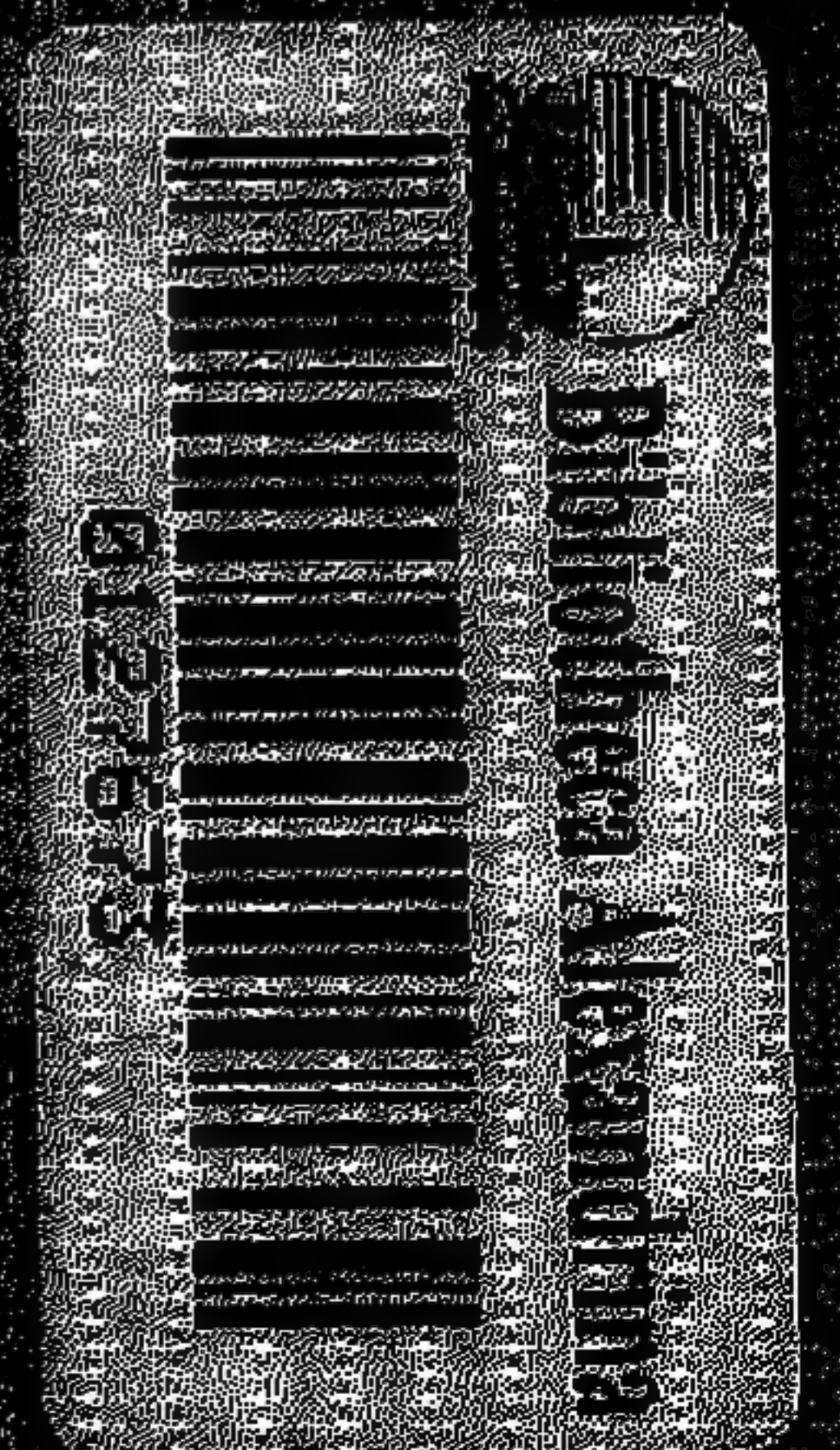


مصر والشرق الأدنى القديم

الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مبروك
أستاذ تاريخ وعصر مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار النشر الجامعية
٤٨٣ شارع التحرير - الإسكندرية
٥٩٧٣١٤٦٠



مصر والشرق الأدنى القديم

الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

دار المعشقة الجامعية

٤٠ ش. مورتية - المنطقة ٤ - ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش. قتال السويدي - ٥٩٧٣١٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا ومولانا وجدهنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على
إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد،
كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم
في العالمين - إنك حميد مجيد

إهداء

إلى أساتذتي الأجلاء - طيب الله ثراهم - :

١ - الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم

أستاذ التاريخ القديم، ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
- المشرف على الرسالة -

٢ - الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر

أستاذ الآثار المصرية - وعميد كلية الآداب
جامعة القاهرة
- عضو لجنة المناقشة -

٣ - الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري

أستاذ التاريخ القديم، وعميد كلية الآداب
جامعة الإسكندرية
- عضو لجنة المناقشة -

أمدى هذه الدراسة

تقديم

(١)

مصر:

اسم حملته مصر الفرعونية، ومصر الإسلامية، ومصدر الحديثة - على مدى عدة آلاف من السنين -.

مصر أم العروبة، ومنارة الإسلام، وقلب العالم العربي، وواسطة العالم الإسلامي، وحجر الزاوية في العالم الأفريقي.

مصر كنانة الله في أرضه، ودرته الخالدة في الشرق، ومحور التاريخ العالمي.

مصر «أول أمة» في التاريخ، نمت فيها عناصر الأمة، بمعناها الكامل الصحيح، وبعدها كانت «أول دولة» بالمعنى السياسي المنظم، نجحت في أن تؤسس «أول ملكية» عرفها التاريخ القديم.

ثم «أول إمبراطورية» حققت لنفسها نطاقاً ممتداً من السيطرة والنفوذ، وصل بسمعة إلى شمال سورية، وإلى مشارف النهرين، كما وصل غرباً إلى بركة، وجنوباً حتى «أثيوبيا» - بمعناها الواسع القديم، وظلت تلك الإمبراطورية المصرية، أعظم حقيقة سياسية في الشرق الأدنى القديم، قرابة ألف متتالية من الأعوام - أو ألفين متقطعة -.

مصر: اسم قدسته الأديان، وكرمه السماء، وشرفه الله تعالى بذكره في التوراة - كما في سفرى التكوين والخروج^(١) على سبيل المثال -

(١) انظر: سفر التكوين ١٢/١٠، ١١/١٤، ١٣/١، ٣٦/٣٧، ١/٣٩، ٤١/٤٣، ٤٦، ٤٦، ٤٨/٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٤٢/١، ٢، ٣، ٤٣/١، ١٥، ٤/٤٥، ٩، ١٣، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٤٦/٣، ٤، ٧، ٨، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٧، ٤٧/٦، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٤٨/٥١، ٧/٥٠، ١٤، ٢٢، ٢٦، سفر الخروج ١/١، ٥، ٨، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٣/٢، ٣، ٧، ١٠، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠،

وذكرها الله تعالى في الإنجيل - كما في إنجيل متى وأعمال الرسل (١) -
وأصبح الله على مصر من فضله وكرمه، فشرفها بذكرها في القرآن الكريم -
كما في سورة البقرة ويونس والزخرف -.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن القرآن الكريم، إنما فرق بين كلمتي
«مصر» التي جات في سياق قصتي يوسف وموسى - عليهما السلام - ففي
قوله تعالى - على لسان موسى عليه السلام - «اهبطوا مصرًا ، فإن لكم ما
سألتم» (٢) : أن كلمة «مصرًا» في هذه الآية الكريمة لا تدل على بلدنا
الكريم (مصر وادى النيل) ، وإنما تعنى «المدينة المتحضرة» - أى مدينة
متحضرة فى أى مكان - ودليلنا أن كلمة مصر فى الآية الكريمة ، جاءت
«مفعولاً به» منصوباً، وهى منونة «مصرًا» - أى ليست ممنوعة من الصرف -.

وفى موضع آخر، يقول تعالى - على لسان يوسف عليه السلام -
«ادخلوا مصر، إن شاء الله آمين» (٣) ، فجاءت الكلمة هنا تدل على وطننا
مصر، وهى «مفعول به» أيضاً ، ومنصوب، ولكن بدون تنوين، لأنها ممنوعة
من الصرف، حيث تدل على «مصر» - وادى النيل.

= ١١، ٤، ٣/٧، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ١٣، ١٣، ١١/٦، ١٢، ٤/٥، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨/٤
١٤، ١٣، ١٢، ١٢، ٧، ٢/١٠، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٩/٩، ٢٤، ١٧، ١٦، ٦، ٥/٨، ٢١، ١٩
٤١، ٤٠، ٣٩، ٢٩، ١٧، ١٣، ١٢، ١/١٢، ٩، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١/١١، ٢٢، ٢١، ١٥
٣، ١/١٦، ١٢، ١١، ٧، ٦، ٥/١٤، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ٩، ٨، ٣/١٣، ٥١، ٤٢
١٨، ٣٤، ١/٣٣، ١١، ٨، ٧، ٤، ١/٣٢، ١٥/٢٣، ١/٢٠، ١/١٩، ١/١٨، ٢٢، ٦
وغيرها.

(١) إنجيل متى ١٣/٢، ١٤، ١٥، ١٩، أعمال الرسل ٩/٧، ١٠، ١٠، ٣٤، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ٦١، وانظر: تفسير الطبرى ١٣٢-١٣٣، تفسير المنار ٢٧٣-٢٧٦،
تفسير القرطبي ، ص ٣٦٥-٣٦٨، تفسير النسفى ٥١/١-٥٢، فى ظلال القرآن ٧٤/١-٧٥،
تفسير الكشاف ١٠٧/١-١٠٨، صفوة التفاسير ٦٢/١، تفسير ابن كثير ١٥٢/١-١٥٤.
(٣) سورة يوسف، آية: ٩٩، وانظر: تفسير الطبرى ٢٦٥/١٦-٢٦٦، تفسير ابن كثير
٧٥٨/٢-٧٥٩، تفسير القرطبي ، ص ٣٤٨٨-٣٤٩٢، تفسير النسفى ٢٣٧/٢-٢٣٨، فى
ظلال القرآن ٢٠٢٨/٤-٢٠٢٩، صفوة التفاسير ٦٨/٢، تفسير البحر المحيط ٢٤٨/٥.

وهذه التفرقة اللغوية الدقيقة بين كلمة «مصر» في الآيتين، إنها توضح أن لكلمة «مصر» معنيان: الواحد: معنى الوطن الذى يعيش فيه المصريون، بحدوده المعروفة جغرافياً، وهذا هو المعنى الذى ورد فى القرآن ، ممنوعاً من الصرف - أى بدون تنوين فى أربعة مواضع.

والثانى: معنى المدينة المتحضرة، وفى القاموس - فى معانى كلمة مصر - : مصروا المكان نمصيراً، جعلوه مصراً، فتمصر، و«مصر» - أى المدينة التى تتميز عما حولها من بوادى -.

وقد قالوا عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) أنه «مصرُ الأمصار» - أى أنشأ الأمصار، أو أنه بعث العمال أو الولاة على «الأمصار» - أى الولايات - وقد أطلقوا على الكوفة والبصرة، لقب «المصران» - مثنى مصر -.

هذا وقد بدأ «التمدن» فى العالم، ببناء المدن فى مصر - فى عصور ما قبل التاريخ - مثل «نخن» (البصيلية) فى الصعيد، بوتو (إبطو) فى الدلتا - ومن ثم فقد نحتت اللغة العربية كلمة «مصر» لتدل بها على قيام الدولة - أو المدينة المتحضرة - التى تحيط بها البوادى (١).

وفى قصة يوسف عليه السلام، قوله لإخوته - وهو فى سلطانه فى مصر - «وقد أحسن بى، إذ أخرجنى من السَّجْنِ ، وجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» (٢)، فجعل الشام بدواً، بالمقابلة بمصر، وقد كان شرق مصر، وقت ذاك، رعوياً بدوياً.

وهكذا ، فإن موسى ، عليه السلام، حين قال لقومه «اهبطوا مصراً، فإنَّ لكم ما سألتم»، إنها تفيد «مصرًا» هنا، أى مدينة، وليس الوطن المصرى (مصر) على الخصوص (٣).

(١) أحمد صبحى منصور، مصر فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٩٠، ص ١٥-١٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٠.

(٣) الكندى، فضائل مصر، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٥، أحمد صبحى منصور، المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

هذا وقد قال الله تعالى - حين وصف مصر، وما كان فيه آل فرعون من النعمة والملك، بما لم يصف به مشرقاً، ولا مغرباً، ولا سهلاً ولا جبلاً، ولا براً ولا بحراً - ﴿كم تركوا من جنّاتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ، ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين﴾^(١).

وكلمة «مصر» - بمعنى البلد المتمدن أو الدولة - إنما هي اعتراف من اللغة العربية بقدّم العمران المصرى، والحضارة المصرية، فالعرب - حين عرفوا النطق باللغة العربية - استعاروا كلمة «مصر» لتدل على المدينة والحضارة، ثم جاء القرآن الكريم - فيما بعد - يسجل هذا المعنى ويميزه بفارق لغوى دقيق، حين يجعل كلمة «مصر» الوطن، بمنوعة من الصرف، باعتبارها علماء، وذلك فى أربعة مواضع (سورة يونس، آية: ٨٧؛ سورة يوسف، آية: ٢١، ٩٩؛ سورة الزخرف، آية: ٥١)، ثم تكون كلمة «مصر» الدالة على المدينة منونة فى موضع وحيد فى القرآن الكريم (البقرة، آية: ٦١).

ولعل من الجدير بالإشارة أن ذلك إنما كان على أيام موسى، عليه السلام^(٢)، والذي شهد «عصر الدولة الحديثة» - أو كما يسمى عند المؤرخين «عصر الإمبراطورية المصرية» (١٥٧٥-١٠٨٧ ق.م) - حيث سادت مصر العالم المعروف وقت ذاك.

وهناك أهمية أخرى، يضيفها القرآن الكريم على مصر، عندما يعبر عنها بلفظ «الأرض»، هذا والنسق القرآنى إنما يضيف وصف الأرض على وطن ما، إذا ما بلغ قومه درجة كافية من القوة، نفهم ذلك من قول الله تعالى ﴿فأما عادٌ فاستكبروا فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وقالوا منْ أشدُّ منّا قوةً، أو

(١) سورة الدخان، آية: ٢٥-٢٧؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٥٩٥٨-٥٩٥٩؛ تفسير ابن كثير ٢١٤/٤-٢١٦؛ تفسير النسفى ١٢٩/٤-١٣٠؛ صفة التفاسير ١٧٣/٣-١٧٤؛ التفسير الكبير للرازي ٢٤٦/٢٧؛ تفسير البحر المحيط ٣٦/٨؛ فى ظلال القرآن ٣٢١٤/٥.

(٢) انظر عن عصر موسى وتاريخ الخروج بنى إسرائيل من مصر: محمد يومى مهران، بنو إسرائيل ٢٦١/١-٤٤٢، طبعة ثالثة، الإسكندرية ١٩٩٩م.

لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً (١).

ولنقرأ هذه الآيات التي تتصل بمصير وفرعون، قال تعالى ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ
عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي
الْأَرْضِ﴾ (٣)، وقوله تعالى ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ
الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ (٤)، وقال تعالى ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ
فِي الْأَرْضِ﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ
اللَّهُ لِي﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ (٧) أَتُنذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (٨) وقوله تعالى ﴿إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي
الْأَرْضِ، وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ (٩)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ (١٠)،
وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ (١١).

وفي قصة يوسف عليه السلام ، يقول تعالى - عن تطور مكانة يوسف

- | | |
|---|-----------------------------|
| (١) سورة فصلت، آية: ١٥. | (٢) سورة القصص، آية: ٤. |
| (٣) سورة القصص، آية: ٥. | (٤) سورة الأعراف، آية: ١٢٨. |
| (٥) سورة الأعراف، آية: ١٢٩. | (٦) سورة يوسف، آية: ٨٠. |
| (٧) فرعون: جاءت كلمة فرعون في القرآن الكريم حوالي ٧٠ مرة: البقرة (٤٩-٥٠)، آل عمران (١١)، الأعراف (١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٧، ١٤١)، الأنعام (٥٢، ٥٤)، يونس (٧٩، ٨٣، ٨٨، ٩٠)، هود (٩٧)، إبراهيم (٦)، الإسراء (١٠١-١٠٢)، طه (٢٣، ٢٤، ٦٠، ٧٨، ٧٩)، المؤمنون (٤٦)، الشعراء (١١، ١٦، ٢٣، ٤١)، النمل (١٢)، القصص (٣، ٤، ٦، ٨، ٩، ٣٢، ٣٨)، العنكبوت (٣٩)، ص (١٢)، غافر (٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٤٥، ٤٦)، الزخرف (٤٦، ٥٦)، الدخان (١٧، ٣١)، ق (١٣)، الذاريات (٣٨)، القمر (٤١)، التحريم (١١)، الحاقة (٩)، المزمل (١٥، ١٦)، النازعات (١٧)، البروج (١٨)، الفجر (١٠). | |
| (٨) سورة الأعراف، آية: ١٢٧. | (٩) سورة القصص، آية: ١٩. |
| (١٠) سورة طه، آية: ٥٧. | |
| (١١) سورة طه، آية: ٦٣. | |

في مصر - «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض»^(١)، وحين طلب وظيفة من الملك قال له «اجعلني على خزائن الأرض»^(٢).

وهكذا كانت «خزائن مصر» هي «خزائن الأرض»، وروى «أبو بصرة الغفاري» - وهو صحابي نزل مصر مع الصحابة^(٣) - «مصر خزانة الأرض كلها، وسلطانها سلطان الأرض كلها، ولم تكن الخزائن بغير مصر، فأعان الله بمصر وخزائنها، كل حاضر وباد، من جميع الأرض»^(٤).

وقال سعيد بن أبي هلال الليثي: مصر أم البلاد، وغوث العباد، وقال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة^(٥)، وقال يحيى بن سعيد: جلت البلاد، فما رأيت الورع ببلد من البلدان أعرفه، إلا بالمدينة وبمصر^(٦).

هذا وقد نقل علماء المصريات، ما سجله القرآن من قبل اعتزاز المصريين ببلدهم، وذلك بعد أن عرفوا أسرار اللغة المصرية القديمة، وعرفوا أن من أسماء مصر: اسم «كمت» - أي الأرض السوداء - مبشرين بذلك إلى الطمى الذى غمرت به الفيضانات - التى لا حصر لها، والتى تدين لها مصر بخصبها الفذ، الذى لا نظير له - ومفرقين بذلك - فى الوقت نفسه - بينها وبين الصحراوات المحيطة بها، والتى عرفوها تحت اسم «دشرت» - أى الأرض الحمراء -.

هذا وكثيراً ما كان القوم يرددون اسم «كمت» بروح التكريم والتقدير، والفخر والإعزاز، ومن ثم فقد رأينا أحد الفراعين يقول «عملت على أن تكون «كمت» بأهلها، فوق كل أرض»، ويقول آخر بأنه «ثمرة من ثمرات كمت».

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(١) سورة يوسف، آية: ٥٦.

(٣) الإصابة فى معرفة الصحابة، ١/١٦٢. (٤) الكندى، فضائل مصر، ص ٤٤.

(٥) حسن المحاضرة، ١/٢١١، ٢/٢٧٤، ٢/٣٢٩-٣٠٠، نهاية الأرب، ١/٣٤٨.

(٦) الكندى، فضائل مصر، ص ٤٦.

هذا وقد تعددت أسماء مصر - بجانب اسم « كمت » - ولعل من أقدمها، وأكثرها شيوعاً في نصوص القراعين اسم « تاوى » - بمعنى الأرضين - أرض الصعيد (تا - شمعو) وأرض الدلتا (تا - مبحو).

وقد ابتدع المصريون اسم « تاوى » هذا، منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد - على أقل تقدير - متأثرين في ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر - فيما قبل عصر التأسيس، وقيام الملكية.

وهناك كذلك اسم « تا - مرى »، وهو اسم لم يتضح معناه بعد، فقد يكون بمعنى « أرض الفلاحة » أو « أرض الحياض »، وربما بمعنى « أرض النباتين المقدسين » - رمزى الصعيد والدلتا - هذا ولم يكتف القوم بالتعبير عن بلدهم « مصر » بأوصافها الطبيعية، فأضافوا عليها نعتاً شعرية، فوصفوها بأنها « إيزة رع » - أى عين الشمس، وربما ربّ الشمس - وسموها « وجات » - بمعنى السليمة - و« جات ثرو » بمعنى عين الأرباب السليمة - ودعوها كذلك « إترتى » بمعنى ذات المحرابين - و« باقة » - بمعنى الزيتون - كناية عن خضرتها الدائمة.

على أن هناك اسمين، ذاع أمرهما واشتهرا في العالم الخارجى، أكثر مما ردداه المصريون القدامى أنفسهم، وهما اسم « مصر » ومترادفاته، واسم « إيجوبتوس » ومترادفاته^(١).

هذا وقد كتب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى واليه بمصر، عمرو

بن العاص:

(١) انظر: عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وآثارها، ١/١-١٧، وكذا:

M.G. Daressy, les noms de L'Egypte, Bulletin de L'Institut d'Egypte, X, 1916, p. 2F, 368; W. Spiegelberg, Veria, Rec, Trav., 12, 1899, p. 39-40; H.Gauthier, Dictionnaire des noms Geographique, VI, Paris, 1928, p. 16; Pierre Montéte, Geographi de L'Egypte Ancienne, I, Paris, ZAS, 35, p. 73; Urk, IV, p. 102.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني فكرت في بلدك، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة زفيعة، قد أعطى الله أهلها عدداً، وجلداً وقوة، في بر وبحر، قد عالجتها الفراعنة، وعملوا فيها عملاً محكماً - مع شدة عتوهم - فعجبت من ذلك، فأحب أن تكتب إلى بصفة مصر، كأنني أنظر إليها».

فكتب عمرو بن العاص: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر، أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغت كتابك وقرأته وفهمته، وأما ما ذكرت فيه من صفة مصر، فإن كتابي سيكشف لك عمى الخبر، ويرمى على بالك بنافذ البصر.

«إن مصر، وما أحبيت أن تعلمه من صفتها، تربة سوداء، وشجرة خضراء، بين جبل أغبر، ورمل أعقر، قد اكتنفها معدن رفقها، ومحط رزقها، ما بين أسوان إلى منشأ البحر، في سح النهر، مسيرة الراكب شهراً، كأن ما بين جبلها ورملها بطن أقب، وظهر أجب، يخط فيه نهر، مبارك الغدوات، ميمون البركات، يسيل بالذهب، ويجرى بالزيادة والنقصان، كمجاري الشمس والقمر، له أيام تشيل إليه عيون الأرض، وينابيعها مأمورة بذلك، حتى إذا ربا وطما، واصلخم لججه، واغلولب غبابه، كانت القرى بما أحاط بها كالربا، لا يوصل من بعضها إلى بعض، إلا في السفائن والمراكب، ولا يلبث إلا قليلاً، حتى يكون كأول ما بدا من جريه، وأول ما طما من شربه، وحتى تستبين فنونها ومتونها».

«ثم تنتشر فيه أمة (III) قد رزقوا على أرضهم جلدًا وقوة، لغير ما سعوا به من كدهم، بلا حمد ينالهم من ذلك، يسقون سهل الأرض

وخرابها وروابيها، ثم يلقون فيها من صنوف الحب، ما يرجون به التمام من الرب، وما يلبث إلا قليلاً حتى يشتد، ثم تسيل قنواته وتصفر، يسقيه من تحت الثرى، ومن فوقه الندى، أو سحاب منهمر، بالآرائك مستدر، ثم فى هذا الزمان من زمانها، يغنى ذبابها، ويبدأ فى صرامها، فبينما هى مدرة سوداء، إذا هى لجة زرقاء، ثم غوطة خضراء، ثم دياجة رقشاء، ثم فضة بيضاء، فتبارك الله أحسن الخالقين، الفعّال لما يشاء، وإن خير ما اعتمدت عليه فى ذلك، شكر الله عز وجل، يا أمير المؤمنين، على ما أنعم عليك منها، فأدام الله لك النعمة والكرامة فى أمورك كلها، والسلام،^(١).

(٢)

هذا وكان كثير من الناس يظنون - إلى عهد قريب - أن حضارة مصر الفراعنة، ليست إلا حضارة مادية، فى الدرجة الأولى، وأن هذه الشوامخ الراسيات فى أرض مصر - من الأهرامات والمعابد والمسلات، وغيرها من الآثار المصرية - ليست إلا رمزاً، ودليلاً على السخرة والاستعباد، وأن الشعب - كل الشعب - إنما كان مسخراً لخدمة فرد واحد، ذلك الذى نطلق عليه لقب «الملك - أو الفرعون»، والذى كانوا يسمونه «الإله العظيم» أو «الإله الطيب».

وأما جماهير الشعب فى مصر، فلم يكن لها فى الحياة من نصيب، سوى العمل على سعادة هذا الملك أو الفرعون فى الدنيا والآخرة، سواء بسواء، وهكذا ظن هؤلاء النفر من الناس أن مصر لم تسهم بتصيب كبير فى المجالين - الإنسانى والاجتماعى -.

ويعلم الله أن الباحث ما كان يظن يوماً ما، أن دراسته سوف تكون فى التاريخ الفرعونى، لما لقنوه إياه خطأ - منذ طفولته المبكرة، حيث حفظ القرآن الكريم، ولم يتجاوز العاشرة من عمره - أن هذه الشوامخ الراسيات فى

(١) الكندى، فضائل مصر، ص ٦١-٦٢.

أرض الكنانة ، إن هي إلا أنصاب يحرم الإسلام بقاءها - فضلا عن بنائها -
وأن حكام مصر وقت ذلك ، فراعين طغاة ، وقد وصف القرآن الكريم فرعون
موسى بالتجبر والطغيان ، وقد رسب ذلك في نفسه حيناً من الدهر ، نتيجة
عوامل كثيرة ، حتى كتب الله له أن يلتحق بالجامعة - وفي قسم التاريخ
بالذات - وكان القدر أراد أن يغير اتجاهه منذ اليوم الأول ، فكان أول درس له
في التاريخ القديم ، ولم تمض أسابيع ، حتى كان التاريخ الفرعوني من
أحب الدراسات التاريخية إلى نفسه ، وما أن تخرج في الجامعة ، حتى
أصبحت دراسته - فضلا عن عمله - في التاريخ الفرعوني .

ويشاء القدر - مرة أخرى - أن يختار له موضوعاً جديداً ، لرسالته
للماچستير بعيداً عن الميادين التي اشتهرت بها حضارة الفراعين المجيدة ،
موضوع - الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعنة - وعاش الباحث فترة
في موضوع البحث ، أدرك بعدها أن «عصر الثورة الاجتماعية الأولى ، إنما
يعتبر - من وجهة نظر معينة - من أهم العصور التاريخية في مصر الفرعونية .

كان عصر الثورة الاجتماعية الأولى ، هو العصر الوحيد في التاريخ
الفرعوني ، الذي جسور فيه «الملك الإله أو المؤله» على أنه إنسان - شأنه شأن
غيره من بنى البشر - يخطئ ويصيب ، وهو العصر الوحيد الذي تجزأ فيه
رجل - من رعايا الفرعون - على التشهير به ، فقد سمجت روح الديمقراطية
في ذلك العصر ، بأن يتقدم رجل من عامة القوم ، ليقول بملء فيه في
حضرة «الفرعون الإله» ، بأن حكمه كان نموذجاً للفناء .

وفي ذلك العصر ، كان مسموحاً لأقل الناس في أن يتقدم ويطالب
بحقه ، رأينا ذلك في «قصة القروي الفصيح» ، الذي وجّه إلى كبير الحجاب
أشنع التهم ، مطالباً إياه بتجريد العدالة ونصرة المظلوم ، وينتهي الأمر إلى أن
يكتب له النجاح في مسعاه ، وأن ينال حقه كاملاً .

وفي ذلك العصر ، استطاع المصريون أن يكتشفوا أن القيم الخلقية

العليا، يجب أن نحل محل القيم المادية المحطمة، وهنا - كما يقول المؤرخ الأمريكي الكبير «جون ويلسون» - يجب علينا أن نكيل المديح لمصر، لأنها اقتربت كثيراً جداً من المستوى الأخلاقي الأعلى، بدلا من التحسر على أنها لم تحقق «قدسية حق الفرد» ، وبدلا من أن نتباكى على أنها لم تصل إلى شيء يشبه ما نسميه «الديمقراطية» ، يجب أن نصفق لما حققت من نفع عام، لعدد أكبر من الناس، فقد وصلت مصر - أو كادت - إلى المناداة بأن لكل فرد حقه الشخصي في معاملة عادلة، وذلك حوالي عام ٢٠٠٠ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقبل أن يولد الأنبياء «موسى» (حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، ويوشع (يشوع) بقرون كثيرة، وأجيال طويلة.

كان ذلك العصر «عصر الطريق إلى الديمقراطية» فالناس في مصر - في هذا العصر - متساوون في الحقوق ، ومتساوون في الواجبات، فالإله خلق كل إنسان مثل أخيه الإنسان، وجعل الهواء مشاعاً بينهم، كما جعل للفقر، ما للفنى، من حق في مياه الفيضان العظيمة.

والفيضان - كما هو معروف - مصدر الثروة، وعماد الحياة في مصر، ومن هنا كان لهذا النص أهمية كبرى، ذلك لأنه إنما يعنى أن الإله قد أعطى فرصاً اقتصادية متساوية لجميع المواطنين، ولعمري: إن هذا هو الطريق السليم للديمقراطية السياسية.

هذا وقد نادت الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة (حوالي القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد) بأن الناس خلقوا متساوين بالفطرة، ومن ثم يجب أن يطبق «مبدأ تكافؤ الفرص» تطبيقاً عملياً، وأن يفتح الباب أمام كل المواطنين في جميع المجالات، ومن هنا رأينا الملك الإهناسى - من ملوك عصر الثورة - ينصح ولده وخليفته على عرشه من بعده ، بقوله : «لا تفرق بين ابن الرجل النبيل، وبين ابن غير النبيل، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفاءته» .

وقد اهتم عصر الثورة الاجتماعية، بالشباب، فهم الطليعة التي ستتولى أمر البلاد، وتحمل المسؤولية في المستقبل، ومن هنا نرى الملك الإهناسي ينصح ولده بأن يهتم بالجيل الجديد، وأن يحسن تربيتهم، وأن يزيد من أتباعه منهم، ثم يوجه نظره ولده إلى أن بلاده مليئة بالشباب الغض في سن العشرين، وأن هذا الشباب يمكن - إن أحسنت قيادته وتربيته - أن يكون درعاً يحمي حكمه، على أن يتم اختيارهم على أساس من كفاءتهم الشخصية، وعلى أن يزودهم بحاجتهم من الأملاك والحقول والماشية، وهنا سوف يقدم له رب كل أسرة أبناءه، فيستطيع أن يكون منهم جيشاً، يسنده في الخطوب الجسماء، فهم جيل لم تلوثه أدران الماضي، وفي استطاعته أن يستغل ضمائرهم النقية في خدمة البلاد.

هذا وقد نادت الثورة الاجتماعية الأولى «بمبدأ الثواب والعقاب» - محكمة الموتى - فكانت رائدة في هذا الميدان، ومن المعروف أن الكتب السماوية جميعها، إنما تؤكد هذا المبدأ، وأن المرء سوف يحاسب عما قدمه في دنياه، وسيكون جزاؤه من جنس عمله، قال تعالى: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» (١).

وقد نحتت الثورة الاجتماعية الأولى على الخلق الكريم، وأنه طريق السعادة في الآخرة، وهو أفضل عند الله من قرابين يقدمها الأشرار.

هذا ويرجع إلى عصر الثورة الاجتماعية تشبيه العدالة بالميزان، ولا ريب في أن ذلك إنما كان للمرة الأولى في تاريخ آداب العالم، ثم ساد هذا التشبيه بعد ذلك في كل لغات الدنيا، وإن لم يظهر بصورة واضحة إلا في القرآن الكريم (٢).

(١) سورة فصلت، آية: ٤٦؛ سورة الجاثية، آية: ١٥.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٢؛ سورة الأعراف، آية: ٨٥؛ سورة هود، آية: ٨٤-٨٥؛ سورة الشورى، آية: ١٧؛ سورة الرحمن، الآيات ٧-٩؛ سورة الحديد، آية: ٢٥؛ وانظر: سورة الأنبياء، آية: ٤٧؛ سورة الأعراف، آية: ٨، ٩؛ سورة المؤمنون، آية: ١٠٢-١٠٣؛ سورة الفارعة، آية: ٦، ٨.

أما بعد

فهذه رسالتي للماجستير - بإشراف أستاذي الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل - وقد تمت مناقشتها في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، بعد عصر يوم الأربعاء الموافق ٢٠ جمادى الثانية من عام ١٣٨٦ هـ (٥ أكتوبر ١٩٦٦ م) ، وقد أجيّزت بتقدير «جيد جداً» .

ويدهى أن النص الحالي ، ليس هو النص الأصلي - الذي أجيّزت الرسالة بموجبه - زيد عليه ، ولم ينقص منه شيئاً ، فلقد مضى على هذا النص الأصلي ، أكثر من اثنين وثلاثين عاماً ، ظهر في هذه الفترة ، الكثير من الأبحاث والاتجاهات العلمية ، كان لابد من الرجوع إليها - أو أكثرها - عند كتابة هذا النص الحالي ، ومن هنا كان بعض الاختلاف القليل بين النصين في التفاصيل ، وإن كانت الأفكار الرئيسية في كليهما واحدة ، لم تتغير ، وإن زادت المادة العلمية بعض الشيء .

والله - سبحانه وتعالى - أسأل ، أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع .
«لله العزة ولرسوله وللمؤمنين» . «وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب»

وصلّى الله على سيدنا ومولانا وجدنا وشفيعنا محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ؛

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

بولكلى - رمل الإسكندرية] الثالث عشر من رمضان من عام ١٤١٩ هـ
الأول من يناير من عام ١٩٩٩ م

الباب الأول
دراسات تمهيدية

الفصل الأول

مقدمة جغرافية

(١) موقع مصر الجغرافى:

يمتاز موقع مصر الجغرافى بأهميته، فمصر تقع عند مجمع قارتى آسيا وأفريقيا، هذا - ومن خلال قناة السويس^(١) - تعتبر مفرق بحرين داخليين، الواحد: البحر الأحمر، ويمتد إلى المحيط الهندى ومناطقه الحارة، والآخر: البحر المتوسط، ويمتد إلى المحيط الأطلسى ومناطقه الباردة، ومن ثم فقد كانت مصر - وما تزال - أرض الزاوية التى تجتمع عندها مسالك الشرق والغرب.

هذا وتعتبر مصر - أيضاً - «بوابة أفريقيا» نحو القارة الأوروبية، ومعبراً للقارة الآسيوية نحو القارة الأفريقية، حيث تشغل الركن الشمالى الشرقى من

(١) تمتد قناة السويس من بورسعيد إلى بورنوفيق، لتربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، وتمثل أهم شريان مائى فى العالم، وطولها ١٧٣ كيلاً، ومتوسط عرضها ٦٠ متراً، وعمقها ١٣ متراً، وتسير مع الحافة الشرقية لبحير المنزلة فى خط مستقيم حتى بحيرة التمساح، ثم تنحرف إلى البحيرات المرة، فخليج السويس، وفكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر فكرة قديمة، بدأت منذ القرن ١٩ م، ثم على أيام «نخساره» الثانى (٦١٠-٥٩٥ ق.م)، وأنشأها «دارا الأول» (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) ملك فارس لمصلحة بلاده.

وكانت القناة تبدأ من الفرع البوياطى، شمال الزقازيق بقليل، ثم تمتد فى وادى طميلات، حتى تنتهى إلى البحيرات المرة، وفى عهد بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ ق.م)، تراجع خليج السويس قليلاً، مما اضطره إلى مدها، وأعاد «تراجان» (١١٧-١٣٨ م) تطهيرها، وعند فتح العرب لمصر (٦٤٢ هـ/٦٤٢ م) كانت القناة ردمت، فأعاد عمرو بن العاص حفرها، وسماها «خليج أمير المؤمنين» ثم ردمها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ/٧٥٤-٧٧٥ م) عام ٧٧٠ م.

وأما قناة السويس الحالية، فتصل البحرين - الأحمر والمتوسط - مباشرة، وحفرها المهندس الفرنسى «دى ليسبس» فى عهد الوالى «سعيد باشا» (١٨٥٩-١٨٦٩ م)، ثم سيطرت عليها بريطانيا عندما اشترت أسهم مصر فيها من الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩ م) عام ١٨٧٥ م، ثم أمها الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وسيبها قامت حرب ١٩٥٦.

القناة الأفريقية، وبذا تمثل «حلقة الوصل» بين أفريقيا وآسيا... مظهر «نجم» جزيرة سيناء^(١)...

ومصر إنما تمثل كذلك «همزة الوصل» بين عالم المناطق المعتدلة والاربية، وبين عالم المناطق المدارية، وشبه المدارية. ففضلا عن أنها إنما تعتبر حلقة وصل، ومركزا لكل مناطق العالم المختلفة في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب.

هذا وتشغل مصر حيزا جغرافيا يقدر بحوالي ١,٠٠٢,٠٠٠ كيلا مربعا، وتمتد فلكيا، فيما بين دائرتي عرض ٢٢، ١٥، ٣١، ونخطي طول ٢٥، ٣٥، شرق جرينتش، ويمر «مدار السرطان» في جنوبها - مارا بحيرة السد العالي، عند منطقة كلابشة، على مبعدة ٧٥ كلا جنوبي أسوان - ومن ثم فإن ربع الأرض المصرية إنما تقع جنوبه - أي مدار السرطان - والباقي شماله، وقد أدى هذا الموقع الفلكي إلى أن تتوزع مصر بين العروض المدارية في الجنوب، إلى العروض شبه المدارية، وشبه المعتدلة في الشمال.

هذا فضلا عن سيادة مائية أمام سواحلها البحرية، حيث يمتد الساحل الشمالي - على البحر المتوسط - قرابة ٩٩٥ كيلا، ويمتد ساحلها الشرقي - على البحر الأحمر وخليج العقبة، قرابة ١٩٤٠ كيلا مربعا.

وهناك السواحل الشمالية، كدلتا نهر النيل، وما يتخللها من بحيرات

(١) تقع شبه جزيرة سيناء شمال شرق مصر، يحدها شمالا البحر المتوسط، وتنتهي جنوبا عند رأس محمد، ويحدها شرقا الحدود السياسية بين مصر وفلسطين والساحل الغربي لخليج العقبة، ويحدها غربا قناة السويس والبحيرات المرة والساحل الشرقي لخليج السويس. وتشغل سيناء ٢٦ من مساحة الأرضين المصرية، ومساحتها ٦٠ ألف كيلا مربعا، تمثل وتتخذ شكلا مثلثيا، تتفق قاعدتها مع ساحل البحر المتوسط شمالا، ورأسه عند رأس محمد جنوبا، عند مفرق خليج العقبة والسويس.

وكانت أيام القراعنة مليئة بالمناجم والمهاجر - وخاصة النحاس والفيروز - حيث كثرت حملات القراعنة إليها بغية الحفاظ على مناجمها والعمال الذين يعملون بها.

مصر الشمالية، وهي من الشرق إلى الغرب: أبردويل والمنزلة - في شرق الدلتا - والبرلس - في وسط الدلتا - وإدكو ومريوط - في غرب الدلتا.

هذا ويمتد ساحل البحر المتوسط حتى «السلوم»، حيث تنتهي عند «بر الرامة» على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب السلوم - الحدود المصرية

وتمثل سواحل البحر الأحمر الحد الجغرافي الطبيعي لمصر شرقاً، حيث يكون فاصلاً طبيعياً بين مصر والسعودية، ثم تبدأ الحدود الشرقية البرية، وتبلغ قرابة ٢٠٠ كيلا - من رأس خليج العقبة، عند رأس طابا، في اتجاه عام نحو الشمال الغربي، حتى البحر المتوسط - على مبعدة كيلاً واحداً شرق «رفح»، ويفصل هذا الخط بين مصر وفلسطين.

هذا وتمتد سواحل البحر الأحمر جنوباً - في موازاة سلاسل جبال البحر الأحمر - حتى «حلايب»، وأما الحدود الإدارية، فطبقاً لاتفاقية عام ١٨٩٩م، فقد حدث انشاء شمال وادي حلفا، بنحو ٣٥ كيلاً، فأصبحت «أدندان» في مصر، و«فرس» في السودان.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الحدود المصرية الجغرافية - إلى مالبة الشرقية والجنوبية والغربية - ليست حدوداً جغرافية فاصلة، وإنما هي حدود سياسية، رسمتها العوامل السياسية - وخاصة الإنجليزية - مما أدى إلى عدة نزاعات حدودية بين مصر وجيرانها، فضلاً عن الدول التي وضعت هذه الحدود السياسية - كما حدث في مسألة طابا وجغوب^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مصر - وخاصة على أيام الفراعين، عصر الدراسة - إنما كانت تتميز بعزلتها - في إطار من صحراوات لا تحد - ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها، ولكنها مواقع

(١) محمد فريد فتحي، في جغرافية مصر، الإسكندرية ١٩٩١م؛ إبراهيم زيادي، ملامح جغرافية جمهورية مصر العربية، الإسكندرية ١٩٩٣؛ وانظر: إبراهيم رزقانة، قمة دلتا النيل، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع، الإسكندرية ١٩٤٨م.

لا يمكن التغلب عليها، إذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقها في فيافيها، وهكذا حبت الطبيعة مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها، ففي الجنوب كانت الشلالات (الجنادل) بمثابة حواجز طبيعية تصد هجومات الأقوام الساكنة في جنوبها، كما تصد الصحارى ومياه البحر المتوسط هجمات من يسكنون إلى الشمال وإلى الشرق والغرب منها.

ولكن اتجهنا إلى خارج الحدود المصرية لنرى إلى أى مدى كان ذلك صحيحاً، وبدأنا من الجنوب، لرأينا أنه في وسط الطريق بين إدفو والمنابحي الضيقة لجبل السلسلة - على مبعده ٤٢ كيلاً إلى الجنوب من أسوان - أن شكل الأرض يتغير تماماً، فهناك تمر من إقليم الحجر الجيري الذى يشكل الكتلة الضخمة لمصر، إلى إقليم خشن من الحجر الرملى، يمتد جنوباً إلى مسافة ألف ميل من ناحية السودان، ولا يعوق هذه المرحلة سوى خط قصير قبل الجندل الأول، وراء الجزيرة الكبيرة المعروفة باسم «إليفانتين»، (جزيرة أسوان) مباشرة، ويتكون الجندل من تيارات نهريّة، يسبب وجود كتل ضخمة من الجرانيت الأحمر أو الأسود تعترض الطريق، وقد جعلت هذه لمصر الفرعونية حدودها الطبيعية^(١)، وأما الرقعة الغربية من مصر، فتكاد أن تكون صحراء تماماً، ولكن علينا أن نقدر مدى الجفاف الذى حل بها خلال الخمسة آلاف عام الماضية. فقد كان هناك على طول البحر الأبيض المتوسط إقليم مأهول بالسكان، تشغل جانباً منه المراعى، وتشغل جانباً آخر منه أرض صالحة للزراعة^(٢). وعلى أى حال، فإن مصر لم تتعرض لأخطار جسيمة من هذه الجهة، إلا على أيام الأسرتين، التاسعة عشرة والعشرين، بسبب هجمات «شعوب البحر» وقد كتب لمصر نجحاً بعيد المدى في القضاء على هؤلاء الغزاة على حدود الدلتا الغربية^(٣).

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 33.

(2) Ibid., p. 43-45.

(٣) انظر عن «شعوب البحر»: محمد يومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، (رسالة دكتوراة)، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١١٥، ١٢٨، ١٩٨-٢١٩.

أما من ناحية البحر الأبيض المتوسط، الذى يكون الحد الشمالى لمصر فليس هناك من كثير يقال، سوى أن البلاد قد أصبحت مكشوفة من هذه الناحية، وذلك حين أصبح مغامرون من أبناء البحر أكثر جرأة، ولا بد أن الاتصال بكريت كان قائماً منذ زمن بعيد، ذلك لأن الثقافة المينوية تقدم دلائل قوية على التأثير المصرى، أما الاتصال البحرى المباشر من هذه الناحية، فليس لدينا عليه من دليل مؤكد^(١)، وإن كنا نعرف أن أول هجوم بحرئ تعرضت له مصر، كان فى العام الثامن من عهد «رعمسيس الثالث» (حوالى عام ١١٧٤ ق.م)، وقد كتب لها نجحاً بعيد المدى فى القضاء عليه^(٢).

أما من ناحية الشرق، فقد كانت مصر مكشوفة، وعرضة للهجوم، وإن كان ذلك فى بقعة محددة بالذات، كان الطريق من وإلى فلسطين، يمر بشمال شبه جزيرة سيناء مسيرة قرابة تسعين ميلاً (من القنطرة إلى العريش) على أرض شاسعة رملية محرومة من الماء، ولكن هذه المسافة لم تكن كافية لتعوق أولئك الذين تشدهم الحاجة، أو الطمع، إلى خيرات مصر، ولقد سارت فى الطريق نفسه، أو عن طريق «بلوزيوم» على مقربة من البحر، جيوش «إسرخدون» و«قمبيز» و«الإسكندر» الغازية، كما سار فى عكس الاتجاه العديد من فراعين مصر نفسها - أمثال أحمنس وتحتنميس ورعمسيس^(٣) - وهناك إشارات عن مدى الخطر الذى يتهدد مصر من هذه الناحية، يتردد حوالى عام ١٩٧٠ ق.م، فى الحديث عن «أسوار الحاكم» التى شيدت لترد «الستيو» ولتقضى على «المتنقلين فوق الرمال»^(٤).

(1) A. H. Gardiner, op.cit., p. 46.

(٢) انظر : محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٤.

(3) A.H. Gardiner, The Ancient Military Road Between Egypt and Palestine, JEA, 6, 1920, p. 89.

(4) A.H. Gardiner, The Prophecy of Naferti, JEA, I, 1914, p. 105.

وأما بعيداً إلى الجنوب، فقد كانت مصر آمنة تماماً ضد أية فرصة للعدوان، ذلك لأن خليج السويس ومن ورائه البحر الأحمر، إنما كان بمثابة خط دفاع، بل إنها أكثر من ذلك، كانت تفصلهما عن طريق النيل قن من الجبال، ترتفع أحياناً إلى أربعة آلاف قدم، ولم يكن يعيش في هذه الناحية قوم لهم من القوة ما يكفي لشق طريقهم إلى مصر^(١).

ومجمل القول أن مصر في عصورها الفرعونية، يسرت لها الطبيعة عزلة ناعمة كأي دولة أخرى، ترزق حبس الطالع، حتى تستطيع أن تطور ثقافتها الفردية العالية، ولم تقل هذه الظروف السعيدة من فكرتها الطيبة عن ذاتها، فقد كان المصريون يعدون أنفسهم «الرجال» الحقيقيين وخدمهم، والشعب الوحيد حقاً الذي يستطيع أن يحمل عن جدارة اسم «رومي»^(٢) ومن الطبيعي أنها تزدري جيرانها الأقربين، الذين كانت تطلق علي رؤسائهم لقب «وغد»^(٣) ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أنهم وخدمهم المتمدينون، أما الأجانب فلا، كما كانوا يعتقدون أن لبلادهم مكانة ليست لغيرها من البلاد.

وأيما ما كان الأمر، فلقد حبت القدرة الإلهية مصر عوامل طبيعية، جعلت أمر الدفاع عنها - في عصورها التاريخية المبكرة - لا يتطلب منها طول نضال أو كبير جهد، ولعل هذا هو السبب في أنها لم تشترك في حرب طويلة - قبل أيام الهكسوس - تصرفها إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية، وإن كان هذا لا يعني - في الوقت نفسه - أنها لم تجرد حملة، أو أن قتالاً لم يقع عند حدودها، إذ أن ذلك قد حدث، وإنما يعني أن ذلك لم يكلفها أكثر من غزوة، أو عدة حملات، لتأديب تلك القبائل الظاعنة أو المرتحلة

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 36-37.

(٢) كلمة «بيروميس» أي «رومي» مسبوقة بأداة التعريف أوردها هيرودوت بمعنى يقارب كلمة «جنتلمان» اليوم.

Op.cit., p. 37; Herodotus, II, 143.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 37.

حول الحدود، وهو أمر كان في مقدور أية حكومة مصرية تعالجه كماحدى
معضلات الأمن العادية، فلم يكن هناك أى تحد لمصر فى داخل حدودها،
بل إنه حتى ذلك الحين، كان تفوق مصر الحضارى على جيرانها كبيراً،
ومن ثم فلم تكن فى حاجة إلى غزو وإنما كان يكفيتها اتخاذ بعض إجراءات
لحماية مصالحها، ولا يتطلب الأمر أكثر من ذلك ليستمر وصول التجارة
إليها، وهكذا كانت مصر - حتى ذلك الحين - مضطجعة فى هدوء على
طول مجرى النيل، واثقة من أن الآلهة إنما جعلتها أعظم من غيرها من بلاد
الدنيا، وسيدة - دون منازع - لكل مكان تصل إليه^(١).

وهكذا كانت مصر - فى أوائل أيامها - بلداً آمناً لا يهدده خطر الغزو،
ومن هنا فلم يمكن ضرورياً للمصريين أن يحتفظوا بقوة عربية كبيرة بصفة
مستمرة، لتصد ما عساه أن يحدث من هجوم، فقد كانوا يستطيعون أن يروا
أى خطر محتمل من مسافة بعيدة، فضلاً عن أنه كان شيئاً بعيد الاحتمال
أن يتمكن أى شخص مهاجم ومعه قوة كبيرة من أن يصل إلى مصر
نفسها^(٢).

(٢) مناخ مصر:

لا ريب فى أن موقع مصر الجغرافى إنما قد أثر فى مناخها - إلى حد
بعيد - ومن ثم فهو - بصفة عامة - إنما يتصف بالجفاف، مع الارتفاع
النسبى لدرجة الحرارة، وخاصية فى فصل الصيف، وأما فى فصل الشتاء،
فيتصف المناخ بالدفء، حيث لا تصل درجة الحرارة إلى التجمد، ويعتبر
شهر يناير من أبرد شهور السنة نسبياً.

وعلى أية حال، فمناخ الدلتا، إنما يتميز بفصل شتاء، معتدل الحرارة
قليل الأمطار، مع فصل صيف حار نسبياً، وشمس ساطعة.

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 154.

(2) J. A. Wilson, op.cit., p. 13.

وأما الصعيد، فشتاؤه دافئ وجاف، مع صيف شديد الحرارة نسبياً، ونادر الأمطار^(١). ولعل من الجدير بالإشارة : أن الصعيد - وخاصة الجنوبي منه - إنما قد تغير مناخه نسبياً - بعد بناء السد العالى وبحيرته - فلقد أصبح جنوب الصعيد خاصة، يصاب بكثير من الأضرار بسبب السيول التى تحتاحه - فى أواخر أيام الشتاء، وأوائل الربيع، حتى أصبح إنشاء «مخزات السيول» من أولى اهتمامات الإدارة المحلية فى محافظات الصعيد الجنوبية.

(٢) النيل:

كان المصرى القديم - فى عصور الفراعين - يطلق على «النيل» اسم «إيترو - عا» - أى النهر العظيم - وأما لفظة «النيل» فهى تصحيف لللفظة «نيلوس» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر، أما النيل كإله فقد أطلق المصريون عليه - منذ عصور ما قبل الأسرات - اسم «حعبى» ولم يكن «حعبى» هذا هو النهر المقدس، وإنما هو ذلك الإله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء، واعتبرت عبادته حيوية، ورفع عبده أحياناً حتى فوق رع، وقيل إنه منح الحياة للمراعى التى يرعى فيها قطع رع - أو الجنس البشرى - وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء، كما أمدهم بالندى من السماء، وأطلق على «حعبى» والد الآلهة، فأصبح سيد الآلهة على الأرض، وسيد الخصب والخلق، وهو الذى يمدهم بالقرايين التى تقدم لهم فى معابدهم ومن ثم فقد غذى الإنسان، وأيد الأمر الإلهى، وقد صور القوم إلههم «حعبى» فى هيئة بشرية تجمع بين الأنوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك، يلتحنى باللحية التقليدية للآلهة، وله ثديا امرأة وبطن مترهل.

ومن عجب أن هذا الإله، رغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب، قد تبوأ منصب الخادم للآلهة، فكان يصور على جدران المعابد فى صورته هذه

(١) إبراهيم زيادى، المرجع السابق، ص ١١٩.

يقدم خبراته إلى الآلهة الكبرى، وكانت ترتل له الأناشيد فى المناسبات الخاصة، وفيها يمجّد وتعدّد أفضاله على مصر، ومن ذلك : « الحمد لك يا نيل، يا من تخرج من الأرض وتأتى لتغذى مصر أنت النور الذى يأتى من الظلام، عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الأنعام، ويقام لك حفل كبير، وقد أطلق القوم كثيراً من الصفات على الإله «حعبى» فقد كان ربّ الرزق العظيم، ورب الأسماك وخالق الكائنات، وواهب الحياة، وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر فى التوحيد بين النيل كإله وبين أوزير، وكان من بين ما أطلقوا عليه من أسماء «ونن نفر»، وهو من الأسماء المثيرة، كما وجد القوم بين النيل وبين بعض الآلهة الأخرى التى كانت لهم صلة بخصوبة الأرض أو المياه مثل «خنوم» والذى كان يدعى «رب المياه الطاهرة» ولعل السبب اعتقاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الأول، من «إقليم أبو»، إقليم البداية بالنسبة لأرض مصر، حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الأرض فى الصخور الجرانيتية هناك.

وأما صلته بأوزير، فلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى، وأن كهفيه يستمدان مياههما من «نون» (الماء الأزلى)، مياه العالم السفلى التى تمثل معيناً لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن «أوزير» هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات، وقيل كذلك أن حعبى هو الذى يخلق مياه النيل، وأن «أوزير» هو قوة الخصب فيها، واعتبرت المياه فى العقيدة الأوزيرية عرق يدي «أوزير»، وأن دموع «إيزه» هى سبب الفيضان السنوى، وأن «حعبى» قد ساعد فى بعث «أوزير» بإرضاعه من صدره.

ومن عجب أن القوم رغم أنهم كانوا على يقين - منذ الأسرة الخامسة والعشرين - (٧٥٠-٦٦٤ ق.م) من أن أمطار السودان لها دخل فى فيضان

النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الأول (من جزيرة بيجد)، وإن كانت عقيدة التوحيد على أيام مؤسسها «إخناتون» إنما نادى بأن الفيضان إنما يرجع إلى أسباب طبيعية يسيطر عليها الإله آتون، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الأوبمان^(١)، على أن القوم رغم أنهم اعتقدوا بأن النيل هو مصدر الحياة فى مصر وقوتها، لم يشيدوا للإله «حعبى» المعابد والمحاريب، وإن أقاموا الاحتفالات والأعياد التى كانت للإله «أوزير» أكثر منها للإله «حعبى» الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والآلهة سواء بسواء، بل رأوا فيه «أبا الآلهة» و«خالق الكائنات الحية»، ولعل لقب «الحبى» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة، هذا وقد كان من مظاهر «حعبى» كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير، مما يجعل «إيزه» (إيسه) بالتالى امرأته وشريكته، وربما كان من المحتمل عند تقديم القرابين أنها كانت تقدم لأوزير، أعنى «أوزير - أبيس» أو «سيرابيس» فى العصور المتأخرة، عندما كان قدس الأقداس لهذا الإله المزدوج يسمى «سرايوم».

وهناك من النصوص المتأخرة ما يشير إلى أن هناك عيداً سنوياً كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهيبه وعظيمة جداً، احتفالاً بفيضان النيل، كانت تحمل فيه تماثيل إله النيل عالية فى كل المدن والقرى، وعندما يكون الفيضان وفيراً، فإن السعادة إنما تملأ قلوب القوم جميعاً، وتؤدي الصلوات للإله العظيم فى مهابة وإجلال، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة»، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السماء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه.

هذا وقد كان القوم، كما ذكر آنفاً، وقد وحدوا «حعبى» بـ «أوزير»، ومن ثم فإن إيزة تصبح صنواً لأنثى «حعبى»، وإن كان هناك بعض الشك

(1) W Macquity, Island of Isis, Philae. The Temple of The Nile, London 1976.

فى أن آلهات أخرى قد أصبحن فى عصور الأسرات المبكر كزوجات وأخوات لـ «حعبى»، وهكذا كانت «نخبت» القرينة النسائية لـ «حعبى» الخاص بالجانب، ولكنها سرعان ما تحولت فى عصور الأسرات إلى صورة من «إيزة»، وفى الشمال أصبحت «وآدجيت» الصورة المقابلة للإلهة «نخبت» فى الجنوب، هذا وقد اعتبر «حعبى» كذلك صورة من الإله «نون»، التل الأزلى العظيم، الذى اتحدت منه كل الكائنات، وكانت «نوت»، أو إحدى صورها العديدة، شريكته، ويظهر أقدم صورة لهذه الإلهة على أنها «موت» التى ذكرت فى نصوص الملك «وناس»، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى إنما كان يعتبر صورة من «حعبى» إله النيل، ومن ثم يصبح سيداً لآلهات النيل فى الجنوب والشمال^(١).

هذا وينبع «نهر النيل» من درجة العرض ٤ جنوباً، وتنتهى الدلتا - حيث مصب النيل - عند درجة العرض ٣٠ ٣١ شمالاً - أى أن النيل يخترق أكثر من ٣٥ درجة عرضية، وهى ظاهرة فريدة، قلما كان لها مثيل فى أنهار أخرى مما أدى إلى امتداد أقاليم طبيعية مختلفة فى حوض النيل - من النطاق الاستوائى فى الجنوب، إلى حافة النطاق المعتدل (حوض بحر متوسط) فى الشمال - ماراً بأقاليم السافانا، والإقليم الصحراوى.

ومن ثم فقد ربط النيل عدة دول من شرق أفريقيا إلى شمالها الشرقى (تانزانيا - بوروندى - رواندا - الكونغو - كينيا - أوغندا - أثيوبيا - السودان - مصر).

هذا ويبلغ طول نهر النيل ٦٦٧١ كيلاً - ثانياً أطول أنهار العالم، بعد

(1) F. Daumas, Le Civilization de L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, p. 326; Veronica Lons, op.cit., p. 109; E.A.W. Budge, The Gods of The Egyptians, II, 1969, p. 46-48; R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, p.. 8; G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, p. 16-19;

نهر المسيسيبي - وطوله فى مصر ١٥٣٠ كيلا، وطوله فى التوبة - من أدندان حتى أسوان - ٣٢٠ كيلا، وطوله من أدندان حتى القاهرة ١١٨٨ كيلا، ومن أسوان إلى القاهرة ٩٦٥ كيلا، وأما طول فرع دمياط - من القناطر الخيرية حتى البحر المتوسط - ٢٤٢ كيلا، وطول فرع رشيد ٢٣٦ كيلا، هذا ويبدأ نهر النيل فى التفرع من نقطة تدعى «قمة الدلتا» - على مبعده ٢٠ كيلا شمالى القاهرة - فيما بين شمال جبل المقطم شرقاً، وجبل أبو رواش غرباً . .

ويعتبر فرعاً رشيد ودمياط، بقية أفرع الدلتا المندثرة، ويروى «هيرودوت» أن نهر النيل إنما كان يتفرع إلى سبعة أفرع، منها خمسة طبيعية، واثنان محفورتان، وهذه الأفرع المندثرة - التى يعيها هيرودوت هى:

١ - الفرع البويسطى - نسبة إلى تل بسطة، ويعرف الآن باسم «ترعة أبو النجا»، وكان قديماً يصب عند الفرما.

٢ - الفرع المنديسى - نسبة إلى منديس - فيما بين تل الربعة والبقلية، ويعرف الآن باسم «بحر أشمون الرمان»، ويصب فى بحيرة المنزلة.

٣ - الفرع الثانيتى: ويعرف الآن باسم «بحر موسى».

٤ - الفرع الفاطميتى: ويعرف الآن باسم «فرع دمياط».

٥ - الفرع السبىتى: نسبة إلى «سمنود» - ويعرف الآن باسم «ترعة مليج».

٦ - الفرع البلبىتى: وكان جزءاً من الفرع الكانوبى، ويخرج منه عند «الرحمانية»، ثم يجرى فيصب فى البحر الأبيض.

٧ - الفرع الكانوبى: وهو المعروف الآن بفرع رشيد، مطلعه عند رأس الدلتا، ومجراه إلى الشمال، فإذا ما بلغ الرحمانية تفرع إلى فرعين - أحدهما: البلبىتى - وقد مر ذكره - والثانى: يتجه إلى الشمال الغربى، حتى يدنو من هضاب ليبيا، فيصب فى البحر، وكان مجراه مكان «ترعة المحمودية» الحالية.

وأما «سترابو» (زار الإسكندرية حوالى ٢٥ ق.م) فقد ذكر أفرع النيل السبعة - بما يكاد يتفق مع هيرودوت، مع تغيير فى المسميات والاتجاهات - وهى:

- | | |
|---------------------|----------------------|
| ١ - الفرع البيلوزى. | ٢ - الفرع الثانيسى. |
| ٣ - الفرع المنديسى. | ٤ - الفرع الفانتينى. |
| ٥ - الفرع السبنتى. | ٦ - الفرع البلويتى. |
| ٧ - الفرع الكانوبى. | |

وهكذا يتبين أن الحال قد تغيرت كثيراً، عما كانت عليه أيام هيرودوت (٤٨٤-٥٣٠ ق.م). وأن أكثر المصببات التى ذكرها قد عطلتها الرمال فانسدت، ثم انتشرت فيما بين ذلك قنوات صغيرة، لتصريف المياه من الفرعين الرئيسيين - رشيد ودمياط - وإمداد الأرض بالمياه^(١).

هذا، وتشير كتابات العرب أن أفرع النيل قد اندثرت - ماعدا رشيد ودمياط، واللذين بقيا بشكلهما الحالى، منذ القرن العاشر الميلادى، فقد انطمر الفرع المنديسى، وتحول إلى ما يسمى بـ «البحر الصغير»، واطمحل الفين الثانيسى، وأخذ «بحر حادوس» - من أجزاء مجراه القديم - مجرى له، والأمر كذلك بالنسبة إلى بقية أفرع النيل فى الدلتا، فقد توقف امتدادها شمالاً لتصب فى البحر المتوسط، وأصبحت تصب فى فرعى رشيد ودمياط.

هذا وقد تغير موقف «رأس الدلتا» - أو «قمة الدلتا» - حيث تقع الآن عند الطرف الجنوبى لجزيرة الشعير، إحدى الجزر النيلية، حيث يتفرع عندها مجرى النيل إلى فرعيه رشيد ودمياط - وكان يتفرع من مدينة «منف» - على أيام الفراعنة، وعلى مبعدة ٢٢ كيلاً من القاهرة - وقد أصبح الآن عند

(١) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٩٢-٩٣، على شافعى، أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على الكبير، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٠.

الطرف الجنوبي لـ «جزيرة الوراق» فى القرن الخامس الميلادى.

ثم تغير - خلال القرون الماضية - وأصبح فى القرن الخامس عشر الميلادى عند بلدة «شطانوف» .

وقد عمل المصريون الآن على تثبيت موضع «قمة الدلتا» عند الطرف الجنوبي لـ «جزيرة الشعير» ، على مبعده ٢٥. كيلا شمال القاهرة (١).

وعلى أية حال، فإن الجغرافيين إنما يطلقون على نهر النيل فى المنطقة فيما بين الخرطوم (٢) وأسوان اسم «النيل النوبى» حيث يتخذ مساراً معقداً نتيجة ظروف التركيب الصخرى والتضاريس، وهو فى الواقع يكاد يرسم حرف S الإفرنجية، ماراً بعقبات ملاحية عديدة تسمى «جنادل» هى : (أسوان - حلفا - دلجو - مروى - بربر - سيلوكة) (سيلوكة) وهذه الجنادل عبارة عن صخور جرانيتية صلبة تعترض مسار النهر، مما يجعل النهر يتخذ عشرات المسالك الصغيرة حولها فى مسافات تتراوح بين بضعة كيلو مترات

(١) إبراهيم زبادى، المرجع السابق، ص ٧٧-٨٠.

(٢) الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون فى عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد علي باشا» (١٨٠٥-١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهدية (١٨٨١-١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمد أحمد المهدى» (١٨٤٤-١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة الثلاثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففي الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفى أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفى خسرطوم بحرى الورش والصناعة، هذا وقد قام «أركل» فى الفترة (١٩٤٤-١٩٥٠م) بحفائر فى الخرطوم وفى منطقة «شهيناب» ، على مبعده ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنتمى إلى العصر الحجري الحديث، وفى القرن السادس الميلادى قامت فى منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» وامتدت فى كبوشية إلى جنوب الخرطوم. انظر:

A.J. Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105; L.P. Kirwan, in SNR, XX, part 2, 1937, p. 290.

وعشرات الكيلو مترات، باستثناء «سيلوكة» - شمالي الخرطوم - الذي يتخذ شكل خنادق صخرى، ظروف تكوينه لم يقطع فيها برأى حاسم حتى الآن (١).

ويجري النيل النوبي في منطقة صحراوية داخل واد ضيق تحف به الهضاب الصحراوية من الشرق والغرب، وعند مدينة «عطبرة» يلتقى النيل بآخر روافده، هو نهر العطبرة، الذي ينبع من شمال الحبشة إلى الشمال قليلا من بحيرة «تانا»، ويلتقى عند الحدود السودانية برافده العظيم «كازي» ويسير بعد ذلك إلى الشمال الغربي حتى يلتحق بالنيل، وإلى الشرق منه مسجى نهر صغير يسمى «خور القاش» يمكن أن يلحق طبيعياً بحوض العطبرة، وإن كان في غالب الأحيان إنما كان يصب في الصحراء بدلتا مروحية، وبعد التقاء النيل بالعطبرة يواصل مساره إلى الشمال حتى مدينة «أبو حمد» ثم ينحرف في زاوية حادة إلى الجنوب الغربي حتى «الدبة»، ويعود بعدها إلى الاتجاه شمالا، حتى الحدود المصرية (٢)، عند «أدندان»، حيث يجرى في اتجاه شمالي شرق، حتى يبلغ بلدة «الدر» - على مبعده ٢٠٨ كيلا جنوبي أسوان - .

وعند بلدة «الدر» ينحرف النيل صوب الجنوب الشرقي، إلى أن يصل إلى بلدة «نورسكو»، التي ينحني بعد أن يتجاوزها انحناء خفيفة، يغير فيها اتجاهه مرة ثانية إلى الشمال الشرقي حتى يبلغ بلدة «ماريا» التي يجرى بعدها صوب الشمال تقريبا، حتى مدينة «إدفو» (٣).

وفي هذه المنطقة - فيما بين أدندان وأدفو - يجرى النيل في واد ضيق، ينحصر بين حافتين مرتفعتين من الصخور الرملية النوبية، أو «الخرسان

(١) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، أفريقيا: دراسات لمقومات القارة، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٢٥.

(٢) محمد رياض وكوثر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(٣) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٤٣.

النوبى» Nobian Sandstone، وقد استطاعت أمواه النيل أن تحفر لها فى هذا الصخر واديا عميقا، ذلك لأن الحجر الرملى النوبى يتآكل بسرعة بفعل المياه الجارية، ويمتاز وادى النيل فى المنطقة جنوبى أسوان - وعلى مدى ٣٤٥ كيلا - (النوبة السفلى) بأنه ضيق جدا، بحيث لا يزيد اتساعه فى بعض الجهات عن مجرى النهر نفسه (١).

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك «منطقة خائق كلابشة» - على مبعدة ٥٧ كيلا جنوبى لـأسوان - حيث يضيق مجرى النيل ضيقا شديدا، بحيث لا يزيد اتساعه فيها عن ٢٠٠ مترا، وتبدو أشبه ما تكون بـ «المنطق المائى» Water Gap أو «المرزاب»، ذلك لأن مجرى النهر إنما يبدو فيها على شكل «خائق» Gap ولمسافة تبلغ زهاء ٥ كيلا، غير أن اتساعه يبلغ حوالى ٦٠٠ مترا، إلى الشمال منها، ونحو ٥٧٠ مترا إلى الجنوب منها، ويخترق النهر فى خائق كلابشة (٥ كيلا) منطقة من الصخور النارية والمتحولة، ولهذا يتكون سفحا واديه من هذه الصخور، كما يتكون منها قاعه كذلك، ويبدو - فيما يرى البعض - أن منطقة خائق كلابشة كانت، فيما مضى موضعاً لجندل قديم، ثم أزالها جريان النهر (٢).

هذا ويشق نهر النيل مجراه - إلى الشمال من خائق كلابشة - وسط الصخور الرملية، لمسافة ٢٠ كيلا، تعود بعدها التكوينات النارية والمتحولة إلى الظهور مرة أخرى، يشق النهر طريقه خلالها لمسافة تزيد على ٣٥ كيلا يعرف الجزء الشمالى منها باسم «الجندل الأول» - على مبعدة ٧ كيلا جنوبى أسوان (٣)، وطوله ١٢ كيلا، ويمثل العقبة الأخيرة للملاحة فى

(١) محمد فريد فتحى، فى جغرافية مصر، الإسكندرية ١٩٩١، ص ١١٢-١١٣.

(٢) محمد عوض، نهر النيل، ص ١٢٤، محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى «السد العالى»، ذلك أنه فى ١٨٨٩م بدأ بناء خزان أسوان، مما أدى إلى ظهور بحيرة صناعية منسوبها نحو ١٠٦ مترا فوق مستوى سطح البحر

مجرى النهر، حتى البحر المتوسط^(١).

هذا وتضم بلاد النوبة السفلى - غربى وادى النيل - إقليمًا واسعًا، يضم أرضين واسعة، تزيد مساحتها على ١٥ ألف كيلا، وتنحصر بين خطى عرض ٢٢، ٢٤ شمالًا، وتقع فى مواجهة وادى النيل، فيما بين وادى حلفا وأسوان، ورغم أنها فى وقتنا الحالى من أشد جهات العالم جفافًا وقحولة، إلا أن أغلب ملامحها «الجيوغورفولوجية» إنما ترجع فى تكوينها أساسًا إلى أثر عمليات النحت المائى، مما يدل على أن هذا الإقليم إنما كان يشهد عصرًا مطيرًا، يرجع إلى أخريات الزمن الثالث وأوائل الرابع^(٢).

المتوسط، وقد طغت مياهها على أشربة الأرض الزراعية الضيقة فى النوبة، ووصل مستوى الغمر إلى «الدكة»، واضطر الأهالى إلى نقل تجموعهم إلى مناسب أعلى من ١٠٦ م، وفى عامى ١٩١٢/١٩١٣ م تمت التعلية الأولى لسد أسوان، وزادت مساحة البحيرة الصناعية، واضطر سكان النوبة - حتى توشكى، إلى هجرة قراهم، أو إلى بنائها على مناسب أعلى، تعصمهم من الماء، ولكن لا تسمح بمزاولة نشاط زراعى، ثم تكررت التعلية فى عام ١٩٣٤ م بكافة نتائجها، فارتفع منسوب البحيرة إلى ١٢١ م، كما امتدت مساحتها جنوبًا حتى «كاجينارنى» فى السودان، ولمسافة ٣٦٠ كيلا، وإن تمتعت المنطقة ثم توماس، وحتى الحدود السودانية بزراعة نيلية، فضلًا عن المنطقة التى أنشئت بها جسور واقية (أبو سمبل وهلانة وأدندان وقسطل) فاعتمدت على الرى بالسواقي والمنطقة التى أنشئت بها مشروعات الرى الدائم كمنطقة الكنوز.

وأما إنشاء السد العالى فقد أدى إلى إنشاء بحيرة ضخمة تبلغ مساحتها الإجمالية (٥٢٣٧) كيلا، عند منسوب ١٨٠ مترًا، وتأخذ شكلًا طوليًا على نفس النهج الذى كان يتخله مجرى النيل قبل السد العالى، ويصل امتداد البحيرة إلى ٥٠٠ كيلا (منها ٣٥٠ كيلا فى مصر، ١٥٠ كيلا فى السودان) ويتراوح اتساع البحيرة، ما بين كيلو متر واحد، كما فى خائق كلايشة، وعشرين كيلا، بمتوسط يربو قليلا على ثمانية كيلو مترات. (محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٠)، وكذا:

M.F. Akiel, New Light on The Racial Geography of Lower Nubia, Ramses Press, 1956, p. 204-206.

(١) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٢) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٢، وكذا:

M.A. Abdel Salam, Soil of The Lower Nuba Area, in BSGE, 36, 1963, p. 5-

ولعل من أهم السمات التي تسترعى الأنظار فى النوبة السفلى أن هيئة الأرض الطبيعية فيها، إنما تبدو مقطعة بعدد كبير من الأودية الجافة التى ينتهى أغلبها إلى وادى النيل فى الشرق، مثل «وادى كركر» (طوله حوالى ٥٠ كيلا) و«وادى كلابشة» (طوله حوالى ١٠٠ كيلا)، ويستمدان مياههما من الهضبة الجيرية التى يبلغ منسوبها فوق سطح البحر أكثر من ٥٠٠ متراً، كما تتميز سفوحها بوجود سلسلة من المدرجات تقع على مناسيب أعلى بكثير من قاعهما، هذا فضلاً عن مجموعة من الأودية تنحدر صوب النيل شرقاً، وإن كانت لا تعدو أن تكون مجرد مجار قصيرة قليلة المياه، تكاد لا تصل إلى وادى النيل، إلى جانب مجموعة أخرى تنصرف داخلياً، إما إلى منخفض الخارجة أو إلى بحيرات من نوع الشطوط الملحية، تقع على طول حضيض الهضبة الكلسية فى الغرب^(١).

وأما فى النوبة العليا، وعلى حدود السودان الشمالية، فهناك فى «فرس»^(٢) كتيبان رملية يصل ارتفاعها إلى ٩٠ قدماً، وتعتبر عائقاً للملاحة،

(١) محمد صفى الدين، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) فرس: (باخوراس القديمة) وتقع على مبعده ٤٠ كيلا جنوبى الجندل الثانى، وقد عثر فيها على آثار مصرية فى مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهد الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى المصرية، مما يشير إلى اتصال بمصر منذ العصر العتيق، كما عثر فيها على أبنية كبيرة من الدولة الوسطى، وعلى جمارين باسم الملك «كاموزا»، كما شيدت فيها الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م) معبداً للمعبودة «حاتحور»، كما بنى «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) معبداً فى فرس أيضاً، وقد عثرت البعثة البولندية (١٩٦١/١٩٦٤م) على أطلال معبد «تخوتمس الثالث» أسفل الكنيسة التى عثر عليها هناك وبين أن هذا المعبد قد أقيم على أنقاض معبد آخر من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التى عثر عليها فى «تخوت - سر» أن تلك المنطقة كانت مقراً لأسرة حاكمة هناك، كما بنى «حوى» نائب الملك فى النوبة على أيام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧-١٣٣٩ ق.م) معبداً ومستوطنة مسورة.

وكانت فرس العاصمة الإدارية لمقاطعة «أكين»، وتقابل النوبة السفلى اليوم، وقد أظهرت الحفريات بعض المباني الرسمية هناك مثل «القصر الغربى»، وقد قامت فى فرس مملكة «النويادين»، التى أسسها «سلوكو» (حوالى ٥٣٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل

خاصة أثناء فترة انخفاض المياه، وفي منطقة وادى حلفا، على الضفة الشرقية للنيل (من ديرة وحتى الشلال الثانى)، منطقة خصبة.

وهناك - على مدى ١٤٤ كيلا إلى الجنوب من وادى حلفا - توجد منطقة «بطن الحجر» The Belly of Rocks - أكثر مناطق بلاد النوبة جذباً - حيث لا يصلح النيل فيها للملاحة، بسبب اعتراض الصخور الجرانيتية لجراه، حيث تكون أرخبيلاً من أكثر من ٣٥٠ جزيرة، خمسون منها مأهولة بالسكان، ولهم فيها زرع وضرع^(١).

وأما المنطقة التى تقع عند التقاء النيل بالعطبرة - على مبعده ٣٠٠ كيلا شمالى الخرطوم - وعلى مدى ٢٥٠٠ كيلا فى اتجاه الشمال، يسير النيل وسط صحراء تعد من أجف وأقفل صحراوات العالم، حتى ينتهى إلى البحر، والحقيقة أن استمرار سريان الماء فى النيل هذه المسافة الهائلة، دونما أية روافد أو أمطار، إنما يعد شيئاً فريداً، ولا ريب فى أن النيل إنما يفقد الكثير من مياهه بالبخر والتسرب، عبر هذه المسافة الشاسعة، فتصرف النيل الأبيض والأزرق والعطبرة جميعاً فى شهر سبتمبر يساوى قرابة ١٠,٠٠٠ متر مكعب/ ثانية، يصل منها مصر ٧,٦٠٠ متر مكعب/ ثانية، ويهبط هذا الرقم فى أوقات التحريق إلى ٥٣٠ متر مكعب فى الثانية فقط.

ومع ذلك، فالنيل كان - ومازال وسيظل - محور الحياة فى هذا الجزء من حوض النيل، ومن ثم فقد أنشئت المشروعات الهندسية العديدة لضبط مياه النيل وتخزينه، وهى مشروعات تمتد، دونما ريب، إلى عهد بعيد، ومن هنا كان وجود خط منسوب مياه عال على صخور الجندل الثانى لم يجد له

= الثالث، وقد عثرت البعثة البولندية على عدة مباني مسيحية، ومن المؤكد أن فرس كانت وقت ذاك مركزاً للنشاط الفنى بالنسبة للنوبة الشمالية على الأقل. انظر:

T.G.H. James, CAH, II, part 2, 1973, p. 296-298; W.B. Emery, in Kush, 8, 1960, p. 7-10; L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201-202; F. I. Griffith, Oxford Excavations Nubia, L.A.A.A, 8, 1921, p. 83.

(١) والتر أمري، مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة هندوسة، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٧.

الباحثون تعليلاً منطقياً، سوى أن الفراعين إنما قد أنشأوا سداً في «سمنة» و«قمة»^(١).

والواقع أنه من المعروف أن الملك «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣-١٧٩٧ ق.م) قد اهتم كثيراً بتنظيم فيضان النيل، ومن ثم فقد أمر بتسجيل ارتفاع النهر عند القلاع التي أنشأها أبوه «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م)^(٢) في «سمنة» و«قمة» ولا تزال مسجلة في أعمام حكمه (٤)، وهي ٥، ٦، ٧، ٩، ١٤، ١٥، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٣٧، ٤٠، ٤١، وهي التي تزيد فيما بين عامي الحكم ٢٦، ٣٠، قدماً عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم^(٣).

(١) محمد رياض وكوتر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ١٢٥-١٢٦.

(٢) سمنة: تقع على مبعدة ٧٠ كيلاً جنوبى وادى حلفاء، ٣٠ كيلاً جنوب حصن «أرو- نارتي»، وفيها حصن يدعى «خج كار رع - المجل - قوى» على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمناً على النيل، مع الحصن التوأم «قمة» (كمة) على الشاطئ الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى، والحصن بدئ فى بنائه فى عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١-١٩٢٨ ق.م) وأتمه «سنوسرت الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن فى سمنة أيضاً، كما بنى «سنوسرت الثالث» معبداً من الطين للمعبودين «ديدون» و«خنوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»، وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صمود أمام البلى منذ ما قبل البطالة فى وادى النيل بأسره.

وهناك نقش فى سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث عن الإجراءات المشددة التى اتخذت لمنع تسرب النوبيين نحو ملك مصر العليا والسفلى، «خج كار رع»، «سنوسرت (الثالث)» الذى يعطى الحياة أبداً، لمنع أى «نوبى» من المرور شمالاً - براً أو بقارب - وكذا قطعان ماشية النوبيين، ما عدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «أبكن» - على مبعدة ٤٠ كيلاً شمالى حصن سمنة - أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شىء طيب، على ألا يسمح لأية سفينة بأن تعبر «سمنة» (حج) نحو الشمال.

R.A. Caminos, Kush, 12, 1964, p. 85; J.H. Breasted, ARE, II, p. 293; G. Reisner, Excavations at Simna, and Uronarti, SNR, 21, p. 143-161; G. Reisner, The Egyptian Forts From Halfa To Semna, Kush, 8, 1960; D. Dunham, Semna - Kumma, Boston, 1960.

(٣) جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الرابع، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٨٠ (مترجم)؛ وكذا:

J. Vercontter, Semna, South Fort and The Records of Nile Levels at Kumma, Kush, 14, 1966, p. 125-164

وكان يظن أنه أقام هناك خزاناً رفع من المستوى إلى ذلك الحد، ولسنا نعرف سبباً لانخفاض مستويات النهر خلال الثلاثين قرناً الماضية^(١).

وهناك من يعلل ذلك بأن الفيضان في تلك السنين، ربما كان أعلى منه اليوم، أو أن مجرى النيل هناك قد انخفض من جراء التعرية والتآكل وشدة الانحدار وسرعة المياه، وكانت هناك صلة بين تدوين هذه المناسيب وبين «سد الفيوم»^(٢) الذي أنشأه أمنمحات الثالث، ذلك لأن هذه المناسيب الموجودة على مبعدة ٧٠٠ كيلومتر من الفيوم، فكانت لها أثرها في تقوية هذا السد، وتقدير المياه قبل وصولها إليه وتنظيمها^(٣).

وعلى أية حال، فلكن كان النيل وسيلة يعتمد عليها في اجتياز هذه المناطق الصحراوية، فإن المرحلة ليست بالسهولة التي تبدو عليها لأول وهلة، لأن الجنادل المتتالية من أسوان حتى مشارف «أم درمان» تجعل رحلة الصعود في النهر من الشمال إلى الجنوب صعبة لدرجة تستحيل معها الملاحة تماماً في بعض الأحيان، فضلاً عن انحناءات النهر الهائلتين في تلك المنطقة تزيد من طول المسافة زيادة كبيرة، وقد تمثلان أحياناً صعوبة كبرى وعلى سبيل المثال: فإن النيل فيما بين «أبو حمد» و«وادي الملك» (الملك) يجري نحو الجنوب الغربي بدلاً من الشمال، بحيث تضطر حركة الملاحة الصاعدة في النهر إلى مجاهدة الرياح والتيار معاً، قسماً كبيراً من العام، وإن كانت رحلة الهبوط في النهر أسير كثيراً بطبيعة الحال.

ومع ذلك فإن النيل كان وما يزال طريقاً ملاحياً ممتازاً - باستثناء منطقة الجنادل - وهذا يعني أن هناك طريقاً ملاحياً لمسافة ألف كيلو من المصب حتى الجنادل الثاني، وحوالي ألف وخمسمائة كيلو، أو أكثر، من الخرطوم

(١) نجيب ميخائيل، مصر ١/٣٤٩.

(٢) انظر عن «سد الفيوم»: محمد بيومي مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٣٦٩/٢-٣٧٣.

(٣) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٩٥.

إلى «جوبا»^(١) - عاصمة المديرية الاستوائية.

بقيت الإشارة إلى الجملة التي نسبت خطأ إلى «هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ ق.م) والتي تقول «إن مصر هبة النيل» Egypt is The Gift of The Nile، والخطأ في العبارة أن «هيكاته الميليتي» (زار مصر حوالي ١٥٠ ق.م) هو صاحب هذه العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» والتي ردها «هيرودوت» من بعده، ثم نسبت إليه^(٢).

هذا فضلا عن أن مصر، ليست هبة النيل وحده، وإنما هي هبة المصريين كذلك، وإلا فالنيل يمر بثمان دول - غير مصر - فلماذا لم تصبح هذه الدولة «هبة النيل» كمصر؟

وعلى أية حال، فلقد كان النيل - عند المصريين القدامى - إنما يكون العنصر الثاني - بجانب تربة مصر ومناخها - الذي كان سبباً في إيمان القوم بالبعث والخلود فقد كان فيض النيل يأتي دائماً في مواعده، فما أن تقبل شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتمد الحقول بالمياه والطمي الجديد، وكان النيل دائماً يسر بوعده ولم يقصر في مد تلك الحقول بما يبعث فيها الحياة، فكان انتظامه سبباً في غرس شعور الثقة في نفوس القوم، وبث مولده المتكرر في نفس المصري عقيدة راسخة، إنه في استطاعته هو الآخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية، ولا يمكننا أن ننكر أن كثيراً ما حدث أن النيل قد قصر في مجيئه وهبط عن معدله الطبيعي، وحينئذ تكون الشدة التي قد تصل إلى المجاعة، ولكنه لم يقصر أبداً إلا لفترة محدودة، كان يعود بعدها وقد حمل في وطابه الخير العميم، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام في موسم لا يخلفه، فيخصب التربة وينبت البذرة، ودفع دورة الحياة الزراعية دفعة جديدة، وسرعان ما تتابع الدورات إلى ما لا

(١) محمد رياض وكولر عبد الرسول، المرجع السابق، ص ١٢٧، ٤١٩.

(٢) إبراهيم زيادى، المرجع السابق، ص ٧٧-٨٠، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤١.

نهاية، وقد وجد القوم أن ذلك إنما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التي تغطيها المياه ثم سرعان ما تنحسر عنها فتحي وتزدهر، ثم تعود فتفرقها (أى تميتها) من جديد، ثم سرعان ما يتكرر الأمر كله مرة ثانية.

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائياً من غير علة أو غاية، وإنما آمنوا معها برّب كريم يدفع الفيضان من باطن الأرض، ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد الموت كلما مسها بفيضه ورحمته، ومع طول التدبر ونحو التدبّر قدروا أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها، قادر من غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم، طالما أحبهم، وطالما تقربوا إليه وقدموه، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر منهم رباً للفيضان والخصب والزراع وقد سموه باسم «أوزير»، كان هو نفس المعبود الذى نسبوا إليه ربوبية البعث والآخرة، وجعلوا مملكته تحت الأرض، وامتد تقديسهم له فى طول البلاد وعرضها، وأحاطوه بأساطير وتخييلات، وهو غير «حسمى»^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مصر إنما كانت - فى بعض الأحيان - عرضة للمجاعات، وفترات من التدهور فى الإنتاج الزراعى والحيوانى - على مر العصور - وذلك من اضطراب النيل وامتناع فيضعه، وإخلاله بالوفاء - كما تعود وتعود منه الناس كل عام - فإذا تدهور وأقام على نقائصه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تتحرق شوقاً إليه، وتنتظر العام كله أو جلّه للقاءه، فعندئذ فلا رى ولا استنبات، ثم لا زرع ولا ضرع، فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد^(٢)، والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد فى العالم تتوقف حياته ووجوده، مصيره، ومستقبله، فى السلم أو فى الحرب، أو يرتبط سكانه وتاريخه بنهر، مثلما تفعل مصر والنيل، ومن ثم فإذا بالغ النيل

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (مصر والعراق)، ص ٣١٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٥.

فى فيضه أحياناً، فتعظم أمواجه وتضرى أمواجه، فإذا هو يندفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شىء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سىء المغبة، وإن لم يبلغ ذلك فى سوته مبلغ نقص الماء، ذلك أن النهر إن هبط عن معدله الطبيعى، فهى «الشدة» التى قد تصل إلى «المجاعة»، وإذا كان الفيضان المغرق يعنى «الطاعون»، فإن المجاعة، كانت تعنى «الموتان»، الذى يصل إلى حد ينشر معه الطاعون بدوره، بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة^(١).

على أن انحباس النيل ونضوب موارد الدولة، إنما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسى، وتحلل السلطة المركزية، وتدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً، وشقاء متصلاً، يحل بالناس فيترك فى نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحي أو لا يكاد يمحي^(٢).

ويحدثنا المتنبي «نفرتى» عن عدم فيضان النيل على أيام الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة، فيقول: «لقد جف نيل مصر حتى ليخوضبه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن، فيجدون أن الطريق قد صار شاطئاً، وأن الشاطئ قد صار ماء»^(٣)، ومن ثم فقد رأينا من نفس الفترة، شريقاً من الصعيد، هو «عنخ - تيفى» حاكم «نخن» (البصيلية، مركز إدفو، بمحافظة أسوان) - يتحدث عن سنى المجاعة^(٤).

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٤١-٢٤٥.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) Adolf Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p.

113.

(٤) تعرضت مصر لكثير من المجاعات فى العصور الوسطى، كالتى حدثت فى ولاية عبد الله بن مروان فى عام ٨٨٧هـ/٧٠٦م، وكالتى حدثت فى عهد الإخشيديين فى أعوام (٣٢٩هـ/٩٤٠-٩٤١م)، (٣٣٨هـ/٩٤٩م)، (٣٤١هـ/٩٥٢م)، (٣٤٣هـ/٩٥٤م)، (٢٥١هـ/٩٦٢م)، ولعل أشهر وأبشع المجاعات ما سجله البغدادى (١١٦٢-١٢٣١م) أثناء «الشدة المستنصرية» =

فى مقبرته بالمعلا^(١)، فيقول أنه أمد خلالها مدناً أخرى - إلى جانب مدينته - بالهبات والقمح، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» - فى مقابل قنا عبر النهر - وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كاد يموت جوعاً، وكان كل رجل فيه يفتال أطفاله^(٢).

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير، إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف، ومن يسرهم لعسرهم، ومن رخائهم لشدتهم، وكانت حكمة الملوك وحكام الأقاليم وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون^(٣)، ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط، على أيام الأهناسيين (حكام الأسرتين التاسعة والعاشر) يتحدث عن جهوده فى القضاء على الأزمة الاقتصادية، بأن قدم هدية لمدينته، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفلاخون منها أرضهم ويسقوا زرعهم، ثم يقول: إننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها،

التي بدأت عام ٤٥٧هـ واستمرت سبع سنين متصلة فى أخريات الدولة الفاطمية، وبلغ من قسوة براها، أكل الناس القطط والكلاب ثم الجيف، ثم أكلوا بعضهم بعضاً، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان، لا يملك قارئ البغدادى إلا أن يتصوره فناء كاملاً، أو شبه كامل (انظر: جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥، محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ١٧١/١-١٧٥، (القاهرة ١٩٧٠)، المقرئى، إغالة الأمة، ص ١١ وما بعدها، الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاء، ص ٥٩، بيروت ١٩٠٨، السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ١٥٤/٢، القاهرة ١٣٩٩هـ).

(١) تقع بلدة المعلا على شاطئ النيل الشرقى فى منتصف المسافة تقريباً بين إسنا وأرمنت. وعلى بعد ٣٢ كيلاً جنوبى الأقصر، وكان صاحب المقبرة هو «عنخ - تيفى» حاكم نخن، فهل هذا يعنى أن مقاطعة نخن كانت حدودها الشمالية تمتد حتى المعلا شمالاً؟.

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1961, p. 111.

(٢) أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.

وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى، وملأت المراعى بالماشية^(١).

ويتحدث «إمينى» أمير بنى حسن - فى مقابل أبو قرقاص عبر النهر - عن دوره فى القضاء على هذه المجاعة، فيقول: «وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضى الإقليم، من حده الجنوبى إلى حده الشمالى، وأبقيت الأهالى أحياء وأعطيتهم طعاماً، حتى لا يوجد بينهم جائع واحد، وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المتزوجة^(٢)، وعلى نفس طريقة «إمينى» يقص علينا أمراء «حتنوب» من أن الواحد منهم إنما كان قد «أنقذ الأرملة وواسى المتألم وأطعم الطفل، وعال مدينته فى زمن القحط، وأطعمها أيام المجاعة، وهو الذى زودها بسخاء بلا تفرقة، فكان عظماء مدينته كغيرهم فى ذلك^(٣)».

وفى مدينة الكاب - مقابل نخن على ضفة النيل الشرقية، وعلى مبعده ١٩ كيلو متراً شمال إدفو - نرى أميرها «ببى» من الأسرة الثالثة عشرة، التى سبقت قليلاً عصر يوسف الصديق والهكسوس؛ يقول: لقد كنت أكس القمح الجيد المطلوب، وكنت يقطاً فى فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت مدينتى القمح فى كل مجاعة^(٤).

على أن العلماء على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر القديمة، إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر من جزيرة سهيل جنوبى أسوان، ولئن كان الخبر

(١) محمد ييوى مهران، الثورة الاجتماعية فى مصر الفرعونية، ص ١٢٨-١٢٩. وكذا:

J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906, I, p. 181; J.

Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Le Caire 1936, p. 101 F.

(2) P.E. Newbery, Beni Hasan I, London, 1883, PL. 8, p. 27; J.Vandier, op.cit., p. 111.

(3) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 214.

(4) J. Vandier, op.cit., p. 114.

منسوبا إلى حكم الملك «زوسر» - ثاني ملوك الأسرة الثالثة - فالذى لاشك فيه أنه إنما نقش في تلك الجزيرة بعده بعشرين قرناً من الزمان، نقشه كهان «الإله خنوم» على عهد البطالة في مصر، ولعلهم نقشوه في عهد بطليموس العاشر في أكبر الظن.

هذا، وقد وقف العلماء على ما ورد في هذه المجاعة من أنها حلت بمصر سبع سنين، وفي أن الملك «زوسر» دعا وزيره الحكيم، «إيمحوتب» ليستفتيه في تلك النازلة التي أحزنته، وليعلم علم هذا الذى أصاب النيل فحبسه عن الجبىء في عهده سنين سبع، فذوت الحبوب وصوحت الثمار، وقلت الأقوات، حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس، فلم ترفأ لطفل أدمعه، وأقام الشباب على الانتظار، على حين امتلأت القلوب أسى، فانهنوا على أطرافهم مدقعين، واشتدت الحاجة برجال الحاشية، وغلقت المعابد، وعم الحزن الناس.

ويروى النص أن الملك «زوسر» كتب إلى حاكم أسوان يستشيريه فيما يجب عليه للاخلاص من هذا الخطب، وأى الآلهة أولى باستدراار العطف، فأشار: «إنحاكم بأن «الإله خنوم» هو الذى يأتى بالنيل الطيب والنيل الردى، ويأتى الملك إلى «أسوان» ليشهد «خنوم» الذى يقرر فى رؤيا للملك أن إهمال شأنه إنما كان سبباً لما حاق بالبلاد من مصائب، ووعد بالخير إن عنى بشأنه، ويصدر الملك أمره بأن توقف عليه الأراضى الواقعة على ضفتى النيل، فيما بين جزيرة سهيل والدكة فى بلاد النوبة - أى على مدى مرحلة طولها فيما بين ١٢٨، ١٤٤ كيلاً^(١).

(١) شبيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ١٥٠، الإسكندرية ١٩٦٦،

أحمد عبد الحميد يوسف، المرجع السابق، ص ٥٩-٦١، وكذا:

P. Barguel, La Stele de la Famine a Sehel, Cairo, 1954. ; A. Wilson, The Tradition of Seven Lean Years in Egypt, in ANET, p. 31-32; A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 76; J. Vandier, op.cit., p. 132f.

فالنص إذن، إنما يتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين، وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة، وعن حلم رآه، وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد، وأن كهّان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة إنما كانوا تحت تأثير ما كان شائعاً يومئذ من أصداء الماضي السحيق، وبما ورد في التوراة من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ من يهود بخاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة إنما كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤-٢٤٦ ق.م)، وأن هناك جالية من يهود إنما كانت تقيم في اليفاتين (جزيرة أسوان)، وتطل من حيث الموقع على سهيل، وإن كان كهنة «إبزة» في فيلة إنما يقدمون نصاً آخر يقررون فيه أن الملك «زوسر» قد وهبهم نفس البقعة التي يزعم أصحاب «خنوم» أنها إنما كانت هدية الملك لهم ومنحته لإلههم (١).

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٥٠، أحمد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٦١، محمد

يومي مهران، مصر ١١٠/٢-١١٢.

الفصل الثانى

مصادر الدراسة

لا ريب فى أن المصادر هنا، إنما تنقسم إلى قسمين: الواحد: مصادر عامة تتصل بالتاريخ المصرى القديم، والثانى: مصادر خاصة تتصل بموضوع البحث - الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة -.

أولاً - المصادر العامة .

تعتمد الدراسة فى تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هى: الآثار المصرية، وما كتبه الرحالة والمؤرخون من الأغارقة والرومان، الذين زاروا مصر، وكتبوا عنها كتباً كاملة، أو فصولاً من كتب، ثم المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وأخيراً ما جاء فى التوراة والقرآن الكريم عن مصر وأحوالها، ولنحاول الآن أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المصادر الأربعة:

١ - الآثار المصرية:

لا ريب فى أن الآثار التى تركها لنا المصريون القدماء، وما تمد به أتباعهم فى تاريخ الكنانة من معرفة، سطرت على جدران المعابد والمقابر والأهرامات، والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها، إنما هى المصدر الأول لتاريخ مصر القديمة، فهى تتحدث عن الكثير من أخبار القوم، وتروى معلومات هامة عن عقائدهم وفنونهم.

وفى الواقع، فإن الآثار المصرية - التى تتضاءل بجانبها آثار أى بلد آخر - إنما تمتاز بوفرة هائلة، ترجع (أولاً) إلى العقيدة الدينية التى قضت أن يتزود القوم لحياتهم الأخرى، على نحو ما كانوا يفعلون فى حياتهم الدنيا، وترجع (ثانياً) إلى تقدم المصريين فى الفنون والصناعات والبناء، مما أتاح لهم أن يشيدوا تلك الثروة الهائلة من التراث القومى المنقطع النظير، وترجع

(ثالثاً) إلى جفاف مناخ مصر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار، فضلاً عن صيانة الأجساد، صيانة لا يمكن أن توجد فى الأحوال الطبيعية فى أى جزء آخر من العالم^(١).

على أن الباحث إنما يلاحظ على هذا المصدر الأصيل عدة نقاط ضعف، منها (أولاً) أن كثيراً من الآثار إنما هو صادر عن المقابر أو المعابد، ومن هنا فقد كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها دينى، ومنها (ثانياً) أن كثيراً من هذه الآثار، إنما قد كتب بأمر من الملوك - أو بوحى منهم - فإذا تذكرنا أن الملك فى العقيدة المصرية إنما كان إلهاً أكثر منه بشراً، وجب علينا أن نكون على حذر فيما ترويه عن الحروب بين مصر وجيرانها، ذلك أن المصريين كانوا لا يستسيغون أن يهزم «الملك الإله» فى حرب خاض غمارها، ومن ثم فإن النصر يكاد يكون حليفه فيها دائماً، وقد تكون الحقيقة غير ذلك^(٢).

وهنا وجب على الباحث أن يقارن هذه النصوص بما يعاصرها من نصوص الدول الأخرى، ذات الصلة بهذه الأحداث، حتى يتبين وجه الحق فيها - قدر استطاعته - ومن أمثلة ذلك، موقعة قادش التى دارت رحى الحرب فيها حوالى عام ١٢٨٥ قبل الميلاد، بين الفرعون «رعمسيس الثانى» والملك الحيثى «مواتيلا» وزعم فيها كل منهما أن النصر كان من نصيبه، غير أن الحقائق التاريخية - فيما أظن - إنما هى فى جانب فرعون، وليس مع الملك الحيثى^(٣).

(١) جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٦١، ص ١٨٥ محمد جمال الدين مختار، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، مصادر التاريخ الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص ٨٣.

(٢) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢.

(٣) محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٣٢-٢٣٧، وكذا:

ومنها (ثالثاً) أن هذه المصادر تتفاوت فيها المعلومات المتصلة بشطرى الرادى، ذلك لأن جلها إنما هو صادر عن الصعيد، بعكس الدلتا التى قدمت القليل، ومع ذلك فإن هذا التعميم عرضة للاستثناء بالنسبة لمدينتى تانيس وبوباسطة، اللتين قدمتا نتائج هامة، وإن كان معظمها آثار من الحجر، الذى استطاع أن يقاوم عامل الماء، شأنه فى ذلك شأن المعابد الرائعة فى الصعيد، التى تقوم على الأرض الزراعية على مرمى حجر من النيل.

ومنها (رابعاً) أن هذا المصدر الوطنى إنما يعيبه كذلك أن تسعة أعشار الحفائر إنما تمت فى الصحراء، بحيث شاد القوم «مساكن الأبدية»، حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الأشياء عرضة للتلف، ومن هنا كان المظهر الجزئى السائد لمعظم ما يعثر عليه، وأما مساكن الأحياء التى كانت تبنى عن قصد من مواد أقل قدرة على الاحتمال، فكانت تقوم فى وسط الأرض الزراعية، فالمدن والقرى النائية اليوم مبنية فوق أنقاض العصور السابقة، وعندما كانت تنهار المنازل المبنية من اللبن كانت تحل محلها منازل أخرى تقام قوتها، وهكذا يرتفع مستوى الأرض مرة بعد أخرى فوق منسوب الفيضان، وقد أدى ذلك إلى ندرة الآثار المتعلقة بالحياة اليومية، ونواحي النشاط الدنيوى، ومع ذلك فإن جزالة التعبير، والثراء فى اللمسات الإنسانية فى المستندات المصرية، تفوق نظائرها كثيراً من بلاد الشرق الأدنى القديم^(١).

ومنها (خامساً) أن السجلات الرسمية من أعمال الفراعين فى الدولة القديمة تكاد تكون غير قائمة، ذلك لأن الملوك كانوا آلهة متعالين إلى أبعد الحدود، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون برواية أعمالهم حتى تصل إلى

A. Burn, JEA, 1921, p. 194-195; A.H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford, 1960, p. 6-9; H. Goedick, Consideration on The Battle of Karesh, JEA, 52, 1960, p. 72-80.

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 52-53.

رعايائهم، وكانت الأهرامات كافية لتقوم شاهداً على عظمتهم. ونفس الشيء - مع درجة أقل - يمكن أن يقال عن الأسرة الثانية عشرة^(١).

ومنها (سادساً) ندرة الآثار التي ترجع إلى بعض العصور المظلمة، ولعل أسوأ المراحل جميعاً ما عرف باسم «العصر الوسيط الأول» (الأسرات من السابعة إلى العاشرة) والثاني (الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة)، ثم ما بين الأسرات، من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين، مما يجعل تسلسل الأحداث في التاريخ الفرعوني غير مضطرد، تتخلله فجوات لا بد من الاستعانة في مثلها بمصادر أخرى ومنها (سابعاً) أن زادنا من النصوص التاريخية إنما يتوقف - قلة وكثرة - على مدى النجاح الذي استتمت به مصر من وقت لآخر، وعلى مدى استقرار الأمور، وسطرة الحاكمين فيها.

ومنها (ثامناً) أن النصوص المصرية - في غالبيتها - صعبة الترجمة، عسيرة التأويل، لم ينشر الكثير منها، أو لم يترجم ترجمة دقيقة، وهى، على أية حال، مبهمة بصفة خاصة، فيما يتعلق بالعقائد الدينية والطقوس الجنزية، ومنها (تاسعاً) أن المصريين - شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب القديمة - لم يعرفوا التواريخ المطلقة، ولم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون إليها الأحداث، مما جعل مهمة الباحث صعبة وشاقة فى تاريخ العصور الفرعونية، بخاصة إذا ما تذكرنا أننا نتناول حضارة تمتد لآلاف السنين، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة.

ومع ذلك كله، فإن الآثار - مصدرنا الأول - إنما تمتاز عن غيرها من المصادر الأخرى، بأنها المصدر الوحيد الذى عاصر الأحداث والذى أشركه المصريون - عن قصد أو غير قصد - فى الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم^(٢).

(1) Ibid., p. 55.

(٢) محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٣، ٩١ وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit, p. 56.

هذا ولعل أهم ما عثر عليه بين تلك الآثار - من وجهة النظر التاريخية - ما عرف بقوائم الملوك، وهي كشف أرخت لبعض الفراعين، ولما سبقهم من عصور^(١)، فعند الأسرة الخامسة (حوالي ٢٤٨٠ - ٢٣٤٠ ق.م) نرى آثاراً تسجل عليها أسماء الملوك وسنى حكمهم وأهم أعمالهم، وكانت آثارهم لم يقتصرُوا فيها على ترتيب الملوك ترتيباً زمنياً وحسب، بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم، كما أنهم لم يقتصرُوا فيها على العصر التاريخي، بل أرخوا كذلك لملوك فجر التاريخ، رغبة في تخليد الملكية المقدسة، وليصلُوا الفراعين بأسلافهم من الأرباب الذين أورثوهم عرش الكنانة.

غير أن المعلومات التي أعطتها هذه القوائم متباينة أحياناً، كما يعوزها الطابع العلمي أو التاريخي، هذا فضلاً عن أنها لم تقدم لنا شيئاً عن النواحي الحضارية أو الثقافية، مما جعلها محدودة الفائدة، وربما كان السبب في ذلك أن معظمها إنما يتصل باحتفالات دينية تتصل بالملكية، وأخيراً فإنها لم تقدم لنا إلا القليل عن التاريخ السياسي كالحروب والغزوات، وذلك لأن الحوادث التي كانت تحتل المكانة الأكثر أهمية فيها إنما كانت أوجه النشاط السلمية كالشعائر الملكية والرحلات وتشييد المباني^(٢).

وأما أهم هذه القوائم الملكية فهي: حجر بالرمو، وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة، وبردية تورين.

(١) بدأ التاريخ للفراعنة في بادئ الأمر، على بطاقات صغيرة من العاج أو الخشب، ثم ما لبث أن تحول إلى التفصيل والإسهام على اللوحات الحجرية وعلى أوراق البردي وفوق جدران المقابر والمعابد، وقد هدفت هذه التسجيلات إلى تخليد ذكرى الملوك، فوصفت الأعياد الملكية، وما قام به الفراعين من جلائل الأعمال، وما قدموه لآلهتهم من قربان، فضلاً عما تناولته من الأحداث السياسية، كحادث توحيد البلاد، وطرد الهكسوس من مصر، كما أسهمت نصوص المعابد وأوراق البردي في تسجيل حروب الفراعين العظام من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني والثالث. (محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٧).

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 63.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى مؤرخنا الوطنى «مانيتو» آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين، والذي يعدّ، أعظم مؤرخ أنجبته مصر القديمة.

ومن أسف أن أصل اسم «مانيتو» المصرى لم يعرف بعد، وإن عرفنا أن المتأخرين دعوه «مانيتون»، ويفترض «الكسندر موريه» (١٨٦٨-١٩٣٨م) أنه كان اسماً يتداخل فيه اسم المعبود مونتو، رب الحرب، ويظن البعض أنه بمعنى «الراعى» أو «السائس»، وأنه قد ولد فى «سمنوده» (ثب نشر = سيينتوس) وعاش فى الفترة (٣٢٣-٢٤٥ ق.م)، وربما قد وصل فى السلك الكهنوتى إلى منصب الكاهن الأكبر فى «أون» (هليوبوليس)، وأنه قام بدور هام فى نشر عبادة «سرابيس» ليكون معبود المصريين واليونانيين على السواء^(١).

وكان مؤرخنا الوطنى ملماً باللغة المصرية القديمة، وعلى معرفة تامة باللغة اليونانية، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده، مما ساعده على كتابة تاريخه حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤-٢٤٦ ق.م) بصورة أفضل كثيراً ممن سبقوه، ولعل الذى دفع «مانيتو» إلى القيام بهذا العمل هو الرغبة فى إظهار الحقائق التى مسخها المؤرخ الإغريقى «هيرودوت» فى كتابه الذى كتبه قبل «مانيتو» بما يقرب من قرنين من الزمان، أو أن «بطليموس الثانى» أراد أن يستفيد من علمه، فكلفه بكتابة تاريخ مصر.

وأياً ما كان السبب، فإن مانيتو قام بكتابة تاريخ بلاده فى ثلاثة أجزاء باليونانية تحت عنوان «أجبتياكا أيو منيماتا» وخلص منه بموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك، مصحوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود، معتمداً فى

(١) أحمد فخرى، الموسوعة المصرية ٣٥٨/١، عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٤، عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٣٦.

ذلك على بعض الأسانيد المكتوبة، والقصص المروية، مستفيداً في الوقت نفسه بأساليب أسلافه، مجدداً فيها.

ويقسم مانيتو مؤلفه - التاريخ الكامل لمصر - بعد حكم الآلهة وأنصاف الآلهة، إلى إحد والثلاثين أسرة، من العائلات الملكية، تبدأ بالملك «ميناء»، وتنتهى بغزو الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٢ ق.م، ورغم عيوب هذا التقسيم إلى أسرات، فإنه اتخذ جذوراً ثابتة في دراسة «علم المصريات» Egyptology، ورغم أن بعض المؤرخين المحدثين ينتقدونه كثيراً، إلا أنه لا يوجد تقسيم آخر أكثر منه صلاحية.

هذا فضلاً عن أن «مانيتو» في تقسيمه للأسرات التي تشمل التاريخ الفرعوني كله، قد اعتمد على معلومات صحيحة وصلت إليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها، وذلك لأنها تتفق وما جاء في بردية تورين، كما أشرنا من قبل.

وفوق ذلك كله، فإن تاريخ مانيتو إنما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر في عصورها الفرعونية، مدونة بنطقها الإغريقي الذي كان سائداً على أيام مانيتو، كما أنه لم يقتصر في تاريخه على الحياة السياسية، وإنما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فأصاب الحقيقة في كثير من الأحيان. وإن كان قد ضل عنها، وكساها بثوب المبالغة والأساطير، في أحيان كثيرة^(١).

هذا فضلاً عن أن تاريخ مانيتو، لم يبرأ من فترة حكم الأرباب، هذا إلى جانب المبالغة أحياناً في سنى حكم الملوك، كما تبدو فيه خلافات كثيرة في الأسماء المؤكدة تماماً، ففي الصورة التي وصل إلينا بها الكتاب،

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧، وكذا:

J. Balkie, A History of Egypt, I, London, 1929, p. 54; W. G. Waddlie, Manetho, With an English Translation, Cambridge, London, 1940; A. H. Gardiner, op.cit., p. 46-48.

إنما نلتقى بأشياء غير مضبوطة بدرجة واضحة، تصل إلى ذروتها خلال الأسرة الثامنة عشرة، حيث الأسماء والتسلسل التاريخي أصبح معروفاً لدينا من مصادر أثرية لا يرقى إليها الشك، ومع ذلك فإن كتاب مانيتو ما يزال يسيطر على دراسائنا، ولا يمكن الاستغناء عنه، وربما يخيب لنا بعض المفاجآت، كما حدث منذ بضع سنوات، حين عثر فجأة على اسم ملك مجهول يدعى «نفر خيرس» - كان قد وضعه في الأسرة الحادية والعشرين - على إناء صغير من تانيس^(١).

وأيما ما كان الأمر، فما يؤسف له حقاً، أن تاريخ مانيتو الأصلي قد فقد في حريق مكتبة الإسكندرية عام ٤٨ قبل الميلاد، على يد «يوليوس قيصر»، ولم يعثر حتى الآن على أية نسخة منه - كاملة كانت هذه النسخة أو ناقصة - وكل ما وصلنا منه مقتطفات مختصرة أحياناً، ومبتورة أحياناً أخرى، ذلك لأن كتاب الإغريق لم يهتموا كثيراً بكتاب «مانيتو»، نظراً للروح الوطنية التي تميز بها، ومن هنا لم نعثر على أى صدى له في كتابات المؤرخين الإغريق.

هذا هو المصدر الأول - الآثار - لدراسة تاريخ مصر القديم، ولكنه - في أغلب الأمر - تاريخ سياسي، وهو لا يساعدنا في كل الأحوال على معرفة ما كان عليه الشعب، أو ما كان من تطورات في المجتمع أو في الفنون المختلفة أو في المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام، وهي جميعاً على أكبر جانب من الأهمية لفهم الحضارة المصرية، ولدينا - والله الحمد - مصادر لا حصر لها تساعدنا على تلك الدراسة، وتمدنا بالكثير من المعلومات، فالمتاحف في جميع أرجاء العالم تمتلئ بما خلفته الحضارة المصرية القديمة، من تماثيل ولوحات وتوابيت وحلى وأوان وأدوات منزلية، وأدوات الصناعات، وذوى الحرف المختلفة، هذا فضلاً عن التعاويذ والتماثيل وقراطيس البردى وغيرها، وعليها

(1) P. Monter, Tanis, Paris, 1942, p. 164; A.H. Gardiner, op.cit., p. 47.

الكتابات المختلفة، بعضها قطع أدبية، والآخر نصوص دينية أو سحرية، وبعضها يحتوى على نصوص طبية (بردية أدوين سمث الجراحية، بردية أبرس، بردية برلين الطبية، بردية تشستر بيتي الطبية، بردية كاهون، بردية لندن، بردية هرست)^(١) أو رياضية (بردية رند) أو هندسية.

ثانياً - كتابات المؤرخين القدامى

من اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين - السادس قبل الميلاد، والثاني بعد الميلاد - بزيارة عدد كبير من الأغارقة لمصر - مؤرخين كانوا أم رحالة - وشجعهم على ذلك : أن مصر قد بدأت منذ الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤-٢٢٥ ق.م) تستخدم كثيراً من الأيونيين والكاريين والإغريق كجنود مرتزقة في جيوشها، وزيادة العلاقات التجارية بينهم وبين مصر، هذا فضلاً عما سمعوه عن حكمة مصر وثرائها وآثارها إلى جانب ما تواتر عن صلات أسلافهم في آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه بمصر، فضلاً عن الامتنان والاحترام الشديد للبلد الذى ذكرت «أوديسة هوميروس» أنها «بلد الأطباء» أحكم أهل العالم، وما تواتر إليهم ورووه من أن حكمتها كانت الملهمة للمشرع «سولون»، والفلاسفة طاليس وبيتاجوراس وأفلاطون وبودكسوس وغيرهم.

على أن الباحثين إنما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الأغارقة والرومان عدة نقاط ضعف، منها (أولاً) أن البعض منهم قد تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم، إلا أن كثيراً منهم إنما قد أساءوا فهم ما رأوه، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه، أو وقعت عليه أبصارهم، ومن هنا فإن المؤرخين المحدثين إنما ينظرون إلى هذه

(١) انظر: حسن كمال، الطب المصرى القديم، أربعة أجزاء، فى مجلدين، القاهرة ١٩٦٤.

الكتابات بعين الحذر، ومنها (ثانياً) أن أصحاب هذه الكتابات إنما قد زاروا مصر في أيام ضعفها، وفي عصور تأخرها واضمحلالها، ولو أتاحت لهم الظروف زيارتها خلال عصور نهضتها وفي أيام مجدها، لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم.

ومنها (ثالثاً) أن إقامة هؤلاء الكتاب كانت في أغلب الأحيان في مدن الدلتا، حيث اتخذت الحياة طابعاً خاصاً، به مسحة أجنبية، ومن ثم فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة، كما كانت في الصعيد، ومن ثم فقد أخطأوا في الكثير مما صوروه، من مظاهر الحضارة المصرية القديمة^(١).

ومنها (رابعاً) أن هؤلاء الكتاب إنما قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفهية التي كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من المصريين، وبخاصة صغار الكهنة والتراجمة الوطنيين، وخدم المعابد والأغارقة المتمصرين، الذين حدثوهم عن عصور موهلة في القدم لا يعرفون عنها الكثير، كما كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية، تفسيراً لا يتفق والحقيقة في الكثير، ومنها (خامساً) أن كثيراً منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية، وكثيراً ما كانت كتاباتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح مصر.

ومنها (سادساً) روح التعصب التي عرفت عن الغربيين لحضارتهم، وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وذلك عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها أو سبقتها، ومنها (سابعاً) عدم معرفة كتاب اليونان والرومان للغة المصرية القديمة، مما أدى إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره المصريون ونقلوه عنهم محرفاً.

ومنها (ثامناً) أن كثيراً من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد وفدوا على مصر، كما يفد إليها السائح العادي يلتمس الشوارد والنوادر، أكثر مما

(١) محمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٨٢.

يلتمس الحقائق، ومنها (تاسعاً) أن كثيراً منهم احتفظ بذكرياته عن مصر في ذاكرته، وبملاحظات دونها في إيجاز، ولم يكتب بأسهاب، إلا بعد أن طوف في بلاد أخرى، وبعد أن عاد إلى وطنه، فاختلط عليه بعد ما شاهده واحتفظ في ذاكرته وعمم أموراً ما كان ينبغي له أن يعممها^(١).

وبدهى أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله، أن كتابة هؤلاء المؤرخين قد امتلأت بالكثير من الأخطاء والأراجيف والتناقضات، وبالتالي فقد أدت إلى خلق الأساطير والخرافات عن الحياة في مصر الفراعنة.

ولعل أشهر هؤلاء المؤرخين هم:

١ - هيكاته الملتى:

كان من أوائل الأغارقة الذين زاروا مصر (حوالي عام ٥١٠ ق.م)، وكان أكثر اهتماماً بفيضان النيل، وتكوين الدلتا، ومزروعات البلاد، منه بالسكان وتاريخهم، وقد ضاع كتابه «تخطيط الأرض» الذي ناقش فيه كل هذه الأمور، وقد ضمنه خريطة للبلاد التي زارها.

وربما كان «هيكاته» هذا، هو صاحب العبارة المشهورة «مصر هبة النيل»، أو «هبة النهر» التي ردها هيرودوت من بعده، ثم نسبت إليه^(٢).

٢ - هيرودوت (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م):

كتب هيرودوت كتابه الضخم في «توريم» (ثوري)، وفي العصر الذهبي من التاريخ اليوناني وكان هيرودوت من أسرة معروفة، وربما قد شارك في أحداث بلده السياسية، ومن ثم فقد تعرض لألوان من المحن التي أثرت في حياته، ودفعته إلى الهجرة إلى «ساموس»، ومنها قام برحلاته العديدة، حيث زار مصر وسورية، بل وجاوز بابل وهمدان، ثم تنقل بين شواطئ البحر

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، ص ٢٤٠.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤١.

الأسود وجنوب روسيا، وفي عام ٤٤٤ قبل الميلاد، توجه إلى بلدة «توريم» (ثوري) بجنوب إيطاليا مع فئة من المستعمرين الذين أرسلهم «بيريكليس» إلى إيطاليا ومن ثم فقد صار من أوائل مستوطنى «توريم» التى بقى فيها حتى وافاه أجله، ودفن فى سوق المدينة التى كان يحبها حباً دفع بعض المؤرخين إلى نسبته إليها فدعوه «هيرودوت الثورى».

وهناك فى «ثوري» عكف هيرودوت على كتابة سفره الضخم الذى قسمه النحويون السكندريون إلى تسعة أجزاء، كل جزء منها لإحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس»، أما هيرودوت فقد كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه لا يسميها بغير عبارات عامة، كالأحاديث الليبية، أو الروايات الآشورية... وهكذا^(١).

كانت زيارة هيرودوت لمصر إبان الحكم الفارسى لها، وبعد ثورة «إيناروس» فى عام ٤٦٠ ق.م، ذلك لأنه إنما يقرر أنه رأى جماجم القتلى فى معركة «بابريمس» التى انتصر فيها الشائر المصرى، واستولى على الدلتا^(٢)، ولكن يجب ألا تكون هذه الزيارة بعد هذه المعركة بوقت طويل، وإلا لما استقبل فى مصر بهذا الترحاب الذى سمع له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها.

وليس هناك من شك فى أن الحكم الفارسى، وانتشار الإغريق فى مصر، قد سهلا الزيارة أمامه، وسمحا له بحرية التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدتها، بل إن هناك من يرجع أن هيرودوت إنما قد زار مصر بتوصية من الفرس^(٣)، وإن رأى آخرون أنه لم يعتمد عليهم، فقد كان الفرس ينظرون إلى اليونان بعين الريبة والتوجس، بل إن هيرودوت إنما كان يتجنب

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٣-١٧.

(2) Herodotus, III, 12, VII, 7.

(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٢٩.

الأوساط الحكومية، حتى أنه لم يعلم أن اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية إنما كانت وقت ذاك هي اللغة الآرامية^(١).

وأيًا ما كان الأمر، فإن هيرودوت استطاع أن يزور الكثير من مدائن الدلتا، كما يتجول في الصعيد، حتى الجندل الأول عند أسوان، كما شاهد إقليم الفيوم، وإن رأى نقاده من المؤرخين المحدثين أن رحلته، التي كانت حوالي عام ٤٦٠ ق.م^(٢)، لم تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر، وربما أربعة، وأنها قد تمت في أيام الفيضان، وأن إقامته في مصر إنما كانت مقصورة على الدلتا وإقليم الفيوم.

ولعل هذا يفسر لنا عدم الاستطرد في الوصف لمدينة «طيبة» واثارها، حتى بخلا كتابه من وصف مقابر الملوك وتمثالي «ممنون» (وكانا يمثلان أمنحتب الثالث عند مدخل معبد الجنائزى في طيبة الغربية)، وربما كان جهله باللغة المصرية القديمة، وكثرة اليونانيين في الدلتا، سببًا في أن تكون زيارته للصعيد عابرة.

وعلى أى حال، فلقد استطاع هيرودوت أن يزور أهم المدن المصرية، وأن يسجل كل ما رآه وسمعه في الجزء الثاني من كتابه المشهور^(٣)، فتحدث عن جغرافية مصر ومدنها، والحوادث التاريخية التي مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها، دونما تدقيق أو تمحيص، فضلًا عن

(١) وهيب كامل، المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

(٢) هناك خلاف على تاريخ زيارة هيرودوت لمصر، فمن يجعلها عام ٥٤٩ ق.م، ومن يجعلها عقب عام ٤٥٠ ق.م، ومن يجعلها فيما بين عامي ٤٤٨، ٤٤٥ ق.م، ومن يجعلها عام ٤٣٠ ق.م، ومن يجعلها ما بين عامي ٤٦٠، ٤٥٥ قبل الميلاد.

(٣) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم وشرح أحمد بدوي، القاهرة، ١٩٦٦، وكذا:

The History of Herodotus, Translated by G. Rowlton, 2 Vols., London 1920; Herodotus, The Histoires, Translated by A. de Selincourt, Penguin Classics, 1954; W.C. Waddel, Herodotus, Book II, (The Loeb Classical Library, London, 1939.

سرده لكثير من القصص الساذج، ومن هنا جاء كتابه جامعاً الفث والشمين، حاوياً الكثير من الحقائق والمفتريات فى آن واحد، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع أمامنا بحسبانه تاريخاً، وهو من التراث الشعبى فى معايير غير دقيقة الرواية، وتأكيدات بها نواة الحقيقة وإن غلفت بالمبالغة والتحريف^(١).

ومن هنا فقد اختلف المؤرخون فى الحكم على هيرودوت، وعلى كتبه، اختلافاً بيناً، فعلى حين رأى «سيشرون» (١٠٦-٤٣ ق.م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية، حتى لقبه «أبو التاريخ» اتهمه «بلوتارك» (٤٦-١٢٠ م) بالتحيز لأعداء بلده، وبأنه صديق البرابرة، وسماء بعض المؤرخين المحدثين «أبو الأباطيل»، وأنه كان عاجزاً عن إدراك الحقائق، كما كان يتقل عمن سبقوه، دون الإشارة إليهم، وإن وقف آخرون موقف التأييد له^(٢).

وعلى أى حال، فليس هناك من شك فى أن هيرودوت، إنما قد بذل الكثير من الجهد فى إخراج كتابه عن «مصر»، وليس هناك من ريب كذلك فى أن الرجل لم تفته دقة الملاحظة وبراعة التحليل فيما كان يشهده ويكتب عنه، من الظواهر البيئية والاجتماعية، وأنه قد أنصف المصريين فى كثير مما كتبه عنهم، يبدو ذلك واضحاً حين نراه يعترف بتفوقهم وعظمتهم فى ميادين العلوم والمعارف، ثم يمتدح فضائلهم ونزواتهم، ويثبت لهم الفضل فى الكثير من العلوم والمعارف التى أفادت الإنسانية منها بعامة، وأفاد منها قومه الإغريق بخاصة.

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 3.

(٢) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٩-١٢، ١٩-٢٤، وكذا: W.A.Heidel, Hecatheus and The Egyptian Priests in H. Book, II, Boston, 1935, p. 113F; Save - Soderbergh, Zuden Aethiopischen Episoden Hei Herodotus, Eranos, 44, 1946, p. 68-80; De Meulenaere, Herodotus Over de 26 te Dyn. Leuven, 1951.

على أن هناك أموراً كثيرة تجعلنا ننظر بعين السخر والحيرة، بل والشك كذلك، في كل ما كتبه هيرودوت، ومنها (أولاً) أنه لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلاً، ولا نستطيع أن نزعم أن من بين المصريين من كان يعرف لغة الإغريق، إلا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل في كل ما زار من مكان، ومن ثم فلم يكن هناك من سبيل إلى إدارة الحديث بين هيرودوت وبين من زعم أنه لقيهم من كهان، إلا بين يدي ترجمان، أو واحد من بنى قومه، يلم بشيء من لغة المصريين على الأقل.

أما الترجمة فقد كانوا - كما هم اليوم - ولعين بالإغراب والمبالغة، معتمدين في ذلك على جهل الأجانب بلغة النقوش واستعدادهم للتصديق، بسبب فرط إعجابهم بالآثار المصرية، وأما الأغارقة من بنى قومه، والذين لا نشك كثيراً في أنه اعتمد عليهم، فهم قوم - مهما طال مكثهم في مصر - أجنب عن البلاد، لا يستطيعون فهم حضارتها، ولا هضم تقاليدها، ولا الإيمان بعقائدها.

ومنها (ثانياً) أن هيرودوت يقرر في مواطن كثيرة، أن مصدر أخباره كهنة منف، بل إنه إنسا يزعم أن ثبتاً بأسماء الملوك قد قرئ عليه في معبد بتاح بمنف، ولو كان ذلك صحيحاً لما زل هيرودوت زلته الكبرى، حين اعتبر بناء الأهرام (الدولة القديمة) تالياً لعصر الدولة الحديثة، ولما جهل ترتيب المشاهير من الملوك، ولما جاء كتابه خلواً من الملاحم التاريخية الهامة، وخاصة ملحمة الهكسوس وثورة المصريين ضدهم وطردهم من البلاد.

وهو أمر لا نظن أن المصريين قد نسوه، مهما طال العهد عليه، ولو جاز ذلك لما وقع على تلك الملحمة مؤرخنا الوطنى «مانيتو» بعد ذلك بما يقرب من قرن ونصف القرن، وليس لذلك كله من تعليل، سوى أن يكون هيرودوت قد اتصل بصغار الكهنة، أو أن يكونوا قد ضنوا عليه بأسرارهم^(١)،

(١) أحمد بدرى، المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨، ٣٢-٣٤، وكذا:

Herodotus, II, 100, 125, 154, 164.

وإن كان أول التعليلين أفضل، فيما نميل إليه ونرجحه.

ومنها (ثالثاً) أن رغبة هيرودوت في إظهار علمه، وإرضاء قرائه قد دفعه إلى وصف ما لم يكتب له رؤيته من الآثار المصرية، وإلى أن يكتب فيما لا علم له به، مع أن إقامته في مصر لم تتجاوز أشهراً أربعة، وهي فترة قصيرة في حدود إمكانات وسائل انتقالات عصره^(١) ومنها، (رابعاً) أن هيرودوت^(٢) لم يكن يختلف كثيراً عن سائر بنى قومه، أو عن غيرهم من الغرباء الطامعين في مصر، بدليل أنه لم يستغ ثورة المصريين ضد الفرس في سبيل الحرية، بل ظل يمتدح الفرس، ويشيد بنبل مسلكهم، إزاء من أخضعوا من شعوب الأرض.

ويدهى أن تلك أمور أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها تقلل من قيمة ما كتبه، ذلك الذى ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأى، حتى نخدع قراءه دهرًا، وحتى بات لديهم «أبو التاريخ» فأكثر الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه، وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة، والاحتلال الفارسى قد مهد له سبيل الزيارة، وأتاح له ما لم يتح لغيره.

وهكذا يمكننا القول أن كتاب هيرودوت فى جزئه الأول الذى ينتهى عند مطلع العهد الصارى، يكاد يخلو من الحقيقة التاريخية، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، سواء من ناحية ترتيب الأحداث التاريخية، أو من ناحية عدد الملوك وسنى حكمهم، أما الشطر الثانى الذى افتتحه بعصر «بسماتيك الأول» (٦٦٤-٦١٠ ق.م) فقد ظاهره فيه التوفيق، ذلك لأن روايته كانوا من الإغريق، وكانوا على صلة بفرعون الذى احتضنهم وأشركهم فى بعض أموره، هذا فضلاً عن أن هناك روايات كانت متداولة، يمكن الاعتماد عليها - مع كثير من الحذر - وفوق ذلك كله، فإن ما كتبه

(١) عبد العزيز صالحي، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٢) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٩-٣٠، وكذا:

Herodotus, II, 12.

هيرودوت عن مشاهداته الشخصية، وعن عادات المصريين وتقاليدهم، ووصف آثارهم، لذر قيمة كبيرة، إن نحن تناولناه بمزيد من الحذر^(١).

أما فيما يتصل بالجغرافية، فإن هيرودوت يقدم بعض المعلومات القيسة، بخاصة فيما يتصل بالدلتا، أما فيما وراء الفيوم جنوباً، فإنه لا يذكر سوى مدن قليلة، مثل أخميم^(٢)، وطية وسين^(٣)، واليفاتين (جزيرة أسوان)، ثم «ثينوبوليس» الغامضة، ومن بين الأقاليم الثمانى عشرة التى ذكرها، لا نستطيع تحديد أكثر من نصفها بسهولة، ومع ذلك فإن قائمته تحوى أسماء لا نجد لها فى غيرها من المصادر، وربما كان مرجع ذلك سوء فهم الواحد أو الآخر.

وأما روايته عن الديانة المصرية، فرغم ما تتسم به من إفاضة، فإنها تدعو لليأس، وقد ذكر بعض المعلومات عن الآلهة - آمون وبوباستس وإيزة وأوزير، بأسمائها المصرية، وإن فضل مقابلاتها اليونانية، لأنه إنما كان يعتقد أن الهيلينيين قد استقوا آلهتهم وأخيلتهم الدينية من مصر.

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٣٧، وكذا: Herodotus, II, 147-157.

(٢) أخميم: أو تخمين عن أصل قديم يعنى وجه المعبود «مين» أو واجهة معبد، وكان «مين» بها لإخميم وقفط، وحامياً للقوافل، وربما للسيول فى الصحراء الشرقية، وهى الآن مدينة كبيرة، فى مقابل سوهاج عبر النهر، وكانت عاصمة الإقليم التاسع من أقاليم الصعيد، واسمها بالمصرية «آبو»، كما سميت «خنت مين» نسبة إلى معبودها «مين»، وهو أصل اسمها فى القبطية «شمين» وسمها الإغريق «خميس» و«بانو بوليس» وعلى مقربة منها عدة جبانات على حافة الهضبة كمقابر الحواريش، وتنتمى إلى الدولة القديمة والوسطى، ومقابر «السلامونى» من العصر البطلمى والرومانى، حيث يوجد فى أعلى المقابر معبد منحوت من الصخر، يرجع إلى عهد «تخوتمس الثالث» على الأقل، ثم قام الملك «أى» بترميمه، فنسب إليه خطأ. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٥، الموسوعة المصرية، ٨٥/١).

(٣) سين أو سوينى أو سينى، وهو الاسم الإغريقى لمدينة أسوان الحالية، وكانت تدعى بالمصرية، منذ الأسرة العشرين «سونو» ثم تحول فى القبطية إلى «سوان» و«سويان»، والاسم بمعنى السوق، إشارة إلى دور أسوان التجارى بين مصر والنوبة والسودان. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٣).

وأما عن العادات المصرية القديمة، فقد أخطأ في الكثير منها، فمثلاً ادعى أن النساء المصريات اعتدن أن يخرجن إلى الأسواق دون الرجال، وعلى أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال، ولم يكن في ذلك الحكم العام شىء من الصحة، وإنما حدث اللبس عنده عندما شاهد صور النساء في مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرايين فوق رؤوسهن ويمشين بها في صفوف، فظنها تعبر عن الحياة الفعلية في عصور تصويرها، بينما لم تكن في حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التي امتلكها أصحاب المقابر والمعابد، وتمنوا أن تشترك بخيراتها في أداء القرايين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم، ولما كانت أغلب الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة، عبر المصريون عنها بصور الإناث، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكرة بصور الرجال^(١).

٣ - هيكاتة الإبدري:

ينسب هيكاتة الأبدري إلى بلدة «أبديرا» في بلاد اليونان، وقد زار مصر حوالي عام ٣٢٠ ق.م، على أيام «بطليموس الأول» (٣٢٣-٢٨٤ ق.م) وقام بوضع كتاب عن مصر، فقد معظمه، يتحدث فيه عن مصر بصفة عامة، وعن العقائد والأساطير الدينية المصرية بصفة خاصة، وقد اتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه.

٤ - ديودور الصقلي:

قام ديودور الصقلي في عام ٥٩ قبل الميلاد برحلة سياحية لمصر، ولفترة قصيرة، ثم ألف كتاباً عن «التاريخ العام» منذ فجر التاريخ حتى حملة «يوليوس قيصر» على بلاد الغال في عام ٥٨ ق.م، وقد أفرد الجزء الأول منه لتاريخ مصر، وهو يروى مرة أو اثنتين من تجاربه الشخصية، وأما مصادره

(١) عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٢٤٢.

الأصلية فكانت الكتاب الذين سبقوه مثل «هيكاته الأبدري» وه أجاثارخيدس السفودي، الجغرافي للمؤرخ (القرن الثاني قبل الميلاد)، ولم يستطع «ديودور» أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع، وإن انساق وراء جمهرة نقاده (١).

هذا وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والدينية، كما تناولها هيرودوت، ولكنه كان أكثر منه إنصافاً للمصريين، وأكثر فطنة في تفسير عقائدهم وأساطيرهم، فكتب عمياً تواتر إليه من آرائهم في نشأة الوجود وتعاقب المعبودات وعمران الكون، ثم يتبع هذا قسم مستفيض عن أرض مصر ونهرها والحياة الزراعية والحيوانية بها، وعن الفيضان وأسبابه، ثم يتحدث عن تاريخ مصر، فيسلم بأن «ميناء» هو أول ملوكها، ثم يتحدث عن «طيبة» حديثاً مدعماً بالمعالم القديمة البالغة الدقة لآثار «أوزيريماندياس» (رعمسيس الثاني) المعروف اليوم باسم «الرمسيوم» في طبة الغربية، وإن كان يؤخذ عليه أنه جعل تأسيس «منف» تالياً لتأسيس طيبة ولحكم رعمسيس الثاني.

ومع ذلك فإن ما كتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الأهمية، فهو يقف في هذا المضمار، جنباً إلى جنب مع «ثيوسيديدس» و«إكسنفون» (٤٣٠-٣٥٥ ق.م) كمؤرخ حجة، أما عن العصور القديمة فإن كثيراً مما يرويه لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر، ولما كان مؤلفه يعدّ جميعاً، فإنه يصبح ذا قيمة لا تبارى.

وأياً ما كان الأمر، فإن «ديودور» يمتاز باعتماده على الكثير من المصادر، ويحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه إلى البحث عن الحقيقة، كما كانت له عبارات صائبة، مثل قوله «إن مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها»، كما استطاع أن يقدر آثارها، ويقدر أصحاب الفضل

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 5.

فيها نقديراً سليماً، فهو - مثلاً - يرجع شهرة الأهرام إلى دقة مبانيها، ومهارة صناعتها وليس فقط إلى ضخامة مبانيها، وكثرة تكاليفها، ويعجب بمهندسيها أكثر من إعجابه بالملوك الذين أمروا ببنائها، ودبروا نفقات إنشائها، ذلك لأن الأولين إنما بذلوا من أرواحهم وجهودهم، وخلاصة أفكارهم، حتى تم إنجاز هذه الصروح الشامخة، بينما استغل الآخرون ذلك كله لمصلحتهم الخاصة^(١).

٥ - سترابو:

سترابو، أو استرابون هذا من مواطني (بونتس) زار الإسكندرية حوالى عام ٢٥ قبل الميلاد، على أيام الإمبراطور «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م) وأقام بها نحواً من خمس سنوات، ثم صحب صديقه الوالى الرومانى «إليوس جالليوس» فى حملة حتى الجندل الأول (حوالى عام ٢٤/٢٥ ق.م)، وقد تحدث عن مصر فى الجزء السادس عشر من مؤلفه «الجغرافية» Geographica^(٢)، فوصف النيل ومصر، وإن اهتم كثيراً بالدلتا.

وكان اهتمام «سترابو» جغرافياً فى الدرجة الأولى، فهو يبدأ بحديث موجز عن النيل، ثم يتابعه بوصف مفصل عن الإسكندرية والإقليم المتاخم لها شرقاً، ثم يتابع الكتابة بعد ذلك تبعاً للترتيب الطبوغرافى، وتناول أقاليم ومدن الدلتا حفظاً من التفاصيل الكاملة، وهذا الضغط على الدلتا يستحق أكثر الترحيب، ذلك لأن الوثائق الوطنية عن الدلتا جد شحيحة فى هذه

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٣، وهيب كامل، ديودور فى مصر، القاهرة ١٩٤٧، وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 5; A.F. Miot, Diodore de Sicile, Paris, 1834; W.G. Waddell, An Account of Egypt by Diodorus The Sicilian, in The University of Egypt, Bulletin of The Faculty of Arts, I, part I, 1933, p. 1-47, part 2, 1933, p. 161-28.

(2) The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912; The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, 8 Vols., London, 1949.

لناحية، هذا وقد أشار «سترابو» كذلك إلى متياس النيل في «إليفاتين»^(١)، وهو نموذج مشهور من طراز من الدرج كانت تسجل على جدرانها سنوياً لارتفاعات التي يصل إليها فيضان النيل، كما قدم لنا تفصيلات هامة عن المباني والعبادات.

أما ملاحظاته على التاريخ والعادات الدينية فخاضعة للنقد الذي أشرنا إليه بالنسبة للمؤلفين السابقين، وإن كان يذكر له أنه أول من أشار إلى تمشالي ممنون، وإلى أن أحدهما كان يصدر عنه عند الفجر صوت كان يستطيع تمييزه الكثيرون من الزوار الإغريق والرومان، وأخيراً فلقد أفاد استرابو كثيراً من «أيراتو سثينيس» (٢٧٦-١٩٢ ق.م) في كتابه عن «الجغرافية»، وأما كتابه في التاريخ الذي جمع مادته من كتابه في الجغرافية، فلم يصل إلينا للأسف الشديد^(٢).

٦ - بلوتارك الخيروني:

يعد «بلوتارك الخيروني» (٥٠-١٢٠ م) من أصدق المؤرخين القدامى، وأكثرهم أمانة في النقل، وقد ولد «بلوتارك» عام ٥٠ م (وربما عام ٤٦ م)

(١) إليفاتين: وتعرف الآن باسم جزيرة أسوان في مقابل مدينة أسوان عبر النهر، ويعنى اسمها في المصرية «فيل»، وقد نقل إلى اليونانية تحت اسم «إليفاتين» ونظر لتحكم جزيرة إليفاتين (يب) ومدينة أسوان في مدخل مصر الجنوبي، أقيمت قلعة في كل منهما، وكان «خنوم» سيد الشلال معبود إليفاتين (أبو = يب) الرئيسي، ومع المعبودتان «عنقت» و«سنت» وقد عثر في خرائب المدينة على أطلال معابد كثيرة، أهمها معبد «خنوم»، ومعبد من الأسرة الثامنة عشرة، كما وجد خلفها مقابر حكام أسوان من عهد الدولة القديمة والوسطى.
(انظر:)

H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124; E.G. Kraeling, The Brocklya Museum Aramic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.

(2) K. Baodeker, Egypt and Sudan, Leipzig, 1939, p. 345; A.H. Gardiner, op.cit., p. 6-7; B. Potter and R. L. B., Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, II, Oxford 1927, p. 160.

بمدينة «خيرونيا» في وسط بلاد اليونان، ثم أرسله أبوه حوالي عام ٦٦ م إلى أثينا لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة والخطابة، غير أنه برع في علم الأخلاق، ثم تنقل في بلاد كثيرة فزار روما وإسبرطة وكورنثة والإسكندرية وغيرها، وفي عام ٩٥ م عين كاهناً بمعبد «أبوللون» بمدينة «دلفي» وبقي فيها حتى توفي عام ١٢٠ م (وربما عام ١٢٧ م).

وقد ألف بلوتارك (بلوتارخوس) كثيراً من الرسائل زاد عددها على الستين، سميت بالأخلاقيات. وتناول فيها موضوعات شتى في الأخلاق والدين والسياسة والفلسفة، كما ألف في الطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعي والآثار والتراجم^(١).

هذا وقد اهتم بلوتارك في كتاباته بالعقائد المصرية، واهتم بصفة خاصة بقصة «أوزير وإيزة» والتي كان قد رواها من قبل تيودور، فكتب كتابه «Die Iside et Osiride» الذي يروى فيه - بعد المقدمة - بلغة بسيطة، قصة «أوزير» الذي اغتاله أخوه الشرير «تيفون» (ست)، ثم انتقم له ولده «حور» الذي كانت أمه «إيزة» قد نشأته في عزلة خفية، وتتفق قصة بلوتارك هذه مع القصة التي يمكن بناء هيكلها من النصوص المصرية، وإن حملها بالكثير من التفاصيل التي استقى بعضها على الأقل من بعض مصادر مصرية لم تصل إلينا^(٢).

وعلى أي حال، فقد كانت له ومضات طريفة في تفسير الديانة المصرية القديمة، وشطحات أخرى عنيفة، فمن الأولى ما رآه من أن القصة الأوزيرية لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها، وأن لها كثيراً من الألوان كألوان «قوس قزح»^(٣) المتعددة، وإن يكن في تصويره لهذه الألوان قد أصاب

(١) بلوتارخوس، إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن صبحي البكري، ومراجعة محمد صقر خناجة، القاهرة ١٩٥٨، ص ٣-٥.

(٢) بلوتارخوس، المرجع السابق، ص ٢٩-٣٩، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 8-9.

(٣) ينشأ قوس قزح في السماء، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه، وتكون في ناحية

الحقيقة مرة، وأخطأها مرات، كما أننا آخر الأمر لا نستطيع أن نجزم بأن التفسيرات التي قدمها بلوتارك ليست من أصل مصري^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه - فضلاً عما ذكرنا من المؤرخين - إنما يوجد عدد كبير من الكتاب الذين اعتمدنا على كتاباتهم في دراسة التاريخ المصري القديم، فهناك «أفلاطون» (٤٢٩-٣٤٧ ق.م) الذي نلتقى في كتاباته من وقت لآخر ببعض الإشارات التي لا تخلو من أهمية فهو يعرف مثلاً اسم «نيت» إلهة «سايس» (ساو = صا الحجر - مركز بسيون، بمحافظة الغربية)، كما يحدد تحديداً صحيحاً اختصاصات «نحوت» إله الآداب والعلوم والفلك، وكذا لعبة «الداما»^(٢).

وهناك كذلك «بلينى الأكبر» (٢٣-٧٩ م) صاحب موسوعة «Historia Naturalis»^(٣)، وهى تجمع ضخم لقدامى المؤلفين، نالت مصر فيها نصيبها الوافى، وعلى أى حال، فالرجل يعد حجة فى جغرافية مصر. وهناك «كلوديوس بتولمايوس»، وهو من مدينة «بطلمية»^(٤)، وقد قام

الأفق المقابل للشمس، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة، وسببها انعكاس أشعة الشمس من رداد الماء، وقد أخطأت التوراة (تكوين ٩: ١٣-١٥) عندما رأت أن الله سبحانه وتعالى أنشأها لتكون تذكراً له بالألوان، ولهاذا نهى رسول الله ﷺ، عن هذه التسمية، مؤثراً تسميتها «قوس الله».

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤، بلوتارخوس، المرجع السابق، ص ٣٩-٤١، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 9.

(2) A. H. Gardiner, op.cit., p. 4.

(3) Pliny, Natural History, Translated by H. Rackham, London, 1967-1957.

(٤) بطلمية: ثانى مدينة إغريقية أقيمت فى مصر بعد الفتح المقدونى (نقراطيس - الإسكندرية - بطلمية)، على أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا»، وقد أطلق عليها فى عهد البطالمة «بسى بطليموس» أى «بسى» التى أنشأها بطليموس، وأصبحت فى عهد «كلوديوس بتولمايوس» عاصمة مقاطعة ثنى، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الإغريقية، وتقع أطلالها الآن تحت مدينة المنشأة، على مبعده بضعة كيلو مترات جنوبى مدينة سوهاج.

(Ptol, II, 5, 66)

بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثانى الميلادى (١٢١-١٥٠م)، وقد أخرج كتابه فى الجغرافية، حوالى عام ١٥٠م، والمعروف باسم «جغرافية بطليموس»^(١)، غير أن الأجزاء التى تناولت مصر والنواحى المتاخمة لها فى هذا الكتاب قصيرة، وتحتوى أساساً قائمة من المقاطعات فقط، ومع كل مقاطعة دائرتها الإقليمية، وأخيراً كان «كليمنت السكندرى» (١٥٠-٢١٥م) والذى كتب فى الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها، وفى الرموز الهيروغليفية ومفهوماتها^(٢).

ثالثاً - المصادر الأجنبية المعاصرة

تمثل المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم - وخاصة منذ نهاية الدولة القديمة وحتى نهاية التاريخ الفرعونى - ثالث المصادر التاريخية لتاريخ مصر القديم، ذلك لأن مصر إنما كانت لها علاقة ببلدان هذه المنطقة فى فترات من تاريخها، وخاصة فى عصر الدولة الحديثة، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة، اختلفت فى عصور السلام عنها فى عصور الحرب، وفى الأولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه، إن لم يكن الخضوع والتذلل، وفى الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها كذلك، وواجب الباحث إزاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها فى مصر، فهى - شأنها فى ذلك شأن أمثالها فى مصر - تبالغ فى النصر التافه فتحيله إلى نصر عظيم، كما أنها تخفى الهزائم أحياناً، إن لم تحيلها إلى نصر مبين، ومن المقارنة بينها جميعاً يستطيع الباحث أن يتبين - ولو بقدر - الحقائق التاريخية.

هذا إلى أنها إنما تعين الباحث كذلك على تعيين عهود الفراعين بالنسبة إلى من عاصروهم من ملوك الشرق وأمرائه، كما أن هذه الرسائل المتبادلة إنما تعطى فكرة عن العلاقات الدولية والحالة الحضارية لهذه المنطقة

(1) Ptolemy , Geographia, Edited by C.F. Neibble, 3 Vols., 1843-1845.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٤٤، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 8-9.

الهامة من العالم إيان كتابتها^(١).

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما عرف باسم «رسائل العمارة» التي عشر عليها عام ١٨٨٧م في أطلال مدينة العمارة، في المبنى الذي كانت تحفظ فيه المراسلات الملكية، وهي مكتوبة بالخط المسماى على لوحات من الطين المجفف، وليس من شك في أهمية هذه الرسائل والمراسلات الملكية، ذلك لأنها إنما تعتبر من أهم المصادر الأساسية المعاصرة في دراستنا لحالة الإمبراطورية المصرية في أخريات أيام «أمنحتب الثالث» وطوال عهد ولده إخناتون^(٢).

رابعاً - المصادر اليهودية

١ - التوراة.

٢ - كتابات المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى».

وكلاهما لا يمثل قيمة تاريخية كبيرة في موضوع دراستنا هذه «الثورة الاجتماعية الأولى» وذلك لأن التوراة^(٣) - رغم كل ما فيها من عيوب كمصدر تاريخى - فإنها لم تكتب إلا بعد هذه الأحداث بأكثر من عشرين قرناً، وأن «يوسف بن متى» (حوالى ٣٧-٩٨ أو ١٠٠م) - أى بعد هذه الأحداث بحوالى ٢٥ قرناً، هذا فضلاً عن أن كلا من المصدرين ليس مرجعاً عن هذه الثورة.

(١) انظر: محمد يوسى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢-٣.

(٢) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن «رسائل العمارة»، انظر: محمد يوسى مهران، إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٣٣-٢٤٥.

(٣) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة في كتاب مستقل في (٤٥٧ صفحة)، انظر: محمد يوسى مهران، إسرائيل، الكتاب الثالث، الحضارة، التوراة، الإسكندرية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، وانظر: الطبعة الجديدة التي صدرت في عام ١٩٩٩م.

ثانياً - المصادر الخاصة بموضوع البحث

(الثورة الاجتماعية الأولى)

تنقسم مصادر تاريخ «الثورة الاجتماعية الأولى» إلى قسمين اثنين:
المصادر الأثرية، والوثائق الرسمية والخاصة.

أولاً - المصادر الأثرية:

من المعروف تاريخياً أن هذه العصر - عصر الثورة الاجتماعية الأولى - إنما يكاد ينفرد من بين عصور التاريخ المصرى القديم، بأنه عصر يغشاها الظلام المطبق، حتى أننا لا نكاد نعثر منه على أثر قوى واضح، ينير لنا السبيل، فالآثار المادية شحيحة - إن لم تكن نادرة - حتى أن الأسرتين - السابعة والثامنة - تكاد تمر الواحدة منهما تلو الأخرى، دون أن تخلف أثراً يشير إلى إحداهما، اللهم إلا بعض «الجعول» التى تحمل اسم «نفر كارع» - الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة السابعة -.

هذا فضلاً عن أثر إسطوانى من «اليشم الأخضر»، عليه رسم سورى على الطراز المصرى، ويحمل اسم «خندو» - الذى يزعمون أنه من ملوك الأسرة الثامنة - فضلاً عن «نحاتم» باسم ملك، هو «نفر - كارع - تررو»، يصف نفسه بأنه «سيد الشمال»، الأمر الذى يدل على أن حكم هذا الملك لم يشمل مصر جميعاً، وإنما ظل حكمه فى شمال الوادى، دون سواه.

وهناك مرسوم أصدره الملك «نفر - كاو - حور» يقدم فيه الشكر جزيلاً، لموظف يدعى «شميع» - مما يشير إلى صلاته بسورية - عن رعايته لبعض الأوقاف فى الصعيد^(١)، هذا إلى جانب آثار قليلة أخرى.

هذا وقد حفظت فى «معبد الإله مين» فى مدينة «قفط»^(٢) بضعة

(١) نجيب ميخائيل، مصر، (الإسكندرية ١٩٦٦م)، ٢٦٠/١.

(٢) قفط: كانت «قفط» آخر ثلاثة عواصم للإقليم الخامس «نتروى» - أولها «نبت» أو «نوت».

مراسم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة «واح» (كا رع، خع بارو)، و«نفر - كاو - حور» (نترى بارو)، و«نفر - كا - رع» (حور - دمج - إيب تاوى)، وقد صدرت هذه المراسم لمصلحة الأساس الجنزى لمعبد «الإله مين» فى مدينة قفط، فضلاً عن مصلحة الأسرة المحلية الحاكمة فى قفط، على أن أكثر هذه المراسيم إنما كانت لمصلحة اثنين من الحكام، هما : «شيمائى» وولده «إيدى» (١).

وهناك - من العصر الإهناسى - (الأسرتين التاسعة والعاشرية) - بعض آثار معاصرة - وإن كانت لا تعد الباحث بما يريد من معلومات عن هذا العصر - أو حتى بعض الذى يريد - بغية أن نرسم صورة واضحة عن الأحداث التاريخية فى مصر - إبان هذه الفترة - فهناك من عهد الملك «نحتى الأول» (واح كارع) تابوت دقيق الزخرف، عثر عليه فى «البرشا»

=
- ربما بمعنى الذهبية لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية - ثم سماها الأغارقة «أسبوس»، وقامت على أطلالها - أو قريباً منها - مدينة «طوخ» الحالية، وثانيهما، مدينة قوص، على مبعده ٣٥ كيلاً جنوبى «قنا». وسميت «قفط» فى المصرية «جبتو» - أو «جبتيو»، وفى الإغريقية «كوتوس» وفى القبطية «قفط» و«قبط»، وعند العرب «قفط»، وتقع على مبعده ٢٢ كيلاً جنوبى قنا - فى مقابل مدينة «نوت» عبر النهر تقريباً - وقفط الآن إحدى مراكز محافظة قنا.

وكانت قفط ذات أهمية دينية واقتصادية طوال العصور الفرعونية، لأنها مركز رئيسى لعبادة الإله «مين» ولوقوعها عند بداية الطرق الموصلة إلى محاجر الصحراء الشرقية، وقد احتلت مركزاً هاماً فى بداية عهد الثورة الاجتماعية الأولى، حتى ذهب البعض إلى أن الأسرة الثامنة إنما قامت فى «قفط» - كما سنرى - . (انظر: محمد بيومى مهران، المدن الكبرى، العواصم الإقليمية، الإسكندرية ١٩٩٩م؛ مصر ٢٦٥-٢٦٦، ٣٢٣، ٣٣٣/٢؛ الحضارة المصرية القديمة ١٥٩/٢-١٦٠؛ جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل ٢٠٩/٢-٢١٩؛ وكذا:

A.H. Gardiner, Onom, II, p. 27-29; H.Gauthier, Dictionnaire des noms Geographiques, III, p. 83, 109, V, p. 173-175; P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier a Karnak, 1956, p. 224; W.M. F. Petrie, Koptos, London, 1896.

(1) W.C. Hayes, The Coptes Decrees, JEA, 32, 1946, p. 3-33.

يبدو أن خراطيشه كتبت عليه في مكان اسم صاحب التابوت الأصلي، وهو «مندوب خراج» يدعى «تفرى».

هذا وهناك من عهد «ختي الثاني» (مرى - إيب - رع) موقد نحاسي في متحف اللوفر، وعصا من الأبنوس، عثر عليها في «مير» - مركز القوصية، بمحافظة أسيوط - ثم أشياء أخرى قليلة، وعديمة الأهمية^(١).

هذا وما يزال المتحف المصري بالقاهرة، يملك تمثالا للملك «مرى» - كما.. رع - من ملوك الأسرة التاسعة - وهو صاحب الوصية المشهورة التي تركها له والده.

ولعل من الجدير بالإشارة، أنه من بين الآثار الهامة التي تقتن بذلك العصر، ظهور «الجعارين»، هذا إلى أن توابت هذا العصر - عصر الانتقال الأول، أو عصر الثورة الاجتماعية الأولى - إنما تعتبر من خير ما يستشهد به من آثاره - سواء من النواحي الفنية التي تمثلت فيها، وعبرت بها عن روح عصرها - أو من حيث النصوص التي تضمنتها، وعبرت عن عقائد أصحابها^(٢).

هذه هي أهم الآثار المعاصرة، التي تركها «عصر الانتقال الأول»، ومن هنا فقد اعتمد المؤرخون في كثير من معلوماتهم - بجانب الوثائق الأدبية، والتي تأتي في المرتبة الأولى، كمصدر تاريخي لهذه الفترة - على مقابر النبلاء، وحكام الأقاليم، ذلك لأن كثيراً من أمراء الأقاليم، إنما استمروا يدفنون على مقربة من بلادهم، ومن ثم فقد وجدنا كثيراً من مقابر ذلك العصر، منحوتة في الصخر - في مصر الوسطى والعليا - أي في الصعيد.

ولعل أهم مقابر حكام الأقاليم، إنما نجدها في مناطق: زاوية الأموات

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 112.

(٢) عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٤١٩.

وبنى حسن والبرشا (بمحافظة المنيا) ودير الجبراوى وميروأسيوط (بمحافظة أسيوط) والهجارسة وأخميم (بمحافظة سوهاج)، فضلا عن «المعلا» (بمحافظة قنا)، والكاب وإدفو وشط الرجال، وأبو وأسوان (بمحافظة أسوان) - وهاك فكرة مختصرة عن بعضها:

١ - المعلا. ٢ - مير. ٣ - البرشا. ٤ - بنى حسن

(١) مقبرة المعلا:

قامت هذه المقبرة فى مدينة «المعلا»، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعده ١٦ كيلا شمالي إسنا - عبر النهر - ، ٣٢ كيلا جنوبى الأقصر.

وعرفت «المعلا» فى العصر الفرعونى باسم «حفات» - أى مدينة الحية - وقد أصبحت فى العصر اليونانى عاصمة لإقليم مستقل - بعد أن كانت تابعة لإقليم «نخن» الإقليم الثالث - ويسمى هذا الإقليم الجديد «مشرق حور»، تمييزاً له عن إقليم «غرب حور» الذى كانت عاصمته «حاس - فون» (أصفون المطاعنة) - وكانت هى أيضاً تتبع إقليم نخن - هذا وكان «عنخ - تيفى» - صاحب المقبرة - هو الرئيس الأكبر، حاكم إقليم نخن Ankhtify, The Great Chieftain (or Nomarch) of The Nekhen, The Third Nome of Upper Egypt (Hiera Conpolis)^(١) - (البصيلية - إدفو . أسوان) - على مبعده ١٧ كيلا شمالي إدفو -.

هذا وقد تأخر نشر هذه المقبرة، لأن نصوصها صعبة ومعقدة، فيها غموض يكاد يشبه غموض العصر الذى دونت فيه، ومن ثم فلم تتم ترجمة كاملة لها، وإنما مسها الناس مساً خفيفاً^(٢)، حتى قام «جاك فاندييه» بنشرها فى عام ١٩٥٠ م فى القاهرة^(٣).

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 111.

(٢) أحمد بدرى، فى مركب الشمس ١١/٢، وكذا: A.H. Gardiner, op.cit., p. 111.

(3) J.Vandier, La Tombe d'Ankhtifi a Mo'alla, Cairo, 1950.

يتحدث «عنخ - تيفى» - فى نصوص قبره هذا - عن حرب دارت رحاها بين أقاليم الصعيد الأعلى، فلقد انقسم الصعيد وقت ذاك على نفسه إلى فريقين متخصصين، الواحد : بزعاة «عنخ - تيفى» ويضم الأقاليم الثلاثة الجنوبية (نخن وجبا وآبو = البصيلية وإدفو وأسوان : أى ما يعادل محافظة أسوان الحالية)، والثانى : أقاليم طيبة وقفت، وربما دندرة^(١).

وهناك ما يشير إلى أن الحرب قد انتهت بانتصار طيبة - ومن والاها من إقليم قفت ودندرة - رغم أن نصوص مقبرة «عنخ - تيفى» فى المعلا، لم تشر إلى نتيجة الحرب، وربما كان هذا هو الدليل، على أن النصر لم يكن فى جانب «عنخ - تيفى»، وإنما كان فى جانب أعدائه.

هذا، وقد اختلف المؤرخون فى التاريخ لمقبرة المعلا هذه، وبالتالى فى التاريخ لهذه الحرب التى ذكرتها المقبرة، وهل سبقت التنافس الحربى بين إهناسيا وطيبة؟ أم تخللته؟، ومن ثم فقد رأى البعض أن الحرب قد وقعت على أيام الأسرة الثامنة، بينما يرى آخرون أنها وقعت على أيام الأسرة العاشرة الإهناسية.

يذهب الفريق الأول (بدوى، جاردنر، دريوتون وفاندييه) أن تاريخ المقبرة يجب أن يكون فى أيام الأسرة الثامنة، وأن نقوش المقبرة إنما تضع صاحبها «عنخ - تيفى» بين أوائل وثائق ذلك العصر، لأن الأحداث التى تناولتها، إنما تقع فى عصر سابق لأسرة «أنيوتف»^(٢).

ويكاد «ونلوك» أن يضعها فى الأسرة الثامنة، ذلك أنه : إنما يتحدث عن «إيدى بن شيمائى» وأن الفرعون «نترى باو» - من الأسرة الثامنة - قد أعطاه سبعا من المقاطعات - من أسوان (إليفانتين) وحتى «ديوس بارفا» (هو - على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) - ثم يقول : إننا لا نعلم عن

(١) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٦٩.

(٢) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، ١١/٢.

هذه المقاطعات السبع (إليفانتين - جبا - نخن - طيبة - قفط - دندرة -
هو) أكثر من أنها إنما كانت كتلة واحدة تحت حكم «قفط» (جبتيو) في
نهاية الدولة القديمة، وأن أقاليم أسوان (إليفانتين) وإدفو والبصيلية (نخن)
قد ثارت ضد طيبة وجيرانها - كما نعلم من مقبرة المعلا - وقد أدى ذلك
إلى تمزق شمل أرض الجنوب إلى ولايات صغيرة^(١) - أى أن هذا التمزق
إنما قد حدث في أعقاب الدولة القديمة - أى في الأسرة الثامنة - وإن لم
يؤكد ذلك صراحة.

ويذهب الفريق الثانى إلى أن هذه الحرب إنما كانت في العهد
الإهناسى، ويذهب الدكتور أحمد فخرى إلى أن «عنخ - تيفى» إنما ظل -
حتى بعد انتهاء هذه الحرب - واليا على أقاليم الثلاثة - وأنه ظل كذلك
مالياً لبنت إهناسيا، وأنه قد عاش في أيام الأسرة العاشرة - في عهد ثاني
ملوكها «نفر كارع»، والذي ورد اسمه في المقبرة -^(٢) هذا ويذهب «جاك
فاندييه» إلى أن الملك «نفر - كارع» - المذكور في المقبرة - إنما يسبق
مباشرة «نخيتى» الثانى - من ملوك الأسرة العاشرة الإهناسية - وقد تولى
العرش حوالي عام ٢١٥٠ ق.م - أى بعد وصول «الحر سهر تاوى» - أنيوتف
الأول - إلى السلطة، بحوالى عشر سنوات.

وهكذا فإن البيانات التى يمدنا بها الخط، ودراسة الصنيغ، يؤيدها
«الإهليج» الوحيد الذى تحتويه نصوص المقبرة، ومن المحتمل - كل
الاحتمال - أن «عنخ - تيفى» إنما كان يعيش، فيما بين عامى ٢٢٠٠،
٢١٤٠ ق.م، تقريباً، وفي هذه الفترة لم تكن الأسرة القفطية - الأسرة الثامنة
- سوى ذكرى بعيدة، فلقد انتقلت السلطة من «قفط» إلى «طيبة» حوالي
عام ٢٢٥٠ ق.م.

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 111.

(٢) إيتين دريتون وجاك فاندييه، مصر، ترجمة عباس يومية، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢٤١.

هذا وثبت لنا كتابات المعلا، أن القوم لم يتمكنوا من توحيد المملكة
الطيبية، إلا مقابل حروب عنيفة بين ملوك طيبة - ذوى المطامع - وبين
المقاطعات الثلاث التى هى أقصى مقاطعات مصر فى الجنوب (إليفانتين -
جبا - نخن) (١).

هذا ويذهب «وليم هيز» (١٩٠٣-١٩٦٣ م) إلى أن تاريخ المقبرة
فضلا عن الحرب، إنما كان فى الأسرة العاشرة، لأنه يرى أن «عنخ - تيفى»
إنما قد نجح فى لمّ شعث الأقاليم الثلاثة الجنوبية من مصر العليا (الصعيد)
فى مصلحة الملك الإهناسى «نفر - كارع» - من الأسرة العاشرة (٢).

والرأى عندى: أن أحداث المعلا، إنما تقع - كما يرى الفريق الأول -
فى أوائل عهد الانتقال الأول، على أيام الأسرة الثامنة.

٢ - البرشا:

البرشا: جبانة الأشمونيين - الإقليم الخامس عشر - وتقع البرشا على
الضفة الشرقية للنيل - حيث اختار أمراء الأشمونيين (٣)، موقع مقابرهم فى

(1) H.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes,
New York, 1947, p. 23.

(2) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 138.

(٣) الأشمونيين: عاصمة الإقليم الخامس عشر (أونو - ونو - ونوت) - أى إقليم الأرنب - ويمتد
حوالى ٤٨ كيلا شرق وغرب النيل، وتقع الأشمونيين على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب
ملوى (٥) كيلا جنوب المنيا، ٣٠٠ كيلا جنوب القاهرة.

وسميت الأشمونيين فى المصرية «خمنو» أو «خمون» - بمعنى مدينة الثمانية - وهو أصل
تسميتها فى القبطية «شمنو - أوشمون»، كما سميت فى المصرية كذلك «بر - جحوتى» -
بمعنى مقر المعبود «جحوتى» (نحوت) - معبودها الرئيسى - وهو اسمها الدينى، واسمها المدنى
فهو «ونوت» وأسماءها الأغارقة «هرموبوليس ماجنا» - أى مدينة هرمس الكبرى - تميزاً لها عن
«هرموبوليس بارفا» أى الصغرى، وهى «منهور» عاصمة البحيرة - وذلك عندما ماثلوا بين
«نحوت» - إله الحكمة والكتابة والعلم عند المصريين، وبين معبودهم «هرمس»، وقد عبدت فى
هذا الإقليم - إلى جانب «نحوت» - المعبودة ونت - التى تنسب إليها تسمية الأشمونيين
«ونوت»، وكانت على شكل ثعبان.

الجهة البحرية من وادى صخرى فى التلال الواقعة خلف «دير البرشا» (دير النخلة) - على مبعده ١١ كيلا من الأشمونين - عبر النهر - فى خط مستقيم.

هذا وأهم مقابر البرشا (مركز أبو قرقاص - محافظة المنيا) إنما هى «مقبرة تحوت حتب» - والى الأشمونين على أيام الملك «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م)، وفيها المنظر المشهور، الذى يمثل نقل تمثاله الكبير، الذى أذن له الفرعون بإقامته فى مقبرته، وقد بلغ ارتفاعه قرابة سبعة أمتار، ووزنه ٦٠ طناً، وتكفل بنقله ١٧٢ رجلاً.

ويصف «تحوت حتب» نقل هذا التمثال الضخم، بأن الطريق من المهاجر إلى مكان إقامته، إنما كان صعباً، وأن قوى الرجال سوف تخور - إن استمروا فى نقله على هذا الطريق - ومن ثم فقد أنشأ طريقاً جديداً، وأن سكان المدينة قد تجتمعوا عند نقل التمثال - راضين غير مكرهين - وأن ذلك قد أسعد «تحوت حتب» كثيراً، خاصة وقد كان من بين المتطوعين رجلاً هرمًا، كان يستند على طفل، وأن الجميع إنما كانوا يصفقون ويغنون^(١).

وكانت الأشمونين مركزاً دينياً هاماً منذ فجر التاريخ، ونشأت فيها المدرسة الثانية من مدارس النشأة الأولى للخليفة فى مصر القديمة (مدارس عين شمس والأشمونين ومنف وطيبة). (انظر: جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، ٨٢/٢-٨٦، محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٠٣/٢-٣٠٦)، وكذا:

A. Gardiner, Onom., II, p.79-83; H. Gauthier, op.cit., IV, p.176; JEA, 28,p.23.

(١) محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٣٦٥/٢، وكذا: جيمس بيكى، المرجع السابق، ص ٨٩-٩٠، وكذا:

A. Weigall, Guide to The Antiquities of Upper Egypt, p. 77-78; P.E. Newberry, El-Bersheh, London 1895, p. 15; P. Weill, Fouilles a Tounah et Zaouiet - Maïetin, Paris, 1912.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى العصر المتأخر أصبحت «تونا الجبل» (حسرت فى المصرية، حاسروا فى القبطية، ثم تونى فيما بعد) - وتقع على مبعده ١٢ كيلا جنوب غرب الأشمونين، على حافة الصحراء - جبانة الأشمونين.

وقد كشفت الحفائر هناك عن مدينة كاملة للموتى، ترجع إلى الفترة، فيما بين العصر الفارسى، وحتى العصر البطلمى، ولعل أهم معالمها «الجبانة الكبيرة للطيور المقدسة والقردة» - رمز ثحوت - حيث عشر على آلاف الموميات للطائر «أبو منجل»، والقروء المنخطة، داخل توابيت حجرية صغيرة أو أوانى فخارية.

هذا وقد قام الأثريان الإنجليزيان «فرانسيس لولين جريفث» (١٨٦٢-١٩٣٤م) و«هرسى إدوارد نيوبرى» (١٨٦٩-١٩٤٩م) بنشر نصوص مقابرهما فى لندن فى عام ١٨٩٥م فى (Archaeological Survey of Egypt) (edited by F.L. Griffith) وذلك فى جزأين، قام «نيوبرى» بنشر الجزء الأول، واشترك الأثريان - نيوبرى - جريفث فى نشر الجزء الثانى.

٣ - بنى حسن:

تقع «بنى حسن» - نسبة إلى قبيلة عربية، سكنت هناك، فسميت المنطقة باسمها - على مبعده ١٠ كيلا جنوب زاوية الميتين، ٢٠ كيلا جنوب المنيا - عبر النهر - وأمام مدينة أبو قرقاص، وهناك على الضفة الشرقية للنيل تقع جبانة أمراء الإقليم السادس عشر (ما - حج - إقليم الوعل (الغزال) ...

وكانت عاصمة الإقليم «حبنو»، وهى موضع خلاف على مكانها، فهى: إما مدينة المنيا، أو السوداء الحالية - على سفح المنحدر الذى يضم مقابر زاوية الأموات (زاوية الميتين) أو زاوية الأموات نفسها - على مبعده ٢

كيلا شمال الكوم الأحمر - أو الكوم الأحمر نفسها، أو فى مجاوراتها -
والى الجنوب من زاوية الأموات، على الضفة الشرقية للنيل - على مبعده ١٠
كيلا شمال شرق المنيا - عبر النهر - أمام قرية «المطاهرة» على الضفة
الغربية.

وعلى أية حال، فبمقابر بنى حسن تتكون من سلسلة من المقابر
الصخرية، التى تمتد لبضعة أميال على طول واجهات الهضاب، أمام شاطئ
النيل الشرقى - فيما بين قريتى شرارة، وأتلندم -.

ولعل أهم هذه المقابر، تلك التى ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشرة
(١٩٩١-١٧٨٦ ق.م) وتقع أمام أبو قرقاصن مباشرة، وتعتبر فى مجموعها
أثرا رائعا للحضارة المصرية فى عصر الدولة الوسطى، ولعل من أهمها مقابر
الأمراء: إمينى، وخنوم حتب الثانى، وباقت، من أيام سنوسرت الأول
(١٩٧١-١٩٢٨ ق.م) وسنوسرت الثانى (١٨٩٧-١٨٧٧ ق.م).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى «اسطبل عترة» (سبيوس
أرتيميدس)، ويقع على مبعده ٣ كيلا جنوب مقابر بنى حسن، وهناك هيكل
منحوت فى الصخر، فى مدخل واد هناك، وجدرانه مغطاة بتقوش ملونة.

هذا ويرجع كل من المعبد والهيكل إلى عهد الملكة «حتشبسوت»
(١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م). وأما معبود الإقليم فهو «حور»، يظهر فى العصر
المتأخر، جاثما فوق ظهر الوعل (١).

(١) محمد بيومى مهران، مصر ٦٠/٢، الحضارة المصرية القديمة ١٦٥/٢، جيمس بيكى، المرجع
السابق، ص ٥٧-٨٠، زيدة محمد عطاء، إقليم المنيا فى العصر البيزنطى، القاهرة ١٩٨٢، ص
١٣-١٤، الموسوعة المصرية ١٦٠/١، ٢٥٨، وكذا:

H.Gauthier, .op.cit., III, 36-37; R. Weill, Fouilles a Tounah et a Zaouiet
Maïetin, Paris, 1912; Griffith (F.L.), Beni Hassan, 4 Vols, London,
1893-1900; E. Amelineau, La Geographie de L'Egypte a l'Epoque Copte,
Paris, 1895, p. 140, 257; P. Lacau et H. Chevrier, Une Chapelle de Sesostris
1er, a Karnak, Le Caire, 1956, p. 229; A.H. Gardiner, Onom, II, p. 90-92.

٤ - ميسر:

مير - ميرة أو مرية - وهى فى القبطية «مير» بمعنى الشاطئ أو الجرف أو الجسر (١).

وفى العصور القديمة «مرية»، وذكرها المقرئى فى خطته باسم «ميرة»، وقال: إن ميرة غرب القوصية، هذا وقد وردت «مير» فى «معجم البلدان» باسم «مسير» - وكذا فى تاج العروس، وفى الكشف - وهذا خطأ، وكل ما خالف اسم «مير» فهو خطأ، ووردت «مير» فى قوانين «ابن ممتى»، وفى تحفة الإرشاد أنها من أعمال الأشمونين.

وتقع على مبعده ١٢ كيلا، غربى القوصية - بمحافظة أسيوط - عند حافة الجبل، غربى «صنبو» وكذا قصر العمارنة - فى مقابل القوصية - عبر النهر -.

هذا وتتكون جبانة أمراء القوصية (قيس فى المصرية، كوساى فى الإغريقية، قرص قام فى القبطية) - على مبعده ٦٠ كيلا شمال أسيوط - وتتكون من «مير» و«قصر العمارنة»، وذلك فى عصر الدولة الوسطى.

هذا وقد كشف فى الجبانتين - مير وقصر العمارنة - ١٧ مقبرة لحكام القوصية وموظفيها، منها ١٥ مقبرة فى «مير»، ومقبرتان فى «قصر العمارنة».

وتشير «مقابر مير» إلى أن نظام الوراثة فى حكم هذا الإقليم (الرابع عشر - نجفت بحت - وفى العصور المتأخرة - إلف بحو) إنما هو المتبع منذ إمارة «نكا - عنخ» - من أمراء الأسرة الخامسة - ثم تعاقب على حكم الإقليم - فى الأسرة السادسة - ستة أمراء بالوراثة، كان أهمهم «ببى عنخ الأوسط»، والذى وصل إلى منصب الوزارة - الأمر الذى سبقه إليه أخوه

(١) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها ٣٦/١.

الأكبر «ببى عنخ الأكبر»، وإن كان لقب الوزارة إنما كان وقت ذاك، لقباً شرفياً أكثر منه فعلياً.

وفى أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م) زادت مكانة حكام القوصية، حتى قيل إن الملك «أمنمحات الأول» (١٩٩١-١٩٦٢ ق.م) قد تزوج - عندما كان وزيراً لآخر ملوك المناخة - ابنة حاكم القوصية «سنوسرت - واح كاهن»، وأن «أمنمحات الأول» قد أعطى ولده «سنوسرت الأول» الانتم العائلى للأسرة الحاكمة فى القوصية.

بقيت الإشارة إلى أن «إقليم القوصية» («نجفت - بحت» - إتف بحو) - الإقليم الرابع عشر من أقاليم الصعيد، إنما كان يقع على ضفتى النيل - وطبقاً لمقاييس مقصورة «سنوسرت الأول» بالكرنك - فهو يمتد على مدى ٣٤ كيلاً (٣ إتر، ٦٠ خا)، وإذا افترضنا أن حده الجنوبى عند قرية دمنهور - ١٠ كيلاً جنوبى القوصية - فهذا يعنى أنه يمتد شمالاً حتى مشارف مدينة «دير مواس» - وربما حتى آخر حدود محافظة أسيوط - أى على مبعدة ٢٤ كيلاً شمال القوصية.

هذا مع ملاحظة أن منطقة العمارنة - وهى تتبع الإقليم الخامس عشر - قد تشمل حدودها الجنوبية إلى شمالى «دير مواس» - بمحافظة المنيا - (١)

هذا وقد قام الأثرى الإنجليزى «بلاكمان» بنشر مقابر «مير» فى سبعة أجزاء، صدر الجزء الأول منها فى لندن عام ١٩١٤ م، والسابع فى عام ١٩٥٣ م (٢).

(١) محمد ييوى مهران، الحضارة المصرية القديمة ١٦٤/٢-١٦٥؛ جيمس بيكى، المرجع السابق، ص ١٢٥-١٣٨؛ محمد رمزى، القاموس الجغرافى، الجزء الرابع، القسم الثانى، القاهرة ١٩٩٤، ص ٧٥-٧٩؛ وكذا:

A.H. Gardiner, Onom, II, p. 77; A. Fakhry, op.cit., p. 30-34; H. Gauthier, op.cit., I, p. 13, V, p. 164-165; P. Montet, op.cit., p. 135-136, 141-142; W. Helck, Die Altgyptischen gaue, Wiesbaden, 1974, p. 105-106.

(2) A.M. Blackman, The Rock Tombs of Meir, 7 Vols., London, 1914-1953.

ثانياً - الوثائق (النصوص)

يكاد يجمع المؤرخون على أن عصر الثورة الاجتماعية الأولى - أو عصر الاضمحلال الأول - إنما هو من أكثر عصور التاريخ المصرى القديم ظلمة، فالآثار التى اعتاد المؤرخون أن يستقوا منها معلوماتهم، نجدها هنا صامتة - أو تكاد - ومن هنا اختلف المؤرخون، فيما بينهم، أشد الاختلاف، فى أحوال هذه الفترة السياسية - سواء أكان هذا فى تتابع أسرها، أو فى تعاقب ملوكها، حتى وصل الأمر إلى أن كثيراً من أسماء الملوك أنفسهم، لا نكاد نعرفها.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، وإنما تعداه إلى وثائق هامة، تنير للباحث الطريق، لمعرفة جانب آخر من أحوال ذلك العصر، غير أننا لا نستطيع - فى أحوال كثيرة - أن نحدد لها تاريخاً معيناً، أو ملكاً نسبها إلى عهده، دون أن يخالجنا ريب، فى أن ما نقول، هو القول الفصل.

على أننا - من ناحية أخرى - نستطيع القول: إن هذا العصر، بقدر ما ضنَّ على الباحثين بمصادره الأثرية، فقد منحهم قدرًا من النصوص الأدبية، تكاد تعطينا صورة عن الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ الكنانة المجيد.

ولعل مما يزيد فى أهمية هذه المصادر الأدبية، أنها إنما تمثل تفكير الشعب كله - حاكمية ومحكومية - ذلك لأن الحاكمين إنما قد كتبوا بعضها، كما كتب المحكومون البعض الآخر، وإن كان للمحكومين النصيب الأكبر مما كتب، وتلك ميزة ينفرد بها عصر الثورة الاجتماعية الأولى، عن بقية عصور التاريخ الفرعونى.

وأما أهم هذه الوثائق - أو النصوص الأدبية - فهى :

١ - تحذيرات الحكيم «إيبو - ور».

- ٢ - نبوءة نفرتى.
- ٣ - صراع المتعب من الحياة مع روحه.
- ٤ - وصية اختوى - أو ختى لولده «مرى - كارع».
- ٥ - قصة الفلاح الفصيح.
- ٦ - أغنية الضارب على العود.

١ - تحذيرات الحكيم إيبو - ور

تقديم:

لا ريب في أن الأدب المصرى القديم لم يتخلف عن أداء دوره فى النقد والسياسة، ووصف ما حل بالبلاد فى فترة من فترات تاريخها، ومن ثم فقد قدم لنا على سبيل المثال، وصف للحالة السيئة - من الناحية السياسية - التى وصلت إليها البلاد فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، هذا فضلاً عن أن كثيراً من الملوك قدموا لأولياء عهودهم تجاربهم السياسية، حتى يكون لهم من تجارب الآباء ما يفيدهم فى إدارة شئون البلاد، ومن النوع الأول كان الحكيمان «إيبو - ور» و«نفرتى»، ومن النوع الثانى تلك النصائح التى قدمت للملكين «مري كارع» و«سنوسرت الأول»، ولنقدم الآن نماذج مختلفة من أدب النقد والسياسة.

لا ريب فى أن «تحذيرات الحكيم المصرى «إيبو - ور» The Admonitions of An Egyptian Sage إنما تعتبر من الوثائق التاريخية الهامة التى تسترعى النظر بين كافة مجموعة تلك المقالات الاجتماعية والخلقية التى كتبت فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى (عصر الانتقال الأول)، وتوجد تلك الوثيقة الأدبية فى «متحف ليدن»، وتعرف باسم «بردية ليدن رقم ٣٤٤»، بعد أن نقلت إلى متحف ليدن فى عام ١٨٢٨ م، وكان قد اشتراها هذا المتحف فى نفس العام من «أنستاسى» الذى اكتشفها فى «منف» (١).

هذا والبردية بحالتها الراهنة غير الكاملة تبلغ من الطول ٣٧٨ سم، ومن العرض ١٨ سم، وقد كتبت بالخط الهيراطيقى، كتبها حكيم مصرى يدعى «إيبو - ور» (أو إيبو العجوز)، وصور فيها حالة البلاد على أيامه، وما انتهت

(1) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p.1.

إليه من ضعف ودمار، وذلك فى خطبة طويلة أمام فرعون، عصره، الذى يكنا. كثير من المؤرخين يجمعون على أنه «ببى الثانى» وإن كان «سير ألن جاردنر» يذهب إلى أنه ربما كان آخر خط الملوك المحففين^(١)، وهذا ما نميل إليه ونرجحه^(٢).

ويرجع تاريخ هذه التحذيرات لفترة ليست أكثر قدما من الأسرة التاسعة^(٣)، ولكنه منقول عن نص لا يمكن أن يكون قد كتب إلا فى فترة الاضطرابات نفسها، على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، أى ربما فى أخريات أيام الأسرة السادسة، وذلك اعتمادا على أجروميتها، فضلا عن بعض المميزات الأدبية من كتابات ذلك العصر^(٤).

ومن أسف أن البردية - شأنها فى ذلك شأن كثير من المخطوطات المصرية القديمة - قد فقدت بدايتها، كما فقدت نهايتها كذلك، هذا إلى جانب فجوات فى وسطها، ومن هنا لاقى الباحثون صعوبة فى معرفة موضوعها، حتى ظن البعض - بادئ ذى بدء - أنها ورقة تعليمية، فمثلا نشر «لوث» فى عام ١٨٧٢م ترجمة للصفحات التسع الأولى منها، إلا أنه نظر إليها كمجموعة من الحكم والأمثال التى قيلت للأغراض التعليمية أو الإيادية^(٥).

وفى عام ١٩٠٣م فتح «لنجه» الباب لعلماء الآثار للقيام بدراسات عن هذه الوثيقة، ومن ثم فقد قام بعد ذلك كثير من العلماء بأبحاث عنها^(٦)،

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 109.

(٢) انظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦م، ص ٨-٥.

(3) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, p. 2.

(٤) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٥٩.

(5) A.H. Gardiner, op.cit., p. 2.

(6) M. Pieper, Die Agyptische Literature, p. 23; T.E. Peet, A Comparative Study of The Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, p. 118-119.

غير أن الدراسة الكاملة للوثيقة إنما قام بها «سير ألن جاردنر» بنشر هذه الوثيقة في كتاب مستقل تحت عنوان: «The Admonitions of An: Egyptian Sage» وقد كانت دراسة جاردنر للوثيقة مثلاً يحتذى، فهي دراسة كاملة لها، كما أنه قدم كذلك ترجمة دقيقة للوثيقة.

وفي عام ١٩٢٣م أخرج «أدولف إرمان» كتابه عن «أدب المصريين القدامى» باللغة الألمانية، ويحوى ترجمات كاملة لأهم القصص المصرية، وكتب الحكم والأناشيد والأغاني وغيرها مما كان معروفاً، وسبق أن ترجمه علماء الأبحاث الأثرية حتى ذلك الوقت، وقد ترجم فيه لهذه الوثيقة، هذا وقد نقل كتاب إرمان هذا إلى اللغة الإنجليزية الأثرية الإنجليزية «إدوارد بلاكمان» في عام ١٩٢٧م^(١).

وفي عام ١٩٣٣م أخرج المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنري برستد» كتابه «فجر الضمير»^(٢)، وقد حلل فيه الوثيقة تحليلاً ممتازاً، وفي عام ١٩٥٠م قامت مجموعة من العلماء الأجانب بترجمة «نصوص الشرق الأدنى القديم»، وقد ترجم فيه «جون ويلسون» لهذه الوثيقة^(٣)، ولعل من أحدث الترجمات والدراسات الحديثة عن «تحذيرات إيسو - ور» هذه، ما قام به «فولكنر»^(٤) وLichtheim^(٥).

(1) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, Translated into English by A.M. Blackman, London, 1927, p. 92-108.

(2) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1933, p. 192-200.

وانظر: الترجمة العربية (جيمس هنري برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٢٠٧-٢١٤).

(3) J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 441-444.

(4) R.O. Faulkner, in JEA, 50, 1964, p. 24-36; R.O. Faulkner, in JEA, 51, 1965, p. 53-62; R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 210-229.

(5) M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 149-163.

وأما أهم الترجمات العربية فانظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢٩٤-٣١٧؛ أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٤٩-٤٥٠؛ عبد العزيز صالحي، المرجع السابق، ص ٣٥٨-٣٦٢؛ حضارة مصر القديمة وأثارها ١/٣٩٣-٣٩٥، محرم كمال، المرجع السابق، ص ٤٦-٥٣.

وتتلخص البردية في أن الحكيم المصري «إيسو» - وره إنما يتقدم في خطبة طويلة، باتهام مريز يصف فيه حالة البلاد إبان عهد الثورة الاجتماعية، أمام فرعون عصره الذي أوقع عليه كثيراً من اللوم لضعفه وكسله، وقد ألقى إيسو - وره اتهامه هذا أمام مليكه، وبحضور آخرين، ربما كانوا من حاشية ذلك الفرعون ورجال بلاطه، وربما كان ذلك في اجتماع لأمر من الأمور عقد في القصر الملكي، وينتهي الحكيم بالنصح والتخدير من الإهمال والأخذ بالإصلاح، ثم يلي ذلك رد قصير من جانب الملك، ثم ينتهي المقال بتعقيب قصير من الحكيم «إيسو» - وره على الرد الملكي^(١).

هذا وتقع البردية في أربعة عشرة صفحة، يشغل الاتهام منها ما لا يقل عن الثلثين، إذ يستمر النص في نحو عشر صفحات في صيغ متجددة لفكرة واحدة: «الأرض تدور كمجلة الفخار»^(٢).

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن «إيسو» - وره إنما كان على صلة بالدلتا، كما كان كذلك مصلحاً، وكان يدرك مفساد الحكم في عصره، ولكنه كان من طبقة أرستقراطية قديمة، وكان يتمنى إصلاحها من داخلها، أو بوحى من فرعون حازم مصلح، ولم يكن يهضم أن يفرض عليها التغيير فرضاً عن طريق طبقة أقل منها منزلة، أو عن طريق الشعب - في حدود تعبيراتنا الحديثة - ولهذا اختلط الإخلاص في روايته بالمبالغة واختلط التحسر بالأمل، واختلط الخيال بالواقع^(٣)، ومع ذلك فإن روايته إنما تعبر عن الحالة السائدة وقت ذاك، من وجهة نظره - ذلك لأن كل الأحداث إنما تدل على أنه شاهد منصف، فإن حالة البلاد التي تناولها بالوصف لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو راوية^(٤).

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 194.

(٢) أدولف إيرمان وهرمان رانكه، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة ١٩٥٣م، ص ٤٢٨.

(٣) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ٣٨٣/١ - ٣٩٤.

(4) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 109.

هذا ورغم الجهد الذى بذل فى تنسيق البردية، فلم يراع فى عناصرها الترتيب المنطقى، وقد قسمها صاحبها إلى فقرات تبدأ كل مجموعة من فقراتها ببدايات متشابهة.

وليس هناك من ريب فى أن «تحذيرات إيسو - ور» ، إلى جانب أنها قطعة أدبية ممتازة، فهى أيضاً مصدر من أهم مصادرنا التاريخية فى دراسة أحداث الثورة الاجتماعية الأولى، تلك الثورة التى قامت بدورها فى تاريخ مصر الفرعونية، وفى تغيير كثير من معتقدات القوم وأفكارهم، فهى إذن واحدة من النصوص التاريخية الهامة، وذلك لأن صاحبها قد عاصر الأحداث المريعة التى كتب على كنانة الله فى أرضه أن تعيشها حيناً من الدهر، فهو شاهد عيان فى وصفه للفترة اللاحقة لانتهاء الأسرة السادسة، وربما كان قد شارك بوسيلة أو بأخرى فى أحداث الثورة.

هذا فضلاً عن أن الوثيقة ترسم لنا صورة عن مفكرى ذلك العصر (حوالى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) فصاحب البردية، حكيمنا «إيسو - ور» إنما يوجه نقده اللاذع المر إلى الملك نفسه، بشجاعة منقطعة النظير، لصدورها من مصرى يخاطب فرعون مصر، ذلك الفرعون الذى كان يعتبر نفسه - كما كان يعتبره رعاياه - إلهاً فوق البشر، فيتهمه بأنه سبب البلاء التى حاقت بالبلاد، ثم يزيد من جرأته حتى نراه يتمنى للفرعون أن يتذوق بعض هذا البأس بنفسه، ثم يرسم بعد ذلك صورة للحاكم الأمثل الطاهر النقى، الذى يعز عشيرته ويحميها، ويسحق الأشرار، أضف إلى ذلك أن البردية، كما قلنا، قطعة أدبية ممتازة، وأسلوبها قوى ممتاز يجمع بين النظم والنثر^(١).

وتحذيرات إيسو - ور» هذه إنما تتكون من قول منشور، ومن ست قصائد شعرية فيها جوهر الموضوع نفسه، وهى تبدأ بوصف ما حلّ بالبلاد من فساد

(١) محمد يرمى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، ص ٧-٨.

واضطراب، فيقول:

«يقول حراس الأبواب: فلنتطلق ولنذهب، وننحى الفسار عن حمل
حملة، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمعركة، وحمل آخرون من الدلتا
الدروع، ومن يزاولون أهذا الحرف، كصانعي الحلوى والجمعة، ثاروا، وصار
المرء ينظر إلى ولده نظرتة إلى عدوه، وأصبح الرجل الكريم في حزن وأسى لما
أصاب البلاد، وغدا الأجانب مصريين في كل مكان».

القصيدتان الأولى والثانية:

ويصف الحكيم المصري «إيبو - ور» في هاتين القصيدتين ما حلّ
بالبلاد من فساد واضطراب، وكيف انقلبت الأمور، وتحول القوم إلى
عصابات، وأصبح كل فرد مسلحاً بدرعه، لأن المجرمين قد انتشروا في البلاد
يعيشون فيها فساداً، وكل بيت من هذه القصيدة يبدأ بكلمتين هما: «حقاً
لقد».

وليس في وسعنا سوى أن نسوق إلى القارئ بعض آثار من تلك الصورة
التي رسمها الحكيم المصري من حياة الناس في ذلك العصر، يقول الحكيم
«إيبو - ور»:

«تدور البلاد كما تدور رحي الفخار، حقاً لقد تغيرت صورة البلاد،
وتبدلت أحوالها، وامتلاّت بالعصابات، ويذهب الرجل إلى حقله ومعه درعه،
حقاً لقد شحب الوجه، وقد تنبأ الأجداد بذلك حقاً لقد شحب الوجه،
وحامل القوس أصبح مستعداً، والمجرمون في كل مكان، ولا يوجد رجل من
رجال أمس، حقاً إن الناهبين في كل مكان».

«حقاً إن النيل يوافينا بفيضه مباركاً ميموناً، ولكن ما من أحد يحترث
الأرض، لأنهم لا يعرفون ما يطالعهم به الغد من شرور وأهوال».

«حقاً لقد غدت النساء عاقرات، ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس، فلا

يحدث حمل ولا ولادة، وليت الإله خنوم لا يشكل الناس بسبب ما أصاب البلاد.

«حقاً إن القلوب قد ثارت ، والوباء قد انتشر، والدم قد سال في كل مكان، ولقائف الموميات تتكلم، وإن لم يقترب أحد منها، حقاً لقد أصبح النهر قبراً لرجال كثيرين دفنوا فيه، وصار المكان الطاهر مجرى».

«حقاً إن الأرض تدور كمجلة الفخار، واللص أصبح صاحب ثروة، حقاً إن النهر قد امتلأ بالدم، فأصبح الرجل يعاف الشرب منه، حقاً إن البلاد قد أصابها الدمار، وأصبح الصعيد خاويًا».

«أنظر لترى قلائد الذهب والجواهر على نحور الجوارى، على حين تشتهي الحرة كسرة من خبز، وتقول «أما من شيء نأكله».

«أنظر: لقد حدث هذا بين الناس، فمن لم يكن في قدرته أن يقيم في حجرة، أصبح الآن يملك فناءً مسوراً، انظر: إن الفضليات الشريقات يرقدن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون في المخزن، ومن لم يكن ميسراً له أن ينام على الجدران، أصبح صاحب سرير، إن الرجل الغنى أصبح يمضي الليل وهو ظمآن، ومن كان يستجدي منه الحثالة، أصبح يمتلك الجعة القوية، انظر: إن أولئك الذين كانوا يمتلكون الملابس أصبحوا في خرق بالية، انظر: إن الذي لم يصنع أبداً قارباً، أصبح الآن يملك سفناً، وأصبح صاحبها ينظر إليها، غير أنها لم تعد ملكاً له، انظر: إن الذي لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس، أصبح الآن يملك ظلاً، والذين كانوا يملكون ما يأويهم، أصبحوا عرضة للعاصفة».

«انظر لترى المناصب وقد خلت من أربابها، وترى الناس يهيمنون كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً، حقاً لقد عزّ الذليل، وذلّ العزيز، وطمع الغريب في البلاد، فما هم ينتشرون في الأرض ، ويعيشون فيها فساداً».

«أنظر: لقد عمّ الحزن البلاد من أقصاها إلى أقصاها، والناس يستغيثون ولا مغيث، ويستجيرون ولا مجير، انظر: لقد أصبحت الحياة سرّة حتى عافها الناس، رخيصة حتى هانت على الناس، يقول الكبير يا ليتني متّ قبل هذا، وكنت نسيّاً منسياً، ويقول الصغير: ليت أمي لم تلدني، انظر: كيف يضحك الوضع من بكاء العظيم».

«انظر: لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش، ويشربون الماء، ولا توجد فاكهة، كما لا يوجد عشب يأكل منه الحيوان والطير، وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير، ولم يعد أحد يقول: هذا لي فخذ به بدلاً عني، لأن القوم صاروا جوعاً، انظر: لقد ضاع محصول القمح، وأصبح القوم لا يجدون لباساً أو عطوراً، أو زيوتاً، وأصبحت مخازن الحبوب خاوية، وألقي حارسها على الأرض».

«انظر لقد قلّ الودّ، وانقطع الرجاء، وانعدمت الرحمة، وفقدت المروءة، حتى أصبح المرء لا يتورع عن قتل أخيه، انظر: لقد سلبت قاعة المحاكممة الفاخرة، وأصبح المكان السري مكشوقاً، انظر: لقد فتحت الإدارات العامة، ونهبت قوانينها، وسلبت كشوف الإحصاء وأتلفت سجلات كتبة المناصيل».

«أنظر: لقد ألقيت قوانين دار القضاء في البهو، ووطئت بالأقدام في الشوارع، ومزقها الغوغاء في الأزقة، وأخذ العوام يروحون ويجيئون في دار القضاء الكبيرة، ونفى القضاء في الأرض، واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار».

«أنظر: إن الناس يثرون ضد حية التاج التي كانت تهدئ الأرض، لقد عرف سر البلاد التي لا يعرف أحد حدودها، إن القصر الملكي يمكن أن يهدم في ساعة، وتصبح أسرار ملك مصر العليا والسفلى معروفة».

«أنظر: ما عاد أحد يبحر إلى «جبيل»^(١)، فما الذى سوف نفعله بأخشاب الأرز التى اعتدنا أن نصنع منها تواييتنا، والزيت التى يحض بها الأمراء، وكانت ترد من هناك، ومن مجاورات «كفتيو»، ما عاد يأتى من ذلك شىء، حتى أصبح مجئ أهل الواحات بمنتجاتهم البسيطة شيئاً ذا بال».

«أنظر ما الذى جعل الأرض الحمراء تنتشر فى طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم، وجاءت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون فى مكان، وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا غرباء، وأهملوا جانباً».

«أنظر: حقاً لماذا لم تدفع إليفانتين وثنى - وهما من ممتلكات مصر العليا - الضرائب بسبب الحرب، وهناك حاجة إلى الفاكهة والقمح وكل أنواع التجارة، وكل ما ينتجه الصناع، فما فائدة الخزانة بدون دخل».

ويبلغ الأسى بالحكيم «إيسو - ور» نهايته، أسفاً على ما أصاب البلاد من اضطراب لا يعرف له علاجاً، فيفقد الأمل فى إنقاذ شىء، ويزداد تأثره بالكارثة التى لحقت بالبلاد حتى أنه يطلب من الإله أن تكون هذه نهاية الحياة نفسها، ثم يتجه بعد ذلك إلى نفسه فيوجه اللوم إليها، ويحملها جزءاً من الوزر الذى ارتكبه حين سكت على الشر، وامتنع عن أن يقول الحق، فينصح وينتصح، يقول: «ليتتى رفعت صوتى فى ذلك الوقت، حتى أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه، فالويل لى، لأن البؤس قد عمّ فى هذا الزمان».

هذا وقد سادت البلاد فى تلك الفترة المظلمة موجة غير دينية، وإن لم تكن إلحادية، فقد تخلص المصريون إلى حين عن الصق صفاتهم بهم - وأعنى بها صفة التدين والورع المطبوع فى نفوسهم - حتى وصل الأمر

(١) كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن»، وفى الدولة الوسطى «كبنى»، وفى الدولة الحديثة «كبناء»، وأسماها الآشوريون «جوبلا»، والإغريق «بيبلوس»، والعرب «جبيل»، ولقع على مبعده ٤٠ كيلاً شمال بيروت.
(A.H. Gardiner, Onom, I, p. 257).

بعضهم أن ينكروا وجود الإله نفسه، يقول الحكيم «إيسو - ور» :
«حقاً إن الرجل الأحق يقول: إذا عرفت أين يوجد الإله ، فإننى أقدم له قرباناً» .

وتسود المجتمع المظالم، ويفقد القوم ثقتهم فى العدالة، إذ تنحرف عن طريقها المستقيم، يقول «إيسو - ور» : «والعدالة موجودة باسمها فقط، وما يعملها الناس حين يلتجئون إليها هو الظلم»، ولم يكن لدى الثوار وازع من دين أو خلق يحميهم من نبش قبور الموتى، حتى قبر الملك الإله نفسه، كتب عليه ذلك المصير الأليم، يقول «إيسو - ور» . «انظر الآن، فلقد حدث شيء لم يحدث أبداً منذ زمن بعيد، فإن العائمة سرقوا الملك، انظر: إن الذى دفن كصقر إلهي، صار اليوم فوق خشبة نعش، وأصبح ما فى الهرم خاوياً» .
القصيدتان الثالثة والرابعة:

لم يبق منهما سوى القليل، وأهمن فقراتهما:
«إن الدلتا تبكى، ومخازن الملك أصبحت مشاعاً للجميع، ولا ضرائب للقصر مما هو مستحق له من شعير أو قمح أو سمك، وذلك بالرغم مما يستحقه من قماش أبيض وكتان رقيق، ونحاس وزيت وحصير وسجاد وما عداها من المستحقات الجيدة» .

القصيدة الخامسة:

تتضمن مقدمتها حديثاً عن عبادة الآلهة، وكيف كانت تعبد فيما مضى وكيف يجب أن تعبد فى المستقبل، وتبدأ بكلمة «تذكر» وقد جاء فى هذه القصيدة:

«تذكر كيف يضمنخ بالطيب والبخور، وكيف يقدم الماء من أبريق فى بكرة الصباح» .

تذكر كيف يجلب الأوز السمين، ويقدم هو والبط والقرايين المقدسة للآلهة.

تذكر كيف بمضغ النطرون (ليطهر الكاهن فمه) ، ويجهز الخبز الأبيض في اليوم الذي يلبس فيه الرأس.

تذكر كيف تقام أعمدة الأعلام، وتنقش أحجار القربان، ويظهر الكاهن المعبد، ويبيض بيت الله كاللبن، ويعطر الأفق (أى المعبد) ، ويخلد خبز القربان.

تذكر كيف تراعى القواعد، وتنظم أيام الشهر، ويعزل الكهنة الأشرار.

تذكر كيف تنحر الثيران، ويوضع الأوز على النيران، ويقدم قرباناً.

ثم يلي ذلك جزء كبير غامض تتخلله بعض الفجوات الكثيرة، وأهم ما هو ظاهر فيه عن الحاكم العادل المنتظر، والذي وصفه «إيسو - ورا» بأنه:

«إنه يطفى لهيب (الحريق الاجتماعي) ، ويقال عنه أنه راعى الإنسانية، ولا يحمل في قلبه شراً، وحينما تكون قطعانه (بمعنى رعيته) متفرقة فإنه يصرف يومه في جمعها، وقلوبها محمومة ليته عرف أخلاقها في الجيل الأول، فحينئذ كان في مقدوره أن يضرب الشر، وكان في قدرته أن يمد ذراعه ضده (أى الشر)، وكان في مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك، وعلى ورثتهم، فأين هو اليوم، هل هو بطريق الصدفة نائم، انظر: بأسه لا يرى...».

ثم يستطرد «إيسو - ورا» إلى بيت القصيد، وهو توجيه النذر إلى الملك نفسه فيقول:

«لديك الحكمة والبصيرة والعدل... ومع ذلك تترك الاضطرابات وضوضاء المتعاركين تنتشر في البلاد، أنظر إليهم إن كل واحد منهم يضرب الآخر، ولا يعبأ بالأوامر، فهل تلقى راعياً يحب الفناء».

«لقد كذبوا عليك، فالبلاد تشتعل كالقش، والناس على شفا

الهلاك... وهذه كلها سنوات حرب أهلية، فالرجل يقتل على سطح منزله، حينما يكون مراقباً في حدود بيته، ولكنه إن كان قوياً، فإنه ينجى نفسه بنفسه، ويبقى حياً...».

«ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك، وعندئذ يمكنك أن تقول...»
وعندما يرد الملك بأنه حاول حماية شعبه، نظر إليه وقال: إن الملك أحسن القصد، ولكنه لم يصل إلى الغرض بسبب جهله، وعدم كفايته «إذا كنت تجهل ذلك، فقد يكون الجهل شيئاً مريحاً للنفس، وربما فعلت شيئاً طيباً لقلوب الناس وأحببتهم، ولكنك تغطى وجوههم فزعاً من الغد».

القصيدة السادسة:

وفيها وصف للوقت السعيد الذى يدخره المستقل.
«على أنه من الخير أن تسير السفن متجهة نحو الجنوب.
على أنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور
على أنه من الخير أن تبنى أيدي الرجال الأهرام، وتخفر البرك، وتقام
للآلهة مزارع فيها أشجار
على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى، وأن يشربوا... فرحى
القلب.

على أنه من الخير أن يبدو الفرح فى أفواه الناس
على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة، ومساند رؤوس العظماء
تحميها التمائم، ويهياً لكل إنسان سرير خلف باب مغلق، فلا يحتاج إلى
النوم فى الأعشاب...».

٢ - نبوءة نفرتى

كان اسم صاحب هذه البردية «نفرتى» ينطق إلى عهد قريب «نفر - روهو» (نفر - رحو)، وهو - فيما ترون - البردية - كان مرتل من «بر - باست» (بوابستس، وهى تل بسطة الحالية، فى مجاورات مدينة الزقازيق، عاصمة محافظة الشرقية)، وعلى أية حال، فالبردية محفوظة فى «متحف لينتجراد» فى الاتحاد السوفيتى (برقم ١١١٦ ب)، وقد عثر عليها «فلاديمير ساميو نوفتش جولينشف» الذى قام بنشرها فى عام ١٩١٣ م^(١) ثم نشرها أيضاً «هالك» فى عام ١٩٧٠ م^(٢).

هذا وقد قام «سير ألن جاردنر» بترجمة البردية فى عام ١٩١٤ م^(٣)، ثم ترجمها «أدولف إرمان» فى عام ١٩٢٣ م^(٤)، كما قام «جيمس هنرى برستد» بتحليل البردية تحليلاً ممتازاً^(٥)، كما قام بترجمتها والتعليق عليها كثير من العلماء، من أمثال «جون ويلسون»^(٦)، و«جوستاف لوفيفر»^(٧)، و«وبوزنز»^(٨) و«بارتا»^(٩) و«فولكنر»^(١٠) وغيرهم^(١١)، هذا إلى جانب عدة

(1) V.S. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiques, N.9, PA, 1116B, de L'Ermitage Imperial, ast-Petersbourg, 1913, Pls. 23-25.

(2) W. Helck, Die Prophezeiung des Nfr-ti, Wiesbaden, 1970.

(3) A.H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106.

(4) A. Erman, LAE, 1927, p. 110-115.

(5) J.H. Breasted, op.cit., p. 200-206.

(6) J.A. Wilson, in ANET, 1966, p. 444-446.

(7) G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 95-105.

(8) G. Posener, Literature et Politique dans L'Egypte de la XII dynastie, Paris, 1956, p. 21-60 and 145-157.

(9) W. Barta in MDIK, 21, 1971, p. 35-45.

(10) R.O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London 1977, p. 234-240.

(11) B.Gunn, in JEA, 12, 1926, p. 250F; T.E. Peet, op.cit., p. 120F; M. Pieper, op.cit., p. 15; M. Lichtheim, op.cit., p. 139-145.

نرجس، انتا، تربية للبردية (١).

رتن جمع البردية إلى أوائل عهد الأسرة الثانية عشرة، وربما إلى عهد
مؤسسها الملك «أمنمحات الأول» (١٩١١-١٩٦٢ ق.م)، أو على الأقل
ليس بعد عهده بفترة طويلة، ولكن كاتبها نسبها إلى عهد قديم، فلقد زعم
أنها ألقيت في «مضرة الملك» «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، أي قبل عصر
الأسرة الثانية عشرة بفترة طويلة.

ويذهب «برستد» إلى أن ذلك إنما هو مجرد وضع تمثيلي ليسغ على
كلمات «نفرتي» الهامة قوة التأثير، ومن حسن الحظ أن كاتباً من عهد
الدولة الحديثة، ممن عاشوا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، قد ظهرت له
أهمية هذه الوثيقة، حتى أنه عندما لم يجد بردياً جديداً ينقل فيه نص
الوثيقة، أخذ جزءاً من بعض أوراق مستعملة في تدوين حساباته، ونقل تلك
النبوءة على ظهرها، وهكذا بقيت «نبوءة نفرتي» في تلك الصورة التي
وصلتنا عفاً، بما تحويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التي حدثت
عند نقله لها بطريق المصادفة كما أشرنا آنفاً (٢).

وليس هناك إلى سبيل من شك في أن الدافع إلى كتابة هذه النبوءة،
إنما هي الدعوة إلى تمجيد الملك «أمنمحات الأول»، ووصفه بالصفات التي
يتحمناها الناس في العاهل الجديد، والذي كان الحكيم «إيسو-ور» ينتظر
قدومه، وإفهام الناس أن «أميني» (وهو اختصار اسم أمنمحات) إنما سيتولى
العرش بناء على إرادة الآلهة، وأن الحكماء قد تنبأوا بذلك أمام الملك
«سنفرو»، ذلك الفرعون الذي كان له في قلوب الناس مكانة لا تعادلها
مكانة فرعون آخر من سبقه من الفراعين، حتى أنه كان يوصف بأنه «الملك

(١) انظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٣١٨-٣٢٤، أحمد فخري، المرجع السابق،

ص ٤٥٠-٤٥١، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٦٥-٣٦٦، عبد الحميد زايد،

مصر الخالدة، ص ٣٥٢-٣٥٤.

(2) J.H. Breasted, op.cit., p. 201.

المحسن»، و«الملك الرحيم» و«الملك المحبوب» و«الملك الفاضل»، كما صورته الوثائق متواضعاً، يميل إلى المعرفة، ويكرم العلماء ويحسن الاستماع، ويكتب بنفسه، ولا يبالي أن يسأل عما لا يعرفه^(١).

وتشمل البردية على موضوعين رئيسيين، أولهما: الحالة السيئة التي آل إليها أمر البلاد، إبان الثورة الاجتماعية الأولى. شأنها في ذلك شأن تحذيرات إيسو - ور، وثانيهما: الإعلان عن مليكه الجديد الذي سيخلص البلاد مما نزل بها من شر، ويسعد من يعيشون في عصره.

وفي الحقيقة أن كلا الموضوعين قد تحدث عنهما «إيسو - ور»، فلقد وصف الخراب والدمار الذي حل بالبلاد، كما تنبأ بقرب ظهور الملك الأمثل، وهكذا يأتي «نفرتي» فيتحدث عن ذلك كله، ولكنه يزيد على «إيسو - ور» بأن يحدد اسم المخلص الجديد، وأنه «إميني»، وهذا هو الهدف من البردية، ولهذا فهي دعاية للملك «أمنمحات الأول» (أميني) ما في ذلك من ريب، وأما ما جاء من وصف الخراب الذي حل بالبلاد، فصحيح يتفق وعصر الثورة الاجتماعية الأولى، ما في ذلك من ريب أيضاً، ومع ذلك فمكانة نبوءة نفرتي كوثيقة تاريخية ليست في مكانة تحذيرات «إيسو - ور»، لأن الأخير إنما كان شاهد عيان يدفعه إلى كتابة ما كتب دوافع عليا وأهداف سامية، حتى إننا نجده يلوم نفسه لتأخره في إسداء النصيح للمليك عصره، «ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه، فالويل لي لأن البؤس قد عم في هذا الزمان^(٢)»، كما أنه لم يكن في دعوته هذه مدفوعاً إلى الدعاية لحاكم بذاته، وإنما كان يطلب الحاكم الأمثل فحسب، أيًا كان هذا الحاكم.

(1) G. Posener, op.cit., p. 32; B. Gum, JEA, 12, 1926, p. 250-251.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٥٠، وكذا: J.A. Wilson, ANET, p. 449.

وأما «نفرتى» فلم يكن شاهد عيان، وإنما ينسب تأليفها إلى عهد قديم، إلى عهد الملك «سنفرو»، كما يظهر فى نبوءة نفرأى بوضوح مظهر الدعاية للملك «أمنمحات الأول»، بل إن بعض المؤرخين إنما يرى أنه لا يستبعد سلباً أن يكون الحديث (يعنى النبوءة) من وضع الملك «أمنمحات الأول» نفسه^(١)، وفى كلتا الحالتين إنما يعتبر كاتب هذه النبوءة شبه شاهد عيان، لقرب عهده من أحداث الثورة الدامية نفسها.

ولنقدم الآن صورة مجملة لهذه النبوءة التى جاءت فى «بردية نفرتى».

١ - وصف حال البلاد:

يقول «نفرتى» فى نبوءته بعد المقدمة: «لقد أصبحت البلاد خراباً، فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع عليها، لقد حجب الشمس فلا تضىء حتى يبصر الناس».

«لقد جفّ نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن، فيجدون أن الطريق صار شاطئاً، كما صار الشاطئ ماء».

«إن البلاد فى كرب وعويل، لقد حدث ما لم يحدث من قبل، سيحمل الناس أسلحة الحرب، حتى تعيش الأرض فى قلق واضطراب وسيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتسموا الخبز بالدم، ويضحكوا ضحكة الموت، لن يبكى الناس من الموت، ولن يهتم أحد إلا بنفسه».

«لن يعنى أحد بترجيل شعره، ويجلس المرء فى مكانه لا يحرك ساكناً، بينما يرى الناس يقتل بعضهم بعضاً، سأريك حالة البلاد، وقد أصبح الأب خصماً، والأخ عدواً، الرجل يقتل أباه، واختفى كل شئ طيب، وخربت البلاد، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب للغريب، وغدا المالك فى حرمان، والأجنبى فى شبع ورفاهية».

(١) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٩٤.

«لقد أصبح للكلام في قلوب الناس وقع كثر من السابق، ولم يعد أحد
يمسح بجلي النصيحة، لقد نقصت الأرض وتضاعف حكايتها، وأرسلت
الحقول عارية، غير أن ضرائبها كثيرة، وغلتها قليلة، مع أن الزكيال صار
كبيراً، وكانوا يملؤنه حتى يطفح، لقد ظهر الأعداء في الشرق، واقتحم
القبليون مصر، ولكن ما من مدافع يسمع أو يجيب».

«لقد تباعد الإله رع عن الناس، وإذا ظهر أشرق ساعة، ولا يكاد أحد
يعرف أوان الظهر لأنه ما من ظل يدل عليه، لم تعد الأبصار تبهر عند التطلع
إلى الشمس، ولم تعد العيون تبلل بالماء، إذا أصبحت الشمس في السماء شبيهة
بالتسر».

«سأريك البلاد، وقد أصبحت شذر مذر، لقد أصبح الكليل صاحب
سلطة وسلاح، وصار القوم يجفلون من كان لا يجفل، سأريك البلاد، وقد
أصبح في القمة من كان في الدرك الأسفل، وسيعيش الناس في الجبانة،
وسيتمكن المعدم من الشراء، وسيأكل المتسولون خبز القرابين، بينما يتتهج
الخدم بما حدث».

٢ - الدعوة إلى الملك الجديد:

وهنا يصل المتنبي إلى هدفه - وهو الدعوة للملك الجديد (إميني) :

«سيأتي ملك من الصعيد، يدعى «إميني» له المجد، ابن امرأة من
«تاستي» (جزيرة أسوان)، ويولد في الصعيد في «خن نخن» (البصيلية مركز
إدفو بمحافظة أسوان)، وسوف يتلقى التاج الأبيض، ويتوج بالتاج الأحمر،
فاسعدوا إذن يا أهل عصره، وسوف يعمل ابن الإنسان على تخليد سمعته
إلى الأبد، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر، ودبروا الفتنة، فسيطبقون
أفواههم خوفاً منه، وسوف يسقط الآسيويون بسيفه، والليبيون أمام لهيبه،
وسيستسلم الثوار أمام غضبه، والعصاة أمام جلالته، وسيخضع المتمردون

للصل الذي على جبينه، وسوف يبنى حائط الأمير، ولن يستطيع الآسيويون أن يدخلوا مصر عنوة، وإنما سوف يستجدون الماء منها لتشرب ماشيتهم، كما لو أنهم، وسوف تعود العدالة إلى مكانها، ويقضى على الظلم، وسوف يبعد من يرى، ومن سيكون في خدمة الملك.

وهكذا يصف «نفرتى» ملكيه المنتظر بأنه سيحقق كل ما فقده القوم أثناء الثورة، فهو سيقضى على الفتن الداخلية، وسيجلى البلاد من شر جيرانها الليبيين والآسيويين، وأنه سيبنى سور الحاكم لحماية الدلتا من تسلل البدو، وهكذا يستطيع الخاص الجديد أن يقضى على شرور الناس وأن يبدأ عصرًا جديدًا.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «نفرتى» إنما يصرح فى نبوءته بأن ملكه الجديد، ليس من سلالة البيت المالِك القديم، فهو إذن ليس بإله كغيره ممن سبقوه من الفراعين. المؤلفين، وإنما هو ابن امرأة من جزيرة إسوان (إلفانتين) وأنه قد واد فى البصيلية (نخن)، وربما قد دفعه إلى ذلك ضياع الهالة القديمة التى كان يتمتع بها الفراعين من قبل، وربما دعاه إلى ذلك كثرة المطالبين بالعرش أو المدعين له، تلك الكثرة التى جعلت ملكه الجديد، ليس مدعى بين المدعين أو المطالبين، وربما كان «أمنمحات» (إمينى) نفسه قد لجأ إلى الدعاية لنفسه، فاخترع تلك النبوءة المعروفة، فأمر ذلك جائز، وقد دعا إليه بعض المؤرخين، ذلك لأن الظروف التى أحاطت به قد ألجأته إلى ذلك فهو لم يكن أميراً، ولم ينتسب إلى بيت إمارة، ولأنه إنما كان قد فطن بذكائه وسعة إدراكه وتجاربه الواسعة إلى أن الناس قد سئموا المدعين من فلول الأمراء الذين ينتسبون إلى بيت الملك، وكرهوا سلطانهم، وبذلوا ما فى وسعهم فى سبيل الخلاص من تلك الأسر التى رفعت نفسها إلى مجال التأليه، فكان من المنطق أن يلجأ «أمنمحات» إلى الدعاية لنفسه بما يصادف فى نفوس الناس هوى وارتياحاً، ومن ثم فقد أخذ يبشر بظهور مخلص

جديد، أسماء «إميني» تارة، وأسماء «ابن الإنسان» تارة أخرى وكان يقصد بذلك إلى إقناع الناس بأن مخلصهم وحاكمهم الجديد، ليس من بيوت الملك والإمارة، وإنما هو من الشعب، صديق الشعب وريبب الشعب^(١)

وهكذا أصبح الانتساب إلى الشعب شرقاً يدعيه الطامحون إلى تبوأ عرش الكتانة، فها هو «أمنمحات» يذيع عن نفسه «إله ابن امرأة من تاستي، وقد ولد في «خن نخن»، ولم يقل أنها، أو هو، من أصل ملكي، ومن البدهي أن ذلك لم يكن عن رغبة عن الانتساب إلى الأصل الملكي، ولكنها كانت رغبة العصر، ذلك العصر الذي أعطته الثورة الاجتماعية الأولى مبادئها، والتي كان منها أن الانتساب إلى الشعب ميزة يفخر بها من يحاول التقرب إليه^(٢).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذا المبدأ قد سرى بين أمراء الأقاليم كذلك، ومن ثم فقد ادعى بعضهم ادعاءات عريضة عما قدموه من خير لأقاليمهم، ثم يفخرون بعد ذلك أنهم إنما كانوا محبوبين من مدنيهم، وهكذا رأينا الواحد منهم يفخر بأنه الحاكم المحبوب في مدينته^(٣).

(١) أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ١٢٠، محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، ص ٢٠١-٢٠٣، وانظر عن تعبير «ابن الإنسان»، وقد استخدمه السيد المسيح عليه السلام عن نفسه في الأناجيل الأربعة (كمثال: متى ٢٨/١٩، ٢٦/٢٦، مرقس ٢٨/٢، ١٤/٦٢، قاموس الكتاب المقدس ١/١٢٤، بيروت ١٩٦٤).

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(3) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

٣ - إرشادات إلى الملك مري كارع

تعرف هذه البردية التي تحوى «إرشادات إلى الملك مري - كارع» باسم «بردية بطرسبرج»، وهى محفوظة الآن فى «متحف لينتجراد» تحت رقم (1116A)، غير أن هذه النسخة ليست هى النسخة الوحيدة ذلك لأن النص إنما قد جمع فى ثلاث برديات، الواحدة فى لينتجراد، والثانية فى «موسكو» (برقم ٤٦٥٨)، والثالثة فى «كوبنهاجن» ويرجع تاريخها جميعاً إلى حوالى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، وهى جميعاً معقدة بسبب الفجوات والغموض من كل نوع، ولو بقى الجزء الأول من النص، وكان أكثر تماسكاً وحفظاً، لكان أهمها جميعاً، مادام يقدم النصح بأنه من الأفضل حسن معاملة الموالى العنيدى الذين يستمتعون بشعبية ملحوظة^(١).

هذا وقد اختلف المؤرخون فى صاحب هذه الإرشادات أو النصائح، لأن اسم الأب (صاحب النصائح) مفقود، ولكنه ربما كان «إختوى»، وإن لم يكن أول من يحملون هذا اللقب، ومن هنا قد ذهب فريق إلى أنه «إختوى» (خيتى) الثالث، بينما رأى آخرون أنه «خيتى الرابع»، هذا فضلاً عن أن الخلاف لم يكن فى اسم الملك صاحب التعاليم، وإنما امتد كذلك إلى الأسرة التى يتنسب إليها، ومن ثم فقد ذهب فريق من الباحثين إلى أنه من الأسرة التاسعة، بينما ذهب آخرون إلى أنه من الأسرة العاشرة.

وعلى أية حال، فهناك فريق كبير من الباحثين يكادون يجمعون على أن «نب كاورع» إنما هو «خيتى الثالث»، وهو نفسه صاحب الإرشادات - موضوع بحثنا هذا - وأنه من ملوك الأسرة التاسعة، على أن هناك وجهاً آخر للنظر، يتزعمه بعض علماء المصريات، من أمثال الدكتور أحمد فخرى^(٢)،

(1) M. Lichtheim, op.cit., p. 97; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 115.

(٢) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٦٨.

ووليم هيز^(١)، ووينلوك^(٢)، إنما يرى أن صاحب الإرشادات إنما هو «خيتي الرابع» (واح كا رع) من الأسرة العاشرة، على أن «الكسندر شارف» إنما يذهب إلى أنه «خيتي الثالث»، وأنه من الأسرة العاشرة، حيث وضع الأب والابن في هذه الأسرة العاشرة^(٣)، وإنتى لأميل إلى أن صاحب الإرشادات الموجهة إلى الملك «مرى كا رع» إنما هو «خيتي الرابع»، وأنه كان من ملوك الأسرة العاشرة الإهناسية، وليس من الأسرة التاسعة.

هذا وقد اكتشف هذه البردية في عام ١٨٧٦م، الأثرى الروسى «فلاديمير جولينشف»، وكان أول من قام بنشرها^(٤)، ثم ظهرت لها بعد ذلك عدة ترجمات، كان من أهمها ترجمة «نجاردنر»^(٥) و«إرمان»^(٦)، ثم تحليل «برستد» لها في «فجر الضمير»^(٧).

وفي عام ١٩٣٦م، قام «الكسندر شارف» بأهم ترجمة للوثيقة، مع التحليل السياسى والنقد التاريخى لمحتوياتها^(٨)، وفي عام ١٩٤٥م قام «فولتن» بنشرها مرة أخرى^(٩)، كما قام بترجمتها أيضاً والتعليق عليها كل من

(1) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 144.

(2) H.E. Winlock, The Rise and fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947, p. 20

(٣) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٣.

(4) Vladimir S. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiques, Nos. 1115, 1116A et 1116B de L'Ermitage imperial a St -Petessbourg, St-Petessbourg, 1916, Pls. IX-XIV.

(5) A.H. Gardiner, in LEA, I, 1914, p. 20-36.

(6) A. Erman, in IEA, 1927, p. 75-84.

(7) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 145-150.

وفي الترجمة العربية (جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٦٧-١٧٣).

(8) A. Scarff, Der Historische Abschnitt der lehre fur konig Merikare, in SPAW, 1936, Heft, 8, (Lines 69-110 and Most of Lines, 111-144).

(9) A. Volten, Zwei altagyptische Politische Schriften, Analecta Aegyptiaca, 4, Copenhagen, 1945, p. 3-82, Pls. 1-4.

«بوزنر»^(١) و«دريوتون»^(٢) و«وليامز»^(٣) و«مولر»^(٤) و«كيس»^(٥) و«ردفورد»^(٦) و«بيكرات»^(٧) و«لوب»^(٨) و«سمبسون»^(٩) وغيرهم^(١٠)، فضلا عن الترجمات العربية للوثيقة^(١١).

وأما عن الظروف التاريخية للوثيقة، فمن المعروف أن مصر قد تعرضت فى أخريات أيام الدولة القديمة لفترة ضعف سياسى، وهى الفترة التى يطلق عليها المؤرخون «عصر الانتقال الأول» أو (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)، والتى تقطعت فيها أوصال البلاد، وتفرقت كلمتها، وقد بدأت تلك الفترة منذ أخريات الأسرة السادسة (حوالى عام ٢٢٨٠ ق.م)، واستمرت حتى قيام الدولة الوسطى (حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م).

ولعل من أهم أحداث تلك الفترة سيطرة ملوك إهناسيا، مكونين الأسرتين التاسعة والعاشرة - على الشمال، ثم الصدام المرير بينهم وبين أمراء طيبة (الأقصر)، ذلك أن إهناسية إنما كانت تحس أن سلطانها على مصر لن

(1) G.Posener, Annuaire du College de France, 62, (1962, p. 290-295, 63, (1963), p. 303-305, 64, (1965), p. 305-307, 65, (1965), p. 343-346, 66, (1966), p. 342-345; G. Posener, RDE, 7, 1950, p. 176-180.

(2) E. Drioton, RdE, 12, 1960, p. 90-91 (Line 92).

(3) R. Williams, in Essays in Honou of T. J. Meek, Toronto, 1964, p. 16-19.

(4) D. Muller, in ZAS, 94, 1967, p. 117-124.

(5) H.Kees, in MDIK, 18, 1962, 6, (Lines 88-89).

(6) D. Redford, in JEA, 51, 1965, p. 105-107.

(7) J. Von, Beckerath, in ZAS, 93, 1966.

(8) J. Lopez, in RdE, 25, 1973, p. 178-191.

(9) W.K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, 1977, p. 180-192.

(10) J.A. Wilson, in ANET, 1966, p. 414-418; M. Lichtheim, op.cit., p. 97-109; P. Seibert, Die Charakteristik, I, Wiesbaden, 1967, p. 90-98, (Lines 91-94 and 97-98).

(١١) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٩٠-١٩٧؛ محرم كمال، المرجع السابق،

ص ٦١-٨٠؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٤١-١٤٢؛ أحمد فخري، المرجع

السابق، ص ٤٤٠-٤٤٢؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣٠٨؛ نجيب

ميخائيل، مصر ١/٢٩٢-٢٩٤؛ أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٨.

يتم، مادام هناك أسى في الشمال، وطيبى في الجنوب، وكل منهما يحتل جزءاً من البلاد، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد والتحكم في شئونه، مادامت تدين بالولاء لإهناسية وتدفع لها الجزية، وكان كل من الفريقين يترصد بالآخر الدوائر، ويعمل على تجميع أنصار له، وهكذا دارت رحى الحرب بينهما نحرًا من ثمانين عاماً، وانتهت بانتصار طيبة على إهناسية، رغم أن عوامل النصر كانت في يد إهناسية أكثر منها في يد طيبة.

وعلى أية حال، فإن هذا النصر لم يكن لأمر طيبة، وإنما كان لمصر كلها، حين وسعها الله تعالى برحمته، فأعاد وحدتها، التي أضاعها عصر الثورة المضطرب، ومن ثم فقد بدأت مصر تتبوأ مكانها في التاريخ الإنساني من جديد، وذلك بقيام الدولة الوسطى، تحت زعامة سادة طيبة الجدد.

هذا ولم يزدهر الأدب في أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم، كما ازدهر في هذا العصر - عصر الثورة الاجتماعية الأولى - فقد كتبت فيه كثير من البرديات، التي وصل فيها فن الكتابة إلى قمة ازدهاره، مثل برديات: الفلاح الفصيح، وتحذيرات إيو - ور، واليائس من الحياة، وغيرها، هذا فضلاً عن أن هذه الفترة قد تميزت بالإعلاء من شأن الفرد واعتزازه بنفسه، وتخطيم تلك الهالة التي كانت تجعل الشعب يذوب في شخصية «الملك - الإله»، والتي تجعل المجد في الدنيا، والسعادة في الآخرة لمن ينال رضى الإله وعطفه، وتكون له الثروة التي تمكنه من إنشاء قبر كبير يعين له من الكهنة من يقومون بالصلاة على روحه في الأعياد، ويقدمون له القرابين في كل يوم، ويوقف من أرضه ما يكفى للإتفاق على ذلك كله.

وتقوم الثورة الاجتماعية في أخريات أيام الأسرة السادسة، وفيها لم يحطم الشعب دواوين الحكومة وقصور الأغنياء ومقابر الملوك وأصفائهم فحسب، وإنما يحطم كثيراً من التقاليد القديمة، ويصبح المصريون يؤمنون

بالمساواة الاجتماعية، ومن ثم لم يعد تقدم الفرد فى حياته رهنا برضى الملك أو بنسبه أو ثرائه، وإنما أصبح منوقفاً على جده واستقامته، كما أصبحت الجنة لمن أحسنوا فى الدنيا عملاً، وجانبوا المعاصى، وصلحت سريرتهم، كما أنها لم تعد وقفاً على الملك ومن أحاطوا به من رجال بلاطه، ومن اشتروا بشرواتهم قرابين تقدم لأرواحهم بعد الموت، يبدو هذا واضحاً فى أدب ذلك العصر، وبخاصة فى النصائح الموجهة إلى الملك «مرى كا رع»، والتي سنحاول هنا تقديمها بإيجاز، مستدلين بفقرات منها على الأفكار النبيلة التى تحتويها، ونلاحظ أنه على الرغم من أنها نصائح سياسية فى الدرجة الأولى، إلا أن أسلوبها الأدبى لا يقل جمالاً وجودة عن أية قطعة أدبية أخرى، ولنحاول الآن أن نقدم أهم ما جاء فى هذه الإرشادات الموجهة للملك «مرى كا رع» من أفكار:

تكاد تعاليم الملك الإهناسى هذه أن تكون مرآة لأيام عهده، فهو قد اصطدم فى حروب مع أهل الجنوب دارت رحاها حول إقليم «ثنى»، وعلى مقربة من «أبيدوس» (مركز البليثا - بمحافظة سوهاج)، إحدى عواصم البلاد الدلتية العريقة، فقص علينا كيف انقض على المدينة المقدسة انقضاض الصائغ، فخر عليها وأخذها كما تأخذ الغمامة المطرة ما تحتها من أرضين، فإذا الديار خربت، وإذا القبور بعثت، ثم سرعان ما يحدثنا الفرعون عن ندمه الذى آذى نفسه، ثم أخذ عواطفه فهزها هزاً، وهو يعود فيعتذر من هول ذلك الجرم، حين ينسبه إلى جهل عساكره، ويدولى أن أمير طيبة قد اهتبل الفرصة، فأخذ يولب القوم عليه، ويشير النفوس ضده، ويغرى به الناس، وذلك حين اتخذ من انتهاك حرمت القبور فى أبيدوس، سبيلاً للضرب على عواطف المؤمنين، وطرقها بمطارق من حديد.

وظاهر من تعاليم الملك الشيخ لولده «مرى كا رع» أنه كان يعانى من فعلته هذه كثيراً من المرارة والألم بين الفينة والفينة، ثم يعود فيعزى نفسه

عن هولها، معتذراً بأنها قد وقعت من وراء علمه، وأنه لم ينبأ بالأمر إلا بعد وقوعه، ولم يعلم بالكارثة إلا بعد أن تمت، ولم يعرف بأمر النكبة إلا بعد فوات الأوان، انظر إليه حين يقول لولده في إرشاداته:

«إن مصر تحارب حتى في الجبانة، إني فعلت ذلك، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الإله، انظر: لقد حدثت كارثة في عهدي، غزى إقليم ثنى بسبب ما فعلت، غير أنني لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إن ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى، مضى جيل من الناس، والله الذى يعرف القلوب لم يختبئ: تعس هذا الرجل الذى يطلب الحرب، لأن العدو وسط مصر، ونحن نريد جنداً لإخضاع المحاربين لكي تصدق النبوءة: هذه مصر تحارب وسط قبورها، لا تؤذ القبور بالحرب، لأننى فعلت ذلك، ولهذا أستحق ما حلّ بى من عقاب الله».

ثم يحمل الملك الشيخ هذه الحرب الأهلية، ما حلّ بالبلاد من مصائب فهي التى مكنت الأجانب من دخول البلاد، ثم ينصح ولده بأن يتخذ الإجراءات ضدهم: «إذا تعرضت حدودك للخطر، فاعلم أن هذا يعنى أن حمة القوس الذين فى الشمال، سيتمنطقون بعدة الحرب، ابن حصونك فى الشمال».

وحين يستعيد المصريون شعورهم بالسيادة على غيرهم من الشعوب نرى الملك الإهناسى يتحدث إلى ولده باحتقار شديد عن الآسيويين: «انظر إلى الآسيوى اللعين (يعنى البدوى)، إن الأمور سيئة فى بلاده، فمأؤه آسن، وطرقاته وعرة، لذلك فهو دائم الترحال، لا يستقر فى مكان واحد، وإنما ظلّ يشاغب منذ عهد الإله حور، لا يغلب ولا يغلب، لا تهتم بأمره، فهو ليس إلا بدوياً، شخص منبوذ على الشاطئ، لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان، أقم الحصون فى تخومك الشرقية، وابن مدناً، وعمرها بالسكان».

ويصور الفرعون لولده «مرى كارع» الطريقة التي اتبعها في إضعاف الآسيويين، وفي إجلالهم من الدلتا، ودعاه إلى أن يترسمها، ويصور له هذه الطريقة في شقين:

أولهما: بث الروح الحربية في البلاد، والعناية بجندها الشبان، و«ال له عنها: «إعل من شأن الجيل الجديد ثقبك العاصمة، وزد أتباعك من الرعية، إن مصر بلد عامر بنشئ غرض في سن العشرين، وأن الجيل الناشئ إنما يسعد بمن يستوسق ضميره، فإن فعلت ذلك قللك العامة، وأتاك رب كل أسرة بأبنائه راضياً، فبهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا، منذ رفعت أنا شأنهم، فارع أنت شأن نبلائك، وعظم محاريبك، واسبع الخير على جيل الشباب من أتباعك، واحرص على أن يتزودوا بالعطايا، ويطمئنوا بامتلاك الأرض، ويكافأوا بالأنعام».

وثانيهما: التضيق على الآسيويين والحد من سبل نشاطهم، وذلك بإنشاء مدن محصنة على حواف الوادي، وتعميرها بخير الرجال، يسكنونها ويترعون ما حولها، ويتحصنون بها حين الشدة، ويصدون منها غارات الآسيويين، وقال له في ذلك: «لا تتهيب البدوي فهو لا يغير إلا على الموطن المأمن، ولا يغير على المدن الآهلة بالسكان».

ويحصى الفرعون ولده على عمل الخير، فيقول له: «هدئ من روع الباكي، ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم رجلاً من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله، وكن على حذر ممن يتقمم مما وقع عليه من ظلم، لا تقتل فإن ذلك لا يكون ذا فائدة لك، بل عاقب بالضرب والحبس، فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يشور عليك وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والله هو الذي يعاقب أخطاءه بدمه، ولا تقتل رجلاً تعرف جميع مزايده، رجلاً كنت تتلو معه الكتابات (أي زميلاً لك على أيام الدراسة).

ويوصي الشيخ الإهناسي ولده بتقريب ذوى المواهب، «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخير الفرد بكفاءته الشخصية»، ولا ينسى الفرعون أن يحذر ولده من الاعتداء على آثار السابقين فيقول له: «لا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك، اقطع أحجارك من طره، ولا تبني قبرك من أحجار قبور غيرك، انظر أيها الملك الذى أريد له دوام الصحة والسعادة والحياة، لا تتقاعس وتتم مطمئناً إلى قوتك، اعتماداً على ما فعلته أنا قبلك، افعل أنت بنفسك».

ولا ينسى الفرعون الشيخ أن يوصي ولده بالاهتمام بالفصاحة وحسن التعبير ولعمري أنه لم يكن فى ذلك مجداً، ففي «تعاليم بتاح - حتب» يظهر لنا مدى تقدير القوم للفصاحة وتقدير كبيراً، وقالوا بأنها من الجائز أن توجد عند الفقيرات اللاتي يعملن على أحجار المسن، وفي «قصة القروى الفصيح»، نرى أن هذه الفكرة مازالت سائدة عند القوم، وأن أقل المصريين شأنًا إنما يستطيع أن يتكلم، وأن يكون لكلامه الأثر المرجو، وأنهم جعلوا هذا القروى يستمر فى حديثه مرة بعد أخرى - بعد أن أعجبوا بفصاحته - حتى بلغت شكاياته تسعاً، كما سنرى، وأن الملك ورجاله إنما كانوا جداً مسرورين من تلك الفصاحة، وأخيراً نرى هذا القروى غير المثقف، ينال ما يستحقه من تكريم، عندما أنهى كل ما فى جعبته من كلام، وهكذا نرى الملك الإهناسي إنما يقدم لابنه النصيح قائلاً:

«كن فناناً فى الحديث حتى تسود، فإن القوة فى اللسان، وهو كالسيف للرجل، والحديث أمضى من أى سلاح، اقتد بآبائك الذين ذهبوا من قبلك، انظر إن كلامهم الحكيم باق فى الكتب، فافتح واقرأ واقتد، كن فطناً فإن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه، وبذلك لا تحدث له مصيبة فى زمانه».

هذا وقد كانت عصور ما قبل عصر الثورة الاجتماعية تهتم كثيراً ببناء

وصيانة ضريح رائع يبقى خالداً على مر السنين، لأنه إنما كان - في نظر تلك الأجيال السالفة - ضماناً للخلود، بل إن فقدان القبر إنما كان في نظر المصريين القدامى أعظم كارثة تحل بمصرى، ولهذا فقد اتخذها الملوك كأقصى عقاب يمكن أن ينزله الفرعون بمن يشك في ولائه، حتى أن أحد الأحكام حذر أولاده هذا الجزاء الأليم لمن يخرج على الملك، حيث يقول : «لا قبر لإنسان خارج على الملك، بل إن جثته سيلقى بها في الماء».

ونقوم الثورة وتبقى على مثل هذه النصب، ومن ثم نرى الملك الإهناسى ينصح ولده قائلاً: «زين مثواك الذى فى الغرب، وجمل مقعدك فى الجبانة»، غير أن عصر الثورة الاجتماعية لم يقتصر على الوسائل المادية، كسبيل للسعادة فى الحياة الثانية، وإنما أصبح للأخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الإنسان بعد مماته، وبذا أصبحت الأهمية الكبرى للوصول إلى الخلد إنما هى العمل الصالح، بعد أن كان ذلك من قبل، للثروة، والقربى من الإله الملك.

هذا ويحاول الملك الإهناسى فى نصائحه لولده «مرى كابرع» أن يوازن بين تصورهِ السامى للزاد الخلقى، وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة السد المادى، ولذلك يقول لولده:

«أقم آثاراً خالدة للإله، لأنها تحبى ذكرى اسم بانيتها، وعلى المرء أن يعمل ما فيه صلاح روحه، بإقامة الشعائر الدينية كل شهر، وليس النعال البيضاء فى زيارة المعبد، والكشف عن الأسرار المقدسة، والدخول فى قدس الأقداس، وأكل الخبز فى المعبد، أملاً بموائد القربان، وقدم الخبز الكثير، وضاعف عدد القرابين الدائمة، فإن فى ذلك الخير كل الخير لمن يقوم به، إعل من شأن آثارك ونمها، مادمت تملك القوة على ذلك، وأن يوماً واحداً (أى من عمل منجيد) قد يؤدى إلى الخلود، ورب ساعة واحدة تحقق نفعاً للمستقبل، إن الله عليم بمن يعمل من أجله».

على أن محاولة الموازنة بين ما يحتاج إليه الإنسان من مادة، وما يحتاج إليه من خلق كريم، جد ظاهر في الكلام الذي اقتبسناه من قبل، عندما كان الملك الشيخ يقول «إن فضيلة الرجل المستقيم أحبّ عند الله من ثور الرجل الظالم، ومع ذلك افعل شيئاً للإله حتى يجازيك بالمثل، بقربان تمتلئ به المائدة، وينقش بخلد به اسمك، والله عليم بكل ما يعمل شيئاً من أجله»، وهكذا يبدو واضحاً أن هناك اعترافاً صريحاً بقيمة الحياة الصالحة في نظر الإله، وهو الذي لا يقبل أن تقوم القرابين والهدايا عنده مقام الأخلاق الكريمة.

هذا ومن الواضح أن الملك الإهناسي لا يريد أن ينتهي من تلك النصائح السياسية والخلقية والاجتماعية، دون أن يوصي ولده بقول الصدق، فيقول له: «قل الصدق في قصرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها في الأقاليم، وأن من صلحت نيته صلحت أحواله، والبيت مرهوب بمن فيه».

ويبدو أن الملك الشيخ كان كلما تقدمت به الأيام، كلما كثر تفكيره في ماضيه، وما أنفق فيه من تقتيل وتشريد، في سبيل تأمين ملكه، وتحقيق ما كان يطمح إليه من نفوذ وسلطان، وكأنما كان يشعر أنه قتل كثيراً وظلم كثيراً، فأخذ يذكر الله كثيراً، ويحذر ولده من ارتكاب جريمة القتل، أو الوقوع في خطيئة الظلم، لأن الله إنما يرقب الجاني فيحلى له، ثم يأخذه من وراء ذلك بعذاب أليم، يقول الإله: «إني المنتقم، وسأخذ كل بذنبه، فلكل امرئ ما سعى، وحسابه في الآخرة، يوم يأخذ قضاؤها من الظالم للمظلوم»، ثم يمضي الرجل في وصاياه فيختمها بمثل هذه النصائح التي تصور الرجل مستغفراً تائباً، خائفاً مترقباً، منتظراً مصيره عند قضاة يوم القيامة.

وأما أهمية البردية كوثيقة تاريخية، فهي تقدم لنا صورة عن الحكام الإهناسيين الذين كانوا يتمتعون بقسط وافر من الثقافة - أو على الأقل

تعطينا فكرة عن أن صاحب هذه الإرشادات إنما كان ملكاً حكيماً ... وهو رجل ذو عقل راجح، وفكر قوي، وهو في نفس الوقت رجل قلق، متعب أنهكته الشيخوخة، وأضعفته أحداث السياسة القاسية، التي مرَّ بها في حياته، والتي لم تعد سنه تطيق احتمالها، كما أنها تعطينا صورة عن الحالة السياسية على أيام الأسرتين التاسعة والعاشرية (العصر الإهناسي) أو على الأقل تعطينا فكرة ... وإن كانت غير كاملة تماماً - عن الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين ملوك إهناسية (إحدى مراكز محافظة بنى سويف) وبين أمراء طيبة (الأقصر)، على الأرض المقدسة في أييدوس، كما تعطينا فكرة عن مدى نجاح الملك الإهناسي في طرد البدو الآسيويين من الدلتا.

هذا وتمدنا الوثيقة بأفكار نبيلة، وجديدة على التفكير المصري القديم، لعل من أهمها: نعمة التواضع الجديدة في حديث الملك المؤله، والمناداة باختيار الموظفين على أساس من الكفاءة الشخصية، وليس على أساس من حسب ونسب، وهي في نفس الوقت تنادى بعدم إهمال الأسرة الشريفة القديمة، ثم هناك الدعوة إلى العمل الصالح، فهو - وليس الوسائل المادية التقليدية - طريق السعادة في الآخرة، كما نادى الإرشادات بوجود محكمة بعد الموت لن يتقذ المرء منها - مهما كان منصبه وراثته - إلا عمل صالح، وخانى كريم، كذلك حثت هذه التعاليم الملك «مرى كا رع»، على أن يكون قدوة حسنة لموظفيه، وذلك بقول الصدق ليهابه أمراء البلاد والحاكمين في أقاليمها.

ثم هي تحذر «مرى كا رع» من زعماء الحركات السياسية، وتغريه بمعاملتهم بمنتهى القسوة، تغريه بقتلهم، ومحو ذكراهم، وذكرى أنصارهم جميعاً، وأخيراً، فرغم أنها وثيقة سياسية في الدرجة الأولى، غير أنها قطعة أدبية، لا تقل جمالا وجودة عن أية قطعة أخرى من قطع ذلك العصر الذي وصل فيه فن الكتابة درجة عالية، حتى أن الأدب في ذلك العصر، إنما يعد أروع ما أنتجته مصر الفرعونية من أدب.

ولنقدم الآن ترجمة لأهم نصوص هذه الإرشادات الموجهة إلى الملك
«مرى كارع» :

«كن فناناً في الحديث حتى تسود، فإن القوة في اللسان، واللسان
للرجل كالسيف، والحديث أمضى من أى سلاح، اقتد بأبائك الذين ذهبوا
من قبلك، انظر إن كلامهم الحكيم باق في الكتب، فافتح واقرأ واقتد، كن
فطناً فإن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، والذين يعرفون أنه أوتي الحكمة
لا يعارضونه، وبذلك لا تحدث له مصيبة في زمانه، والصدق يأتي إليه طائعاً
مختاراً مصفى، حسب ما جاء في كلام الأجداد السابقين» .

«لا تكن شريراً، فالصبر خير، من الخير أن تكون رحيماً عطوفاً، اجعل
بيت ذكراك خالداً بحب الناس لك، وعندئذ يحمد الناس الله من أجلك،
ويمتدح الناس طيبة قلبك، ويتمنون لك الصنحة والعافية، مجد العظماء،
واعمل على سعادة شعبك، فكم هو جميل أن يعمل المرء من أجل
المستقبل، ولكن افتح عينيك، فقد يمتلئ المرء بالثقة، ثم ينكشف الأمر عن
حسرة، لثقة جاءت في غير موضعها» .

«ارفع من شأن مستشاريك، واغدق عليهم من الثروة ما يكفيهم، حتى
يقوموا على تنفيذ قوانينك بالعدل، لأن الرجل الغنى في بيته لا يميل مع
الهوى ولا يتحيز، إذ يكون عنده من المال ما يغنيه، إن الرجل الفقير (في
وظيفته) لا يتكلم طبقاً للحقيقة، إن الذي يقول: إنني أريد، ليس عادلاً، إنه
متحيز للذي يحبه، إنه يميل للذي يملك الهدية (الرشوة)» .

«العظيم من كان مستشاروه عظماء، والحاكم القوي من كانت
خاشيته قوية، قل الصدق في قصرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها في
الأقاليم، وإن من صلحت نيته، صلحت أحواله، والبيت مرهوب بمن فيه» .

«أقم العدل تخلص على الأرض، وهدئ روع الباكي، ولا تظلم الأرملة

ولا تحرم رجلا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم، لا تقتل، فإن ذلك لا يكون ذا فائدة، بل عاقب بالقدرة. رب والحبس، فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يشور عليك، وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله هو الذي يعاقب أخطاءه بدمه، لا تقتل رجلاً تعرف به بيع مزاياه، رجلاً كنت تتلو معه الكتابات (أى زميلاً لك على أيام الدراسة).

«إن الروح تذهب إلى المكان الذي تعرفه، ولا تحبيل في مسيرها عن طريق أمسها، إن السحر لا يقوي على منعها، ولكنها تأتي إلى أولئك الذين يعطونها ماء».

«إنك تعلم أن القضاة يحاسبون المذنب، ولا يرحمون الشقي يوم المحاسبة، وتسود العاقبة إن كان المتهم هو الواحد العاقل (ربما نخوت رب الحكمة الذي سيدبر المحاسبة يوم الحساب)، لا تضع ثقتك في طول السنين، فهم ينظرون إلى مدى الحياة كساعة، ثم يبعث الإنسان ثانية بعد الموت، وترضع أعماله بنجانبه كأكوام، لأن الخلود مثواه هناك (أى فى العالم الآخر)، والنبي من لا يهتم، أما من يأت إليهم دون أن يرتكب إثماً، فإنه سبى هناك، ويمضى مرحاً مثل سادة الأبدية (اسم للأبرار المتوقفين).

«إعل من شأن الجيل الجديد تحبب العاصمة، وزد أتباعك من الرعية، إن مصر بلد عامر بنشئ غرض فى سن العشرين، وأن الجيل الناشئ، إنما يسعد بمن يستوحى ضميره، فإن فعلت ذلك قللك العامة، وأتاك رب كل أسرة بأبنائه راضياً، فبهذه السياسة حارب القدماء من أجلنا، منذ رفعت أنا شأنهم، فارفع أنت شأن نبلائك، وعظم محاريبك، واسبق الخير على جيل الشباب من أتباعك، واحرص على أن يتزودوا بالعطايا، ويطمثوا بامتلاك الأرض، ويكافئوا بالأنعام».

«لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخير الفرد لكفاءته الشخصية، إذا تعرضت حدودك للخطر، فاعلم أن هذا يعنى أن حملة القوس الذين فى الشمال سيتمنطقون بعدة الحرب، ابن حصونك فى الشمال».

«حسن علاقتك مع البلد الجنوبي (ربما يعنى طيبة) فيحضر إليك حملة الأكياس بالهدايا، لقد فعلت مثلما فعل الأجداد، وإذا لم يكن لديه من القمح ما يعطيه، فقابل الأمر بالرضى، ماداموا مستضعفين، واكتفى بخبزك وجعتك».

«إن الجرائيت الأحمر يأتيك دون عوائق، فلا تحدث ضرراً لمبنى أقامه غيرك، اقطع أحجارك من طره، ولا تبني قبرك من أحجار قبور غيرك، انظر أيها الملك الذى أريد له دوام الصحة والسعادة والحياة، لا تتقاعس وتتم مطمئناً إلى قوتك، اعتماداً على ما فعلته أنا قبلك، افعل أنت بنفسك، اعمل الفكر فيما فعلت، وانسج على منواله، فلا يكون لك عدو داخل حدودك».

«ثم قام رجل حاكم فى المدينة، وقد امتلأ قلبه بالأسى بسبب الدلتا»
«فنشرت السلام فى غربى الدلتا جميعه، حتى حدود البحيرة (ربما يعنى مستنقعات الدلتا)، كما كانت الأمور سيئة على شرقى الدلتا، فلقد انقسمت إلى أقاليم ومدن، وأصبحت سلطة رجل واحد فى أيدي عشرة، ولكنهم الآن يقدمون كشفاً كاملاً بجميع أنواع الضرائب، ويدفعون الجزية إليك، كما لو كانوا عصابة واحدة، وسوف لا يكون بينهم أعداء أشرار، ولا خوف عليك من أن لا يجرى النيل، فاطمئن على حصولك على حاصلات الدلتا، إن الحد الشرقى للمملكة أصبح الآن آمناً ضد البدو الآسيويين».

«انظر : لقد دقت أربطة السفينة وثبتها على الشاطئ فى الشرق (يعنى وصلت إلى الشرق)، وأصبحت الحدود من مدينة «حبنو» (فى مصر

الوسطى) إلى طريق حور (ويبدأ عند الفرع البيلوزى للنيل) عامرة بالمدن، ومليئة بقوم من خيرة أهل البلاد حتى يدفعوا أسلحة الآسيويين وغاراتهم، إنتى أتوق إلى رجل شجاع يساونى فى هذا، ويعمل أكثر مما عملت».

«انظر إلى الآسيوى اللعين (يعنى البدوى)، إن الأمور سيئة فى بلاده، فمآوه آسن، وطرقاته وعرة، لذلك فهو دائم الترحال، لا يستقر فى مكان واحد، وإنما ظل يشاغب منذ عهد الإله حور، لا يغلب ولا يغلب، لا تهتم بأمره، فهو ليس إلا بدوياً، شخص منبوذ على الشاطئ، لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان، أقم الحصون فى تخومك الشرقية، وابن مدناً وعمرها بالسكان».

«انظر: لقد جعلت الدلتا تضربهم، وأسرت أجليهم، ونهبت ماشيتهم، فلا تجشم نفسك مشقة فى شأنهم».

«انظر: لقد عمرت مدينة «كموى» (ربما كانت تل أتريب فيما بعد)، إنها فى نقطة مركزية، لقد حصنت جدرانها للقتال، وزاد عدد جنودها، وكثر أهاليها».

«لقد كثر سكان إقليم «دد - أسوت» (ربما يقع على مقربة من منف)، حتى بلغ عدد سكانه عشرة آلاف رجل من المواطنين، يستمتعون بحق الإعفاء من الضرائب والمكوس، وقد تعود كبار رجاله على الذهاب إلى العاصمة، منذ عصر الإله حور».

«انظر: ماقاله الملك «إختوى» (رأس البيت الإهناسى) فى تعاليمه: إن من يسكت على إساءة المتبجح يضر بنفسه ضرراً بليغاً، وإن الله يهاجم من يسىء إلى المعبد».

«قدم فروض الطاعة والإجلال لله، ولا تقل إنه ينسى».

«لا تقترب بضرر إلى الآثار التى أقامها الملوك الآخرون، حتى لا يجيء

ملك بعدك، فيضر بالآثار التي أقمتها، تذكر أنه لا يوجد إنسان ليس له عدو.

«انظر: إن حاكم شاطئ النهر عليم بكل شيء، وليس هناك ملك طائش، مادامت تقوم من حوله حاشية صالحة، وهو غطن حكيم منذ اليوم الذي خرج فيه من بطن أمه».

«إن الحكم مهنة شريفة وعظيمة، إن الحاكم إذا لم يكن له ولد، أو أخ، يخشى ذكره ويخلده، فلا مانع من أن يقوم الحاكم بإحياء آثار غيره، فكل حاكم يجب أن يفعل ذلك لمن يسبقه، إذا أراد لما أقامه هو أن يعنى به الخلف الذين يأتون من بعده».

«انظر: إن مصر تحارب حتى في الجبابة، إني فعلت، وحدث لي ما يحدث لمن يخالف أوامر الله، انظر: لقد حدثت كارثة في عهدي، غزى إقليم «بني» بسبب ما فعلت، غير أنني لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إن ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى، مضى جيل من الناس، والله الذي يعرف القلوب لم يختبئ، تعس هو الرجل الذي يطلب الحرب، لأن العدو وسط مصر، ونحن نريد جنداً لإخضاع المحاربين لكي تصدق النبوة: هذه مصر تحارب وسط قبورها لا تؤذ القبور. بالحرب، لأنني فعلت ذلك، ولهذا أستحق ما حل بي من عقاب الله».

«يمر الجيل منتقلاً إلى جيل آخر بين الناس، والله العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه... إنه الواحد الذي يبهر ما تراه الأعين، فاجعل الإله يخدم بالصورة التي سوى فيها - حجراً كريماً كان أم نحاساً - لأنه كالماء الذي يحل محله الماء، إنه لا يوجد مجرى يرضى لنفسه أن يبقى مختبئاً، بل يكتسح الذي يخفيه».

«زين مثواك الذي في الغرب (عالم الآخرة)، وجمل مقعدك في

الجبانة، ولكن إياك أن تكون شريكاً، فالصبر خير، فاجعل ذكراك خالداً بحب الناس لك، اجعل الناس يحبونك فى الدنيا، فالخلق الطيب ذكرى الإنسان، تذكر أن فضيلة الرجل المستقيم أحبّ عند الله من ثور الرجل الظالم الشرير (أى الثور الذى يقدمه كقربان)، ومع ذلك افعل شيئاً للإله حتى يجازيك بالمثل، بقربان تمتلئ به المائدة، وينقش يخلد به اسمك، والله عليم بكل من يفعل شيئاً من أجله.

«إن الله قد رعى الناس، وهم قطع الله، وهو راعيهم، وقد خلق السماوات والأرض كما يرغبون، وخفف من حدة الظمأ بالماء، وخلق الهواء لتحياء به أنوفهم، وإنهم لصورة منه خرجت من أعضائه، وهو يصعد إلى السماء حسب رغبتهم، وقد خلق لهم النبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم، ولكنه يعاقب كذلك، فقد قتل أعداءه، وحارب أبناءه بسبب ما دبروه عندما انقلبوا عليه، وهو قد خلق النور حسب ما يرغبون، وجعلهم كذلك ينامون، وهو يسمعهم عندما يكون، وجعل لهم حكماً وهم فى البيضة (أى قد وهبوا الحكم قبل الولادة) ليحموا ظهور الضعفاء منهم، وجعل لهم من السحر سلاحاً يتقون به الحوادث، وهو الذى قتل عاتى القلـ فىهم، كما يقتل رجل ابنه أو أخاه، إن الله عليم بكل اسم (أى بكل إنسان)».

ثم تنتهى الإرشادات بنصيحة عامة يفهم منها:

«ليتك تصل إلى (أى فى العالم الآخر) دون أن يتهمك أحد، لا تقتل أحداً ممن يقفون قريباً منك، بعد أن تكون قد امتدحتهم، والله يعرفه - دع الدنيا كلها تحبك».

«انظر: لقد حدثتك بخير ما فى نفسى من أفكار وآراء، فاعمل حسب ما تقرر أمامك».

٤ - صراع المتعب من الحياة مع روحه

لا ريب في أن بردية «صراع المتعب من الحياة مع روحه» أو «بردية اليأس من الحياة»، إنما تشل نوعاً من «أدب الخوار»، كما أنها تمثل واحدة من أهم وثائق عصر الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، وتسمى أحياناً «نزاع رجل مع روحه»، وأحياناً «شجار بين إنسان شتم الحياة وبين روحه»، وأحياناً «حديث نسو مع روحه»، وعلى أية حال، فالبردية محفوظة في متحف برلين تحت رقم (٣٠٢٤).

هذا، وكان «أدولف إرمان» أول من نشر البردية في عام ١٨٩٦م^(١)، ثم أعاد ترجمتها، مع إدخال تحسينات في كتابه عن أدب المصريين القدماء الذي نشره بالألمانية عام ١٩٢٣م، والذي ترجمه إلى الإنجليزية «بلاكمان» في عام ١٩٢٧م^(٢)، كما نشر فولكنر في عام ١٩٥٦م^(٣)، و«بارتا» في عام ١٩٦٩م^(٤)، وهانز جديكه في عام ١٩٧٠م^(٥).

وقد اهتم أيضاً بترجمة البردية وتحليلها كثير من العلماء من أمثال: الكسندر شارف^(٦)، وجيمس هنري برستيد^(٧)، وهـ. هرمان^(٨) ودي بك^(٩) وريموند فيي^(١٠)، وهرمان يونكر^(١١)، وجاكوبسون^(١٢)، وفون بسنج^(١٣)

(1) A. Erman, Gespräch eines Lebensmuden Mit Seiner Seele, APAW, Berlin, 1896.

(2) A. Erman, LAE, London, 1927, p. 86-92.

(3) R.O. Faulkner, JEA, 42, 1956, p. 21-40.

(4) W. Barta, Das Gespräch eines Mannes Mit Seinem Ba, Munchner Agyptologische Studien, 18, Berlin, 1969.

(5) H. Goedicke, The Report About The Dispute of A Man With His Ba, Baltimore, 1970.

(6) A. Scharff, SBAW, Munich, 1937.

(7) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 168-181.

(8) H. Hermon, OLZ, 42, 1939, p. 141-153.

(9) A. de Buck, EX, Oriente Lux, 7, 1947, p. 9-32.

(10) R. Weill, in BIFAO, 45, 1947, p. 89-154.

(11) H. Junker, AOAW, Phi-hist, KI, 1948, No. 17, Vienna, 1949.

(12) H. Jacobsohn, in Zeitlisse Dokumente der Seele Studen aus dem C. G. Jung Institut Zurich, Vol. 3, 1952, p. 1-48.

(13) F.W. Von Bissing, Altagyptische Lebenweisheit, Zurich, 1955, p. 124-128.

وجون ويلسون^(١) وس. هرمان^(٢)، و. ر. وليامز^(٣) وفولكنر^(٤) وغيرهم^(٥)، فضلاً عن ترجمات عربية عدة^(٦).

هذا ويرجع تاريخ النسخة التي تحت أيدينا إلى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م)، وهناك اتجاه إلى أنها منقولة عن نص أقدم، يرجع إلى ما قبل أيام الدولة الوسطى، وربما الأرجح إلى وقت الاضطرابات فيما بين الدولتين القديمة والوسطى، أي عصر الثورة الاجتماعية الأولى (نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد)^(٧).

وتتكون البردية من مقدمة طويلة بليغة، ثم أربع قصائد شعرية، يذكر صاحبها في الأولى، كيف قل تقدير الناس للرجل الفقير، ثم يروى في الثانية بعضاً من مأساته، مبيناً مدى ضيقه بالناس وبدنياتهم، ورأيه في هذا لا شك في أنه ملئ بالتشاؤم، جدير بشخص يش من حياته، وصمم على إزهاق روحه، وأما في الثالثة، فإننا نرى «نسوة» (صاحب القصيدة) إنما يشيح بوجهه عن شرور الدنيا، ثم يتأمل الموت كمنجاة مباركة له، وهذا الجزء الثالث من القصيدة، إنما هو - فيما يرى الدكتور أحمد فخري^(٨) -

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 405-407.

(2) S. Hermann, Untersuchungen Zur Überlieferungsgestalt Mittelagyptischer Literaturwerke, Berlin, 1957, p. 62-79.

(3) R. Williams, JEA, 48, 1962, p. 49-56.

(4) R. O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 201-209.

(5) Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 163-169; E. Brunner - Traut, ZAS, 94, 1967, p. 6-15; G. Thausing, MDIK, 15, 1957, p. 262-267.

(٦) سليم حسن، المرجع السابق، ٢٨٢/٢-٢٨٩؛ نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية، ص ٥١٨-٥٢٥؛ أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٤٧-٤٤٩؛ عبد العزيز صالحي، المرجع السابق، ص ٣٤٤-٣٤٧.

(7) J.A. Wilson, op.cit., p. 405.

(٨) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٤٨.

أجمل ما فى البردية، وأما فى القصيدة الرابعة فترى «نسو» يضيف امتيازات الموتى الذين لهم القدرة على مقاومة الشر، وحرية الاتصال بالآلهة.

وأما أهمية البردية - كوثيقة تاريخية - فيرجع إلى أنها إنما تقدم للباحث صورة لهذا العصر - عصر الثورة الاجتماعية الأولى - الذى ساءه الشك واليأس، فصاحب البردية (نسو) إنما يدعو إلى ترك الحياة، والاتجاه إلى الموت، نتيجة لما لاقاه فى حياته من ظلم وقسوة، ومن ثم فهو فى الواقع إنما يصف الحالة الفعلية والتجارب الباطنية لنفس معدية، تتألم مما حاق بها من الظلم وسوء الطالع، وانطلاقاً من كل هذا، فإن «جيمس هنرى برستد»، إنما يذهب إلى أن هذا الموضوع، إنما يعد أقدم قطعة أدبية تتناول موضوع الخبرة، والتي تعد أقدم مثال يمثل لنا صورة مما ورد فى سفر النبى «أيوب» - كما جاء فى توراة يهود المتداولة اليوم^(١) - وقد كتبت بردية «اليائس» من الحياة، هذه، قبل أن تظهر التجربة المماثلة المتضمنة هذا الشعور فى سفر بمائل بين العبرانيين بنحو ألف وخمسمائة سنة^(٢).

هذا ويدعو «نسو» كذلك إلى الاستغناء عن الطقوس الجنازية المعتادة، كما تدعو روحه إلى أن يعيش الإنسان ناسياً حزنه، منغمساً فى السرور إلى أذنيه، ولعل هذه الدعوة التى تنادى بأن يأكل الإنسان ويشرب، وأن يكون فرحاً فى يومه، لأنه سيموت فى غده، إنما تتفق مع ما نادى به من قبل «أغنية الضارب على العود»، وإن اختلفت معها فى أمر هام وخطير، إذ أخذت تبين أن الحياة فوق أنها ليست فرصة للسرور، والإسراف فى الملذات، فهى عبء أثقل حملاً من الموت، وهكذا دار حديث «نسو» حول السؤال الخالد عن معنى الحياة، وهو سؤال يبرز للمرة الأولى - فيما نعلم - فى تاريخ الآداب عامة، وحديث الرجل، على أية حال، قطعة أدبية من خير

(١) انظر عن «سفر أيوب» - كما جاء فى التوراة - : محمد بيومى مهران، بنو إسرائيل، طبعة

١٩٩٩م، ٦١/٣-٦٨، وانظر طبعة ١٩٩٩م.

(2) J. H. Breasted, op.cit., p. 168-169.

القطع الأدبية التي حفظت لنا من تاريخ مصر القديمة^(١).

هذا فضلاً عن أن قصيدة «نسو» هذه، والتي مدح فيها الموت، إنما هي أقدم صيغة وصلت إلينا، عبر الفرد فيها عما أصابه من العذاب ظلماً وعدواناً، وأول صرخة من متألم برئ وصلتنا في عصور ذلك العالم القديم، وهي تعد بحق ذات فائدة فريدة، ولا تخلو من جمال حقيقي بما احتوته من حرارة نفسية خلابة^(٢).

وموضوع البردية حوار فلسفي بين «نسو» وبين زوجها، ذلك أن «نسو» إنما قد يش من حياته بعدما أصابه فيها من نكبات، وبعد أن تنكر له أقرب الناس إليه، وبعد أن حرم من الدفاع عن نفسه، وبعد أن حكم عليه ظلماً، وصار اسمه نتناً في أنوف الناس، وبعد أن خربت الدم، وفسدت الضمائر، وكفر الناس بالله وصدوا عن سبيله، منصرفين عن جد الأمور لينغمسوا في الشهوات، وليتورطوا في كبائر الإثم، وقد قست القلوب وأنكر الناس ما قدم لهم ربهم من خير، وفي لجج هذه الغمرة النفسية أخذ الرجل يسبح في ظلمات اليأس، ويلتمس منها المخرج ويبحث عن أسباب الراحة، فلا يكاد يهتدى إليها إلا بالانتحار، والتخلص من هذه الحياة التبعة.

غير أن روحه قد التزمت جانب الرضا بدنياهم، والتغاضى عما وراءها ومن ثم فقد احتدم الجدل بينهما، حتى تحدّثه بأن يقدم على الانتحار حرقاً، إن كان عازفاً عن الدنيا، راغباً في الموت، فما جرؤ صاحبها في بداية الأمر، ولما امتنع عليها في الحالتين - الرضا بالواقع أو الرضا بالموت - امتنعت هي الأخرى عن مناقشته، ولكنه سرعان ما عاود التفكير ثانية فيما دعت إليه، واعتزم أن ينتقل هو وإياها إلى عالم الآخرة، وبدأ يستدرجها في الحديث عساها تشجعه، وأشهد عليها جمعاً تخيله من الناس، فما جاوبته بغير رد مقتضب عاتبها في إثره قائلاً:

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٢٧٥/١.

(2) J. H. Breasted, op.cit., p. 173-174.

«عزيز على ألا تجاوبنى روحى فى يومى هذا، إنها تهرب فى يوم الشقاء، أى روحى إنه لغباء أن تصدى أمراً يملؤه الشجن ليحيا، خذينى إلى الموت قبل أن يأتينى، واجعلينى من الغرب (عالم الآخرة) مكان سرورى، فقد يشينى فى الآخرة «تحت»، مرضى الأرباب بقضائه، وينافع عنى «خونسو» الكاتب بعدالته، ويستجيب «رع» لابتهالاتى، فعنائى قد ثقل وطؤه».

وتصنعت الروح الغضب مرة أخرى، وأجابته مرة ثانية باقتضاب وهى تؤنبه «ألست رجلاً؟ لقد ابتغيت الحياة من قبل، فماذا أنجزت، ثم تأخذ الآن تنأسى على الحياة شأن ربّ النعمة؟ فأجابها: «إذا أصاغت لى روحى، ولا خطيئة نى، وكان فؤادها معى، فلسوف تهنا، ولأجعلنها حينذاك تبلغ الغرب، شأن من أقام فى هرمه، ووسده وريثه...، فإذا حلت بينى وبين الموت على هذا الوضع، فلن تجدى ما تخطين عليه فى عالم الغرب، يتجلى إذن روحى، وقومى منى مقام الوريث، يقدم القربان، وينهض على مشواى يوم الدفن، ويهيم مضجع الآخرة»^(١).

وقد يبدو ذلك غير متوقع من رجل اتضح أنه يشك كثيراً فى فائدة المعدات المادية التى كانت تعمل للمتوفى، حين ينتقل إلى العالم الآخر، إلا أننا نكشف السر بعد ذلك، فنرى أن ذلك حيلة أدبية، أراد الكاتب عن طريقها أن يندد بالمعدات الجنائزية^(٢)، ثم أخذت روحه تتردد فى الموافقة على مرافقته، ثم تحاول أن تنفره عن الموت، فأخذت تصف له فظائع القبر، «ثم فتحت روحى فمها وأجابت: إذا تذكرت الدفن فإنه حزن، وذكره تشيز الدمع، وتفعم القلب حزناً... فهو ينتزع الرجل من بيته، ويلقى به على الجبل، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس»^(٣).

(١) عبد العزيز صالحي، الشرق الأدنى القديم، ٣٤٤/١-٣٤٥.

(2) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 169.

(3) A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p.

وهكذا لم تستقر الروح على رأى ثابت فى فكرة الخلود التى كانت تسيطر على القوم وقت ذاك، فنراها تشككه فى تلك الفكرة الخالدة فى أذهان الناس، فهؤلاء الذين بنوا لأنفسهم مقابر فخمة، إنعامهم والذين لم ينوها سواء بسواء، فالكل تحت حرارة الشمس، والكل تعقد معه الأسماك الأحاديث «عندئذ فتحت روحى فيها لتجيبنى: لن تعود ثانية لتشهد الشمس... إن من شادوا المباني الفخمة من أحجار الجرانيت الصلبة، وخصصوا لأنفسهم قاعة فى الهرم، وقدمت لهم كل الخدمات المجيدة... أصبحت موائد قرايئهم خالية، بعد أن صاروا آلهة (أى ماتوا)، وأصبحوا سواء، والمتعبين الذين قضوا على ضفاف القنوات، نال الفيض مقصده منهم، وكذا حرارة الشمس... أما الأسماك على ضفة النهر، فتجلس إليهم تعقد معهم الأحاديث»^(١).

وتتجه روحه إليه بعد ذلك، ناصحة إياه بأن ينس الهموم، ويأخذ من اللهو نصيبه «اصغ إلىّ وإنه لجدير بالناس أن يصغوا، تمتع بيوم المسرة، وائس الهموم»^(٢)، ولكنها بعد ذلك توافق على البقاء بجانبه - حتى ولو انتحروا - ذلك أن الحياة - بجانب أنها فرصة للسرور والملذات - فهى عبء أثقل من الموت نفسه، وإنها سيئة لدرجة تجعل الموت خلاصاً للإنسان من سيئاتها، ولذا فهى ترحب بالموت، «مرحباً بالموت، إتنى فى شوق للقاءه، كشوق الرجل إلى بيته؛ بعد أن يقضى سنيًا طويلاً فى الأسر والعناء».

وهكذا نرى الروح التى حاولت أن تبعد صاحبها عن الموت، لم يكتب لها نجاحاً فى مسعاها، بل على العكس هو الذى نجح آخر الأمر فى أن يضمها إلى رأيه، مما يدل على مدى ضيقه بالحياة، ورغبته فى التخلص منها، ولكن علينا ألا نتوهم أن ما دفع «نسوا» إلى كره الحياة ومحاولة

(1) R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 203-204; M. Lichtheim, op.cit., p. 165; A. Erman, LAE, 1927, p. 88.

(2) R.O. Faulkner, op.cit., p. 204.

التخلص منها، إنما كانت آلامه الشخصية، وما لاقاه من عناء فى حياته، ذلك لأن الرجل إنما قد استطاع أن يسمو على آلامه الشخصية، ويلم بأطراف المجتمع إذ ذاك، ويحيط بأحواله، وبذا لم تكن آلامه الشخصية إلا نموذجاً لما يلاقيه المجتمع الذى يعيش فيه، ويؤيد ذلك قوله: لمن أتحدث اليوم، فليس هناك عدول، والأرض قد تسلمها الظالمون»^(١)، وإن هؤلاء الظالمين قد أجزموا فى حق كل مقدس، وداسوا بأقدامهم القانون ووطئوا مجد وتاريخ مصر، ومن ثم فهو لا يود أن يعيش فى هذا الجو، ولعل فى هذا شبه بما جاء فى تحذيرات الحكيم المصرى «إيبو - ور» «آه لو يفنى الناس ولا يعود هناك حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغوغاء، وتنقضى المشاحنات»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا الحوار بين «نسو» وبين نفسه (روحه) إنما يتناول السؤال عن معنى الحياة من ناحيتين، تتعلق إحداهما بما إذا كان هناك معنى للحياة إذا اختفى كل ما كان من شأنه أن يجعل الحياة سعيدة، والأخرى أكثر عمقاً وأوسع مدى، فلم يكتف الكاتب فيها باستعراض ذلك العراك بين الأفكار والرغبات، وإنما عمد إلى موازنة بين وجهتى النظر المختلفتين اللتين سادتا الحياة فى ذلك العصر، بينما نجد روح «نسو» تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة وتدعوه ألا يفكر كثيراً فى الآخرة، وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة، ويمثل الكاتب ذلك الفريق من المصريين الذين احتفظوا بجأشهم، والذين محصتهم الآلام والنكبات، وطهرتهم من أدرانهم، فأكسبتهم بصيرة وزادتهم إيماناً بالآخرة، وبقيمة أعمالهم الصالحة فى الحياة الدنيا.

وانطلاقاً من كل هذا، إنما يبدو واضحاً أن ما حدث إنما يتكرر حدوثه

(1) Ibid., p. 207.

(2) J. A. Wilson, ANET, p. 442.

فى الإنسانىة؁ وإن فرط النكبات والمساوى الاجتماعىة المنتشرة؁ وازدياد البلاد؁ إنما يحدث أثراً مزدوجاً؁ ففريق ممن تصيبهم النكبات - وهم أكثرىة - يجرفهم تيار الأحداث؁ بينما يفترض أن تدعو تلك الأحداث إلى التبصر؁ وأحياناً إلى التشكك^(١).

وعلى أية حال؁ فالنص فريد فى نوعه بين النصوص المصرىة؁ حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه غير مصرى فى روحه؁ فهو يدعو إلى ترك الحىاة؁ والالتجاء إلى الموت؁ كما أنه غير مصرى فى استغناؤه عن الطقوس الجنازىة المعتادة وما يتبعها من أثر نفسى؁ وفى ما أباح فيه الفرد لنفسه من حرية فى مناقشة العقيدة السائدة؁ وأن من حق الإنسان أن يجد حلاً فردياً فى أخطر المشكلات.

غير أننا لو بحثنا فى آداب الأمم الأخرى لما وجدنا أصلاً له فيها؁ وطبيعة «الباء» مصرىة صرفة؁ كما أن الوثيقة تتفق وروح العصر الذى كان يخيم عليه روح التشاؤم (عصر الثورة الاجتماعىة الأولى)؁ إنه غير مصرى لأن مصر لم تعرف ذلك اليأس الروحى والمادى؁ وربما كان ذلك بالمصادفة؁ وربما كذلك أن المصريين - فيما تلا ذلك من عصور - لم يحبوا هذا النوع من اليأس عند ظهور العقبات؁ وأنهم اهتموا إلى حلول أخرى للتغلب على ما أصابهم من مآزق^(٢).

هذا وتتكون الوثيقة - كما أشرنا من قبل - من مقدمة بليغة؁ فيها حوار بليغ؁ كما رأينا فى السطور السابقة؁ يرى فيها صاحب الوثيقة (نسو) الموت منقذاً من حىاته البغيضة الشقىة؁ بعد أن ذاق مرارة البؤس؁ وهجره أخلاقه؁ وأزرى به الهوان؁ فأشرف على الانتحار ليضع بيده خاتمة لحياته فيحرق نفسه؁ فلقد دفعتة حىاته إلى أن يخطر هذه الخطوة؁ ولكنه عاد

(١) نجيب ميخائيل؁ مصر والشرق الأدنى القديم؁ ٢٧٥/١-٢٧٦.

(2) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 113.

فأحجم عنها، فلا قبر يأويه، ولا عقب يتردد عليه بالقرايين، ومن ثم فسوف يقضى هناك جوعاً وبرداً، وهكذا نراه يحرض روحه على ألا تتخلي عنه عند الموت.

«ثم فتحت فمى لروحي حتى أجيب عما قالت... إن روحي ستسندنى هناك، إنها تهرب فى يوم الشقاء، إن روحي تعطلنى، وأنا لا أكثرث بها، وتجذبنى إلى الموت قبل أن ألقاه، وتلقى بى فى النار لتحرقنى... أى روحي إنه لغباء أن تصدى إمرأ يملؤه الشجن ليحيا... وينافح عني «خونسو» الكاتب بعدالته، ويستجيب «روح» لابنتها لائقى، فعنائى قد ثقل وطؤه».

«وأجابت روحي: أنت بمثابة لا شىء، ثم تتحدث عن الأشياء الطيبة كما لو كنت تملك الكنوز».

«قلت: سوف لا أذهب طالما هذه روحي، باقية على الأرض، إن نصيبك الموت، لو أن روحي تصغى إلى ستكون منعمة، سأجعلها تصل إلى الغرب، كروح من دفن فى الهرم، وفتحت روحي فاها وأجابت: إذا تذكرت الدفن فإنه حزن، وذكره تثير الدمع، وتفعم القلب حزناً... فهو ينتزع الرجل من بيته، ويلقى به على الجبل، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس، أين بناء الأهرام من زينوا الأبهاء، وشادوها بأحجار الجرانيت الصلبة، وخصصوا لأنفسهم قاعة فى الهرم، وقدمت لهم كل الخدمات المجيدة، أصبحت موائد قرايينهم خالية، بعد أن صاروا آلهة (أى ماتوا)، وأصبحوا سواء هم والمتعبين الذين قضوا على ضفاف القنوات، نال الفيض مقصده منهم، وكذا حرارة الشمس... أما الأسماك على حافة النهر فتجلس معهم تعقد الأحاديث، استمع إلى... فخير للمرء أن يستمع... تابع ملذات اليوم، وانس الهم...».

وعندئذ فتحت فمى إلى روحي لأقول:

القصيدة الأولى:

أنظر: إن اسمى أصبح كرهها أكثر من رائحة اللحم التتن فى أيام
الصيف، والسماء حارة.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من صيد السمك فى يوم صيده، والسماء
حارة.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من رائحة الطيور، وأشد من تل صفصاف
مزدحم بالأوز.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من رائحة الصيادين، وأكثر من شطآن
المستنقعات حين يصيدون.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من رائحة التماسيح وأكثر من الجلوس
حيث تكون.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من زوجة ردد عنها الناس البهتان لزوجها.

أنظر: إن اسمى كره أكثر من مدينة... وأكثر من نائر مدبر.

القصيدة الثانية:

لمن أتحدث اليوم، فلقد أصبح الرفاق شراراً، وأصدقاء اليوم غير جديرين
بالحب.

لمن أتحدث اليوم، فالقلوب ملاءى بالجشع، وكل شخص يأخذ متاع
جاره.

لمن أتحدث اليوم، وقد وقر الناس على السوء، وأهملت الحسنى فى
كل مكان.

لمن أتحدث اليوم، وقد استحال الرجل الطيب إلى شرير، والخير مكروه
فى كل مكان.

لمن أتحدث اليوم، فمستشير الحلیم بشروره، يدع الناس يسخرون منه حين تشتد وطأة عسفه.

لمن أتحدث اليوم، فالناس يسرقون، وكل امرئ يفتال متاع جاره.

لمن أتحدث اليوم، فليس للمريض صديق يوثق به، وأخوه أصبح عدوه.

لمن أتحدث اليوم، فلا أحد يذكر آلامی، وليس هناك اليوم من يجازى بالخير من قدمه.

لمن أتحدث اليوم، وما عاد أحد يذكر الماضي، ولا معونة لأحد في هذه الأيام.

لمن أتحدث اليوم، فالأخوة شر، والمرء يعامل كعدو، رغم نقاء سريرته.

لمن أتحدث اليوم، فالوجوه محجوبة، وكل امرئ يولى وجهه عن إخوانه.

لمن أتحدث اليوم، وما من أحد رضى الفؤاد، ومن كان يرافق لم يعد له وجود.

لمن أتحدث اليوم: فليس هناك عدول، والأرض قد تسلمها الظالمون.

لمن أتحدث اليوم، فالصديق الصدوق قد اختفى، والمرء يعامل كمجهول رغم إعلان نفسه.

لمن أتحدث اليوم، فليس هناك مسالم، والصاحب لا وجود له.

لمن أتحدث اليوم، وأنا مثقل بالتعاسة، وفي حاجة إلى صديق صدوق.

لمن أتحدث اليوم والخطيئة التى تحل بالأرض تبدو وكأنما لا نهاية لها.

القصيدة الثالثة:

الموت أمامى اليوم يبدو كالبرء للسقيم، والخروج إلى القضاء بعد

حجز.

الموت أمامى اليوم كعبير المرء وجلسة تحت ظله فى يوم ربيع صرصر
عاتية.

الموت أمامى اليوم كرائحة اللوتس تخدرنى كما لو كنت جالساً على
شاطئ الانشراح.

الموت أمامى اليوم كالسماء عندما تصفر، وكحصول المرء على ما لم
يكن يتوقعه.

الموت أمامى اليوم كشوق الرجل إلى بيته بعد قضاء سنين طوال فى
الأسر والعناء.

القصيدة الرابعة:

ويم الحق من وصل هناك، سيكون رباً يحيا، يرد الشر على من أتاه.
ويم الحق من وصل هناك، سيكون عالماً بالأمر، ولن يصرف عن
شكواه لرع إذا ناجاه.

ثم تستمر القصيدة بعد ذلك، وتأخذ الروح تخفف آلام صاحبها،
فتطلب منه أن يترك الحزن والأسرى، وتؤكد له أنهما سيكونان معاً: «سيهدأ
بالى بعد أن يستقر أمرك (فى الموت) وسنعيش معاً»^(١).

(١) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، ص ٥١٩-٥٢٢؛ أحمد فخرى، المرجع السابق،
ص ٤٤٧-٤٤٩؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٤٤-٣٤٧؛ سليم حسن، المرجع
السابق، ص ٢٨٤-٢٨٩؛ وكذا:

R.O. Faulkner, op.cit., p. 202-209; M. Lichtheim, op.cit., p. 164-169; A.
Erman, op.cit., p. 86-92; J.A. Wilson, ANET, p. 405-407; J. H. Breasted,
op.cit., p. 168-181; R. Williams, op.cit., p. 49-56.

٥ - قصة الفلاح الفصيح

اختلف المؤرخون فى اسم هذه القصة، فيسميها البعض «احتجاجات - أو شكاوى الفلاح الفصيح»، ويسميها آخرون «شكاوى الفلاح الفصيح»، ويرى فريق ثالث أنها «قصة فلاح من الواحة المتاخمة لوادى النطرون، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى، طيب الله ثراه، أننا لا نملك أى دليل على أن صاحبها كان فلاحاً يعمل فى الأرض، وإنما الأرجح أنه أحد الأهالى الذين يعملون فى التجارة، على أن «جوستاف لوفيفر» إنما يفضل تسميتها «قصة الواحى»، غير أن إطلاق كلمة «الواحى» على أحد سكان وادى النطرون أمر لا يستقيم مع العرف، ذلك لأن سكان الواح إنما هم سكان سيوة والبحرية والفرافرة والداخلية والخارجة فقط، ولهذا يسميها البعض «قصة القروى الفصيح»، لأن صاحبها - سواء كان يعمل فى التجارة أو فى الفلاحة أو فى استخراج النطرون أو الأعشاب - فإنه كان يعيش فى ذلك المكان الذى لا يعدو أن يكون قرية صغيرة، ولم يكن من أبناء المدن المتعلمين، وكان الإعجاب به لأنه كان شخصاً بسيطاً من سكان الأماكن النائية، ومع ذلك فقد أوتى قدرًا عظيمًا من الفصاحة وحسن التعبير^(١).

وكان «شابا» أول من لفت الأنظار إلى هذه البردية فى عام ١٨٦٣م، وفى عام ١٩١٣م قام «فوجلز إنج» بنشر نصوصها نشرًا كاملاً^(٢)، وفى عام ١٩٢٣م قام «جاردنر» بنشر إضافات وتصحيحات لها^(٣)، وهناك ترجمات كثيرة للبردية، منها ترجمة «ماسبيرو» و«رويدر» و«سايس»، و«إرمان»

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٩٤

J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 407; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 112; W.K. Simpson, op.cit., p. 31; M. Lichiheim, op.cit., p. 169.

(2) F. Vogelsong, Kommentar Zu den Klagen des Bawern, Untersuchungen, b, Leipzig, 1913, 1964.

(3) A.H.Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

ولوفيفر، كما حلل نصوصها واقتبس منها وناقشها كتبت من العلماء الأجانب وبلغات مختلفة^(١).

وأما ترجمة الوثيقة باللغة العربية، فهناك ترجمة الدكتور سليم حسن^(٢)، هذا فضلاً عن ترجمات موجزة لأهم عناصر البردية في كتب التاريخ المصرى القديم^(٣).

هذا وقد حفظت لنا البردية فى أربع نسخ من عهد الدولة الوسطى منها ثلاثة بمتحف برلين (الأولى برقم 10499R، والثانية برقم 3023RI، والثالثة برقم 3025R2) وأما النسخة الرابعة ففى المتحف البريطانى برقم (١٠٢٧٤)، هذا عدا المقتطفات الأخرى، ومن حسن الحظ أن البردية لم تصل إلينا عن طريق نسخة متأخرة محرفة أو بالية - ككثير من المخطوطات المصرية القديمة - وإنما بقيت محفوظة جيداً، حتى وصلت إلينا فى لفافة من البردى الفخم

(1) De Buck, Readingbook, p. 89-99; K. Sethe, Agyptische Lesetucke, Leipzig, 1924, p. 17-25; K. Sethe, ERL, Leipzig, 1927, p. 21-32; A. Erman, LAE, London, 1927, p. 116-131; F. Lexa, Arch, Or, 7, 1935, p. 372-383; F. Lexa, RT, 34, 1912, p. 218-231; A.H. Gardiner, PSBA, 35, 1913, p. 264-276; E. Sayce, Etude sur le Conte du fellah Plaidier, Rome, 1933, G. Lefebvre, op.cit., p. 41-69; A.M. Blackman, JEA, 20, 1934, p. 218-219; F. W. Von Bissing, Altagyptische Lebensweisheit, Zurich, 1955, p. 155-170.

ولعل من أحد ترجمات البردية:

M. Lichtheim, op.cit., p. 169-184; J.A. Wilson, ANET, p. 407-410; R.O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, p. 31-49; S.Hermann, ZAS, 80, 1955, p. 34-39; S.Hermann, ZAS, 82, 1958, 55-77; G. Lanczkowski, Altagyptischer Prophetismus, Wiesbaden, 1960.

(٢) سليم حسن، المرجع السابق، ص ٥٤-٧٠.

(٣) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٣٩٣-٣٩٦؛ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ٣٦٥-٣٦٢/١؛ جوستاف لوفيفر، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى، ترجمة علي حافظ، ص ٩٠-١٣٥؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٩٧-٥٠١؛ عبد الحميد زايد، مصر الخالد، ص ٣٠٨-٣١٤؛ محمد ييوى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٥-٢١؛ مصر ٣١٥/٢-٣٢٤.

الذى كتب فى ذلك العصر الإقطاعى الأول (عصر الثورة الاجتماعية الأولى) (١).

وقد اختلف المؤرخون فى عصر الملك الذى جرت فى عهده أحداث «قصة القروى الفصيح» وربما كان السبب فى اختلافهم هذا، هو اختلافهم فى ترتيب ملوك العهد الإهناسى (الأسرتين التاسعة والعاشرية) وهكذا فإنهم يتفقون على أن القصة حدثت فى عهد الملك «نب كا ورع» ولكنهم يختلفون فى مكان هذا الملك من العهد الإهناسى، وبالتالي يختلفون فى الأسرة التى حدثت على أيامها هذه القصة، فبينما يضعها فريق فى الأسرة التاسعة، يضعها آخرون فى الأسرة العاشرة (٢)، وهكذا رأينا «الكسندر شارف»، يرى أن القصة قدمت لأحد ملوك الأسرة العاشرة (٣)، ويذهب «وليم هيز» إلى أن الملك «نب كا ورع» (اختلفوا الخامس) هو آخر ملوك إهناسيا، وربما كان الفرعون الذى جاء ذكره فى قصة الفلاح الفصيح (٤)، ويرى «ونلوك» أن هناك افتراضاً عاماً بأن الملك «نب كا ورع» (اختلفوا - خيتى) الذى حدثت فى عهده قصة الفلاح الفصيح، قد خلف الملك «مرى كارع» على عرش الكنانة وقد حكم البلاد حتى استسلمت إهناسيا لأمرأء طيبة، وبمعنى آخر أن «نب كا ورع» هو آخر حكام العهد الإهناسى (٥).

على أن الدكتور أحمد فخرى إنما يرى أن حوادث قصة القروى الفصيح كانت فى عصر الملك «نب كا ورع» أحد ملوك إهناسية فى الأسرة

(1) R.O. Faulkner, M. Lichtheim, op.cit., p. 169-170.

(٢) انظر عن ترتيب ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرية: محمد بيومى مهران، مصر: (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٢٨٤/٢ - ٢٩٠.

(٣) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٣.

(4) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 145.

(5) H.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thin Thebes, N.Y., 1947, p. 23.

العاشرة، ولكنها كتبت بعده بقليل، وهذا يعنى أنها كتبت فى الأسرة الحادية عشرة على الأقل، على أساس أنها حدثت فى عهد «خيتى الخامس»، الذى لم يبق على العرش طويلا، فقد عاودت جيوش طيبة هجومها، فقضت على عائلته فى إهناسيا^(١)، وأخضعت مصر كلها، وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهداً جديداً.

واننى لأميل إلى أن قصة القروى الفصيح هذه، إنما قد حدثت على أيام الأسرة العاشرة، وذلك لأنه رأى الغالبية من المؤرخين، ولأن هناك اتفاقاً على أنها حدثت على أيام الملك «نب كا ورع»، وهو - فيما ترى جمهرة المؤرخين - أحد ملوك الأسرة العاشرة، وربما كان آخر الحكام الإهناسيين^(٢) والذى تم فى أيامه انتصار أمراء طيبة على ملوك إهناسية، ثم كتب لهم بعد ذلك أن يعيدوا الوحدة للبلاد، تلك الوحدة التى فقدتها مصر على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، والتى أقامها منذ فجر التاريخ أقرباء لهم من أمراء «نخن»^(٣) (البصيلية - مركز إدفو - بمحافظة أسوان).

وعلى أية حال، فإن قصة القروى الفصيح إنما تتكون من مقدمة وتسع خطب أو شكاوى، عنى الكاتب بانتقاء معانيها، وتعبيراتها وألفاظها كل العناية، وفى الواقع أن القصة إنما تعد آية فى بلاغة الأسلوب كما أن بيان الشكوى رائع أخاذ، فيه كثير من التورية، وفيه كثير من التهكم الرائع، ثم إن الصورة التى عرضها ذلك الفلاح - أو القروى - إنما تعد مظهراً صادقاً، لما كان واقعاً يومئذ من ضيق الناس، بحال البلاد، وتبرمهم بالفوضى التى

(١) أحمد فتى، مصر الفرعونية، ص ١٧١، تاريخ الحضارة المصرية القديمة، ص ٣٩٤.

(٢) إهناسية: كانت عاصمة البلاد فى عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة، واسمها المصرى «نن - نيسو» وسمّاها العرب «إهناس»، وهى «إهناسية المدينة» الحالية، إحدى مراكز محافظة بنى سويف، وتقع على الضفة الشرقية لبحر يوسف، فى مقابل مدينة بنى سويف، وعلى مبعده ١٦ كيلا إلى الغرب منها. (محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ١٦٧).

(٣) انظر عن «نخن» ودورها السياسى والحضارى: محمد بيومى مهران، مصر، (الإسكندرية ١٩٨٨م)، ٥٩/٢ - ٧٤.

سادت حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أن في تكرار موضوع الشكوى تسع مرات، مع ما تخلل ذلك من دعاية الحديث، مما يدل على الروح التي سادت هذا العصر، وعلى الحظ على العدالة، واعطاء كل ذي حق حقه، وحماية الفقير من سطوة الأغنياء وأصحاب النفوذ، وقد كتب لصاحبها نجحاً بعيد المدى في أن يوضح لنا بصور شتى ما كان يدور في عقل ووجدان ذلك القروي البسيط، بل ما يدور في عقل ووجدان كل مصري عضه الجوع، ومرّ عليه البأس، ووقع فريسة لأصحاب الجاه والسلطان.

وتتلخص قصة القروي الفصيح هذه في أن قروياً يدعى «خون إنبو» خرج من قريته - وهي بلدة تسمى «حقل النطرون» من إقليم وادي النطرون بمقاطعة الفيوم، على رأى، وهي واحة متاخمة لوادي النطرون على رأى آخر، وهي بلدة «غيط الملح» التي لا نعرف مكانها على وجه التحديد، وإن غلب على الظن أنها كانت في نواحي الفيوم، على رأى ثالث - بغية التجارة في شتى السلع من الغاب والنطرون والملح والأخشاب وبعض الجلود وبعض محاصيل النباتات التي كانت تنمو في تلك الواحة قديماً، وبعض أنواع من الحجارة وبعض الطيور، وكثير من الحبوب التي كانت تنمو هناك، ليستبدل ذلك كله بمحاصيل الوادي في العاصمة إهناسيا، ومن ثم فقد قال لزوجته «مريّة» أو «ماريّة»: «أنظري إتنى شاخص إلى العاصمة لأجلب المؤونة لأولادي، من فضل تجارتى فأنطلقى فاكتالى لى الشعير الذى تركته في المخزن، فاكتالتهأ له فكانت ثمانية مكاييل ثم قال لها: عندك كيلان لك ولأولادك، ولكن اصنعى لى من المكاييل الستة الباقية خبزاً وجعة عن كل يوم أقضيه هناك».

وهكذا ترك الرجل قريته، ولم يترك لزوجته وأولاده ما يكفيهم إلا لأيام معدودات، ثم حمل حميره بشتى السلع بغية أن يبيعها في العاصمة

إهناسيا، وهناك وعلى مقربة من إهناسية، وفي قرية - وربما ضيعة - تدعى «بر - فيفى» كان يتولى أمرها موظف شرير يدعى «نحوت - نخت» نيابة عن موظف كبير، كان يتولى وقت ذاك منصب كبير حجاب قصر فرعون، أو ناظر الخاصة الملكية، ويدعى «رنسى بن مرو»، وطمع «نحوت - نخت» فى تجارة القروى وحميره، وأراد أن يكون له نصيب منها، إن لم يستول عليها كلها، وتفتق ذهنه عن حيلة خبيثة، فاعترضه على طريق زراعى ضيق، كان لابد أن يمر عليه، وأوعز إلى خادمه أن يسط على الطريق قماشاً يغطيه بالعرض، ولما تقدم القروى على الطريق نهاه «نحوت - نخت» أن يمر على قماشه المفروش، فاعتذر القروى بأنه كان حسن النية فيما أقدم عليه، وابتعد عن القماش وسار قرب الزراعة فنهره «نحوت - نخت» مرة أخرى، وفجأة قضم أحد حمير القروى قضمه من سنابل الغلال، فاعتبرها «نحوت - نخت» فرصته وأصر على أن يستولى على الحمار جراً جرمه، ويحتج القروى ويهدد بإبلاغ الأمر إلى ناظر الخاصة صاحب الأرض قائلاً: إني أعرف رب هذه الضياع، إنها للسمير الكبير «رنسى بن مرو»، إنه يلجم كل لص فى هذه البلاد كلها، أم ترانى أسرق فى ضياعه.

ويغضب «نحوت - نخت»، وتأخذه العزة بالإثم، ويستولى على بضاعة الرحال وحميره، ثم يتناول غصناً من الآثل الأخضر، وينهال على الرجل فى كل أجزاء جسمه، ويصيح القروى ياكياً، ولكنه كلما بكى، كلما أعاد «نحوت - نخت» ضربه آمراً إياه بالسكوت وعدم الشكوى، فيرد القروى: أتضربنى وتسرق مالى وتمنعنى أن أشكو، ويظل القروى يبابه عشرة أيام يستعطفه ويتضرع إليه، ولكنه لم يعره التفاتاً، مما اضطره إلى أن يشكو إلى ناظر الضيعة «رنسى بن مرو».

ويتقدم القروى بشكايته إلى النبيل «رنسى بن مرو» وقد قابله ذات صباح وهو فى طريقه من داره إلى النهر ليستقل قارب المحكمة، فرجاه أن يرسل معه تابعاً من عنده حتى يعهد إليه بقصته، ورجع التابع بنص القصة إلى رئيسه، ويتمكن القروى من أن يشير إعجاب «رنسى بن مرو» ببلاغة

لفظه، وفصاحة تعبيره، ويرفع «رنسى بن مرو» الأمر إلى القضاء لعلمهم ينصفوا ذلك القروى من «تخوت - نخت» ولكنهم لم يفعلوا شيئاً وأجابوا: ربما كان ذلك القروى أحد فلاحي «تخوت - نخت»، وأنه أراد تركه والعمل عند غيره، «إلّا من «رنسى بن مرو» أن يطلب من عامله «تخوت نخت» أن يعرضه عن كمية النظرون، ولكن «رنسى بن مرو» لم يعر حكمهم الظالم أى اهتمام، وأسرّ في نفسه أمراً عزم على تنفيذه.

واستبطأ القروى رد «رنسى بن مرو» فوجه إليه عتاباً رقيقاً ليناً، حاول أن يستثير فيه نخوته، فحبه في العدل، ووصفه بما يحب أمثاله أن يوصفوا به، وكان من قوله له: إذا كنت حقاً أبا لليتيم، وزوجاً للأرملة وأخاً للمرأة المنبوذة، ورداً لمن لا أم له، فشجعتنى على أن أنشر سمعتك في الأرض بما يتفق مع القانون الصحيح، وعساك تكون حاكماً بريئاً من الجشع، ونبيلاً منزهاً عن الدنية، تزهق الباطل وتحق الحق، وتلبى نداءه ها أنذا أقول وأنت تسمع، أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون، أزل كربي واحمنى، فقد وهنت قوتى، وضلت حيرتى.

وهنا لعل سائلاً يتساءل: ما بال هذا القروى المظلوم، لم ينصف على عجل، وهل يجوز لنا أن نرمى حكام مصر بالإهمال والمحاباة؟

فى الواقع إن الأمر لم يكن كذلك، فالحاكم الكبير «رنسى بن مرو» قد أعجبه فصاحة «نخون - إنبو» فأخبر الملك أن فى رعاياه «قروياً فصيحاً»، وكان الملك - كما يقول جوستاف لوفيفر - فى حاجة إلى من يسرى عنه، فانتهاز الفرصة، وطلب ألا يست فى شكوى القروى، استزادة من فصاحته، على أن تسجل شكايه وترفع إليه، يقول الملك لكبير حجابيه: «دع أمره يقضى فيه على مهل، ولا تجبه فى شيء مما يقول، والزم الصمت حتى لا يكف عن الكلام، واكتب ما يقوله حتى نسمعه، على أن تتكفل برزق زوجه وعياله، وذلك لأن القروى لا يأتى (إلى العاصمة) إلا بعد إملاق»، وهكذا، وبناء على توجيهات سيد البلاد فلقد «أعطوه فى كل يوم عشرة أرغفة، وإناءين من الجعة»، وقد تعود كبير الحجاب «رنسى بن مرو» أن

يعطى ذاك لأحد أصدقائه الذى اعتاد بدوره أن يعطيها له (أبى الفلاح) كما أرسل كبير الحجاب «رنسى بن مرو» إلى شيخ بلدة «حقاحات» (سخمت حموت) ليصنع طعاماً لزوجة هذا القروى، ومقداره ثلاثة مكايل من الشعير فى كل يوم.

وهكذا يتغافل كبير الحجاب عن الرد على شكايات القروى الفصيح الذى يظن أن أمره قد أهمل، فتحول من الاستعطاف إلى الشكاية ثم إلى الشراسة، وتحول من لين الحديث إلى العنف والنقد الصريح، وتوجه إلى «رنسى بن مرو» بعدة شكايات متتابة، بعد استعطافه الأول (شكايته الأولى)، لم يسلم حين تقديمها من الأذى، وضرب الحجاب، وإهانة الحراس، ولكنه لم يتخل عن عناده، واستمر يصصر على إسماع صوته للحاكم، ولو ناله الضرب والأذى، وعمل على أن يصور فى هذه الشكايات كل مبادئ العدالة الاجتماعية والسياسية والقانونية التى كان يطمح فيها المفكرون فى عصره.

وهكذا أخذ القروى فى شكايته الثانية يحذر «رنسى بن مرو» قائلاً: يا كبير الأمناء يا شريفى، إنك أعظم العظماء، وأغنى الأغنياء، أنت الذى تتمثل فىك عظمة العظماء، وغنى الأغنياء، إنك دفعة السماء، وسارى الأرض، وحبل الميزان الذى يحمل الثقل، فيا أيتها الدفة لا تنحرفى ويا أيها السارى، استقم، ويا أيها الميزان لا تعمل،، وحين لا يجد أذاناً صاغية فإنه يقول: «هل أبحثم للشريف أن يسلب رجلاً ليس له ولى، وينهب رجلاً ليس معه أحد، إن الموت يدرك الغنى ومن فى كنفه على السواء، فهل أنت حى خالداً؟ أليس من القبيح أن تميل الموازين وتختل المعايير، وأن ينقلب العادل القويم خبيثاً، إن كبار الموظفين يرتكبون السيئات، ويحيد القوم عن الطريق السوى، ويسرق القضاة، إن الذى ينبغى أن يقسم بالعدل قد أمسى سارقاً، والذى ينبغى أن يقضى الحاجات قد أنزل الحاجة بالناس حتى عمّ العوز المدينة، والذى ينبغى أن يستأصل الشرور، هو نفسه الذى يرتكب المظالم، إن وازن الحبوب يطفطف غشاً، والذى ينبغى أن يبين سبيل القانون يأمر بالسرقة».

ثم يقول «إن الإصلاح قد يتم في ساعة، ولكن الفساد يمكث طويلاً وتعود الحسنة إلى حيث كانت بالأمس، وتلك هي الحكمة: عامل بالحسنى من أحسن حتى يظل محسناً»، ثم ينبئ: «إلى واجبات وظيفته: «فلتكن عصمة للمظلوم، وليكن شاطئك آمناً، فإن التماسيح تعبت في الأرض من حولك، وليكن لسانك عادلاً، فلا تفضل سواء السبيل، إذ يكون جزء من الجسد سبباً في هلاك صاحبه، لا تقل كذباً، واحذر كبار أشرافك، إنما يفسد القضاة سلة من فاكهة (يلوح أنه يعنى الرشوة)، والكذب مرعاهم الخبيث، وهو بذلك أيسر ما تهوى قلوبهم، وأنت يا أعلم الناس، أفتبقي جاهلاً بأمرى، وأنت يا من تجنب الناس كل قحط في الماء، ألا فانظر، إن لى طريقاً ليس فيه سفينة، وأنت الذى تنشل الغريق، وتنقذ الهالك، انقذنى».

ثم يضرع إليه فى «شكايته الثالثة»، ويشبهه بالإله «رع» فيقول: إنك أنت رع سيد السماء، ومعك حاشيتك، إن بقاء الناس جميعاً مرجعه إليك، أنت فيهم فيض عميم، أنت «حابى» (حعبى) (١) الذى تبخض به المراعى، وترد الأرض المجهدة خصيباً، ادفع السارق، واحم المسكين ولا تكن تياراً جارفاً على من استجار بك، اتق دنو الآخرة، وإذا عاقبت من يستحق العقاب، فلن يتسامى إلى استقامتك أحد، انظر: هل يختل ميزان اليد، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون أخرى، إذا حابى الإله «بتحوت» جاز لك أن ترتكب سوء، كن ثانى هؤلاء الثلاثة، فإن حابوا جاز لك أن تحابى، لا تجعل السيئة مكان الحسنة... لا تقل كذباً فإنك كبير، ولا تكن هيناً فإنك عظيم، ثم يقول له فى تشبيه لطيف، وتجسيم للصورة: «أنت رئيس ويديك ميزان، إذا اختل الميزان فأنت مختل، ولسانك هو لسانه الصغير، وقلبك

(١) يشبه القروى هنا «رنسى بن مرو» بأنه النيل «حعبى»، والمعروف أن المصريين قد أطلقوا على النيل («إيترو - عا» = النهر العظيم) اسم «حعبى»، على أن «حعبى» لم يكن هو النهر المقدس، وإنما كان ذلك الإله أو الروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حاملاً الخصب والنماء، وقد صور المصري هذا الإله فى هيئة بشرية تجمع بين الأنوثة والذكورة فى هيئة صياد سمك يلتجئ باللحية التقليدية للآلهة، له ثديا امرأة، ووطن مترهل. (محمد بيومى مهران، مصر ٢٩٨/١ - ٣٠٥).

صنجاته، وشفتاك كفتته، فإذا أدركت وجهك شطر الظالمين، فمن الذي يرد الفضائل، ويرفع العار.

ويدرك القروى أن شكاياته لا طائل منها، ومع ذلك يستمر فيها، ولكنه يشتد على «رنسي بن مرو» فيقول له: «أنت قادر ومقتدر، وذراعك طائلة، ولكن فؤادك قاس، والرحمة قد تجاوزتك، وما أتعس المحزون الذي تحطمه، لكأنك رسول ربّ التمساح، بل إنك زدت عن ربة الوباء، وإذا كان العدم يرتجى منها، ارتجى منك العدم، وعندئذ يأمر «رنسي بن مرو» بضرب القروى بالسباط، فينزعج القروى، ويقول: «ضل ابن مرو طريقه، إنه أعمى عما يرى، أصمّ عما يسمع، سادر عما يروى له، إنك أشبه بقرية لا عمدة لها وجماعة لا كبير لها، وسفينة لا ربان لها، وعصبة لا هادى لها، انظر: إنك لص، حاكم يصادر أملاك الفلاحين، ورئيس مقاطعة وظيفته القضاء على النهب، ولكنه يصبح نموذجاً لمركبيه، لا تسرق وضيعاً أملاكه، ولا ضعيفاً تعرفه، إن أملاك الفقير هي أنفاسه، فمن أخذها منه فقد كتم أنفاسه، لقد عينت لتسمع الشكايات، وتفصل بين الخصوم، وتقضى على اللصوص، لقد وضع الناس ثقتهم فيك، فأصبحت معتدياً، وإنما أقمت سداً منيعاً لا شير تحميه من الفرق، أيها السمير الكبير، أقم الحق، إن زارع الشر يروى آثاره الشر، ولكن الحق باق أبداً، وهو ينزل مع فاعله إلى العالم الآخر، فلا يحمي اسمه من الأرض، ولكنه يذكر لصالحه، وذلك ما ورد فى كلام الإله».

ويستمر القروى فى شكاياته التى بلغت تسعاً، وفى كل واحدة منها يتفنن فى المطالبة بحقه، ويذكره بمسئوليته عما حدث له، ويحذره من غضب الله تعالى عليه لمناصرتة الظلم والظالمين، ثم يقول له فى شكواه الأخيرة: «إن السنة الناس موازينهم، إن الميزان هو الذى يبين السرقة فعاقب من يستحق العقاب»، ثم يحذره فى نهايتها قائلاً: «لا تطع قلبك ولا تخف وجهك عمن عرفت، ولا تكن أعمى عما رأيته، ولا تنهر من أذاك مستجيراً، أخرج من بطشك، واقض ما أنت به قاض، لا صديق لمن يصم آذانه عن

العدل، انظر: إني تضرعت إليك، وما أراك منصتاً لى انظر: إني سأذهب الآن، وسأرفع شكواى ضدك إلى الإله «أنويس».

ويبدأ القروى يسير بعيداً عنه معتزماً تنفيذ ما هدد به، وهو أنه ذاهب إلى «أنويس»، إله الموتى، غير أن «رنسى بن مرو» سرعان ما يرسل وراءه اثنين من رجاله عابداً به، وكان خائفاً من أن يعاقبه «رنسى بن مرو» على ما بدر منه فى شكواه، ولم يصدق فى أول الأمر، عندما طمأنه «رنسى بن مرو» كبير الحجاب قائلاً: «لا تخف أيها القروى فقد أهملنا شكواك لتبقى معنا، وسرعان ما يخرج له «رنسى بن مرو» قرطاساً من البردى، قرأ فيه كل «شكاياته»، ثم حمل هذا القرطاس إلى الملك «نب كا ورع» الذى سرّ كثيراً بهذه الشكايات، وأمر بأن ينتقم للقروى من ظالميه دون وجه حق، حتى ليعطى كل أملاك «نحوت - نخت»، بل ويسمح له بالإقامة فى العاصمة إهناسيا كذلك.

وقصة القروى الفصيح هذه، كوثيقة تاريخية، هامة جداً، وذلك لأنها تصور لنا الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ مصر، وتصور لنا كيف يستغل بعض الموظفين وظائفهم فى ظلم الفقراء من الناس، بينما يعنى كبارهم يتقبل شكوى المظلومين ورد حقوقهم إليهم، لأنهم هم المسئولون عن ذلك، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب الضخم، ليست فى كل الأحوال سياجاً تحمى صاحبها من أن يظلم الناس كما أنها ليست دائماً درعاً يحمى الفقراء من اضطهاد الحاكمين - وأحياناً سلبهم أقاتهم - وتصور لنا كيف ساء الحال، وأهمل الموظفون واجباتهم وكيف اضطرب الأمن فى الطرق، وانتشرت السرقات وتفشى الغش والخداع، وكيف فسد الحكم، حتى وصل الأمر إلى القضاء فانهرف عن واجبه المقدس، وتصور لنا مكانة الثقافة، أو بعبارة أخرى، مكانة الفصاحة، حتى أن مؤلف قصة الفلاح لم يأبه أن يصور فرعون عصره يستعذب فصاحة قروى من رعاياه، ويتمنى أن يستزيد منها، ثم يأمر بالإحسان إليه فى عاصمته، دون أن يعرف من هو المحسن إليه، ودون أن يشعر بفضل أحد عليه فضلاً عن الإحسان إلى أسرته فى قريتها والتكفل بأمر معيشتها.

على أن قصة الفلاح الفصيح، إنما تصور لنا - من ناحية أخرى - كيف أثرت الثورة الاجتماعية الأولى في المجتمع، فأعلنت من شأن الفرد، وأعطت الفرصة لأقل الناس في أن يتقدم - بكل جرأة وشجاعة - ويطالب بحقه المهضوم، بل ويتهم كبير حجاب قصر فرعون بتهمة أشد قسوة، لأنه لم يأبه بتطبيق العدالة معه، وأن يعيد إليه بضاعته التي سلبها إياه أحد موظفي كبير الحجاب هذا، فهو يمثله بشخص لا يهمه إلا الكسب بأية وسيلة، حيث يقول له: «انظر أنك غاسل ثياب تعس، جشع في إضرارك بالصدق، إنك كمن يترك شريكه من أجل عميل، انظر إنك معداوى لا يعدى إلا من كان معه أجراً، إنك تاجراً بارت تجارته، انظر إنك ساقى لذته في القتل، وتشويه ما ليس مشئولاً عنه».

ثم يعبر له عن أن الحكم السلبى الذى لا ينشد بحق فعل الخير، لا يمكن أن نسميه حكماً، يقول القروى الفصيح: «انظر، إنك أشبه بقرية لا عمدة لها، وجماعة لا كبير لها، وسفينة لا ربان فيها، وتحالف بلا زعيم، لقد أقمت سداً منيعاً للفقير تحميه من الغرق، ولكن انظر فقد أصبحت البركة التى يغرق فيها الناس»، ثم يستمر فى شكواه منادياً بأن الباطل دولته قصيرة الأجل، أما دولة الحق فللأبد، يقول القروى: «انظر: إذا مشى الباطل يضل أناس الطريق، إنه لا يعدى فى قارب التعدي، إنه لا يتقدم، إن الذى يغنى بالباطل لا أولاد له، وسيزول ورثته من الأرض، أما «ماعت» فهى باقية إلى الأبد، وتصحب من يفعلها إلى القبر، وعندما يموت ويدفن لن يمحي اسمه من الأرض، فأعماله الخيرة تذكره، هذا هو المبدأ الذى أمر به الإله».

وتصور لنا القصة اضطراب الأمور فى البلاد، وانحلال الموظفين، وبعدهم عن الجادة من الطريق، وأن اتقاء الشعب هذا الهوان وإنقاذه منه، لن يكون إلا على يد ملك عادل حازم، يعاونه جمهرة من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول، وتصور لنا أمر الخوف من عقاب المنتقم الجبار، وكيف كان القروى الفصيح يكرر على مسمع رئيس حجاب القصر الملكى بأنه سيقف يوماً أمام الله تعالى الذى سيحاسبه عما فعل لرد الظلم عنه، وإرجاع

الحق إلى أصحابه، فالحاكم راع مسئول عن رعيته، مكلف بالسهر على راحتها، فإن أحسن فله نعم الثواب، وإن أساء وأهمل فسوء المصير ينتظره في الحياة الأخرى.

وأخيراً، فإن صاحب قصة القروى الفصيح قد شبه العدالة - ولأول مرة في تاريخ آداب العالم - بالميزان، واتخذ من أجزائه استعارات وأوصاف لنواحي العدالة، ثم ساد هذا التشبيه في جميع لغات العالم، وقد ظهر بصورة واضحة في القرآن الكريم، يقول القروى: «نفذ العقاب فيمن يستحق العقاب... انظر: هل يختل ميزان اليد، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون الأخرى... لا تقل كذباً فإنك كبير، ولا تكن هيناً فإنك عظيم، ولا تنطق بالكذب لأن الموازين... أنت رئيس ويبدك ميزان، إذا اختل الميزان فأنت مختل، ولسانك هو لسانه الصغير، وقلبك صنجته، وشفطاك كفته، فإذا سترت وجهك عمن يطفف، فمن الذى يرد الضلال، ويرفع العار».

هذا وقد كان لهذه القصة مكانة عند المصريين، حتى أنها قد بقيت معروفة عند الأدباء حتى عصر الرعامسة، فهناك قطعة بها مقالة مهلهلة لتلميذ كسول، جاء فيها ما ترجمته الحرفية: «أنت فى حالة الذى يقول: أنت تقتل، أنت تسرق حميرى، خذ التحذير من فمى»، وهنا نجد اقتباساً خاطئاً جداً فى كلمات الفلاح أو القروى الفصيح التى تقول: «ثم قال الفلاح: «أنت تضربنى، أنت تسرق بضاعتى، وعندئذ خذ الشكرى من فمى»، مما يدل بوضوح على أن قصة القروى الفصيح إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة فى المدارس حتى عصر الرعامسة^(١).

(١) جوستاف لوفيفر، المرجع السابق، ص ٩٨-١٣٥؛ عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وآثارها، ٤١٤/١-٤١٧؛ الشرق الأدنى القديم ٣٦٢/١-٣٦٥، محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٥-٢١، ١٧٠-١٧٢، مصر ٣١٥/٢-٣٢٢؛ سليم حسن ٥٦/١-٧٠، وكذا:

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 183-193; A.H. Gardiner, JE, 9, 1923, p. 5-25; J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 407-410; A. Erman, LAE, 1927, p. 116-130; O.R. Faulkner, op.cit., p. 31-56; M. Lichtheim, op.cit., p. 170-183; A.M. Blackmann, JEA, 20, 1934, p. 218-219.

٦ - أغنية الضارب على العود

توجد لدينا نسخة من هذه الأغنية، محفوظة في «بردية هاريس» رقم (٥٠٠)، والتي توجد الآن في المتحف البريطاني في لندن (تحت رقم ١٠٠٦٠)، وترجع إلى حوالي عام ١٣٠٠ ق.م^(١)، وهناك نص آخر وجد في مقبرة «با - أتون - جب» فيسقارة، وترجع إلى أيام العمارنة وهي الآن بمتحف ليدن^(٢)، وإن كانت تختلف عن الأولى إلى حد ما.

هذا والبردية مكتوبة كذلك بمقبرة «نفر حتب» في طيبة الغربي (رقم ٥٠)، وترجع إلى الفترة (١٣٥٠ - ١٣٢٠ ق.م) على رأي «جسون ويلسون»^(٣)، وإن كان الدكتور أحمد فخري يرجع بمقبرة «نفر - حتب» هذه إلى الأسرة الحادية عشرة^(٤) (الدولة الوسطى)، وهناك كذلك زواية للأغنية منقوشة على قبر الملك «أنتف» من الأسرة الحادية عشرة، ويذهب «جيمس هنري برستيد» إلى أن أنشودة كاهن آمون «نفر حتب» من طيبة، لا تكاد تماثل مقبرة «أنتف» ولا تعادلها في التأثير، وإن كانت تحتوي على بضعة أسطر قيمة يجب الالتفات إليها^(٥).

هذا وقد قام بنشر هذه الأغنية وترجمتها وشرحها والتعليق عليها كثير من العلماء من أمثال - جاردنر^(٦)، وميلر^(٧)، وشتياندورف^(٨) وزيتة^(٩)، وإرمان^(١٠)، وويلسون^(١١)، وسيمبسون^(١٢)، وإن كان Miriam Lichtheim من أكثر العلماء اهتماماً بهذه الأغنية^(١٣)، هذا وقد كتبت «أغنية الضارب

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 467.

(2) Ibid., p. 467.

(3) Ibid., p. 467.

(٤) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(5) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 106.

(6) A.H. Gardiner, in PSBA, 33, 1931, 163-170.

(7) W.M. Muller, Die Liebespoesie der alten Aegyptor, Leipzig, 1932.

(8) K. Sethe, op.cit., p. 94.

(9) G. Steindorff, in ZAS, 32, 1894, p. 123-126.

(10) A. Erman, LAE, 1927, p. 253-254.

(11) J. Wilson, in ANET, p. 33-34.

(12) W. K. Simpson, op.cit., p. 306-307.

(13) M. Lichtheim, JNES, 4, 1954, p. 178-212, pls. I-VII; M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, 1975, p. 193-197, II, 1977, p. 115;

وانظر: سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢٢٤-٢٢٥، أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٤٢١-٤٢٣، نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم ٢٧٧/١-٢٧٨.

على العود، على أيام الدولة الوسطى، وكانت من الأغاني المحبوبة لدى المصريين القدامى حتى أخريات الدولة الحديثة، حتى أننا نجد لها نسخاً من عهد الدولة الوسطى، ومن عهد الدولة الحديثة سواء بسواء. وهى تعتبر، دونما ريب، من أجمل الأغاني المصرية، وتمثل نوعاً من الأناشيد الدينية، وكانت تنشد بمصاحبة «الجنك» فى حفلات الأسراء، وهى على نقيض الدعوة إلى السرور والابتهاج، تدعو الشاربين إلى تذكر الموت القريب، وقد جاء فى المصادر اليونانية أنه كان يعرض فى مجالس الشرب فى مصر صور لموميا، حثاً على الاستمتاع بالحياة القصيرة عن طريق تذكر الموت، وليس من شك فى أن أغنية الضارب على العود، إنما تصور لنا هذه الفكرة تصويراً فنياً جميلاً^(١).

وأما أهمية الأغنية - كمصدر تاريخى - فهى تصور لنا ناحية من التفكير الجديد الذى بدأ ينتشر فى تلك الحقبة من تاريخ البلاد، منذ أيام الثورة الاجتماعية الأولى، ذلك التفكير الجديد، هو الشك، فلقد بدأ القوم يتشككون فى العقائد التى توارثها القوم عن الأجداد، جيلاً إثر جيل، والتى كانت تجعل من الوسائل المادية طريقاً للخلود، ووسيلة للسعادة فى الآخرة، وربما دفعهم إلى ذلك ما أصاب جبانة الجيزة الفخمة ومعابدها الرائعة، من تخریب، حتى أصبحت خرائب مهجورة، حتى من كهاتتها، فضلاً عن الذين أوكل إليهم أمر العناية بها.

ولم يقف الشك عند زعزعة الإيمان بقيمة هذه الأضرحة الفخمة، بل تعداها إلى الشك فى الحياة الآخرة نفسها، وكما كانوا يقولون: وهل عاد إلينا واحد من الراحلين.

وهنا قامت دعوة جديدة تنادى بأن يترك القوم لأنفسهم الحرية فى أن يتمتعوا بالدنيا - ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً - فإن الواحد منهم لن يأخذ معه إلى الآخرة شيئاً مما اقتناه فى دنياه، ومن ثم فقد كان شعارهم: «امرحوا ولا ترهقوا النفس، هل للإنسان أن يأخذ شيئاً مما اقتناه معه»، وهكذا كانت

(١) إرمان ورائكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ص ٤٣١.

هذه الأغنية تدعو القوم إلى الاستمتاع بالدنيا ونبد الهموم، بل والتشكيك فيما ينتظر الناس في العالم الآخر^(١).

وهكذا فإن أغنية الضارب على العود، إنما تمثل عصرًا بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية، دون معارضة فيها، كما ورثت عن الآباء، فإن عقيدة الشك إنما تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة، وبحثًا مستمرًا فيما كان معترفًا به حتى ذلك الحين دون تفكير، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد في الشيء وإنكاره، وهي تعدو خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعي النفسى، والوازع الشخصى، على أن عقيدة التشكيك هذه لا تنمو إلا بين أفراد شعب له مدنية ناضجة، ولا تثبت فى الأحوال الفطرية، ولذا فإن هذا العصر (عصر الثورة الاجتماعية الأولى) والذي يمثل قمته المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الوحدة الثانية، يعد عصرًا هامًا فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر^(٢)، وفى أغنية الضارب على العود، دعوة إلى أننا لا نعرف شيئًا عن الحياة فيما وراء الموت، لأن واحدًا من الراحلين لم يأت ليقص علينا ما رآه هناك، وإذن فلا طريق أمامنا سوى أن نمتع أنفسنا بأكبر قدر من الملذات الحسية، ذلك لأننا لن نأخذ من ممتلكاتنا فى هذه الدنيا شيئًا معنا إلى الآخرة^(٣).

تقول أغنية الضارب على العود:

«هذا خير للأمير النبيل، فقد مرَّ بالنهاية السعيدة، تمر أجيال وتأتى فى مكانها أجيال منذ زمن الأوائل، يوقظه الإله رع عند الصباح، ويغيب الإله أتوم فى الغرب، يتناسل الناس، وتحمل النساء، وتستنشق كل أنف من الهواء، وعندما يشرق الصباح ترى أولادهم فى أماكنهم».

«الآلهة الغابرون (الملوك القدماء) يستقرون فى أهراماتهم، وكذا يستقر الأشراف الأمجاد فى مقابرهم، لقد شادوا القصور التى لا أثر لها اليوم، فماذا

(١) انظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، رسالة ماجستير، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٢١-٢٣.

(2) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 162.

(٣) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٨.

حلّ بهم ؟ لقد استمعت إلى كلمات «إيمحوتب» و«حور» ددف، اللذين يتغنى الناس بأقوالهما في كل مكان، أين مكان كل منهما الآن، لقد تهدمت جدرانهما ولا أثر لمكانهما بعد، كأنهما لم يعيشا على هذه الأرض على الإطلاق».

«لا أحد يعود من هناك (من عند الموتى) حتى ينقص علينا ماذا في الآخرة ؟ وحتى يحدثنا عما هم في حاجة إليه لتطمئن قلوبنا، حتى تلك اللحظة التي نرحل فيها نحن أيضاً، إلى حيث ذهبوا»..

«ألا فلتبتهج، إرم بكل الأحزان وراء ظهرك، افرح وفكر في السرور ولنشبع رغباتك طالما أنت حي، ادهن رأسك والبس الكتان الجميل، وتعطر بالروائح الزكية، دع الغناء والموسيقى أمام ناظريك، أكثر مما لديك من ملذات، اعمل ما أنت في حاجة إليه على الأرض، ولا تضجر قلبك إلى أن يدركك وقت الندب».

«إن القلب الساكن (أوزير) لا يسمع عويلا، والبكاء لا يوقظ أحداً من عالم الموت، لذلك فلتبتهج لليوم السعيد، ابتهج دائماً، ولا تشعر بكلل من ابتهاجك، استمع إلى: لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه، ولا أحد من الراحلين يعود ثانية».

الباب الثانى

المجتمع المصرى القدير فيما قبل الثورة

الفصل الأول التنظيم السياسى والإدارى والاقتصادى والقضائى فيما قبل الثورة

أولاً - التنظيم السياسى ١ - الملك المؤله

(١) نظرية ألوهية الملك :

استطاع مؤسس الأسرة الأولى أن يكون لمصر، حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد^(١)، حكومة مركزية قوية على رأسها الملك المؤله، الذى كتب له نجاحاً بعيد المدى فى أن يجمع بين يديه كل السلطات، حكومة كان الملك فيها هو المحور، بل الروح التى تبعث الحياة فى الدولة، وكل ما يحدث فيها وحى منه، قامت على أسس دينية عميقة الأثر، فهو الإله العظيم، وهو الإله حور، الذى تجسد فى هيئة بشرية، ومن ثم فهو، فى نظر رعاياه، إله حى على شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة الأخرى فيما لها من حقوق، وبالتالى فله حق الاتصال بهم، وله على شعبه، ما لغيره من الآلهة، من المهابة والتقديس.

ومن هنا كان الأساس السياسى والاجتماعى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على عرش الكنانة غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه على علم بكل ما يدور فى البلاد، ومن هنا كان من الصعب أن تفرق بين الملك والدولة، إذ كانت كلمته قانون، ورغبته أمر، ورعيته ملك يمينه، يتصرف فيها متى شاء، وهكذا كانت الضرائب تؤدى لتملاً خزائنه، والحروب تقوم من أجل شهرته وإعلاء ذكره، والعمائر تقام تكريماً له، وتشريعاً لقدره، وكل أملاك البلاد خالصة له، وهى حقه، فإذا سمح لخلق ما أن يكون له فيها نصيب، فإن هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها عندما يشاء.

(١) انظر الآراء المختلفة التى دارت حول تحديد شخصية مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية : محمد بيومى مهران، مصر الفرعونية، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٨٣، ص ٢٤٧-٢٦٧.

هذا وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم فى كيفية إيمان المصريين بأن الجالس على العرش إله يحكم بشراً، وكيف أصبحت ألوهية فرعون عقيدة الدولة الرسمية؟

كان مبدأ ألوهية الملك مذهباً وصلت إليه الحكومات المصرية خلال عصر الأسرات المبكر، بغية الاطمئنان على حسن تأسيس الحكم الجديد، وذلك عندما وجد الحاكم ضرورة أن يرفع نفسه من مرتبة بشر متميز، من الجائز أن ينازعه فى سلطانه بشر آخرون أقوياء، إلى مرتبة إله لا يمكن منازعته^(١)، وهكذا ظهرت عدة آراء بشأن عقيدة القوم فى ألوهية ملوكهم، فهناك رأى ينادى بأن عقيدة الملكية الإلهية إنما كانت وليدة أسباب انتصار الملك على منافسيه من أهل الدلتا، ثم اصطناعه صفات إلهية، حتى غدا إلهاً بين الآلهة^(٢).

وهناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة من ملوك عصر التأسيس فى تحقيق الوحدة تحقيقاً مادياً طوال ذلك العصر، إنما قد دعتهم إلى القول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين، ومن ثم فقد نجح الملك الإله فى أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر، فضلاً عن أن يكون من الصعيد، موطن الملوك من مؤسسى الوحدة، وسرعان ما سرت فى نفوس القوم على مر الأيام تلك العقيدة التى تدعو أصحابها إلى الإيمان بأن هذا الجالس على عرش مصر، ليس إنساناً زائلاً، وإنما هو إله حى يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق التقديس والمهابة^(٣).

وهناك وجه ثابت للنظر يعزوها لأسباب جغرافية، تسند لها طريقة التفكير المصرى، ذلك أن مصر إنما كانت من الناحية الجغرافية بلداً لا توجد بينه وبين غيره صلات طبيعية، ولذا فقد تمتعت بالإحساس بالطمأنينة وبأنها بلاد ذات امتياز خاص، كان نصيبها فى الوجود غير عادى، ذلك لأن العناية الإلهية جعلتها وحدها فريدة بنفسها، ومنفصلة عن جيرانها، فلم يكن

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, p. 45.

(٢) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٨٠.

(٣) عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية، الجزء الأول، النظم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١١١.

آلهة الكون العظام في حاجة إلى التحليق فوقها، وإرسال بشر ينوب عنهم في الحكم ولكنهم احتفظوا لأنفسهم بالعناصر الفعالة للقوة والحكم، بل كان في استطاعتهم أن ينصرفوا مطمئنين ليرعوا شؤون الكون، لأن واحدا منهم، وهو فرعون، الذي كان هو الآخر إلها، أخذ على عاتقه وظيفة الحكم والسلطان وأقام في مصر، هذا فضلا عن أن المصري كان لا يحس بضرورة تحديد الأنواع تحديدا صريحا، ومن ثم فقد سهل عليه أن ينتقل من البشرى إلى الإلهي، وأن يقبل العقيدة التي تنص على أن الفرعون الذي كان يعيش بين الناس، كاتبها هو من دم ولحم إنساني، وكان في الحقيقة إلها تكرم فأقام فوق الأرض ليحكم أرض مصر، وليس من المستبعد أن عقيدة الملكية الألوهية كانت سهلة وطبيعية في مصر، وربما كانت متأصلة الجذور في أيام ما قبل التاريخ^(١).

وهناك رأى رابع يجعلها نتيجة أسباب دينية، ذلك أن القوم كانوا يعتقدون - فيما تروي أساطيرهم - أن آلهة التأسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الأرض في مصر ذاتها قبل أن يعرجوا إلى السماء، أو فيما يختص فيمن ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا إلى الجحيم، وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم، بل وتحدد سنى حكمهم، كما تفعل بردية تورين، وقد ترك «أوزير» آخر ملوك مصر من الآلهة الحكم لابنه «حور»، ومن هذا الأخير تحدر نى زعمهم كل ملوك مصر، ومن ثم يصبح حق الملك قائما على طبيعته الإلهية التي كانت تتنقل مع الدم، وفي عهد الأسرات الأولى لم تكن ألوهية الملك مؤكدة إلا تبعا لتسلسله من «حور» إله الأسرة، بغض النظر عن أية مؤلفة دينية، ومن ثم كان الاسم الذي يتسمى به الملك عند توليته العرش يكتب داخل إطار مستطيل يمثل صورة مؤخرة للقصر الملكي، وترسم فوقه صورة حور، وكان الملك يتخذ هذا الاسم عند توليته العرش، أي عند تنصيبه في صورة حور، وبما أنه من دم إلهي، فإنه يصبح إذ ذاك صورة من حور ذاته^(٢).

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 45, 47.

(٢) إثنين دربرتون وجاك فاندبييه، مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠م، ص ٩٠-٩١؛ وكذا: A. Moret, Le Nile et La Civilisation Egyptienne, Paris 1962, p. 68.

وهناك وجه خامس للنظر يذهب إلى أنها نتيجة أسباب اقتصادية، ومن ثم فإنه يتجه إلى أن ألوهية الفرعون إنما تتصل اتصالاً وثيقاً بالعناصر الأساسية التي شكلت المبادئ والقيم المصرية منذ البداية، والتي تتركز في تأثير الإنسان بكافة المقومات البيئية المحلية بطريق مباشر أو غير مباشر، فلقد بدأ الإنسان حياته المستقرة بالزراعة، وسرعان ما نشأ المجتمع الزراعي المستقر، والمعتمد على ضمان توفير مياه الري، ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للإنتاج السليم، ثم سرعان ما أدرك الإنسان بتجاربه المستمرة ضرورة ضمان الحياة المستقرة، وفي نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به، والسيطرة على البيئة، وشعر بارتباطه، حياة ومستقبلاً، بتلك القوى الكونية المسيطرة على العالم، واعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الإنسان والآلهة، تلك القوى وبالتالي اطمئنان الإنسان على حياته الحاضرة والمستقبلية، ومن ثم فقد ارتبط ملوك مصر بعالم الآلهة ارتباطاً كبيراً لم يألفه المؤرخ في نظم الحكم الأخرى في الشرق القديم^(١).

وهكذا نرى المؤرخين يختلفون في تفسيرهم لألوهية الملك الفرعون وكيف نشأت؟ وكيف اقتنع المجتمع المصري وآمن بألوهية ملوكه.

وإذا أردنا مناقشة وجهات النظر المختلفة، لوجدنا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع أن تصل بالمغلوبين إلى الإيمان بألوهية غاليهم، ذلك لأن الغزو قد يجبر قوماً على الخضوع لآخرين، وقد يخلق من زعيم المنتصرين دكتاتوراً يأمر فيطيع المغلوبون، ولكنها لا تخلق منه، بحال من الأحوال، إلهاً يؤمن الناس به كواحد من آلهتهم الأخرى، وحتى لو آمنوا به في فترة الغزو، وفي أعقابه لفترة قد تطول أو تقصر، فكيف تسنى للفراعين أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها القوم حتى نهاية العصور الفرعونية، وعلى مدى قرابة آلاف ثلاثة من الأعوام؟

وأما النظرية التي تجعل من الصعاب التي لاقاها مؤسسو الوحدة دافعاً للقول بأن مصر يحكمها إله تتمثل فيه القوى التي تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا)، فقد يكون الأمر كذلك إلى حد ما، وإن خالط وجهة

(١) رشيد الناضوري، جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨ م، ص ٢٨٢-٢٨٣.

النظر هذا الكثير من الخيال، فضلاً عن الحدس والتخمين، إذ لدينا ما يثبت أن الوحدة التي أقامها «ميناء» لم يكتب لها البقاء حتى نهاية عصر التأسيس، فقد انهارت في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، كما تشير إلى ذلك آثار الملك «نخع سخم» والتي اقتصررت على مدينة «نخن» (البصيلية)، الموطن الأصلي لمؤسسي الوحدة، فضلاً عن جهود «نخع سخم» في سبيل استرجاع الدلتا، وتوطيد الوحدة، إلا إذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن انفصال الدلتا في الأسرة الثانية إنما كان نتيجة غزو ليبى للدلتا، احتلها وانفصل بها عن الصعيد، ومع ذلك فهناك ما يشير إلى قيام بعض ملوك عصر التأسيس بعمليات عسكرية ضد تمرد أو آخر في الدلتا^(١)، وعلى أى حال، فإن صحت وجهة النظر هذه، وقبل الوجه البحرى هذا المبدأ، فما كان من حقه أن يعارض حكم إنسان كانت عائلته تقيم في الصعيد، فقد كان مقررًا أن هذا الإنسان لم يكن تابعاً لمنطقة جغرافية، ولكنه كان من عالم الآلهة^(٢).

وأما الرأى الذى جعل العوامل الجغرافية سبباً فى الإيمان بالوهية الفرعون، فيعارضه أن فى طبيعة مصر متناقضات جغرافية تفسد علينا طرفى المحاور، فإذا نظرنا إليها فى عزلتها عن الخارج، فهى بلد متحد قائم بنفسه، وإذا نظرنا إليها من ناحية انقسامها إلى جزأين، فإنها بلد غير متحد ومنقسم، وكانت مصر فى نظر المصريين، بلداً واحداً، وفى الوقت ذاته هى بلدان منقسمان، مصر العليا ومصر السفلى، ومن هنا كان من أسمائها المعروفة «تاوى» بمعنى الأرضين، أرض الصعيد (تاشمعو) وأرض الدلتا (تامحو)، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد، على أقل تقدير، متأثرين فى ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر فيما قبل عصر التأسيس، هذا فضلاً عن ألقاب الفراعين أنفسهم إنما ترمز إلى الثنائية، فى اثنين منها على الأقل، كما فى لقب السيدتين ولقب مصر العليا والسفلى، وعلى أى حال، فإن هذه النظرية إنما تضعف إلى حد كبير، إذا ما تذكرنا أن ألوهية الفرعون إنما كانت

(١) انظر: محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦،

ص ٦٤-٦٨، مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٤٧-٥٧.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 45-46.

مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها، وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأنه في أية فترة من الفترات التي كان يضعف فيها الحكم، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما، إلا اعتمادها المشترك على مياه النيل (١).

وأما وجهة النظر التي أرجعتها إلى أسباب دينية، فهي تعتمد على الأساطير، أكثر من اعتمادها على الأدلة التاريخية، إذ لو كان الأمر كذلك، وكان مؤسس الأسرة الأولى أو غيره من ملوك عصر التأسيس، معترفاً بالوحيته على أساس أنه سليل الإله حور، الذي ورث ملك مصر عن أبيه أوزير، لما احتاجت الوحدة إلى كل هذه الحروب التي خاضها ملوك (نخن) (البصيلية) من أمثال نعرمر، ولما احتاجت كذلك إلى جهود خلفائه بعد النكسة التي أصيبت بها الوحدة في عصر الأسرة الثانية، واستعادتها مرة أخرى، من موطنهم الأصلي من البصيلية (نخن) - مركز إدفو - بمحافظة أسوان (٢).

وأما النظرية الاقتصادية، فرغم الأهمية الكبرى لضمان توفير الأمن الاقتصادي وغيره من مظاهر الاستقرار في المجتمع، على أساس إمكانية توسط الفراعين بعد حملهم لتلك الصفة الإلهية لدى القوى الإلهية من أجل تحقيق ذلك، فإن ذلك كله ليس بكاف لإيمان المصريين بالوحيه ملوكهم، ذلك لأن الأمن الجغرافي متوفر في مصر، بصورة لم يتوفر فيها في العراق القديم ومن ثم فلو كان الأمر أمر أمن جغرافي لكان ملوك العراق القديم أحق بالوحيه من فراعين مصر، فبلاد الرافدين كانت معرضة بصورة مستمرة للتقلبات الجوية التي تحول دون الاستقرار والطمانينة، مما أدى إلى تعدد القوى الإلهية، وظواهر التنبؤ والتمايم، بينما كانت البيئة المصرية توحى بالاطمئنان إلى حد كبير (٣).

وانطلاقاً من هذا كله، فالرأي عندي أن كل هذه الأسباب مجتمعة

(١) محمد يومي مهران، مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ٢١، وكذا:

J.A. Wilson, op.cit., p. 45-4.

(٢) انظر التفصيلات: محمد يومي مهران، مصر، الجزء الثاني، ص ٤٧-٥٧.

(٣) رشيد الناضوري، التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت ١٩٦٩، ص ١٦١، ١٦٣، وكذا:

J.A. Wilson, op.cit., p. 45.

هى التى عملت على تأليه الفراعين فى أرض الكنانة، وأن يأتى هذا صحتها
بغيره فمفرده ليس كافياً لتأليه الملوك عند المصريين القدماء، ذلك أن بعض
الباحثين إنما يذهب إلى أن هناك اتحاداً فى عصر ما قبل الأسرات، ثم تلاه
انفصال، استمر بضعة قرون، فإذا كان ذلك كذلك، فقد أعطى هذا الاتحاد
ملوك عصر التأسيس سابقاً لاتحاد مصر، تحت حكم له على الأرض، وإن
كانت الأخرى، فربما يمكن أن تنسب إلى عصر التأسيس تلك التسمية
الخيالى عن الاتحاد، مبررين بذلك الاتحاد الذى تم على أيديهم، والذى
كان نتيجة حرب ضروس خاض غمارها أبناء الصعيد ضد الدلتا، وكتب
لهم فيها فتحاً مبيناً، ونصراً مؤزرًا فى تحقيق وحدة البلاد، وانطلاقاً من هذا،
فربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية فى مصر، ولكنها غير منظمة،
فجاءت الأسرة الأولى وانتهزت فرصة وجود هذا رأى لتأييد النظام الجديد،
فرفعت النسرعون من مرتبة بشر، من الجائز أن ينازعه بشر آخرون أقوياء، إلى
مرتبة «إله» لا يمكن منازعته^(١).

وهكذا كانت عقيدة الملكية الإلهية، كما نعرفها، قد صيغت وعدلت
كثيراً، ثم وجدت قبولاً رسمياً فى أوائل عهد الأسرات، وهذا قول لا يمكن
إثباته بالتأكيد، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية وحاجة القوم إلى
وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم، لتحقيق ما نسميه بالأمن الوقائى ضد كل
ما يصيبهم من أذى من قريب أو بعيد، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم، بعد
إخضاع الدلتا وقيام الوحدة، إلى الإله حور، خليفة أبيه أوزير، آخر الآلهة
العظام الذين حكموا مصر فى عصور ممعنة فى القدم، ومنذ الأسرة الخامسة
يصبح الفراعين أبناء للإله رع من صلبه^(٢)، وسرى فى عصور تأليه فراعين
ينتسبون للإله آمون، حين يصبح هذا سيد الآلهة وكبيرهم، كما فعلت
حتشبسوت وأمنحتب الثالث^(٣)، وفى الواقع أننا لا ندرى مدى تصديق
المصريين لهذه الادعاءات، ولكن حسبنا ما تدل عليه من اعتقاد الفراعين

(1) Ibid, p. 47.

(2) A. Erman Die Mearchen des Papyrus Wastcar, 2 Vols., Berlin, 1890; JEA, 22, 1963, p. 42, F, 37, 1951, p. 114.

(3) J.H. Breasted, ARE, II, 1927, p. 78-89, 344; E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, p. 46-56; A. Gayet, Le Temple de Louxor, Cairo, 1895, pls. 62-73.

بأن الأمر الواقع فى ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لا يكفى، وأنه لابد من تأييده بسند من الدين يرضى الكهان والخاصة والعوام.

وأيًا ما كان الأمر، فلقد آمن المصريون القدماء، ربما راغبين لا مكرهين، بأن الجالس على عرش الكنانة إله تكرم وأقام فوق أرض مصر، ليحكم بنى الإنسان ويسعدهم، كما يتضح ذلك من ألقاب الملك الخمسة الرسمية، التى كان يتخذها منذ الدولة القديمة وحتى نهاية العصور الفرعونية، وأما الاتصال الشخصى بهذا الملك فلم يكن متاحًا إلا لخاصته وأترب المقربين إله، أما الأشخاص العاديين فلم يكن فى مقدورهم أن يجروا على الاقتراب من هذا الكائن الذى يفوق البشر، إلا وقد استولى الهلع على قلوبهم وارتعدت فرائضهم، وخرّوا على الأرض سجدًا، كما لو كانوا أمام تمثال للإله، على أن هذا الملك الإله لم تكن تقام له فى عصر التأسيس المعابد، كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كما لم تكن تقدم له القرابين، وإن تسميته بالإله العظيم لم تقف حائلًا دون أن تكون له شخصية بشرية، وأن طبيعته الإلهية لم تمنع القوم من أن ينظروا إليه كحماكم بشرى، له أسلاكه الخاصة ومخازنه ومحكمته ودواوينه الخاصة^(١) غلى أنه يجب أن نلاحظ أن ألوهية الفرعون لم تكن بمعنى أنه خالق الكون ومدبره، أو أن له سلطان فى عالم الأسباب الكونية، وإنما كان يدعى الألوهية بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وأنه بإرادته تمضى الشئون وتقضى الأمور، كما أن المصريين لم يتعبدوا إلى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له، فقد كانت لهم آلهتهم، كما كان لفرعون آلهته بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ أَهْلُكَ﴾، كما أنهم لم يقيموا المعابد لفرعون^(٢).

وبدهى أنه فى مقابل الحقوق التى كان يتمتع بها الفرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة فى خيراتها، وهو الذى يعمل على تدعيم العدالة

(١) أدولف إرمان وهرمان رانكه، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٤٧، ٦٢ وكذا:

A. Mariette, Les Mastabas de L'Ancien Empire, Paris, 1889, p. 70, 100.

(٢) انظر: محمد يوسى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الثانى، مصر، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢١٣-٢٢١. وعن ألوهية الملك فى العراق القديم، انظر: محمد يوسى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الرابع، فى العراق، بيروت ١٩٨٨.

ونشر لواء الحق بين أفراد شعبه، وهو الذى يعمل على تأمين وسائل الحياة
المصرية بحفر الترع وإقامة الجسور، لتيسير فلاحة الأرض وزراعة مياهها،
وتوزيع جزء مما أنتجته من محاصيل على رعاياه كل حسب حاجته، كما
كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين، فضلاً
عن إقامة المعابد للآلهة وتقديم القرابين لها، والاحتفال بأعيادها، وإقامة
الطقوس الدينية المختلفة، فإن أهمل فى واجباته هذه فقد قدسيته، ومن ثم
يحق لغيره من الآلهة ألا يعترفوا به كواحد منهم، وهكذا يبدو أن الملكية،
وإن أسبغت على الملك القداسة والألوهية، فإنها فى الوقت نفسه قد حدث
من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات.

ومن عجب أن واجبات الملك نحو شعبه لم تكن تنتهى بوفاته، وإنما
تستمر فى حياته الأخرى، ذلك لأن الملك المؤله، فيما يعتقد القوم، لا يمكن
أن يموت، وإنما يبدأ حياة خارقة للطبيعة، حياة يكون فيها الوسيط بين
الأموات من الناس وبين الآلهة، فيظل الحامى والشفيع الذى يرعى الموتى،
كما كان يرعى الأحياء، ومن هنا جاءت لهفة القوم على تشييد مقابر
ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى، ولتهيئ له وسائل خاصة
ملائمة وخالدة، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس فى سقارة وأبيدوس إنما
تشهدان على أن المصريين منذ عهد الأسرة الأولى كانوا يعلقون أهمية
كبيرة على شفاعته الملك الميت لهم عند الآلهة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم إنما حدثنا
فى قصة موسى مع فرعون، عن الملكية الإلهية فى مصر، وأوضح لنا أن
ألوهية الفرعون إنما كانت موضع جدل شديد بين النبىء الكريم والملك
الفرعون، بل إن تلك الألوهية المزعومة إنما كانت الصخرة التى تحطمت
عليها كل أوجه التقارب بينهما، ولعل مما يزيد الأمور وضوحاً إننا لا نعرف
دعوة من دعوات الأنبياء الكرام، يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل
إليه، أنه إله الناس، الأمر الذى كان يعرفه الكليم جيداً منذ تلك السنين التى
عاشها فى كنف الفراعين، بل إن فرعون إنما يهدد النبىء نفسه «لئن

(١) عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٤٠-٤١.

اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين^(١) ثم يعلن للناس عامة «ما علمت لكم من إله غيرى»^(٢)، وعندما يتقدم له موسى بإيته الكبرى، ما كان منه إلا أن يرفض الدعوة كلها «ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى»^(٣)

(٢) الألقاب الملكية:

كان من مستلزمات توطيد عقيدة ألوهية الملك أن يظهر عدد من الألقاب الرسمية لتوضيح تلك الفكرة، وكانت ألقاب الملك أو «اسمه العظيم»، على حد تعبير القوم، يتكون من خمسة ألقاب زادت عليها منذ الدواة الوسطى ككنايات خمس، وهى جميعاً توضح، بل تؤكد حق الملك الإلهى فى حكم جزأى مصر، كبلد واحد، وأما الألقاب الخمسة فهى:

(أ) اللقب الحورى: وكان يكتب داخل إطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بما له من دخلات وخرجات، يعلوه صقر حور، إله الأسرات لكل مصر، والابن المنتقم لأوزير، رمز الملك الميث^(٤)، ويؤكد هذا اللقب الحورى انتماء حامله إلى عالم الآلهة، إلى الإله حور، ويجعل منه وريثاً له، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته، ذلك لأن حور إنما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير، ثم ورثه الملك للفرعون.

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى أن «الصقر» إنما يشير إلى أنه الاسم الأبدى للملك، وليس اسماً إقليمياً، بينما يذهب آخرون إلى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس على عرش مصر إنما هو ابن أوزير وخليفته^(٥)، هذا ويذهب فريق ثالث إلى أن الصقر إنما هو إله مدينة «نخن» (البصيلة)، ومن ثم فهو يشير إلى أن الملك إنما جاء من هذا المكان، أى من مدينة الصقر، عاصمة الصعيد، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد، وقيام أول ملكية فى التاريخ، وعلى أى حال، فهناك ما

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩، وانظر: محمد يوسى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الثانى، فى مصر، (بيروت ١٩٨٨م)، ص ١٦٣-٢٢١.

(٢) سورة القصص، آية: ٣٨.

(٣) سورة النازعات، آيات: ٢٢-٢٤.

(4) W. B. Emery, Archaic Egypt, p. 106.

(5) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, I, p. 35-36.

يشير إلى ظهور اللقب الحورى منذ أيام الملك العقرب (أى منذ ما قبيل التوحيد) وعلى أيام «نعرمر» ، كما كان لهذا اللقب الأسبقية على كل الأسماء الأخرى عندما كان يذكر على الآثار^(١).

(٢) اللقب النبتى: كان اللقب النبتى (السيدتان) هو الذى يلى اللقب الحورى مباشرة على الآثار، ويمثل فى صورة رخمة تشير إلى الإلهة «نخت» (نخابة) إلهة الصعيد، وحية ترمز إلى الإله «وادجيت» إلهة الدلتا، وكان يذكر فوق الاسم الثانى للملك، ويشير إلى القوة التى تربط الملكية المزدوجة بوادى النيل، فضلا عن علاقة الملك بالإلهتين الرئيسيتين فى الصعيد والدلتا فيما قبل الوحدة، وأنهما قد اتحدتا فى شخص الملك الذى يمثل مكائتهما الدينية فى البلاد وتقومان بحفظه^(٢).

(٣) اللقب النسويى: يدل هذا اللقب على أن الملك إنما ينتسب إلى نبات البوص أو الأثل، شعار مملكة الصعيد، وإلى النحلة شعار مملكة الدلتا، ومن ثم فهو يمثل «ملك مصر العليا والسفلى»^(٣)، وتذهب «باو مجارتل» إلى أن لقب «بيت» إنما كان يرتبط بالإله «مين»، وأنه قد أخذ عنه بعض صورته وألقابه، كذيل الثور، الذى كان يكون جزءاً هاماً من الزى الملكى وبعض ألقابه مثل الثور القوى، فضلا عن لقبه «بيتى» بدا وقد ظهر لقب «نيسو - بيت» منذ أيام الملك «وديمو»، وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن مستعملاً من قبل^(٤).

وعلى أى حال، فإن الملوك عندما كانوا يستعملون اللقبين، النبتى والنسويى، إنما كانوا - دائماً وأبداً - يقدمون آلهة الصعيد وشعاره على آلهة الدلتا وشعارها، لأن ملوك التوحيد إنما كانوا من الصعيد، من «نخن» (البصيلية)، ومن ثم فقد جعلوا آلهة ملوكهم وشعارهم أولاً، ثم آلهة الدلتا وشعارها ثانياً^(٥)، بل حتى اللفظة الشائعة (نسو) عن الملك فى مصر

(1) P.E. Newberry, The Horus Title of The Kings of Egypt, PSBA, 26, 1904, p. 295-297.

(2) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 73.

(3) W.B. Emery, op.cit., p. 107.

(4) E.J. Baumgartel, Some Remarks on The Origins of The Titles of The Archaic Egyptian Kings, JEA, 61, 1975, p. 29.

(5) H.R. Hall, op.cit., p. 99.

الفرعونية إنما كانت شعار الصعيد، وليس الدلتا^(١).

(٤) لقب حور الذهبى: أو «حور الذى من ذهب»، وقد ترجم البعض هذه العبارة بمعنى الاسم الذهبى أو اسم الذهب، وما يزال معناها غامضاً، فقد تشير إلى انتصار حور على عدوه ست، وقد يشير استخدام علامة الذهب فى الألقاب الملكية للملوك الأسرات الأولى إلى تقديس الملك، وذلك بتجسيده لحور الذى لا يفقد لمعانه مثل الذهب، أو الذى يشع مثل الذهب، وعلى أى حال فاللقب إنما يعبر عن القوة العظيمة والمجد^(٢).

(٥) ابن رع: ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالإله رع، بل إنه إنما كان تصريحاً من الملك الفرعون ببنوته للإله رع، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين بصفة متقطعة منذ الأسرة الرابعة، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر إيبركارع» ثالث ملوك الأسرة الخاصة، بل إن اسم رع إنما دخل فى ألقاب الملوك منذ الأسرة الثانية مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى، وعلى أى حال فكثيراً ما كان تجتمع بعد لقب «ابن رع» (سا رع) صفة أخرى، وهى «رب التجليات» أى الظهور الإلهى، أو «رب التيجان»، ثم يتلو ذلك نخانة ملكية تحوى اسم الملك الذى عرف به منذ ولادته، وهو فى الغالب اسم عائلى، مثل أسماء الملوك الذين كانوا يسمون أمنمحات أو سنوسرت أو تحوتمس أو أمنحتب أو رعمسيس^(٣).. وهكذا.

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن كتاب الدولة الحديثة لم يروا فى تلك الألقاب الخمسة ما يكفى لإظهار الولاء والإخلاص للملك ومن ثم فقد أضافوا ألقاباً أخرى مثل الثور القوى ومحسوب آلهة الحق وحامى مصر وقاهر الشعوب الأجنبية وكثير الأعوام وكثير الانتصارات، رع القوى فى الحق، محبوب آمون رع رب الكرنك، الإله الطيب، الباشق الذهبى الجليل،... وهكذا.

(1) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, p. 75.

(2) H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, p. 46.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 102.

(٣) أعياد فرعون:

تعددت أعياد المصريين - وخاصة في عهد الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١١٨٧ ق.م) - فهناك:

- ١ - الأعياد الزراعية: كعيد رأس السنة، وعيد الحصاد، وعيد الفيضان.
- ٢ - الأعياد الدينية: كمواكب آمون، وأعياد الآلهة المختلفة، وأعياد الدبابة.
- ٣ - أعياد فرعون: وقد تميزت بما شاع فيها من ألوان الترف والتبرج، وبما طغى عليها من اتجاهات لتمجيد فرعون، وإعلاء شأنه في نظر شعبه، وربطه بركب الآلهة، ووصل حاضره ومستقبله بماضى أسلافه من الفراعين الأمجاد، وكان من أهم تلك الأعياد:

(١) عيد التتويج: عيد تتويج فرعون وجلسه على العرش، وكانت تتلى في هذا العيد صلوات خاصة، وتجري طقوس دينية متوارثة، وقد حرص فراعنة الدولة الحديثة بوجه خاص على أن يظهر فرعون في هذا العيد على رأس موكب عظيم، يحمل الكهنة فيه تماثيل الفراعنة، «ميناء» موحد القطرين ورأس الدولة القديمة، و«منتوحتب» الأول، معبد الوحدة، ورأس الدولة الوسطى، و«أحمس» محرر البلاد ومعبد وحدتها ورأس الدولة الحديثة (وكلهم من الصعيد، الأول من البصيلية بمحافظة أسوان، والثاني والثالث من الأقصر بمحافظة قنا)، وعلى أن يشرق فرعون أمام شعبه المبتهج السعيد، وفي الواقع لقد كان لحفلات التتويج أهمية كبيرة، فهي إلى جانب كونها احتفالا بارتقاء الملك لعرش بلاده، كانت بمثابة تخليد لذكرى قيام وحدة القطرين تحت تاج فراعينه^(١).

وعلى أى حال، فلقد كان تتويج فرعون يتم بظهور كاهن الإلهين حور وست مقنعين بقناعهما، ثم يقودان الملك ليغسلاه ويطهراه، ثم يقدماه لبقية الآلهة، ثم يوضع على رأسه التاجين الأبيض والأحمر، ثم يتم الطوائف المرتبط بالتحاد القطرين، وهو الطواف حول الحائط الأبيض، ثم يحتضن إله

(١) محمد جمال الدين مختار، تاريخ الحضارة المصرية، الجزء الأول، ص ١٥٣-١٥٤.

الدولة الملك الجديد بين ذراعيه، ويخلد اسمه على أغصان الشجرة المقدسة، وكان يحتفل سنوياً بهذا اليوم المبارك، ولكن الاحتفال الأعظم والأهم إنما يكون عندما لاثنين عاماً على عرش الكنانة (عيد سد أو الحب سد).

(٢) عيد سد: يعتبر عيد سد هذا - أو «حب سد» - من أهم أعياد فرعون، وقد أطلق المصريون اسم «عيد سد» على عيد يقام بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على جلوس الفرعون على العرش المصري، فهو بذلك «العيد الثلاثيني»، ولدينا ما يثبت الاحتفال به منذ الأسرة الأولى^(١)، وحتى نهاية التاريخ الفرعوني، بل إنه دون شك إنما كان معروفاً قبل عصر التوحيد، واستمر القوم يمثلون بعض مناظر طقوسه على جدران المعابد في جميع العصور، حتى تلك التي شيدت على أيام الرومان، وإن كان عيد سيد قد خضع لبعض التغييرات في مراسيمه على مدى العصور، هذا ويبدو أن فكرة العيد الثلاثيني ترجع إلى العصور البدائية الأولى حين كان الناس يتمثلون في الحاكم قوة تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها، بحيث يتحتم عليهم التخلص من الحاكم بعد مرور ثلاثين سنة على حكمه وذلك بقتله، حتى لا تتأثر مظاهر الطبيعة بشيخوخته وضعفه، فتقل المحاصيل وتناج الماشية، فكانوا يسارعون بقتله، وإحلال شاب قوى صحيح الجسم خلواً من مظاهر الضعف في مكانه.

هذا وماتزال طبيعة «أعياد سد» غامضة، وإن كان من الواضح أنها كانت تحيي في صورة ما تجدد القوة الملكية، وكان يؤتى بصورة مختلف الآلهة الإقليمية إلى العاصمة، حيث كانت تقام الاحتفالات، ويقدم «حجر رشيد» في نصه اليوناني اصطلاح «عيد العام الثلاثين»، والواقع أن الكثيرين من الفراعنة احتفلوا بأول عيد لهم في العام الثلاثين من الحكم، ومع ذلك فهناك شذوذ في القاعدة لا يمكن توضيحه، وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن مدة الثلاثين عاماً إنما كانت تحتسب من يوم إعلان ملك المستقبل ولياً للعهد^(٢)، وافترض البعض الآخر أن الذي يحدد الاحتفال بعيد سد إنما هو

(1) B. Gunn, ASAE, 28, 1928, p. 158.

(2) H. Frankfort, Kingship and The Gods, 1948, p. 79.

حالة الملك الصحية، ومن ثم فليس هناك ما يدعو لتحديد عدد من السنين ليقوم الملك بالاحتفال بهذا العيد^(١)، فقد احتفل تحوتمس الرابع بعيدين في أقل من عشر سنوات، بينما انتظر أمنحتب الثالث ثلاثين عاماً - وإن عماد فاحتفل بهذا العيد في أعوام حكمه الرابع والثلاثين والسابع والثلاثين - وربما كانت حالة تحوتمس الرابع الصحية هي التي دفعت إلى الاحتفال بهذا العيد.

وعلى أى حال، فإن إخناتون لم ينتظر طويلاً للاحتفال بعيد سد، فقام بإعادة تجديد الاحتفال بهذا العيد في السنة الثانية عشرة، والسنة الخامسة عشرة، وأما رعمسيس الثانى فقد احتفل بعيد الثلاثينى ثلاث عشرة مرة، على الأقل، إبان فترة حكمه الطويل الذى أربى على سبع وستين سنة، كما يبدو ذلك من نقوش جيل السلسلة الستة، فضلاً عن نقوش أرمنت والكاب وجزيرتى سهيل وبيجة^(٢)، فيما بين الشلال الأول ودابود.

(٣) عيد احتفال الملك بأبيه «مين»: من المفضل أن يبدأ الملك حكمه في مصر - البلد الزراعى - بتقديم القرابين لأبيه الإله «مين» - رمز الإخصاب، وإله الحقول - فقد كان فرعون يمثل وهو «يتألق كالشمس المشرقة» فيبأرح قصره، «ويتخذ مكانه في المحفة مولياً وجهه شطر بيت أبيه «مين» ليشاهد جماله» وهو محمول على عرشه فوق محفة يحملها عادة اثنا عشر شخصاً وإلى اليمين واليسار حاملاً المروحتين الملكيتين، وربما يكونان من أولاده، ويتقدم الموكب كاهنان يحملان المباخر، يليهما الكاهن المرتل، حتى يصل الموكب إلى مقر الإله مين، الذى يخرج من قدس أقداسه، ويتقدم لملاقاة الملك فى المعبد فى موكب عظيم يتقدمه العجل الأبيض المقدس عند مين، ثم صف من الكهنة يحملون الشارات الملكية والرموز الإلهية وصور ملوك الوجهين القبلى والبحرى الأقدمين.

(1) K. Sethe, AZA, 26, 1898, p. 64.

(2) F.L. Griffith, JEA, 5, 1918, p. 16-64; A.H. Gardiner, op.cit., p. 207; ASAE, 42, 1943, p. 29F; H. Gauthier, Le Temple d'Amada, Cairo, 1913, XXIX, 133, 136.

ويقف الملك على شرفة بها ساريتان عليهما لباس رأس الإله، ثم يطلق الكهنة أربع أوزات إلى أركان السماء الأربعة لتنقل الأنباء بأن «حور» ابن «أوزير» و«إيزة» قد وضع على رأسه التاجين، الأبيض والأحمر، وعندما يتم إعلان فرعون للآلهة ملكاً على أرض الكنانة، يتقدم برفع قربانه إلى تماثيل أسلافه، ثم يقطع حزمة من سيقان القمح كأول ثمار للأرض. وذلك بمنجى موسى بالذهب، وتكريماً لأوزير أول ملك علم شعبه الزراعة، ثم يعود الملك بعد ذلك إلى قصره الملكي ليمارس سلطانه ويتقبل التهاني من رجال بلاطه^(١).

(١) إرمان ورائكه، المرجع السابق، ص ٥٥-٥٧؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٨٣.

٢ - تطور سلطة الملك حتى عصر الثورة

(١) في عصر التأسيس والدولة القديمة:

كان الملك في عصر التأسيس (الأسرة الأولى والثانية) وفي النصف الأول من الدولة القديمة (الأسرات من الثالثة إلى السادسة) «إلهًا» وحاكمًا وسيدًا لشعبه، حتى دعاه القوم بلقب «الإله العظيم»، وكان شفعه الإلهي لا يمس ولا يقترب أحد منه، بل إن القوم اعتبروا اسمه مقدسًا لا يجوز ابتذاله أو النطق به، وإنما يكتفى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديسًا واحترامًا، فكان يقال عنه «الإله» أو «جلالته» أو «حور الذي في القصر»، أو يشيرون إلى القصر نفسه بدلًا من اسم الملك، فيقولون «البيت العظيم» أو «البيت الملكي» أو «المقام» أو «المكان المحروس»، وكانوا يذيلون اسم الملك أو لقبه بالدعاء له «له الحياة والسعادة والصحة»، كما كانت هناك ثلاث صفات إلهية متصلة بالملكية وهي «حور» أي اللفظ ذو السلطة أو الأمر الخالق، و«سيا» ومعناها الإدراك أو الفهم، و«ماعمت» ومعناها «العدل» (١).

وتستمر هذه الهالة من القداسة والتأليه، وبخاصة في عهد الأسرة الرابعة، حيث نرى الملكية الإلهية في قصة سطوتها، وعنفوان قوتها، في تسلطها على شعبها، وإيمانها بنفسها، فضلًا عن إيمان شعبها بها، ولكننا في نفس الوقت نكاد نحس بأن شيئًا ما سيحدث ليرقق من هالة التقديس، حدث نرى الملك «خفرع» يلعب نفسه بلقب «سارع» أي «ابن رع» (٢)، وإن كان «ذاك» من يذهب إلى أن هذا اللقب إنما ظهر منذ أيام «خوفو»، بل من أيام «سنفرو» (٣).

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن الفرعون إنما كان يهدف من ذلك إلى مساندة مذهب الشمس في نشاطه الواضح خلال عهد هذه الأسرة، وهي مساندة بدأها الملوك منذ عصر الأسرة الثانية، وفي أوائل الأسرة

(1) J.A. Wilson, The Intellectual Adventure of Ancient Man, Chicago, 1941, p. 57, 75, 83; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 105.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 71.

(3) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, Paris, 1907, p. 64, 77; W.M.F. Petrie, op.cit., pl. VIII, 12; R. Weill, Sphinxes, 15, p. 11-12.

الثالثة، وربما سار عليها سنفرو، حين شاد معبد شعائره، ومعبد شعائريه إلى الشرق من هرميهما، بدلا من ناحية الشمال، ثم استمر خوفو في هذه المسيرة حين سمى بعض أبنائه بأسماء يتداخل فيها اسم رع، مثل جد فرع وبافر رع وخفر رع، وأما الهدف الثاني، فيما يرى يونكر، فهو رغبة الفرعون على التدليل في أنه يعتلى العرش بناء على بنوته للإله رع، ويتفويض منه، وربما عن رغبة منه كذلك في أن يتبرك باسمه، وأن يكتب له دوام مثل دوامه، ولو خيال حياته الثانية، وكثيراً ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الأمل الأخير للملوكها، وكانت تدعو لكل منهم بقولها «عاش مثل رع»، وإلى الأبد» (١).

وفي عهد الملك «من كاو رع» (منقرع) تبدأ سياسة جديدة يظهر فيها نوع من الميل نحو الانحراف في صميم عقيدة الملكية الإلهية، ومن ثم فقد بدأ فرعون يسمح لأبناء المقربين من كبار الموظفين يتلقى تعليمهم مع أبنائه في القصر الملكي، فهناك «بتاح شبس» الذي تعلم مع الأطفال الملكيين في القصر، وفي القاعات الخاصة، وفي الحريم الملكي وربما كانت رغبة الفرعون في أن يشهد هؤلاء الأطفال مخلصين للعرش، مؤمنين بتقاليد» (٢).

ويستمر «شبسكاف» في سياسة التقرب إلى رعاياه، بل ويخطو خطوة هي الأولى من نوعها في تاريخ الفراعين فيزوج ابنته «شع ماعة» من «بتاح شبس» (٣) وفي هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد التي تؤمن بها الأسرة المالكة التي تعتقد في ألوهية ملوكها، فضلا عن خطورته على العرش نفسه، والذي كان ينتقل عن طريق خط المرأة، فقد كانت الزوجة الكبرى للملك هي الوريثة التي يستطيع الملك الوصول إلى العرش عن طريق الزواج منها، ذلك لأن الملكة ملكة بحق المولد، بينما كان الملك ملكاً بحق الزواج (٤).

(١) عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، ص ٣٤٨؛ وكذا:

H. Junker, Die Politische Lehre, p. 63-64; G. A. Wainwright, JEA, 25, 1939, p. 30F.

(2) H. Kess, ZAS, LXIV, p. 93, Urk, I, 1932, p. 251F.

(3) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 257.

(4) A.M. Margaret, The Splendour That Was Egypt, London, 1950, p. 102.

وانظر: محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، ص ٣٤-٣٦.

وتنتهى الأسرة الرابعة بنهاية لا نعرفها على وجه اليقين، ثم تأنى الأسرة الخامسة، وترجع حقها فى العرش إلى إرادة ربانية قديمة، وأصل متقدس، فتخرج على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للإله رع من صلبه، وكانت ديانتهم قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين، ولعل قيام هذه الأسرة بهذه الوسيلة، إنما كان ضربة للملكية الإلهية، إذ بدأت تفقد الكثير مما كان لها من قداسة، ولعل السبب أن هذه الأسرة إنما قامت أصلاً بدافع من كهانة عين شمس (أيون) ونفوذها.

ومن هنا كان فراعين الأسرة الخامسة يدينون بالولاء لرع نفسه، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة، ثم لكهانتهم الذين ساندوهم وعضضوهم فى حكمهم، وكان لذلك أبعاد الأثر فى قدسية الملوك ونجاح رع فى تحدى السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين.

وهكذا أصبح الإله رع سيد البلاد بعد أن كان الفرعون سيدها، وأصبح لكهانتهم جزء غير قليل من ثروة البلاد عن طريق المعابد، بعد أن كان الفرعون يملك خيرات مصر، إذ سار ملوك الأسرة الخامسة على سنة إقامة المعابد الكثيرة لرع ولغيره من الآلهة، وإيقاف الأموال للصرف عليها، رغبة منهم فى ولاء كهانتها، فضلاً عن الظهور أمام الشعب بمظهر التقاة، هذا إلى جانب التودد إلى كبار رجال الدولة، حتى وصل البعض منهم إلى منصب الوزارة، والذى كان من قبل مقصوراً على الأمراء دون سواهم، حتى أنه لم يل الوزارة إلا فى عهد هذه الأسرة سوى اثنان من الأمراء، هما «سخم كا رع» و«نفر مشم سشات».

هذا فضلاً عن السماح للكثيرين بمصاهرتهم، ومن ثم فقد تزوج البعض بأميرات من البيت المالكة، بل إن واحداً من الفراعين زوج إحدى الأميرات بقزم يدعى «سنب» كان يعمل فى بلاطه^(١)، أضف إلى ذلك

(1) A. Mariette, op.cit., p. 112-113; J.H. Breasted, ARE, I, p. 257; Urk, I, p. 51-53.

وعن المولد الإلهى للأسرة الخامسة، انظر: محمد يوسى مهران، مصر، الجزء الثانى، ص ١٥٦-١٦٠ وكذا:

G. Lefebvre, op.cit., p. 81-90; A. Erman, IAE, p. 42-47; M. Lichtheim, op.cit., p. 220-222; R.O. Faulkner, JEA, 37, p. 114; W.K. Simpson, op.cit., p. 25-30.

كله أن الفراعين قد سمحوا لكثير من الأبناء الذين تربوا في قصورهم بأن يرثوا مناصب آبائهم بعد موتهم، بل إن الفراعين إنما بدأوا يتراخون في استعمال حقهم في نقل حكام الأقاليم من إقليم إلى آخر، الأمر الذي يشير إلى مدى ما أصاب الملكية من تردد، وإلى إعطاء حكام الأقاليم سلطة في أقاليمهم تنافس سلطة الملكية نفسها.

وبدأت الأسرة السادسة بالملك «تتي» الذي يقرب إليه كهانة «منف» وينسب على نفسه لقب «المحبوب من بتاح إله منف»، ربما لأنه اعتمد عليهم في توليته العرش، ولكن سرعان ما يستطيع كهان «عين شمس» من استعادة سلطانهم في عهد «مرى إن رع» الذي يضيف اسم «رع» إلى دياجة اسمه، وعلى أى حال، فلقد ازداد نفوذ الأمراء المحليين، وازداد إغداق المال على المعابد، وفقد ملوك الأسرة من وراء ذلك الكثير من المال والسلطان، فلجأوا إلى علاج ذلك بإعادة تربية أبناء الحكام في قصورهم حتى يضمنوا ولائهم حين يتولون حكم أقاليمهم.

هذا، فضلا عن إعادة منصب «حاكم الصعيد» الذي كان في الأسرة الخامسة يوكل إليه جمع ضرائب الصعيد، والإشراف على حكامه، ولكنه ألغى في عهد «تتي»، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا، فقد أصبح الآن تشريفاً لحامله، أكثر منه لقباً فعلياً، ومن ثم فقد اشترك فيه أكثر من واحد في وقت واحد، كما في حالتي حاكم القوصية وحاكم إدفو، ومع ذلك فقد رأى فيه حكام الأقاليم إضعافاً لنفوذهم، وربما عائقاً في سبيل استقلالهم بأقاليمهم، فعملوا جاهدين على إلغائه إبان شبخوخة «ببى الثانى» الطويلة، التي ظهر فيها واضحاً ضعف سلطان فرعون^(١).

(٢) عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

ظهرت اللامركزية في أخريات أيام الدولة القديمة، فتللت من ألوهية الفرعون ورقت من هالة التقديس التي كان يحاط بها، أو يحيط بها نفسه، ومن هنا نراها تنزل من قدر الملك ومركزه، بينما هي في الوقت نفسه ترفع

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ٣٦-٤٢، إيتين درهوتون وجاك فالنديه، مصر، ص ٢٢٨، ٢٦٣.

من شأن النبلاء وحكام الأقاليم، وبذلك أصبحت فكرة المساراة مقبولة من الناحية النظرية.

وهكذا لم يعد الملك ذلك الإله المترفع، والحاكم الجبار فوق البشر، والذي يرجو رعاياه عطفه ورضاه، لعلهم ينالون من وراء ذلك قربي ورحمة في الدنيا والآخرة، وإنما أصبح شخصاً غير معصوم يتحدث عن ضعفه وعن خطاياهم، كما يتحدث الآخرون من رعاياه.

ويقدم لنا «خيتي» ملك إهناسية في وصيته المشهورة لولده «مري» كما راع صورة للاتجاه الجديد، الذي ساد هذا العصر في لغة ملؤها التواضع غير المؤلف عند الفراعين، ففي حديثه عن الحرب التي دارت رحاها بين طيبة وإهناسية على الأرض المقدسة يقول: إنها قد وقعت من وراء علمه، وأنه لم ينبأ بها إلا بعد وقوعها، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الآلهة^(١).

وفي نفس الرضوية نجد نصاً تزداد أهميته لأن قائله فرعون مبصر، الذي يعترف له شعبه، ولو نظرياً، بالآلوهية الملكية، وهو أن عبادة الإنسان لا تتوقف على رضى الفرعون، وإنما على ما قدمه من خير في الدنيا، ومن هنا فإن الحياة الطيبة الخيرة في الدنيا هي عماد الحياة في الآخرة «فالروح تذهب إلى المكان الذي تعرفه ولا تحيد في مسيرها عن طريق أمسها»^(٢).

وفي هذا العصر كذلك تجرأ شخص على التشهير بالفرعون، ففي «تخاريات إيسو» يرى الحكيم المصري يتهم فرعون بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التي سادت البلاد، فرغم أنه قد أعطي الحكمة والسلطة، إلا أنه بقي في قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين، حتى ساءت الحال، وفقد الناس الأمن والأمان، حتى إذا سار ثلاثة في الطريق فلا يعود إلا اثنان، فالعدد الأكبر يقتل الذين أقل منهم عدداً، ثم يقص عليه بلايا الناس ثانية، ثم يبلغ به العنف أشده فيتمنى له أن يذوق البؤس بنفسه.

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 417.

(2) Ibid., p. 415.

وعن الرضوية انظر محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول، ص ٣٠٦-٣٢٦، وكذا

W.K. Simpson, op.cit., p. 180-190; M. Lichtheim op.cit. n 97 109 A Gardiner, JEA, I, p. 20-36; A. Erman, LAE, 1927, p 75-84 RdF, 7. 1950 p 176-180, 12, 1960, p. 90-91.

وبيت القصيد في هذه المناقشة أن مكانة فرعون لم تعد كما كانت، ففيها اتهام مرير من مصرى لفرعونه الإله بأنه سبب البلايا التي عمت البلاد، ثم التمنى له بأن ينال نصيبه منها، وحين يرد الفرعون على الاتهام بأنه حاول جهده أن يحمي شعبه، يتهمه محدثه بالجهل، وعدم الكفاءة للمنصب الخطير^(١).

ولم يقتصر الحكيم المصرى على ذلك وإنما رسم لفرعونه صورة للملك الأمثل، إنه الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شراً لرعيته، والذى يعمل جهده على جمع كلمتها وتوحيد صفوفها، إنه كالراعى يعرف يومه فى جمع قطيعه بعضه إلى البعض الآخر^(٢).

٣ - فى الدولة الوسطى:

ظل المصريون القدامى، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية، على مبادئهم القديمة، لم يفرطوا فى المبدأ الذى ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الإله، ولكن نظرهم إليه قد تغيرت، فلم يعد للملك تلك الصفات التى كان يتمتع بها الفرعون إبان سطوة الملكية الإلهية، والتى كان فيها الملك أحكم الحكماء، وأقوى الأقوياء، وأعظم العظماء، وأنه لا يمكن أن يناله ضعف أو تمتد إليه يد البشر بسوء، وإنما أصبح يخشى ما يخشاه غيره من الناس.

ويقدم لنا «أمنمحات الأول» رأس الأسرة الثانية عشرة الدليل على ذلك حين يحكى لولده «سنوسرت» قصة المؤامرة التى حيكت ضده، فيحذره من الناس لأن تجاربه الشخصية عرفت أنه أقرب الناس إليه هم الذين غدروا به، وينصحه بأن يحافظ على نفسه بنفسه، وأنه قد هوجم فى مضجعه فى استراحة له بعد العشاء^(٣)، مما يشير بوضوح إلى أن مكانة الملك قد تغيرت، وأن الملوك أنفسهم قد أحسوا بذلك، فلقد رأينا فى هذه القصة كيف أصبح الإله عرضة للقتل، بل إن البعض إنما يذهب إلى أنه قتل فعلاً، وكيف.

(١) محمد يومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٩٠-١٩٣.

(2) A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, 1927, p. 105-106.

(3) Ibid, p. 72-73; ANET, p. 418-419; JNES, 16, p. 170-190; BIFAO, 34, p. 63-74.

انهيار، وكيف يعترف بأنه لا شجاع في ظلمة الليل، حتى رأى كان هو الملك، الإله، وكيف أصبح لا يجد من يثق فيه ويعتمد عليه في الخطوب الجسم غير ولده ليحميه من أى شر يراود به؟ بعد أن كان هو الذى يحمى نفسه وبيته وشعبه.

ولو نظرنا إلى الآثار لوجدنا اختلافاً واضحاً، فالأهرام التى شيدت لتكون مقراً للملوك تعكس الفرق بين مكانتهم فى الدولة القديمة ومكانتهم فى الدولة الوسطى، فالأولى تمتاز بفخامتها وإتقانها المعجز فى هندستها، والدقة فى تخطيطها، فالهرم الأكبر مثلاً هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع، بنيت لتكون قبراً لفرد واحد، كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا كلها، ولم يحدث قبل أيام خوفاً أو بعده، أن يبنى لملك مثل هذا المستقر الأبدى الفخم.

وأما مقابر الدولة الوسطى فلم تكن فى ضخامة وعظمة مقابر الدولة القديمة، كما تعكس الأهرامات مكانة الملوك فى الدولتين، حتى أن المؤرخين قد اختلفوا فى قيمة الفن فى الدولتين، ومن ثم فإن برستد يرى أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بها الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة^(١)، وأما «هول» فالرأى عنده أن النقش البارز وتماثيل الملوك فى الدولة الوسطى تقدم لنا صوراً لقوى لم يستطع فنانون الأسرة الرابعة أن يقدموا على منافستها أو الوقوف أمامها^(٢).

ولكن الرجلين بعداً حقاً عن محجة الصواب، فليس الأمر أمر حيوية وفردية، ولكنه أبعد من ذلك كثيراً، أن العصرين يختلفان فعلاً، إن فنان الأسرة الرابعة رسم ومثل ما يراه، وكذلك فعل فنان الدولة الوسطى، إن الأول رأى إلهاً يدرك قوته فى عنفوانها فاستشف ما وراء الصورة واستلهمه، فخرج تماثيل خفرع المشهور فى جلاله وقديسيته، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلاً من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك الغضون تسرى فى أنحاء وجهه وجبهته، إنه رجل وليس إلهاً، إن فيه العواطف الإنسانية، وفيه الضعف البشرى، ورسم الفنان ونحت ما رآه لم يحد عنه،

(1) J. H. Breasted, A History of Egypt, N.Y., 1946, p. 201.

(2) H.R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, p. 163.

والفنانان أتقنا عملهما من غير شك، وقدما الصورة التي كان يفترض من فنان مارس فنه دهرًا طويلاً أن يقدمها على وجهها الصحيح^(١).

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك رأس تمثال الملك «سنوسرت الثالث» بمتحف جامعة كمبريدج والمصنوع من حجر الجرانيت الأسود، حيث نجد في ملامح هذا التمثال ما ينم عن قوة الإرادة، واعتزاز صاحبه بنفسه وأعماله، كما يدل في الوقت نفسه على بعض مشاعر الأسى والحزن التي ترسم على عيني التمثال، وخاصة تلك الجيوب الواضحة في أسفل العينين، والتي تدل على أن صاحبه ما كان يتمتع بحياة ملؤها الرخاء والهدوء، وإنما كان رجلاً شديد البأس، قوى الشكيمة، هذا فضلاً عن الفم والتصاق الشفة العليا بالسفلى، وذلك الخط العميق الذي يترسم على الذقن في كل نواحي الفم.

مما يشير إلى نفس المشاعر والأحاسيس بوضوح على وجه هذا الملك، والتي ما كان في مقدرة الفنان على تسجيلها إلا في حالة بدء تداعي عقيدة الملكية الإلهية، وإحلال عقيدة أخرى تقوم مقامها، خلاصتها أن الملك، وإن كان حسب ألقابه التقليدية، إنما يعتبر نفسه من أسرة الآلهة، وأنه هو نفسه إله، غير أن واقع الأمر إنما يدل على أنه كان يمارس حياته اليومية وينفذ مشاريعه ويقود جيشه في حملاته الحربية ويدير شئون دولته، كرجل ناجح، استطاع أن يقضي على نفوذ الأمراء وحكام الأقاليم بما يحقق الخير والأمن لبلاده^(٢).

هذا وقد أبقت الثورة الاجتماعية على المبدأ الذي ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الإله، ولكنها في الوقت نفسه، نادى بحقوق الأفراد وبالعدالة الاجتماعية، مما جعل الملك الإله راعياً لشعبه يسهر على مصالحهم ويفنى نفسه في سبيل سعادتهم، ومن ثم فقد أعطت الثورة للملوك مركزاً جديداً، فلم يعد الملك ذلك الإله الجبار، الحاكم فوق البشر، وإنما غداً إنساناً له ما للإنسان من ضعف ونزوات، وحاكماً يعمل لخير شعبه، ويجهد نفسه على أن يكون دائماً اليقظة حتى لا يؤخذ على غرة، شأنه مع شعبه،

(١) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ٣٧٠.

(2) A. Shorter, Every Life in Ancient Egypt, London, 1932, p. 191.

وشأن شعبه معه، شأن أى إنسان قد يفعل الخير فيجد خيراً، وقد لا يجد سوى الشر.

وخلاصة القول أن الملك قبل الثورة كان إلهاً أكثر منه إنساناً، فأصبح بعد الثورة إنساناً أكثر منه إلهاً، ذلك لأن ضعف الملكية في العهد الإقطاعي وضياح قدسيته، قد هبط بها كثيراً من عليائها، كما أن الدعوة إلى العدالة الاجتماعية أدت إلى ارتفاع شأن الشعب، ومن ثم فلم تعد للملكية تلك الهالة القديمة من المهابة والتقديس التي كانت لها فيما قبل الثورة الاجتماعية الأولى^(١).

(١) محمد يرمى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، ص ٢٠٠-٢٠١.

ثانياً - التنظيم الإدارى

كان الأساس - الاجتماعى والسياسى - الذى قامت عليه الحضارة المصرية القديمة هو التأكد بأن مصر يحكمها إله، وأن هذا الإله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة، وأنه عليم بكل شىء، وأن البلاد بما فيها ملك يمينه، ومن هنا كانت السلطات كلها - خاصة عهد التأسيس والنصف الأول من أيام الدولة القديمة - تتركز بشكل واضح فى يده، وقد يشر الملوك، وبخاصة الأوائل منهم، سلطاتهم بصورة تكاد تكون فعلية، ومع ذلك فإن هذا الوضع غير مقبول من الناحية العملية، ذلك لأن الملك لن يستطيع وحده أن يتحمل مسئوليات الحكم الإدارية^(١)، والقضائية والدينية فى جميع البلاد، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى تلك الأعمال، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات.

ويشبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم فيضع فى أعلى الهرم هرم صغير مستقل ويرى أن هذا الهرم الحبرى ممثلاً للملك الذى يحكم فوق وزرائه، الذين بدورهم فوق حكام الأقاليم، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء، الذين كانوا بدورهم فوق خدام الأراضى، أما عن التنظيم الدينى، فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً، لأن كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة كانوا فى درجة واحدة، فقد كانوا جميعاً يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة، وكان ينيبهم عنه

(١) يتكون التنظيم الإدارى فى العاصمة من الإدارات والمصالح الحكومية التالية:

- ١ - الإدارة الملكية المركزية، وتسمى «بيت الملك» (بر - نسو) وهى غير القصر الملكى (بر - عا) وكانت المقر الرئيسى للحكومة، وتتكون من إدارة الوثائق الحكومية وإدارة السجلات أو الأختام وإدارة النسخ والمحفوظات وإدارة الضرائب، ولكل منها فرع فى مختلف الأقاليم.
- ٢ - مصلحة الحقول: وتتبعها الأراضى الزراعية على ضفاف النيل، فضلاً عن تلك الواقعة على حافة الصحراء والمحيط بالمقابر والأهرامات الملكية.
- ٣ - مصلحة الخزنة: وتسمى بيت المال الأبيض (برحج)، ويتولى إدارتها تحت إشراف الوزير، مدير البيت المزودج، ولها فروع فى الأقاليم، كما كانت تنقسم إلى قسمين، بيت الذهب وبيت الشونة.
- ٤ - مصلحة الأشغال والمباني، وتختص ببناء المنشآت المختلفة، وأهمها المعابد والمقابر الملكية، وهى الإدارة الوحيدة فى مصر التى لم يجعلها القوم مزدوجة.

في تأدية المهام الخاصة به على وجه التحديد^(١)، غير أن هؤلاء الموظفين إنما كانوا موظفين لدى فرعون يعينهم هو، وهم مسئولون أمامه، ويقاؤونهم في وظائفهم رهن رضائه الإلهي، وأما هؤلاء الموظفين فهم:

١ - الوزير:

الوزير: في اللغة، من «وازره» على الأمر، أعانه وقواه، والأصل: آزره، وفي القرآن الكريم قال تعالى: «واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخى، أشدد به أزرى، وأشركه في أمري»^(٢)، قال مجاهد: «أشدد به أزرى» - أى ظهرى - «وأشركه في أمري» أى في مشاورتى.

وقال الإمام النسفى - في تفسيره: «واجعل لي وزيراً من أهلي»: أى نصيراً أعتمد عليه من الوزر والثقل، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته، أو من الوزر: الملجأ، لأن الملك يعتصم برأيه، ويلتجئ إليه، في أموره، أو معيناً من الموازنة، وهى المعاونة.

وقال: الوزير: في اللغة، من يرجع إليه من الوزر، وهو الملجأ، والوزارة لا تنافى النبوة، فقد كان - قبل البعثة المحمدية - ينبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمنون بأن يؤازر بعضهم بعضاً.

وقيل الوزير في اللغة: اشتقاق من الوزر، والوزر: الجبل الذى يعتصم به، لينجى من الهلاك.

والوزير: هو الذى يؤازره، فيحمل عنه ما حمل من الأثقال، وقُدِّرَتِ الشئ: آزره وزراً، أى حملته^(٣)، ومنه قوله تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»^(٤).

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 73.

(٢) سورة طه، آيات: ٢٩-٣٢؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٤٢٣١-٤٢٣٤؛ تفسير السعدى ٧٥/٥-٧٧؛ تفسير النسفى ٥٢/٣-٥٣؛ فى ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤-٢٣٣٤؛ تفسير ابن كثير ٢٣٤/٣-٢٣٧؛ صفوة التفاسير ٢٣٣/٢؛ تفسير الطبرى ١٥٩/١٦-١٦٠؛ تفسير البحر المحيط ٢٤٠/٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٣٤/٣-٢٣٧، ٥٠٨-٥٠٩؛ تفسير القرطبي، ص ٤٢٣٢-٤٢٣٣، ٤٧٤٦-٤٧٤٧؛ فى ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤-٢٣٣٣، ٢٥٦٣/٥؛ تفسير النسفى ٥٢/٣، ١٦٧-١٦٦؛ صفوة التفاسير ٢٣٣/٣، ٣٦٢؛ تفسير الطبرى ١٠/١٩-١١.

(٤) انظر: سورة الأنعام، آية: ١٦٤؛ الإسراء، آية: ١٥؛ فاطر، آية: ١٨؛ الزمر، آية: ٧؛ النجم، آية: ٣٨؛ وانظر: تفسير الطبرى ٢٨٥/١٢-٢٨٦؛ تفسير المنار ٢١٨/٨، ٢٣٠؛ تفسير ابن كثير ٣١٩/٢-٣٢٠؛ تفسير النسفى ٤٣/٢.

وقال الشريف الرضى (٣٥٩-٤٠٦ هـ / ٩٦٩-١٠١٥ م) ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب، فهو من الاستعارة اللفظية (١).

وفى قوله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً» (٢) - أى نبياً موازراً ومؤيداً وناصرًا -.

وفى حديث السقيفة، قال أبو بكر للأَنْصار: «نحن الأمراء، وأنتم الوزراء»، وفى رواية: «مِنَّا الأمراء، ومنكم الوزراء» (٣).

هذا وكان «منصب الوزارة» - فى عصور الفراعين - هو أعلى المناصب وأسمائها، وكان ينتهى آمال الموظفين - طوال العصور الفرعونية - هذا فضلاً عن أن «الوزير» إنما كان أكثر موظفى الدولة محبة فى نفوس الشعب، ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه هو الذى يقيم الحق، ويمحق الباطل.

هذا وقد اتفق المؤرخون على أن منصب الوزير، إنما قد وجد بصورة فعلية فى الفترة فيما بين عصر التأسيس والأسرة الرابعة، وإن اختلفوا فى الأسرة التى بدأ فيها، فمن يذهب إلى أنه إنما وجد منذ الأسرة الأولى، وأن أحد الموظفين اللذين كانا يلازمان الملك «نعرمر» على لوحته المشهورة كان وزيراً له، وأن اسم الوظيفة إنما كان يكتب «ت» فى ذلك الوقت (٤)، وهو لقب كتبه الفنان المصرى بحرفين هجائيين - وهى المرة الأولى التى ظهرت فيها الحروف الهجائية فى كتابة المصريين - مقربين ذلك إلى كلمة «ثاتى» بمعنى وزير، إلا أن هذا التقريب لم يكن مقبولاً من بعض الباحثين، فنظروا

(١) تلخيص البيان، ص ٤٠، صفوة التفاسير ٤٣٣/١.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٣٥.

(٣) انظر عن يوم السقيفة (١١ هـ / ٦٣٢ م): تاريخ الطبرى ٢٠١/٣، ٢٠٧-٢١٨، ٢٢٣؛ سيرة ابن هشام ٤٨٨/٤-٤٩٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤٠/٦-٣٤١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٣٢٥/٢-٣٣٢؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٥٨-٧٠، البلاذرى، أساب الأشراف ٥٧٩/١-٥٩١؛ سليم بن قيس، كتاب سليم ابن قيس - أو السقيفة (المطبعة الحيدرية النجف)؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١١/٥-١١٤؛ أحمد الشامى، الخلفاء الراشدون، ص ١٦-٣٨؛ عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ١٥٤-١٦٣؛ الشبلنجى، نور الأبصار، ص ٥٣؛ وانظر: محمد بيومى مهران، الإمامة وأهل البيت، الجزء الثانى؛ الإمام علي والإمامة، بيروت ١٩٩٥ م، ص ٢٧-٣٢.

(٤) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٩٣، وكلا:

إليه على أنه ربيب الملك «نعرمر»^(١)، واعتبره آخرون موظفاً إدارياً^(٢). ورأى فريق ثالث أنه كان كاهناً^(٣)، ونادى فريق رابع^(٤) بأنه إنما يمثل كاهن «سم» وأن اللقب المكتوب لقب رمزي، ثم قرب هذا الفريق بين هيئته وملابسه وبين رجل آخر يشبهه في منظره بنى حسن لقب بكاهن «سم».

وبدهى أنه كان هناك موظف هو حلقة الاتصال بين الملك وباقي الموظفين، وأن توحيد القطرين أدى إلى ازدياد أعمال الحكومة! يعتبر فرصة مناسبة لوجود منصب الوزير، ورغم أن ما لدينا من آثار لا يكفي لإثبات وجود مثل هذه الوظيفة، ولكنه لا ينفي قيامها في الوقت نفسه، هذا فضلاً عن أن هناك من يسخ على «حماكا» لقب الوزير الأول أو الموظف الأول للملك «وديمو»^(٥)، إلى جانب أن أكبر لقب ظهر في نهاية عصر التأسيس إنما كان لقب «تبي خرنيسو»^(٦)، بمعنى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك أو رأس ملك أو كبير رجال بلاطه^(٧)، وربما كان ذلك بمعنى الوزير الذي كان على رأس الإدارة المركزية والثاني بعد الملك.

على أن أهم الأدلة على وجود وظيفة الوزير منذ عصر التأسيس ما عثر عليه من أوان يبلغ عددها ٢١ آنية أسفل هرم الملك نثرت (زوسر) المدرج تحمل اسم «من كا» وقد لقب بلقب «الوزير» (ثاني) وأن الكتابات التي عثر عليها في مكان هذه الأواني إنما تؤرخ بعصر الأسرتين الأولى والثانية، ولم يعثر على أية نقوش تخص الملك زوسر نفسه، ومن ثم فإن «من كا» هذا إنما كان سابقاً للأسرة الثالثة، وربما كان من الأسرة الثانية وبالتالي فإن وظيفة الوزير قد وجدت منذ عهد تلك الأسرة الثانية على الأقل^(٨).

وهناك فريق ثان يرى أن وظيفة الوزير إنما قد ظهرت منذ عهد «إيمحوتب» وزير زوسر، وطبقاً لما جاء في نقش من واد الحمامات يرجع إلى (١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(2) A.H. Gardiner, JEA, 24, 1938, p. 17-171.

(3) R. Well, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire, 1961, p. 30.

(4) F. L. Griffith Beni Hassan, I., London, 1883, pl. XVII.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(6) W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, 1901, p. 165.

(٧) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

(8) W.S. Smith, The Old Kingdom in Egypt, CAH, J, 1965, p. 18.

الفترة فما بين عامي ٤٩٥، ٤٩١ ق.م، فقد كان إيمحوتب يحمل لقب الوزير^(١)، هذا ويذهب فريق ثالث إلى أنها بدأت منذ أيام «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، وأن أول وزير له لقب مشهود به على الآثار بصفة قاطعة إنما هو «نفر ماعت» ابن الملك سنفرو^(٢)، وعلى أى حال، فلقد كان يعاين الملك مستشاران، الواحد للصعيد والآخر للدلتا^(٣)، وربما كانت أعلى وظيفة في عصر التأسيس وظيفة «حامل الختم»^(٤) والتي تبدل على الختام والخازن الأمين، وربما ظهرت لأول مرة في عهد الملك «دن»^(٥) فقد حملها «حماكا»^(٦)، وفي أخريات عهد الأسرة الثانية ظهر لقب «حامل أختام الإله» وأصبح اختصاصه أكبر من اختصاص أصحاب اللقب الأول^(٧).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوزير إنما كان - حتى الأسرة الرابعة - من أبناء الملك، ويذهب «جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧ - ١٩٤٢ م) إلى أن الملوك جعلوها في أكبر أبناء الملكات الثانويات، تعويضاً لهم عن وراثة العرش، وإرضاء لأمهاتهم^(٨).

ومن ثم فقد حمل هؤلاء الوزراء - أبناء الملوك - لقب «سانسو» (ابن الملك)، فضلاً عن لقب «كاهن ماعت»، ومن أشهر هؤلاء الوزراء: ١ - ولدا الملك «سنفرو» - مؤسس الأسرة الرابعة - وهما: «كانفر ماعت» ثم ابن «نفر ماعت» - ويدعى «حميون». ٢ - ابن الملك «من كا ورع» (خفرع)، ويدعى «نب - كا ورع».

هذا وتسير الأوضاع - السياسية والاجتماعية - في سبيل التطور المحتوم، أثناء عصر الأسرة الخامسة، ويدرك ملوكها أنهم يعملون في ظروف تختلف

(1) B. Gunn; ASAE, 26, 1926, p. 195.

(2) G.A. Reisner and W.S. Smith, A History of The Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep Heres, Cambridge, 1955, p. 9

(٣) إيتين دريوتون وجاك فاندیه، مصر، ص ١٦٤.

(٤) A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 593.

(5) W.M.F. Petrie, A History Egypt, I, London, 1924, p. 26.

(6) W.F. Petrie, The Royal Tombs, I, p. XV, 16.

(٧) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(8) G. A. Reisner, op.cit., p. 9.

- بعض الشيء - عن تلك التي كان يعمل فيها أسلاف لهم من الملوك الأقوياء - أو الآلهة العظام - فيزيدون من التزاماتهم المادية، نحو أفراد الطبقة العليا، ويسمحون لكبار أفرادها بتولي «منصب الوزارة»، بل إنها تكاد تكون مقصورة عليهم - إذا استثنينا الأميرين «سخم - كارع» و«نفر - سشم سشات» اللذين توليا منصب الوزارة من الأمراء.

ولعل من ألمع وزراء الشعب - في عهد الأسرة الخامسة - إنما كان الوزير «بتاح - حتب» صاحب التعاليم المشهورة^(١) -.

وهناك من وزراء الأسرة الخامسة الذين لم يحملوا لقب «ابن الملك» (سا - نشر):

- ١ - «واش بتاح إيزي» - وزير الملك نفر - كارع.
- ٢ - «ور - باو - با» - وزير الملك سا حورع -.
- ٣ - «بج - إن - وي - كا إ» - وزير الملك «نبي وسرع» -.
- ٤ - «بتاح شيسس» - وزير الملك «نبي وسرع» -.
- ٥ - «منو - نفر» - وزير الملك «نبي وسرع» -.
- ٦ - «سخم - عنخ - بتاح» - وزير الملك «نبي وسرع» -.
- ٧ - «سخم كارع» - وزير الملك «سا حورع»^(٢) -.

وهناك من وزراء الأسرة السادسة «كا جمني»^(٣)، فضلا عن «زغو» - وكان صاحب النفوذ الأول في البلاد، على أيام طفولة ابن أخته الملك «بني الثاني»، ووصاية أمه عليه^(٤) -.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هنا سيدة من الأسرة السادسة، تدعى «نيت» تربطها بالملك «بني الأول» صلة مصاهرة - فهي والدته زوجته - حملت لقب «الوزير» - كانت من أوليات النسوة اللائي حملن هذا

(1) Z. Zaba, Les Maximes de Path hotep, Paris, 1965; A. Erman, LAE, 1927, p. 54-67; J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 412-414.; R.O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, 1977, p. 159-176.

(2) N. Strudwick, The Administration of Egypt in The Old Kingdom, London, 1985, p. 300.

وانظر: فوزية صقر، الوزير في الدولة الحديثة، ص ٤-٥.

(3) A.H. Gardiner, JEA, 32, 1946, p. 71-74..

(4) A.H. Gardiner, ZAS, 79, 1954, p. 95-96.

اللقب الرفيع - وقد ظهرت ألقابها على لوحة عثر عليها في «أيدوس»^(١) - محفوظة بالمتحف المصري بالقاهرة، تحت رقم ١٥٧٨ - وجدت بها ألقابها: (الأميرة الوراثية - ابنة جب - زوج الأمير الإقطاعي - ابنة مرحو - الوزير - ابنة تحوت، رفيقة ملك الوجه البحري - ابنة حور)، ويلاحظ أن لقب «الوزير» هنا، لم تضاف له علامة التأنيث، الأمر الذي يدل على أن لقب «الوزير» لم يكن وقت ذاك - تحمله النساء^(٢).

هذا وكان «الوزير» رأس الإدارة المركزية - والثاني بعد الملك - وحلقة الاتصال بين الملك وموظفيه، وكانت ترسل إليه تقرير الإدارة المحلية ثلاث مرات في العام، وأصبح الوزير محافظاً للعاصمة، ومشرفاً على مدينة الهرم، فضلاً عن الخزائن وشؤون الغلال، والأشغال المعمارية الكبرى، والمنشآت العامة، إلى جانب الإشراف على دور القضاء والمحفوظات والسلاح.

وكان الوزير - منذ الأسرة الرابعة - يحمل لقباً قضائياً، يجعله «كبير خمسة دار تحوت»، وربما بمعنى «كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى «تحوت» رب العدالة والحساب والكتابة، ثم لقب في الأسرة الخامسة بلقب «خادم العدالة»، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أي كاهن ماعت، ربة العدالة، ولقب «رئيس الدور الست» أو «رئيس الدواوين الست الكبرى»^(٣)، وهناك ما يشير إلى وجود مجلس استشاري لمعاونة الوزير في شئون الصعيد يتكون من عشرة من الشخصيات الهامة الذين كانوا يحملون لقب «عظماء الصعيد العشرة» (ور مع شمعو) حيث كان يسند إلى كل واحد منهم إدارة إحدى المصالح الهامة^(٤).

(١) أيدوس: جبانة «لني» - عاصمة الإقليم الثامن (تا - ور) من أقاليم الصعيد، واكتسبت شهرتها منذ شاد ملوك الأسرة الأولى، وبعض ملوك الأسرة الثانية، مقابرهم وأضرحتهم فيها، كما اكتسبت قداسة بوجود معبد «خنثي إمتي» فيها «إمام الغريبيين» ثم زادت قداستها عندما اعتبرها أهل الدين مقراً لضريح «أوزير» حتى اعتبرت داراً للحج والزيارة، وبها معبد أيدوس المشهور.

وتقع على مبعدة ١٠ كيلا غربي البليتا - محافظة سوهاج (وسوف نتحدث عنها بالتفصيل عند حديثنا عن «الحرب الأهلية فيما بين إنناسية وطيبة»).

(2) H.G. Fischer, Administrative Titles of Woman in The Old and Middle Kingdom, Egyptian Studies, I, 1976, p. 74.

(٣) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٧٣؛ وكذا: PSBA, XIII, p. 121F.

(4) J. Pirenne, Histoire de Institutions et du Dieu de L'Ancient Egypt, II, Bruxelles, 1934, p. 101-110.

وعلى أية حال، فقد كانت وظيفة الوزير أعز الوظائف وأقربها إلى قلوب الشعب، وكان الشاعر إذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف إلى وصفه «أن فيه وزيراً يتولى الحكم عطوفاً على مصر»، ومن ثم فقد كان الاهتمام شديداً باختيار الوزراء من أصحاب الكفاءة والخلق الكريم.

واستمرت الأمور كذلك حتى إذا ما كنا في منتصف الأسرة الثامنة عشرة زادت مهمات وظيفة الوزير، حتى أصبح الأمر يستوجب تقسيمها على أساس جغرافى بين اثنين من الوزراء، وزير للصعيد وكان مقره طيبة، ويشرف على إدارة ملوك طيبة الأوائل، حتى القوصية^(١)، على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسبوط، ووزير للدلتا والجزء الباقى من الصعيد، وكان مقره «هليوبوليس» أو «منف»^(٢)، وكانت دائرة اختصاصه تمتد من مصر الوسطى إلى مصر السفلى، وبمعنى آخر المنطقة التى كان يحتلها الهكسوس من قبل.

وعلى أى حال، فلم تصلنا معلومات كافية عن مهمة وزير الشمال، وإن كان هذا لا يعنى أنها أقل أهمية من مهمة وزير الصعيد، ولعل الذى دفع بعض العلماء إلى القول بأهمية وزير الصعيد عن وزير الدلتا، إن اختصاصات وزير الصعيد إنما كانت تشمل منطقة التحرير ومقر أبطاله، كما أن فى دائرة اختصاصه تقع طيبة، عاصمة الإمبراطورية، وربما لعدم أو ندرة آثار تخص وزراء الشمال، فى مقابل الآثار الكثيرة التى تركها وزراء الصعيد^(٣)، وعلى أى حال، فطوال عصر الدولة الحديثة لم يظهر ما يثبت وجود قرابة بين الملك ووزرائه.

وكان الوزير فى منطقته يمثل السلطة العليا فى كل شئون الدولة، حتى المعابد، وهو يتقدم كبار الكهنة من حيث المنصب، وكانت تعرض عليه كل قضية جنائية، وكان يشرف على الضرائب وكميتها وموعد

(١) تسجل نقوش «رخمى رع» وزير الصعيد فى عهد تحتمس الثالث أن دائرة اختصاصه قد انقسمت إلى قسمين، الواحد يمتد من أسوان إلى قفط (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا)، والآخر من قفط إلى القوصية (على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسبوط)، كما أنها انقسمت إلى أربعين وحدة إدارية (مركزاً) على رأس كل وحدة موظف مسئول، من مهامه جمع ضرائب المركز وتوصيلها إلى القصر الملكى.

(2) H.W. Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs, Leiden, 1958, p. 14-15, 27.

(٣) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٦٧٤.

جبايتها، ويحاول دائماً أن يتدبر شئون المال مع المشرف على بيت المال، بحيث يمكن توزيع الدخل على أوجه الصرف المطلوب من الحكومة، كما كان يبلغ دائماً عن ارتفاع منسوب مياه الفيضان حتى يتسنى تقرير ما يمكن أن يزرع من الأراضي التي تصل إليها المياه، وبالتالي كمية الضرائب التي ستفرض وموعد سدادها، فقد كانت هناك سجلات في بيت المال تتضمن قوائم بالأموال من حقول ومنازل وحدائق وغيرها، وكان لابد أن يسجل كل تغيير يتناولها حتى يمكن تعديلها وفقاً للظروف، وكان الوزير يشرف على الضرائب، فضلاً عن الإشراف على تلقي جزي الدول التابعة لمصر، في حين يتولى مرؤوسيه مراقبة هذه الضرائب والجزي ويسجلونها أولاً بأول في سجلاتهم.

وكان الوزير هو القائد الأعلى للشرطة في مصر، وكان كذلك رئيس القضاة، ويشرف على مجلس الشورى الكبير والقضاء العالي، ويقضى في الأحكام المدنية الهامة التي ترفع إليه من المحاكم الجزئية أو من محاكم الأقاليم، كما كان من حقه مهر الوثائق القانونية والمحافظة في مكتبه على سجلات الدولة القانونية والإدارية، وفتح وغلق مصانع القصور، وفي صحبته حامل الختم الملكي، واستقبال السفارات والجزي الأجنبية، ومراقبة ضياع معبد آمون، والإشراف على البعثات الخاصة بالتعدين أو قطع الحجارة، وحشد وحدات الجيش والتفتيش عليها، وعلى جبانة طيبة.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه قد حدث أكثر من مرة في الدولة الحديثة أن اختير لمنصب الوزير شخصية كهنوتية هامة كانت، أما كبير كهنة آمون إله الدولة الأعظم، أو كبير كهنة الإله بتاح إله منف، وهكذا كان يجمع كل منهما أعلى منصب ديني وديوي في شخصه، ومن ثم فهو لم يصبح «رئيساً لعظماء الصعيد والدلتا» فحسب، بل مشرفاً على كهنة الصعيد والدلتا^(١) أيضاً.

(١) عبد المنعم أبو بكر، المرجع السابق، ص ١٢٥؛ أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ١٠٤ وكذا:

J.H. Breasted, ARE, II, p. 266-279N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-Re at Thebes, N.Y., 1943, p. 88-94.

٢ - الأقاليم وحكامها في مصر الفرعونية

(١) الأقاليم في مصر الفرعونية:

أطلق المصريون القدامى على وطنهم (مصر) - من بين ما أطلقوا عليها من أسماء كثيرة (١) - اسم «تاوى» بمعنى الأرضين، أرض الصعيد وأرض الدلتا (تاشمعو، وتامحو)، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد على أقل تقدير، متأثرين في ذلك بالفوارق الإقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر، فيما قبل التوحيد، وكانوا يعنون بأرض الصعيد تلك المنطقة التي تمتد من أسوان جنوباً، وحتى شمال أطفيح شمالاً، ويعنون بأرض الدلتا منف والدلتا، هذا وقد قسم القوم كذلك كلا من الصعيد أو مصر العليا، والدلتا أو مصر السفلى إلى أقاليم عرفت في المصرية القديمة باسم «سبات»، وفي اليونانية Nomes.

وكان لكل إقليم شعاره الرسمي الذي كان عادة ما يعلو فوق سارى، فضلاً عن معبود يتعبدون إليه، كما أن هذه الأقاليم إنما كانت عرضة للتغيير، وإن ثبتت أقاليم الصعيد منذ الأسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية عند اثنين وعشرين إقليماً، وإن كان الأمر بالنسبة إلى الدلتا جداً مختلفاً، لما ذهب إليه «هالك» فقد كانت أقاليم الدلتا حتى الأسرة الرابعة، أربعة عشر إقليماً، ثم أصبحت في الأسرة الخامسة سبعة عشر إقليماً، وفي الأسرة الثانية عشرة ستة عشر إقليماً، وفي عهد الدولة الحديثة زادت إلى ثمانية عشر إقليماً، ثم أصبحت في الأسرة الخامسة والعشرين أربعة عشر إقليماً، وزادت في العصر الفارسي إلى سبعة عشر إقليماً (٢).

وهذا يعنى أن أقاليم الدلتا طوال العصور الفرعونية إنما كانت تتراوح بين ١٤، ١٨ إقليماً، بينما ظلت أقاليم الصعيد منذ الأسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية ثابتة عند اثنين وعشرين إقليماً (٣)، كما أن هذا يتعارض مع ما ذهب إليه البعض من أن أقاليم الدلتا كانت ٢٠ إقليماً، وإن

(١) انظر عن أسماء مصر: محمد ييوى مهران، مصر ٢١١-٢٥، عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، (القاهرة ١٩٨٠)، ١١/٨-٨.

(2) W. Helck, Die Alagypischen Gaue, Wiesbaden, 1974, p. 19-23; A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1973, p. 589.

(٣) إرمان ورائكه، المرجع السابق، ص ١٠

بلغت في العصر اليوناني أو البطلمي اثنين وعشرين إقليماً^(١).

(٢) حكام الأقاليم في الدولة القديمة.

يذهب بعض الباحثين إلى أن «مصر» قد قسمت - على أيام الفراعين - إلى أقاليم أو محافظات (سبت - أو سبات، سميت على أيام الأعارقة «نوم» Nome) منذ ما قبل التاريخ، وذلك عندما استغل المصريون مياه الفيضان في الزراعة.

وهكذا قسم القوم الأرضين إلى أحواض، أحاطوها بالنجسور، وشقوا فيها القنوات، ثم سرعان ما أصبحت هذه الأحواض، هي الأقاليم التي شُيّدت فيها «الإمارات المصرية» فيما قبل توحيد البلاد على يد الملك «ميناء» - حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد - وهي أيضاً الإطارات التي احتوت المقاطعات بعد التوحيد.

وكان عدد هذه الأقاليم في عصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية) ٣٨ إقليماً، منها ٢٢ إقليماً في الصعيد (وقد ظلت كذلك حتى نهاية العصور الفرعونية)، ثم أصبحت ٤٢ إقليماً، منها ٢٢ في الصعيد، ٢٠ في الدلتا.

وهذه الأقاليم يجب ألا نتصورها كبيرة، فقد كانت في العصر الذي بدأنا نعرفها فيه ما هي إلا دوائر إدارية يتكون كل منها من مدينة كبيرة ومجاوراتها من أراضٍ ترتبط بها اقتصادياً، وكان لكل إقليم عاصمة يقيم فيها الحاكم وجهازه الإداري، فضلاً عن معبد تعبد فيه آلهة الإقليم، وكان الإقليم، وكذا العاصمة، يحملان اسماً واحداً، ما عدا نهاية الاسم المخصص الذي يدل على كلمة مدينة، فمثلاً يمثل إقليم الصولجان، وعاصمته بنفس العلامة (واست)، وقد كان لبعض العواصم اسمان، أحدهما يتعلق باسم الإقليم، والآخر مستقل تماماً، فمثلاً كانت عاصمة الإقليم الأول للدلتا كانت تسمى «الحائط الأبيض»، ثم «الحائط» فقط، ثم أخذت «أ

(١) سنقدم - إن شاء الله - دراسة خاصة في كتاب مستقل عن الأقاليم والعواصم السياسية في مصر القديمة تحت عنوان «المدن الكبرى في مصر القديمة»، تليها دراسة أخرى عن «المدن الكبرى في الشرق الأدنى القديم»، وكلا الدراستين تحت الطبع، أرجو أن يريا النور قريباً، إن شاء الله في هذا الشهر. وقد ظهر الجزء الأول منها معاً

الأسرة السادسة اسم قصر الملك «ببى الأول» (من نفر)، وكتبها الإغريق «مفيس» هذا ولم تستقر العاصمة دائماً في مكان واحد، فمثلاً نقلت عاصمة الإقليم الثالث «نخن» من المدينة القديمة «نخن» (البصيلية) إلى «نخب»^(١) ثم إلى «إسنا» في عصر البطالمة.

هذا وكان على رأس كل إقليم حاكم يعينه الملك ليقوم بكل النشاط الحكومي، وبخاصة النشاط الزراعى الذى كان يعتمد على فيضان النيل، ومن ثم فقد كان من أهم أعمال حاكم الإقليم التفتيش على القنوات والمحافظة عليها وعلى تطورها، وربما كان هذا أصل وظيفة حاكم المقاطعة، فمنذ عصر التأسيس نرى ظهور لقب «عديج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات، وهو اللقب الرسمى لحاكم المقاطعة عند ابتداء الدولة القديمة، وقد حفلت آثار عصر التأسيس بالعديد من النقوش التى ظهر فيها لقب «عديج مر» مع أسماء أشخاص من عهد الملك «جت»، ومنهم واحد يبدو أنه كان حاكماً لمدينة «دب» (بوتو)^(٢).

وكان من واجبات حاكم الإقليم القيام بإحصاء عام، كان يجرى كل سنتين ابتداء من الأسرة الثانية بانتظام، ويوضح حجر بالرمو إجراء هذا التعداد كل عامين فى عهد الملك «نى نثر» وإن كانت بدايته ترجع إلى أيام الملك «دن»^(٣).

هذا وقد عرفت الدولة القديمة - إلى جانب حكام الأقاليم - عدداً من كبار الشخصيات حملوا لقب «ور مج شمعو» وهو لقب ما يزال بعد غامض القراءة والمدلول، فهو قد يرجع بمعنى «كبير عشرة الصعيد» أو «أحد كبار عشرة الصعيد»، وربما يدل على عشرة يكونون المجلس الاستشارى للوزير، فيما يختص بشئون الصعيد وقضاياه، وهناك ما يشير إلى رئاسة الوزراء لهذا المجلس، كما أن بعض الوزراء قد حمل لقب «مفتش عشرة الصعيد الكبار»، وحمل آخرون لقب «المشرف على بيوت عشرة الصعيد»، أو هو قد يدل على عشرات (مجو) وليس عشرة فقط، بدليل ظهور لقب «كبير عشرة

(١) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٤٣٧.

(2) W.B. Emery, Great Tombs, I, Fig. 55, p. 95, II, Fig. 151-152.

(3) J.H. Breasted, op.cit., p. 106, 118-132.

الصعيد، و«كبير عشرة عين شمس»^(١).

وكانت ألقاب حكام الأقاليم كثيرة، منها اللقب القديم «عديج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات، ومنها لقب «زاب» بمعنى القاضي أو المحترم، و«ب» «شم تاء» بمعنى موجه الأرض أو مديرها، و«حقا» «حقا» بمعنى حاكم القصر أو متولى زمامه أو بمعنى رئيس القرية، ومن هنا فالقصر المراد هو قصر الحكم والإدارة في الأقاليم، وليس القصر الملكي «حقا» «حقا» ومع ذلك فقد حمل هذا اللقب (حقا حتا عا) بعض حكام أقاليم الصعيد، وكأنهم يسترجعون بشكل اسمي ذلك النظام الإقطاعي الذي كان سائداً قبل التوحيد، والذي استبدل بموظفين يتبعون الإدارة المركزية، كما حمل بعض حكام الأقاليم لقب «إيمرا حتا عا» بمعنى مدير القصر الملكي، وحمل آخرون لقب «حقا نيسوت» بمعنى النواب الملكيين، و«لخب نيسوت» بمعنى المعروف لدى الملك، و«لخب» «أمر أبوت»؛ بمعنى مدير الإرساليات الملكية، وهناك كذلك لقب «كاهن ماعت»، وماعت هي إلهة الحق والعدالة، ولما كان القضاء في الأقاليم يخضع للحكام، فهم رؤساء المحاكم وما يتصل بها من إدارات قضائية محلية، ومن هنا اعتبروا كهنة لها، كما حمل بعضهم لقب «كاهن حقت».

وهكذا كان حكام الأقاليم يشرفون على كل النشاط الحكومي والإداري في الأقاليم، فكانوا يشرفون على جمع الضرائب، وعلى شؤون الزراعة إذ كانوا مطالبين بأن يحصلوا من الأرض بالوسائل المناسبة على أحسن غلة ممكنة، وهذا يقتضي حفر الترع وإقامة الجسور، وغير ذلك من وسائل تنمية الزراعة والمحصول، وبذا يمكنهم أن يساهموا في شراء العام للبلاد، وعلى الأخص ثراء الخزنة الملكية، كما كان عليهم كذلك أن يدونوا ارتفاع فيضان النيل.

وكان حكام الأقاليم مسئولين عن الأمن، وتنظيم جمع الأفراد لتجنيدهم وإرسالهم في حملات لصد ما قد يتهدد الحدود من أخطار، وأن يقوموا بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وبين رعاياهم، فكانوا يتلقون أوامر

(١) عهد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٧٥، وكذا:

Urk, J, 1932, p. 281; R. Weill, op.cit., p. 19.

الملك ودراسيمه، ثم يذيعونها بين الناس من سكان أقاليمهم، ومن ثم فقد لقب الواحد منهم نفسه «المستشار للأوامر الملكية»، كما كانوا يرأسون محاكم الأقاليم وما يتصل بها من إدارات، فقد كانت هناك في الأقاليم محاكم محلية تقوم بمحاسبة الزراع ومحاكمة الموظفين - حتى حاكم الإقليم نفسه - إذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب بسبب ضرر أصابه منهم، هذا فضلا عن أنهم كانوا من الناحية الدينية كبارا لكهنة الإله الرئيسي في أقاليمهم.

كانت الحكومة الفرعونية في عهد التأسيس والنصف الأول من الدولة القديمة، تسير على نظام المركزية المطلقة، مما جعل منها إدارة رخوة غير متماسكة، بمعنى أنه كلما كان الجالس على العرش في منف قوى البأس، كان حكام الأقاليم موظفين لديه يعملون بوحى منه، ويقيمون في وظائفهم ماداموا حائزين على رضا الإلهي، فإذا ما حدث العكس وتراخت سلطته، انتهز حكام الأقاليم الفرصة وتصرفوا بوحى من أنفسهم، واعتبروا أقاليمهم دولة صغيرة للحاكم فيها ما للفرعون من سلطات وحقوق، الأمر الذى رأيناه في النصف الثانى من الدولة القديمة، والذى أدى آخر الأمر، بجانب عوامل أخرى، إلى إضعاف تلك الحكومة المركزية، ثم انهيار الدولة القديمة نفسها وقيام الثورة الاجتماعية الأولى (١).

كان حكام الأقاليم حتى منتصف الدولة القديمة موظفين لدى الملك يعملون بوحى منه، ويتصرفون فيما أوكل إليهم من أمور حسب رغبته، يتساوى في ذلك من كانت أقاليمهم على مقربة من العاصمة، ومن كانت في أقاصى الصعيد أو الدلتا، ويتناولون في مقابل ذلك غذاءهم وكساءهم، وكان الواحد منهم يعمل جاهدا، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، على أداء واجباته حتى ينال رضى الملك، لأنه إن قصر في ذلك، فإن مصيره إلى العزل من منصبه، وربما هو أقسى من العزل، هذا فضلا عن أن الواحد منهم إنما كان يخضع لنظام النقل من إقليم إلى آخر، وربما من وظيفة إلى أخرى، ومن ثم فإن واحدا منهم لم يذكر اسم الإقليم الذى كان يحكمه، وكانوا

(١) انظر: محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر، ص ٤٦-٤٨، وكذا:

J. Pirenne, Histoire des Institutions et du droit Privé L'Ancienne Egypte, III, 1932, p. 172-173.

حين يتوفون أجلهم في هذه الدنيا يدفنون في جبانة العاصمة، على مقربة من مقبرة الملك الإله الذى قضوا حياتهم فى خدمته، لعل وعسى أن ينالوا ذلك الشرف العظيم فى الحياة الثانية، هذا فضلاً عن أن الواحد منهم إنما كان يأمل أن ينتهى المطاف به فى آخر حياته الوظيفية إلى إحدى الوظائف المركزية فى العاصمة كمدير لإحدى المصالح الحكومية، ثم قد تمتد آماله فيرونو إلى أن يصبح عضواً فى محكمة الستة العليا، أو مستشاراً سرى أو نائباً لفرعون فى «نخن» (البصيلية) وربما يصبح وزيراً.

هذا وقد كان القوم يعتقدون فى الحياة الأخرى، ومن هنا فقد كانوا يرغبون فى قبر جميل واسع يحفظ فيه جسد المتوفى، ولعل هذا هو الذى دفعهم إلى تحنيط أجسادهم، الأمر الذى توصلوا إليه منذ أوائل عهد الأسرة الثالثة، وربما كان ذلك سبباً فى أن يذهب البعض إلى أن المصريين القدامى إنما كانوا يهتمون بالموت أكثر من اهتمامهم بالحياة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فقد كانت أغلب الجبانات فى الصعيد إنما تقع على حواف الصحراء، ومن ثم فقد احتفظت لنا الأرض الجافة بكثير من المقابر، بينما كانت المنازل والقصور تقام على مقربة من الأراضى الزراعية، وبالطوب اللبن فى معظمها، ومن ثم فقد اختفت بسرعة^(١).

وعلى أى حال، فإن القوم لم يقتصروا فى اهتمامهم بالحياة الثانية على تشييد القبور وحنيط الأجساد، وإنما كانوا يعتقدون كذلك فى ضرورة تقديم القرابين وإقامة الصلوات فى هيكل يشيدونه، إلى غير ذلك من مطالب الخدمة الجنزية، ولم يكن أحد فى استطاعته أن يقوم بذلك كله، لأن الملك إنما كان هو المالك الفعلى لكل شىء فى مصر، الأرض والمهاجر ومن عليها وما عليها، ومن هنا فإن المقبرة ومطالبها الجنزية إنما كانت جميعها هبة من الملك، يقدمها لمن يشاء من رعاياه المخلصين، وقد نال ذلك العطف الملكى كثيرون، إذ تفضل الملك فوهبهم من الأرضين ما يكفى ذلك كله.

ومن هنا بدأت أول خطوة فى الطريق إلى انهيار الملكية المطلقة السلطة،

(1) J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1944, p. III; R. Engelbach, op.cit., p. 190-200; F. Daumas, La Vie dans l'Egypte Ancienne, Paris, 1968, p. 120.

فقد بدأ يظهر ملاك جدد، يقابله من الناحية الأخرى، نقص فى أملاك التاج الخاصة، فضلاً عن أن هذه الأراضى الممنوحة للملاك الجدد كانت معفاة من الضرائب، ثم سرعان ما بدأ حكام الأقاليم خطوة أخرى نحو اللامركزية، والبعد عن رقابة النصارى، فبدأوا يبتعدون بمقابرهم عن مقبرة الملك، إذ فضلت أسر أمراء الأقاليم فى الصعيد الدفن فى أقاليمهم، وفى الشيخ سعيد ودشاشة بمحافظة بنى سويف، وفى زاوية الميتين فى محافظة المنيا، وفى دير الجبراوى بمحافظة أسيوط، وفى قصر الصياد بمحافظة قنا، وفى أسوان وفى أماكن أخرى عديدة، حفر حكام هذه الأقاليم مقابر فخمة منقورة فى صخور بلادهم، كما لو كانت جبانة العاصمة قد أصبحت غير صالحة لتكون مشوى جثثهم^(١)، بل إن الأمر إنما كان أعمق من ذلك، فهناك المقاصير التى كشف عنها فى جزيرة أسوان لأسرتى «سرنبوت» و«حقا أيب»^(٢) تقدم لأصحابها من أمراء الأقاليم هناك فروض العبادة، كما كانت تقدم للملوك من قبل، والأمر كذلك بالنسبة إلى «إيسى»، وإلى إدفو فى بداية عصر الأسرة السادسة^(٣).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى تصبح «الأرض الممنوحة» خاضعة للتوريث، ثم سرعان ما تنتقل - عن طريق الزيجات^(٤) - إلى أسر أخرى، ثم تخضع لعمليات البيع والشراء.

وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة، إقطاعيات واسعة، وتمكن آخر الأمر، بعض حكام الأقاليم - وخاصة فى الصعيد، حيث الحكام الأقوياء - من أن يجعلوا وظائفهم خاضعة للتوريث.

وقد أدى ذلك - أى نظام توريث الوظائف - إلى أن أصبحت تلك

(١) أدولف إيرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٢) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, p. 25.

(٣) Alliot, BIFAO, 37, 1937, p. 93.

وانظر : محمد يرمى مهران، الثورة الاجتماعية، ص ٤٩-٥٠.

(٤) لجأت بعض الشعوب إلى «الزواج من الداخل» حتى لا تنتقل الثروات إلى خارج الأسرة، ومن ثم فقد حرم على البنات الزواج من خارج العشيرة، وفى التوراة: لا يتحول نصيب لبنى إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلازم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه. (سفر العدد ١٢-١/٣٦ : محمد يرمى مهران، بنو إسرائيل، (الإسكندرية ١٩٩٩م)، ٦٠١/٤-٦١١).

الوظائف وفقاً على أفراد أسرة واحدة، استقروا في إقليم بعينه وهيمنوا عليه، وأبقوا على علاقاتهم الطيبة بالعاصمة، مادام الملك قوياً، ولكنهم يصبحون في حل من ذلك، إن اختلقت الظروف^(١)، الأمر الذي حدث في آخريات الدولة القديمة وذلك عندما استغل حكام الأقاليم المنح الوراثة التي أسبغها الجالس على العرش في منف على الأقوياء منهم، فتمسكوا عن الألقاب التي منحت لهم وجمعت بين أيديهم السلطات الإدارية والدينية والعسكرية بأقاليمهم، هذا إلى جانب المظاهر التي تشبهوا فيها بالملوك، كبناء المقابر وتجميل أعمالهم عليها، فضلاً عن ضخامة حجم البلاط المحيط بهم، مما يوحي وكأن كل إقليم إنما قد أصبح دولة داخل الدولة، فقد كان حاكم الإقليم هو الكاهن الملكي بإقليمه «خرحب»، كما كان من الناحية الإدارية مدير القصر (حقا ح) وحامل الختم الملكي (سجاوتي بيتي)، وهي الوظيفة التي كانت من اختصاص الوزير من قبل^(٢).

(٣) حاكم الصعيد:

أصبح الملك - بمرور الأيام - غير قادر على كبح جماح حكام الأقاليم، بسبب «سياسة التودد» إلى كبار رجال الدولة، حتى وصل بعضهم إلى «منصب الوزارة» - أكبر مناصب الدولة - في الأسرة الخامسة، بعد أن كان المنصب مقصوراً - منذ إنشائه - على الأمراء من البيت المالكي - دون سواهم - حتى أنه لم يل الوزارة، إبان عهد هذه الأسرة، سوى اثنان من الأمراء - هم «سحم - كارع»، و«نفر نشم مشات» -.

هذا فضلاً عن أن الملوك إنما سمحوا للكثيرين بمصاهراتهم، فزوجوا كثيراً من الموظفين بأميرات من البيت المالكي، بل إن واحداً من هؤلاء الملوك زوج إحدى أميرات بيته الملكي من «قزم» يدعى «سنب»، كان يعمل في بلاطه.

وليت الأمر يقتصر على ذلك، وإنما بدأ الملوك في اتباع سياسة أضعفت كثيراً من سلطانهم، وكان لها - آخر الأمر - أكبر الخطر على هذا السلطان - إن لم يكن على العرش نفسه - ذلك أنهم سمحوا لعدد من

(١) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٦٥.

(2) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, p. 25

الأبناء الذين تربوا في قصورهم الملكية بأن يرثوا مناصب آبائهم، بعد موتهم.

هذا فضلا عن أن ملوك هذه الأسرة الخامسة إنما بدأوا يتراخون في استعمال حقهم في نقل حكام المقاطعات من مقاطعة لأخرى، مما أعطى الفرصة لهؤلاء الحكام المحليين في أن يكون لهم في أقاليمهم سلطة، تنافس سلطة الملك نفسه.

وتنتهى الأسرة الخامسة بالملك «وناس»، الذى يرى فيه البعض أول ملوك الأسرة السادسة - من وجهة نظر معينة - حيث يقف نفوذ كهنة «عين شمس»^(١) عند تولية العرش، كما تبدأ - عادة - كتابة غرف الأهرام الداخلية، بما عرف بـ «متون الأهرام»^(٢) -.

(١) عين شمس، وتسمى في المصرية «إيونو»، وفي الآشورية «آنو»، وفي التوراة «أرن» أو «بيت شمس»، وفي اليونانية «هليوبوليس»، بمعنى «مدينة الشمس» (بيت رع - نسبة إلى معبودها الرئيسي «رع») وقد سميت - كما سميت طيبة - «بيت - إن كمت» (انظر: تكوين ٤١/٤١، ٥٠ إرميا ٤٦/٤٦، محمد يوسى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٠٣/٢ - ٣٠٩). وفي عين شمس نشأت النظرية الأولى لفكرة «الخلق» عند المصرى القديم - قبل نظرية الأشمونين ونظرية منف. (انظر عن نظرية «عين شمس»: عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٣٣-٣٧، محمد عبد اللطيف، فكرة الخلق في مصر القديمة، ص ١٠٣-١٣١، تشرنى، الديانة المصرية القديمة، مترجم، ص ٥٢-٥٣).

(٢) متون الأهرام: كشف عنها «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦-١٩١٦م) في عام ١٨٨٠م في داخل «هرم «أس»»، ثم عشر بعد ذلك على بعضها في أهرام ملوك الأسرة السادسة، بل وفي أهرام «س» ملكاتها، فهي التعاويذ السحرية والطقوس الجنائزية، وأجزاء من بعض الأساطير المصرية القديمة، يرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل الأسرة الأولى، بل فيها أشارت إلى الحرب التى قامت فى ... أوائل أيامها، على أنها حروب بين الآلهة التى عبدت فى تلك الأيام. وعلى أى حال، فهي تختلف من هرم إلى آخر، بل إن الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك، إنما كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الآخر، وقد قسمها «كورث زته» (٧١٤) فقررة، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الآخر، حيث تفتح له أبواب السماء التى حرمت على غيره من الناس، فضلا عن تحوله إلى نجم من النجوم التى لا تطفى، وإلى إله الشمس، أو على الأقل يكون فى ركاب إله الشمس.

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد للأرض، والروح للسماء»، وقولهم فى مخاطبة فرعون فى حديث رمزى «قد يتحلل جسدك طولا وعرضا، ولكن روحك سوف تبقئ، وسوف تشهد رع فى غلالاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم إيمانهم بمقابرهم على أنها بيت الخلود، إلا أن أرواحهم لن تظل حبيسة فيها، وإنما سوف تكون، وبخاصة أرواح الملوك والأخيار، طليقة فى عالمها غير المنظور، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاعت، وتستروح نعيم الجنة فى العالم الآخر حيث شاءت، وتزوب إلى قبرها لتتعم بمراى القرابين متى شاءت وتخط على جسدها حيث شاءت، هذا فضلا عن أن القوم لم يتخيلوا أن

وتبدأ الأسرة السادسة بالملك «تتى» الذى يقرب كهنة منف إليه، ويسبغ على نفسه لقب «المحبوب من بتاح»^(١) - إله منف، وربما كان قد اعتمد عليهم فى توليته العرش، غير أن كهانة عين شمس، سرعان ما استعاروا سلطانهم فى عهد «مرى - إن - رع» الذى عمل على ترضيتهم بإضافة اسم «الإله رع»^(٢) إلى ديباجة اسمه.

ويزداد نفوذ حكام الأقاليم فى عهد الأسرة السادسة، لدرجة تقضى عليها آخر الأمر، ذلك أن الهوة العميقة التى كانت تفصل بين «الملك الإله»، وكبار موظفيه، فى الأسرة الرابعة، أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، وإن كان الملوك مايزالون يسمون «الإله الطيب»، غير أن إيمان الشعب بالوهية ملوكة، إنما بدأ الضعف يدب فيها، منذ ارتباط الملكية بالكهانة فى الأسرة الخامسة، ومنذ بدأت المصاهرات تأخذ طريقها بين «الملوك الآلهة» الجالسين على عرش الكتانة، وبين المصطفين من كبار موظفيهم، وها هو الملك

روح فرعون سوف ترتقى إلى السماء دون إذن من ربها، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى أخرا، ومن ثم فهم يخاطبون كائنات فى السماء قائلين: «انظر: إن الفرعون أت مقبل منطلق، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه، وإنما استدعى بناء على رسالة أت إليه، وأن الرسل قد أحضرته، وكلمة مقدسة رفعت» كما أشارت متون الأهرام إلى أن وصول الملك إلى نعيم الآخرة عند رب السماء إنما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه ملك صادق فى السماء، عادل فى الأرض»، مما يشير إلى أن عدل فرعون فى الأرض إنما هو سبيل القربى من رب السماء.

ومع ذلك فإن هذه المتون نفسها هى التى جعلت الملك يدخل أبواب السماء، التى حرمت على غيره من رعاياه، وأن مأواه السماء، وأما الآلاف فعأواهم الأرض، وربما كان المراد أن جنة الملك فى السماء، وأن جنة العامة من الناس على الأرض، ذلك لأن القوم إنما كانوا يظنون حتى نهاية الأسرة الخامسة أن مركز الجنة الأرضية إنما كان فى حقل القربان عند هليوبوليس، المركز الرئيسى لعبادة الإله رع، الذى زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها، بقانون «ماعت» الذى سنّه، ثم تخطى عن حكم العالم الديوى لابنه، ورفع نفسه إلى السموات العلى، كما رفع كذلك حقل قربانه إلى العالم العلوى، وأصبح مأواه الأبدى فى السماء، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) بعيشة راضية فى حقول والده، وترك حقول القربان التى على الأرض فى هليوبوليس للعامة من الناس. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٢٠؛ سليم حسن، المرجع السابق، ص ٢١٨)

S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols., (N.Y., 1952).

(١) انظر عن «بتاح»: محمد ييوى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٦٧/٢-٣٧١.

(٢) انظر عن «رع»: محمد ييوى مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٦٢/٢-٣٦٧.

«شبسكاف» يزوج إحدى بناته من «بتاح شبس» - أحد الذين تربوا في القصر على أيام سلقه «من كا ورع».

ولا ريب في أن في هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد، التي تؤمن بها تلك الأسرة، التي تعتقد في صلتها بالآلهة، وفي ألوهية ملوكها، بل تستطيع أن نتصور ما في هذا الزواج من خطورة على العرش نفسه، إذا علمنا أن العرش في مصر إنما كان ينتقل عن طريق خط المرأة، فقد كانت «زوج الملك الكبرى» هي الوريثة التي يستطيع الملك الوصول إلى العرش، عن طريق الزواج منها، ذلك لأن الملكة إنما كانت ملكة بحق المولد، وكان الملك ملكاً بحق الزواج، وهذا ما حدث في الأسرة التالية - أي الخامسة - عندما استطاع مؤسسها «وسر كاف» - وكان يشغل مركزاً كبيراً في معبد الشمس - عن طريق كهانة رع، أن يصل إلى العرش، وأن يتزوج من «نخت - كاو - إس»، حتى يصبح جلوسه على العرش - في نظر الشعب - شرعياً، وإن رأى البعض أنه كان ابناً لها، وليس زوجاً.

وأيما ما كان الأمر، فإن «نخت - كاو - إس» تزوجت من أحد عظماء القوم، الذين لم يكونوا من أرومة ملكية خالصة، ومن نسلها جاء ملوك الأسرة الخامسة، فهناك ترجمة لها قوتها من الناحية اللغوية - للنص المنقوش على الباب الوهمي الضخم لمقبرتها - تصفها كأنما هي:

«أم ملكين، لا ملك واحد فقط»، وعلى أية حال، فمن المتفق عليه - فيما يبدو - أن «نخت - كاو - إس» إنما كانت السلف المباشر للأسرة الخامسة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه في الأسرة السادسة بدأت سياسة جديدة - سياسة مصاهرة العائلات القوية في الصعيد - فلقد اضطر الملك «بيي الأول» - ربما بسبب مؤامرة زوجه «إيمتس»، وربما بدأ يشعر بأن العرش إنما بدأ يهتز من تحته، وأنه في حاجة إلى عون كبير، يشد أزره، ويسنده في الخطوب الجسام - إذا ألمت به يوماً ما - ربما كان هذا أو ذاك.

وأيما ما كان السبب الذي دفع «بيي» إلى أن يقدم على مصاهرة عائلة

(١) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٢٨، وكذا: A.H.Gadiner, op.cit., p. 83-84.

صعيدية قوية، فيتزوج من ابنة أمير أييدوس - ويدعى خوى - التى تنجب له طفلاً (مرى - إن - رع) يكون «ولى عهد»، وحين يوافيها أجلها المحتوم، يتزوج من أخت لها، تنجب له طفلاً آخر، يعتلى العرش، بعد أخيه - وهو ما يزال طفلاً -، فتقوم أمه بالوصاية عليه، وسرعان ما يسند «منصب الوزارة الخطير إلى خاله «زعو» - ابن أمير أييدوس (إيدو - إنجو) -.

وهكذا يصبح أمر البلاد فى يد هذه العائلة - التى لا تمت إلى البيت الملك، ولو بخيط واهن ضعيف، من صلة الدم، وإن كانت تربطها به صلة المصاهرة - وهذا يعنى بوضوح أن الأسرة المالكة - التى كانت تؤمن بقدسيته، ويؤمن شعبها بالوهيتها - أصبحت بمنأى عن الحكم والسلطان، ومن ثم فقد أصبح أمر البلاد بيد أصهارها من عائلة أمير أييدوس.

وتستمر الأمور كذلك، حتى يصبح الطفل الملك فى سن تؤهله للجلوس على العرش المقدس - كملك حقيقى - ويتولى السلطة فى البلاد - ولمدة أجيال ثلاثة أو تزيد، يضعف فى أخيراتها، فى وقت كانت سلطة الملوك قد ضعفت، وزاد نفوذ حكام الأقاليم، وأصبحت مناصبهم وراثية، وزادت ثرواتهم لدرجة أصبحت تهدد خزائن الملك نفسها.

هذا وقد استمر ملوك الأسرة السادسة - بجانب المصاهرات بين الملوك ورعاياهم - على سنة ملوك الأسرة الخامسة فى إغداق الهبات على المعابد، ويفقدون من وراء ذلك الكثير من المال، فضلاً عن الكثير من السلطات.

ويتخرج الموقف، ويصبح الملوك مهددين فى عرشهم نفسه، ويلجأ البعض، منهم إلى معالجة ذلك الأمر الخطير، بأن يعمدوا إلى إعادة تربية أبناء الحكام فى قصورهم، حتى يضمّنوا ولاءهم حين يتولون حكم أقاليمهم.

على أن الأمل الكبير للحفاظ على العرش إنما كان فى «إعادة منصب حاكم الصعيد»، والذى كان الملوك قد أوكلوا إليه فى الأسرة الخامسة، أمر جمع الضرائب فى الصعيد، والإشراف على حكامه، وكان هذا المنصب - حاكم الصعيد - قد ألغى فيما يبدو - فى عهد «تنى الأول» - أول ملوك الأسرة السادسة - ثم أعيد فى عهد «مرى إن رع»، لمصلحة القائد

«ونى» ،والذى ينوّه فى نقوش مقبرته بالحظوة التى منحها له الملك، بصفة استثنائية (١).

كان إعادة «منصب حاكم الصعيد» هو الأمل الذى كان الملوك يرجون من ورائه، استعادة سلطانهم، ولكنه لم يغير من الأمر شيئاً، فلقد أصبح - فيما يبدو - تشریفاً لحامليه، ولم يكن لقباً عملياً، ومن هنا فقد اشترك فيه أكثر من واحد، فى وقت واحد - كما حدث عندما اشترك مع «ونى» فى اللقب، كل من حاكم «القوصية» - على مبعدة ٦٠ كيلاً شمالى أسيوط - وحاكم إدفو (٢) - عاصمة الإقليم الثانى - «جبا»، وعلى مبعدة ١٠٠ كيلاً شمالى أسوان - ومع ذلك، فقد رأى فيه - أى حاكم الصعيد - حكام الأقاليم إضعافاً لنفوذهم، وربما عائقاً فى سبيل استقلالهم بحكم أقاليمهم، فعملوا - جاهدتين - على الغائه، حتى نجحوا آخر الأمر، إبان شيخوخة «تنى» الطويلة - الذى قدّر أن يحكم مصر قرابة ٩٤ عاماً.

(١) إيتين دريوتون وجاك فاندييه، «مصر، ترجمة هباس بيومى، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٢٦٣ وكذا: J.H. Breasted, ARE, I, Brag., 291-294, 306-315, 319-324; J. Wilson, ANET, p. 227F; K. Sethe, Urk. I, 1932, p. 117; A.H. Gardiner, Was The Vizier Djau on of Six Brothers, ZAS, 79, 1954, p. 95.

(٢) إدفو - مدينة هامة، وعاصمة أكبر مراكز محافظة أسوان، وكانت فى العصر الفرعونى عاصمة الإقليم الثانى من أقاليم الصعيد، وكان اسمها «جبا» ثم حورت إلى «جبو»، وأصبحت فى القبطية «نبو» و«البو»، التى حورت فيما بعد إلى «إدفو»، هذا وقد عرفت كذلك فى العصر الفرعونى باسم «بحدة» (بحدت)، بمعنى العرش، عرش معبودها «حور» منذ الأسرة الثانية عشرة، الذى «سأه الإغريق بمعبودهم «أبوللو» فسموها «أبوللو نوبوليس ماجنا»، أى مدينة أبوللو الكبيرة - يبرز لها عن مدينة «أبوللو الصغيرة»، وهى «قوص».

وقد بدأت «إدفو» دورها السياسى والدينى منذ ما قبل التاريخ فى أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد، ثم استأنفت شهرتها الدينية بعد زمن طويل فى أخريات العصور الفرعونية، وقد عثر فى جباناتها وأطلالها على كثير من الآثار الهامة من جميع العصور، وبما زاد فى أهميتها فى العصور القديمة، موقعها على رأس كثير من دروب القوافل الموصلة إلى عدد من مناجم الذهب وغيره من المعادن التى تكثر فى صحرائها فضلاً عن الأعياد الكبيرة التى كانت تقام فيها للإله «حور» وترى، حول المعبد كثيراً من أطلال المدينة القديمة، كما يقوم جزء من المدينة الحالية فوق القديمة أيضاً، وتختبئ بها جبانات قديمة متعددة.

غير أن أهم ما فى «إدفو» الآن معبدها الفخم الكبير، الذى لا يضارعه معبد آخر فى مصر فى الاحتفاظ بمظهره العام، وطوله ١٣٧ م، وارتفاع الصرح ٢٦ م، وإلى جانب أهميته المعمارية، فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية فى العصور المتأخرة من حيث بنيته، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة، هذا وقد استمر بناء معبد «إدفو» قرابة قرنين من الزمان، حيث بدئ فى بنائه فى عهد «بطليموس الثالث»

ثالثاً - التنظيم الاقتصادى

لا ريب فى أن التنظيم الاقتصادى فى مصر الفراعنة، إنما كان شأنه - شأن غيره من التنظيمات الأخرى - يخضع لعقيدة الدولة القائلة : إن الملك المؤله إنما يملك الدولة - وما فيها ومن فيها، من خيرات - زراعية وتجارية وثروات طبيعية أو معدنية - .

(١) الزراعة:

وكانت الزراعة هى المورد الاقتصادى الأساسى، وهو الذى أكسب مصر حضارتها، ومن هنا، فقد كان الاهتمام بها كبيراً - منذ عصور ما قبل التاريخ - وكان عمادها الأساسى هو «النيل»، ذلك السملاق الخالد، الذى كتب له أن يقوم بأهم الأدوار فى الحياة المصرية - طوال التاريخ المصرى فى كل عصوره - من القديم إلى الوسيط إلى الحديث - إذ هو عماد الثروة فى مصر، فقد كان طمى النيل سبباً لخصب شديد، ولكن الإفادة منه لم تكن تتم إلا عن طريق الكد، الذى تلهبه الحماسة، فلا يفتر.

وهكذا قدر المصريون النيل حق قدره، بل إن المصرى القديم إنما قد آله النيل - من بين ما آلهه من معبودات - وتخيله فى صورة رجل ممتلىء، أو شخص يجمع بين صفات الذكور والإناث، يتوج رأسه مرة نبات الجنوب، وأخرى نبات الشمال.

وهناك رسم أقبل المصريون على تصويره، ويمثل لنا «إلهين من آلهة النيل»، يقدمان مصر كهدية إلى الملك، وذلك بأن يربطا النباتين اللذين يرمزان لقطرى مصر، حول العلامة الهيروغليفية لكلمة «يوجد».

هذا وقد اعتاد المصرى القديم أن يحلى جوانب العرش يمثل هذه

(٢٤٦-٢٢١ ق.م) الذى وضع أسامه فى ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ ق.م، إلا أن بناءه وزخرفته لم يتما إلا فى عام ٥٧ ق.م، فى عهد «بطليموس الثانى عشر»، وقد ساهم فى بنائه كثير من ملوك البطالمة، أمثال بطليموس الثالث والرابع والخامس والسادس والثامن والتاسع والعاشر والثانى عشر. (أحمد فخرى، الموسوعة المصرية، ٨٧/١-٨٨، وكذا:

K. Sethe, op.cit., p. 47; ZAS, LXIV, p. 18; 14 Kees, Hours und Seth, II, p. 9, 29F; E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London 1927, p: 186, 174, 274.

الرسوم، أو ما يشابهها للتدليل على الخصوبة والثروة التي عمت البلاد، أثناء حكم الملك.

كل ذلك إنما يبين لنا أهمية النيل لمصر، ذلك لأنها - كما أشرنا من قبل - إنما تبدو مهددة بالخطر، إن ضمن النيل بمائة، وأتى بفيضان منخفض، فهو الذى يكسب أرضها خصوبتها المنقطعة النظير، فضلاً عن أنه المورد المائى الوحيد الذى تعتمد عليه الزراعة فى مصر.

ومن هنا كان انخفاض الفيضان كارثة وطنية، ينتج عنها القحط، كما أن فيضانه المرتفع، إنما يعنى الدمار لهم، ومن هنا كان لزاماً على القوم أن يجاهدوا ضد الخطرين، وقد كتب لهم نجاحاً بعيد المدى، عندما شقوا القنوات والترع، وعندما سهروا على صيانتها، اتقاء فيضان مرتفع.

هذا وكان الحرث والبذر يبدأ بمجرد انخفاض المياه، كعملية تتم فى وقت واحد، وكانت أداة الحرث هي «المحرث» والذى كان يستخدم حتى وقت قريب، ولا ريب فى أن القوم إنما قد اتخذوا احتياطات منسجمة لتجنب خطر الفيضان الزائد، وتحويل المياه إلى قنوات لتوزيعها على الأرض، وربما كان يقدر لها أن تصبح قاحلة، لولا ذلك الإجراء، هذا وقد اهتم القوم كثيراً بإنشاء السدود^(١)، وموالة رعايتها، فضلاً عن العناية بحفر القنوات.

وكان موسم الحصاد ينتقل بالقوم إلى نشاط متجدد، وهناك العديد من الأسور التى تمثل حصاد القمح، وضرب الكتان، ثم حمل المحاصيل على ظهور الحمير إلى ساحة الدرس، حيث توطأ بواسطة الثيران، وأخيراً التذرية، ثم نقل المحصول - براً أو نهراً - إلى الصوامع المنيعة، المبنية من اللبن، حيث تبخزن إلى حين تمس الحاجة إليها.

وكان جانب كبير من الإنتاج المحلى يؤخذ كضريبة، وكان الهدف عامة محصولاً مضاعفاً وكانت محاصيل الصيف تتطلب جهداً أشق، إذا ما انخفضت مياه النيل، أكثر من ذى قبل^(٢).

(١) انظر عن أول سد أنشأه المصريون فى «وادي جروى»، على مبعدة ١١ كيلاً شرقى حلون: (جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل ٤٥/٢-٤٦) ثم «سد الفيوم»: (محمد يوسى مهران، مصر ٣٦٩/٢-٣٧٣).

(2) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 31-34.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الملك الفرعون إنما كان يملك أملاكاً واسعة، تشمل كافة أنحاء البلاد - من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال - وكان يعهد بها إلى نفر من الفلاحين يزعونها، في مقابل ضرائب عينية، يؤدونها للذين أوكل الملك إليهم جمعها، ثم تجمع بعد ذلك كلها في المخازن الرئيسية في العاصمة، أو في المخازن الفرعية في الأقاليم، ويدهى أن هذا، إنما يستدعى من الدولة، أن تقوم برصد ارتفاع فيضان النيل^(١)، حتى يمكن أن يقدر الخراج على أساسه.

واستمر الوضع كذلك، الملك يملك وحده كل الأرضين الصالحة للزراعة في مصر، حتى بدأ - بمرور الأيام - يظهر ملاك غير الفرعون، وذلك حين بدأ الملك ينعم بإقطاعيات كهبات، في مقابل خدمات يؤديها المنعم عليهم للدولة، وكان هذا فاتحة منح بدأت تتوالى على حكام الأقاليم، ثم لكبار الموظفين والنبلاء، وأصحاب الحظوة عند سيد البلاد.

وهكذا بدأ الملوك يعلنون عن رضاهم عن المجدين الموظفين أحياناً، ومن المقربين للملك أحياناً أخرى، وذلك بمنحهم مساحات من الأرضين الزراعية - معفاة من الضرائب - لاستغلال ريعها على الطقوس الدينية، الأمر الذى أدى - أو ساعد - على إفقار الخزانة الملكية، أو على الأقل حرمان تلك الخزائن من جزء غير قليل من ممتلكاتها.

ويستمر الملوك فى «سياسة التقرب» نحو حكام الأقاليم، وكبار الموظفين، والكهنة، فيزيدون من هباتهم لهم، وكان من نتائج هذه السياسة، أن الملوك بدأوا - بسياستهم هذه - يحطمون اقتصاديات البلاد، ويخلقون عناصر قوية، غير ملكية، جمعت لنفسها ثروة مستقلة - عن طريق هذه الهبات الملكية - من المساحات الشاسعة من الأرضين المعفاة من الضرائب، وسرعان ما خضعت هذه الأراضي للتوريث، ومن ثم فقد بدأت تنتقل - عن طريق الزيجات - من أسرة لأخرى، وأخيراً خضعت لعمليات البيع والشراء.

(١) أشرنا من قبل عن مقياس النيل - فى فترة لاحقة - أيام «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣-١٧٩٧ ق.م)، وقد سجل ارتفاع النهر، ورأينا أنها تزيد فى بعض السنوات عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم. (انظر: محمد يوسى مهران، مصر ٣٧٠/٢) ١

J. Vercoutter, Semna South Fort and The Records of Nile Levels At Kumma, (Kush, 14, 1966, p. 125-164).

وهكذا، تكونت إقطاعيات واسعة من الأرضين، أعطت لأصحابها، ما أعطت من قوة، تناوى بها سلطات الملكية، مما أدى آخر الأمر، إلى انهيار المركزية، وتفتتت الضيعة الكبيرة، التي كانت ملكاً خاصاً للملك الفرعون^(١)، إلى ضيعات صغيرة يملكها من لا تربطهم بالعرش صلة من دم، أو مصلحة مشتركة، اللهم إلا إذا كان الحصول على أكبر نصيب من الغنيمة، هو الهدف الذي يجمع بينهما.

وهكذا يزداد نفوذ الكهنة عن طريق الأرضين الموقوفة على المعابد، ونفوذ الملوك الجدد، ذوى الألقاب الموروثة، والضيعة الواسعة، والذين يمثلون الإقطاعيين - فى أجلى مظاهر الإقطاع - ويضيع من «الملك المؤلة» نفوذه تدريجياً - ذلك النفوذ القائم على مركزية الثروة، ومركزية الحكم - وينتهى الأمر بضياع العرش نفسه أخيراً.

(٢) التجارة:

كانت التجارة - كمصدر من مصادر الثروة - نوعين، الواحد: تجارة داخلية، وهى لم تكن ذات قيمة اقتصادية كبيرة لأنها إنما كانت تتم فى دائرة محدودة جداً.

(١) من المعروف تاريخياً أن كلمة «فرعون» فى صيغتها المصرية «بر- عو» أو «بر- عا» إنما كانت تعنى بادئ ذى بدء - «البيت العالى» أو «البيت الكبير» أو «البيت العظيم»، وهى طريقة من العرائق الكثيرة التى كانت تشير إلى «القصر الملكى» - وليس إلى ساكنه - وفى عصر الفراعنة العظيم «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) بدئ فى إطلاق اصطلاح «بر- عو» - أو فرعون - على الملك نفسه.

ومن ثم فإن إطلاق كلمة «فرعون» أو لقب «فرعون» على ملك مصر، قبل عصر تخوتمس الثالث، إنما هو خطأ فى تسلسل تواريخ الأحداث، ذلك لأن لفظة «فرعون» إنما قد أصبحت تعبيراً محترماً يقصد به «ملك مصر» نفسه منذ هذه الفترة - منذ الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ ق.م)، وإن كان يبدو أكثر تأكيداً منذ عصر داعية التوحيد «إخناتون» (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م)، حيث هناك خطاباً استعمل فيه لقب «فرعون» بالنسبة لإخناتون، لم استعمل هذا اللقب، كمرادف لكلمة «جلالته» منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨-١١٨٤ ق.م).

هذا وقد جاءت كلمة «فرعون» فى القرآن الكريم أكثر من ٧٣ مرة. (أنظر: محمد يوسى مهران، مصر ٤٨/١-٥٢)؛

A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 52; A.H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, p. 75; J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, p. 102; PSBA, XXII, p. 72; ZAS, LIII, p. 130.

والثاني: التجارة الخارجية، وكانت ذات نشاط واسع، ذلك لأن مصر إنما كانت لها تجارتها مع جيرانها - الآسيويين والنوبيين وسكان بلاد «بونت»^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الميناء الفينيقي «جبيل» - وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمالي بيروت، إنما كانت على اتصال تجارى بمصر السفلى منذ عصر ما قبل الأسرات، حيث وجدت جسور من جذوع الأرز، يعود تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى (عهد البدارى) مما يدل على أن الخشب إنما كان يستورد من لبنان منذ ذلك العهد السحيق^(٢). هذا فضلا عن أنه قد عثر في «جبيل» (يبيلوس) على بعض اللوحات الحجرية المرمرية المصرية، وبعض التماثيل الحيوانية الصغيرة التى ترجع إلى عصور ما قبل الأسرات^(٣).

وعلى أى حال، فهناك ما يشير إلى أن المصريين قد استوردوا من فينيقيا أخشاب الأرز والصنوبر التى استخدمت فى مقابر الملوك فى أبيدوس، وفى صناعة السفن الكبيرة - ربما من عهد «عحا» - فضلا عن استيراد

(١) بونت: يختلف المؤرخون فى «بونت» - وصحة الاسم فيما يرى «جاردنر» (هوينى) - إلى اتجاهات أربع، أولها: أنها بلاد العرب الجنوبية (اليمن ومجاراتها)، وثانيها: أنها تقع على الشاطئ الأفريقى للبحر الأحمر - على اختلاف فى المنطقة التى تقع فيها بونت من هذا الشاطئ - وثالثها: أن بونت كلمة عامة تشمل الأقاليم الاستوائية عند المصريين، وأنهم رادوها منذ أقدم العصور عن طريق البحر ثم البر - ورابعها: أن بونت تقع على الساحلين - الآسيوى والأفريقى - للبحر الأحمر، على مقربة من «بوغاز باب المندب». (انظر: عبد المنعم عبد الحليم، محاولة لتحديد موقع بونت، ص ٥-٣٤؛ أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٣٣-١٣٨؛ دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٣٧-١٤٠؛ محمد ييوى مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة، ص ٣٠٧-٣١٠؛ وكذا:

K. Kitchen, Punt and How To Get there, 1971, p. 188F; E. Naville, Le Commerce de L'Ancienne Egypte, p. 7; P. K. Hitti, History of The Arabs, p. 3, 34-36.

وعلى أية حال، فلقد كانت السفن المصرية تمر عبر باب البحر الأحمر إلى بلاد بونت من الأسرة الخامسة والسادسة، فضلا عن رحلات الدولة الحديثة فى عهد «حتشبسوت» (١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م) و«رعمسيس الثالث» (١١٨٢-١١٥١ ق.م). (محمد ييوى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٥٢).

(٢) فيليب حتى، تاريخ لبنان، ص ١٨٥؛ وكذا:

G. Brunton and Caton Thompson, The Bodarian Civilization, p. 627; S.R.K. Glanville, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 6.

(٣) رشيد الناضورى، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الإسكندرية ١٩٦٨ م، ص ٥؛ وكذا: Pierre Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Nos. , 118, 178, 358, 359.

الزيوت والخمور في أوان فخارية من جنوب سورية.

وقد ذهب البعض إلى أن هذه الواردات إنما كان بمثابة جزى، قدمتها الناطق الخاضعة لمصر في سورية وفلسطين، بل إن هناك من يذهب إلى أن مصر إنما كانت لها حصون وعمليات دفاعية في غربى آسيا منذ أيام الملك «نعرمر» ، مؤسس الأسرة الأولى، وخلفائه من أمثال «جر» و«دن» و«قاعا» اعتماداً على صورة حصن نقش على ضلالية «نعرمر» وعلى شقة فخار مصرى تحمل اسم «نعرمر» في «تل الشيخ» جنوب فلسطين، وعلى ذكر اسم حصن يدعى «باب عن» ، وآخر يدعى «ونه» في جنوب فلسطين على آثار العصر نفسه، والأمر بهذه الصورة غير مؤكد تماماً، إلا أن هناك في نقوش الملوك، وفي حوليات «حجر بالرمو» ما يشير إلى ذلك^(١).

هذا وقد عثر في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد على نسبة كبيرة من التماثيل البراوية المصرية وبعض الأواني الحجرية في بيبلوس، ومن أهمها قطعة حجرية مصرية تحمل سرخ ملكى ينتمى إلى الأسرة الثانية المصرية، واسم الملك «نخع سخموى» آخر ملوكها^(٢).

وهناك من الأدلة ما يثبت أن الملك «سنفرو» - مؤسس الأسرة الرابعة - إنما قد أرسل إلى «فينيقيا»^(٣) (لبنان) أسطولا بحرياً، مكوناً من أربعين سفينة، لإحضار كتل من أخشاب الأرز، وأن كثيراً من هذه الأخشاب قد عثر عليها في هرمه القبلى في دهشور، وما زالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة، تؤدى مهمتها التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندسها فى أماكنها - رغم ماضى أكثر من أربعة آلاف سنة وستمائة عليها^(٤).

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٨٩، وكذا:

H. Kentor, in JNES, 2, 1942, p. 174F, 201F; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, p. 16-18, 3, II, 1901, p. 30; Y. Yadin, in Israel Exploration Journal, 1955, p. 1-16.

(٢) رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨م، ص ٢١٠-٢١١.

(٣) ماك ما يشير إلى علاقات بين مصر وفينيقيا منذ عصور ما قبل التاريخ - العصر الحجرى النحاسى ومصر ما قبل وقبيل الأمرات - وفى عصور الدولة القديمة والوسطى.

(٤) أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ١٠٠.

J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 146; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 42; A. Fakhry, The Monuments of Sneferu At Dahshur, I, 1959, p. 15-23; A. Fakhry, The Bent Pyramid At Dahshur, Cairo 1954, p. 559.

هذا، ويذكر الدكتور «شكري» أن مصر قد اهتمت منذ عصور ما قبل التاريخ، باستيراد الزجاج الطبيعي، والأحجار الكريمة، وكانت لها علاقات تجارية مع «كريت» وغيرها من جزر البحر المتوسط.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه في عهد الملك «خوفو» تزداد أهمية الميناء الآسيوي «جبيل»، ذلك الميناء الذي كانت تقسيم فيه جالية مصرية، منذ أيام الأسرة الثانية على الأقل، والذي أصبح أكبر ميناء للتبادل التجاري بين مصر وغربي آسيا، كما أصبحت السفن التي تتعامل مع «جبيل» - أو المصنوعة من أخشابها تسمى «الجبيلية»، أحياناً^(١)، بل وزاد بعض الباحثين فرأى أن ميناء جبيل، إنما كان يقوم كذلك بدور الوسيط بين تجارة مصر وكريت^(٢)، ورغم أن الأمر بهذه الصورة غير مؤكد، إلا أن الاتصال بكريت إنما كان قائماً منذ زمن بعيد، ذلك لأن الثقافة المينوية إنما تقدم دلائل قوية على التأثير المصري^(٣)، هذا فضلاً عن أن هناك من يذهب إلى أن المصريين إنما قد وصلوا إلى كريت رأساً بوسائلهم الخاصة^(٤).

وأيما ما كان الأمر، ففي عهد «خوفو» قام وسط «جبيل»^(٥) معبد مصري، أضاف إليه من جاء بعده، كما تشهد بذلك أحجار من هذا المعبد، تحمل اسم «خوفو»، بل وأسماء من سبقوه على عرش الكنانة، ومن لحقوا به على هذا العرش من فراعين الدولة القديمة، وليس هناك ما يعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التي نشأ عليها هذا المعبد، فقد يكون معبداً آموري الأصل، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه، وأهدوهم هدايا ثمينة

(١) عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٨٩.

(٢) رشيد الناصري، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، الإسكندرية ١٩٦٨م، ص ١٢، وكذا:

W.M.F. Patie, The Royal Tombs of The First Dynasty, II, London, 1901, p. 46.

(3) A. H. Gardiner, op.cit., p. 36.

(٤) الكسندر شارف، تاريخ مصر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٤٨.

(٥) كانت تكتب في الدولة القديمة «كبن»، وفي الدولة الوسطى «كبنى»، وفي الدولة الحديثة «كبننا»، وذكرها الآشوريون باسم «جربلا» والإغريق «بيبلوس»، والعرب «جبيل»، وتقع على مسافة حوالي ٤٠ كيلاً شمالي بيروت.

A.H. Gardiner, Opom, I. 257.

تحمّل أسماءهم، ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصري من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم، ويعملوا على إثراء معابدها، وقد يكون معبداً مصري الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت في جبيل، وعكفت على عبادة أربابها المصريين، وسجلت أسماء ملوكها على مقتنياته، وقد يكون معبداً مصرية، أقامه أمراء «جبيل» أنفسهم، مجاملة للمصريين، وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية، كما تقبلوا له هدايا الفراعنة المصريين^(١).

هذا وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف معبد للآلهة المصرية «إيزة» بجانب معبد «بعلة» جبيل، وإن الإلهتين قد أصبحتا بمرور الزمن إلهة واحدة^(٢)، وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى ازدهار التجارة بين مصر وفينيقيها على أيام خوفو، كما أن هناك ما يشير إلى قيامه بنشاط حربي في سيناء، إذ أرسل عدة حملات إلى المغارة للحصول على الفيروز، وربما النحاس كذلك^(٣).

وفي عهد الأسرة الخامسة، أرسل الملك «ساحورع» أسطولا إلى شواطئ سورية، عاد محملاً بجرار الزيوت وغيرها من السلع التي كانت تستوردها مصر من هناك.

وهناك في المعبد الجنائزى للملك «ساحورع» ما يدل على نشاط خارجي عظيم، خرجت فيه مصر من عزلتها، واحتكت بجيرانها بدرجة أكثر من عصور سبقت، فهناك منظر رائع للسفن العائدة من سورية بالتجارة، زائديون على ظهورها وأسلحتهم مرفوعة ولواء الفرعون، وربما كان ذلك بمناسبة حملة لبنان البحث عن الخشب القديم جداً من غاباتها^(٤).

(١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٠٦، وكذا:

W.A. Ward, Egypt and The Mediterranean From Predynastic Times To The End of The Old Kingdom, JES, HO, VI, part I, 196, p. 24; P. Monter, Bablos et L'Egypte, Paris, 1928, p. 29F; H.H. Nelson in Beyruts, 1934, p. 19F.

(٢) فيليب حتى، تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة، بيروت ١٩٧٢، ص ٧٨. (يذهب جاردنر إلى أن الإلهة المصرية هنا «حانخور» وليست «إيزة»، وأنها قد اقترنت بالإلهة عشتار).

(٣) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٦م، ٢٧-٤٤.

(4) Urk, I, 1932, p. 169; A.H. Gardiner, op.cit., p. 88; CAH, I, part 2, 1971, p. 192.

وقد اختلفت الآراء حول هذه الحملة، فذهب رأى إلى أن مناظر الأسطول وعودته لا تدل على أنها حملة حربية، وإن كنا لا نستطيع أن نتبين الغرض منها على وجه اليقين، وذهب فريق آخر إلى أن المناظر إنما تدل على شيء أكثر من إقلاع الأسطول وعودته، ثم استقبال الملك، وقد حفّ به كبار موظفيه، ومن ثم فهي حملة ودية، وربما عادت بأميرة من هناك لتصبح إحدى زوجات الفرعون، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن «جبيل» إنما كانت مستعمرة مصرية، وإن رأى «جاردنر» أن في ذلك مبالغة إلى حد ما، ولكننا ندرك على الأقل أن الرسل المصريين إنما كانوا يقابلون هناك دائماً بكل الترحاب^(١).

هذا، وفي الأسرة الخامسة، تصبح العلاقات مع النوبة أكثر سلاماً، فالمزاي التي يمكن الحصول عليها من علاقات ودية كانت مزايًا مشتركة، ذلك أن النوبة كانت مصدر سلع للترف قيمة، ولا يمكن الحصول عليها من مكان آخر، وكان النوبيون بدورهم يعتمدون كثيراً على جيرانهم الأكبر ثراء وحضارة، وكانت الحبوب من أهم ما يسعون وراءه وإن لم يكن لها ذكر في المستند الوحيد الذي يشير إلى ما جاء به المصريون معهم بقصد التبادل التجاري، وحيث ذكرت الأنواع المختلفة من زيت وعسل وملابس وقيشاني وكل الأشياء^(٢).

وأخذ اهتمام مصر بالنوبة السفلى يزداد، وبدأ المصريون ينظرون إليها كجزء متمم لحدودهم الجنوبية، ومن ثم فقد بدأوا يعملون على تأمين المواصلات إليها، وعلى الحد من شغب قبائلها القلقة - والفقيرة كذلك - ومنع اعتداءاتها على مراكز الحدود، وقوافل التجار، فضلاً عن تأمين استقلال محاجرها، وفتح أسواق التجارة مع مناطقها المسكونة، ولاتخاذها وسيطاً تجارياً بين مصر ومناطق السودان الغنية بمنتجاتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها^(٣)، إلا أن فكرة استعمار النوبة لم تطرأ - فيما يرى آلن جاردنر -

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص ١٠٤، أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٣٣، محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٤٤، وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 80; A. Weigall, op.cit., p. 43.

(2) A. H. Gardiner, op.cit., p. 117.

(٣) عبد العزيز صالحي، المرجع السابق، ص ١٣٧.

في أذهان المصريين إلا متأخرة، وقد تقبلوا في تمثيل «إلهة» كمنه
جنوبي لهم مدركين أن المنقطة وراء الجندل الأول ايس مرغوباً فيها
تمتلكات، وأن حاجتهم يمكن أن تسد عن طريق رحلات خاصة^(١).

وهناك من الأسرة السادسة، ما يشير إلى أن الملك «ببى الثانى» إنما
حافظ على سياسة أسلافه بالنسبة للتجارة الخارجية، فهناك ما يدل على
اتصال تجارى بين مصر وبلاد بونت وسواحل فينيقيا، من ذلك ما سجله
الملاح المصرى، «خنوم حتب»، من أنه قد زار «جبيل» و«بونت» إحدى
عشرة مرة، كما تمت رئاسة «ثتى» فى زيارته الأولى، وتحت رئاسة «خوى»
عند زيارته الثانية^(٢).

(٣) التعديس:

كان من الوجبات الملقاة على عاتق ملوك عصر التأسيس - الأسرة
الأولى والثانية - أن يكفلوا حماية القوافل، وبعثات المناجم والمهاجر، التى
تجوس خلال صحراوات سيناء، وقد ذكرت قطعة القاهرة لحجر «باليرمو»
إشارة إلى ما حدث فى عهد الملك «جر» - ثانى ملوك الأسرة الأولى، من
«ضرب ستيه» وهو اصطلاح جغرافى علينا أن نشير إليه بأنه يقابل آسيا
تقريباً^(٣)، ونحن نطالع فى عهد ملك متأخر (ربما «عديج - إيب») إشارات
عن «ضرب الإيونيتو» وهو اصطلاح مبهم كذلك، قد يشير إلى الشعوب
القاطنة فى شمال شرق الدلتا، وربما كان بمعنى «أصحاب العمد»، وهم
من بدو الصحراء الشرقية وسيناء، وربما ما ورائها أيضاً^(٤)، وقد أطلق عليهم
«سترابو» «سكان الكهوف»، والذين كانوا يعيشون على النهب والسلب، أو
التجارة فى قوافل تقطع صحراء العرب^(٥).

وهناك ترجمة رائعة تمثل الملك «دن» (وديمو) يقوم بذبح آسيوى
يسكن فى الصحراء الرملية هى «سيناء»، وليس بالنصوص الهيروغليفية بها

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 98.

(2) Urk, I, 132, p. 140-141.

(3) A. H. Gardiner, op.cit., p. 414.

(٤) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧، ص ٨٩، وكذا:
A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 414.

(٥) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٦٩م، ص ١٤٢.

آية صعوبة في الترجمة، فقراءتها واضحة، وتعنى «أول مرة لضرب الشرقيين»^(١).

وفي الأسرة الثالثة يتابع الملك «زوسر» - ثانى ملوك الأسرة وأعظمهم - سياسة الأسلاف فى الحفاظ على مناجم النحاس والفيروز وغيرها فى سيناء، ومن ثم فقد أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة سيناء، الذين ربما تعرضوا للبعثات التى كان يرسلها الفراعين لإحضار النحاس من جبل المغارة، فضلاً عن إنشاء الحصن المعروف ببوابة إيمحوتب هذا وقد وجد اسم «سانخت» - والذي يرى البعض فيه أنخا أكبر لزوسر، وسابقاً له على العرش المصرى - مكتوباً إلى جوار اسم «زوسر» فى شبه جزيرة سيناء، كما يشير إلى ذلك نقشان من وادى مغارة، الواحد فى المتحف المصرى فى القاهرة، والآخر فى المتحف البريطانى فى لندن.

هذا وقد بقيت من عهد «سخم نخت» - خليفة زوسر - نقوش على بعض صخور شبه جزيرة سيناء، صورته ثلاث مرات، مرتان بتاج الصعيد، ومرة بتاج الدلتا، وأظهرته فى هيئة فارعة يهوى بمقعدة القتال على أحد كبار أعدائه، وصورت أمامه أميراً يحمل لقب «قائد الجيش»، وهو من أقدم الألقاب الحربية الكبيرة المعروفة حتى الآن من الدولة القديمة^(٢).

وكانت السياسة الخارجية فى عهد الأسرات، الرابعة والخامسة والسادسة، تنحصر فى سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية، التى كانت تنطلق من العاصمة أو من قواعد على الحدود، لتعود مرة ثانية إلى نقطة الانطلاق محملة بالثروات، وهى كذلك لم تكن تتضمن دورات من الكر والفر، الأمر الذى تتسم به سياسة التوسع الاستعماري، وهكذا، ففي الأسرة الرابعة - وعلى أيام مؤسسها سفرو - يزداد الاهتمام بسيناء - ذات الأهمية الاقتصادية الكبرى لمصر - ففيها موارد البلاد الرئيسية من

(١) A.H. Gardiner, op.cit., p. 415.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣١٧، وكذا:

E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris 1952, p. 197; R. Weill, Les IIe et IIIe Dynastie Egyptiennes, Paris, 1908, p. 128; A.H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerry, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, Pls. I, 4, II, 1955, p. 52.

الفيروز والدمنج والنحاس، وعلى صحراواتها كانت تسير القوافل التجارية من مصر إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى مصر.

ومن هنا نرى «سنفرو» يقوم بحملة أو بضع حملات إلى سيناء، إذ تمثله النقوش في المغارة (ويسمى خطأ وادى مغارة أو جبل المغارة)^(١)، وهو يقضى على أحد البدو، ورغم أن «سنفرو» لم يكن أول الفراعين الذين استغلوا مناجم المغارة أو أرسلوا حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو، فإن الأجيال القادمة قد اعتبرته إلهاً حامياً للمنطقة، إلى جانب المعبودين «حاتحور» و«سويد» لأن أعماله في تأمين حدود مصر الشرقية، وما قام به من تحصينات هناك، أصبحت المثل الذى يحتذى به، بل وظلت بعض نقط الحراسة تعرف باسمه «ساق حور - نب ماعت»، حتى أيام الدولة الوسطى، وحتى رأينا أحد النصوص التى كتبت فى مناجم سيناء بعد وفاته بحوالى ألف سنة، يفاخر صاحبها بأنه فعل ما لم يفعله الأوائل منذ عهد «سنفرو»^(٢).

وفى الأسرة الرابعة، نرى الملك «خوفو» - صاحب الهرم الأكبر - يستعمل محاجر «الديوريت» التى تقع إلى الشمال الغربى من «توشكى»^(٣)، وأن «جد فرع» (رع - جدف) خليفة «خوفو» قد ترك اسمه هناك، وأن «خفرع» قد حصل على الديوريت الذى صنع منه تماثيله المشهورة من محاجر تلك المنطقة^(٤).

وفى الأسرة الخامسة سجل «سا حورع» و«جدكارع» (إسيسى) اسميهما عند «توماس» فى منتصف الطريق بين أسوان ووادى حلفا. وربما

(١) من أسف أنه فى عام ١٩٠١م ذهبت إحدى الشركات البريطانية لاستغلال مناجم الفيروز، واستخدمت الديناميت فى تحطيم الطبقات التى يوجد فيها الفيروز، فحطمت أكثر النقوش التاريخية التى كانت على مقربة من فتحات المناجم القديمة، وقد نقل «بترى» فى عام ١٩٠٥م ما بقى من النقوش إلى المتحف المصرى بالقاهرة، إنقاذاً لها من الدمار، ولم يترك غير نقش «سخم خت» لأنه كان على ارتفاع كبير. (انظر: الموسوعة المصرية ٣٧٢/١)، وكذا: W.M.F. Petrie, Researches in Sinai, London, 1906.

(٢) جان يوبوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٥١، وكذا: J.H. Breasted ARE, I, 1906, Parag, 168; A.H. Gardiner, T.E. Peet and J. Cerny, op.cit., p. 4; Urk, I, p. 7.

(3) PM. 7, 1951, p. 275.

(4) W.S. Smith, CAH, I, Part 2, Cambridge, 1971, p. 183.

كان لذلك صلة بمحاجر الديوريت هناك، ويبدو أن المصريين إنما كانوا يسيطرون تمامًا على المنطقة التي تقع إلى الجنوب من أسوان، ومن ثم فقد استطاعت البعثات أن تقوم بعملها في المحاجر، وهي آمنة، حيث لا توجد مياه، وحيث يفصلها عن النيل قرابة ثمانين كيلاً^(١).

(1) Ibid, p. 183.

رابعاً - التنظيم القضائي

(١) مصادر القانون المصري وفلسفته:

لا ريب في أن مصر الفرعونية التي بهرت العالم بتراتها المجيد في جميع مناحي الحياة، سواء أكان هذا التراث فكرياً أم مادياً، إنما قد تركت آثاراً كذلك في عالم القانون، وقد بذل علماء الآثار الجهود الجبارة للكشف عن معالم تلك المدنية، ومن ثم فيجدر بعلماء القانون من المصريين أن يتناولوا الآثار القانونية التي خلفتها تلك المدنية بالدراسة والتحليل، وتلك لا شك في أنها من أولى المهام التي يجب أن تضطلع بها كليات الحقوق في الجامعات المصرية^(١).

ورغم أن القانون كان في مصر منظماً تنظيمًا جيداً، فإن معلوماتنا عن شئون القضاء في مصر قليلة، ذلك لأنه بينما دون الناس في بابل - مثلاً - قوانينهم، لم تصل إلينا صورة واحدة كاملة لأي قانون مصري كتب على يردية من عصر الدولة القديمة، ويدهى أن هذا لا يعنى أبداً أن المصريين لم يعرفوا القانون، وإنما يعنى أننا لازلنا نفتقد هذه الوثيقة التي لا بد وأنها كانت موجودة في يوم ما، وإن لم تصل إلينا بعد^(٢).

وهناك من يرى أن الملك «ميناء» مؤسس الملكية المصرية، حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م، قد جعل التقنين الذي أصدره المعبود «تخوت» («تحتوى» أو «تحتوي»)، كما ينطق في المصرية القديمة) - والذي اعتبره المصريون القدامى القاضي الذي حكم في السماء، ويقضى في المنازعات بين الآلهة، ثم نسبوا إليه أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل في القضاء^(٣) - سائداً في مصر العليا والسفلى، سواء بسواء، ويبدو أن تقنين تخوت هذا إنما كان تقنيًا مكتوباً، وأن أول ما استعملت فيه الكتابة إنما هو هذا القانون بالذات، والذي لم يصل إلينا منه شيء، هذا فضلاً عن أن نصوص المقابر من عهد الدولة القديمة إنما تحوى أدلة على وجود قانون

(١) شفيق شحاته، القانون المصري القديم، القاهرة ١٩٥١، ص ٧.

(٢) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٥.

(٣) انظر عن المعبود «تخوت»: محمد ييومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، الإسكندرية ١٩٨٤م،

متقدم مكتمل، فى مجموعات من الوصايا والعقود والهبات، وغير ذلك مما يتصل بنظام الملكية والحقوق العينية^(١).

وهناك كذلك من الأدلة الأثرية ما يشير إلى وجود قانون جنائى، أو على الأقل نصوص محددة للعقوبات فى عهد الدولة القديمة، وكانت المحاكم تطبق هذا القانون على عامة القوم، فضلاً عن كبار القوم من الموظفين والكهان، ومن ثم فقد سجل لنا «ببى عنخ» - من وزراء الأسرة السادسة - على جدران مقبرته: أن محكمة الأسرة برأته من تهمة وجهت إليه عندما كان الكاهن الأكبر للمعبودة «حاتحور» فى مدينة «قوبين»، وأن هذه الاتهامات إنما كانت عقوبتها السجن^(٢).

هذا فضلاً عن بعض أحكام من قانون العقوبات، قد وصلتنا من «بردية وستكار» - والتي تروى قصصاً ثلاثة - قصة الزوجة الخائنة، قصة سنفرو وفتيات القصر، قصة خوفو والسحرة. وقد علمنا من «قصة الزوجة الخائنة» - وتنسب إلى عهد الملك «نب» - كافاً من الأسرار الثالثة، وربما كان هو الملك «سا نخت» أن عقوبة الزنا، إنما كانت الموت - غرقاً أو حرقاً - ففى روايتها عن علاقة شاب بامرأة كاهن، أن الشاب قد افترسه تمساح من صنع الكاهن نفسه، وأن المرأة اللعوب إنما قد اقتيدت إلى سباحة شمالى القصر حيث أحرقت غلثاً، وألقى برملاتها فى النهر^(٣).

ولعل ذلك كان عقاب الزانية المحضنة، وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى تخفيف هذه العقوبة أحياناً - فيما تلا ذلك من عصور، فأصبحت «جذع الأنف»، وهكذا أصبحت عقوبة الزنا - بغير إكراه - ألف جلدة للزانية، وجذع أنف الزوجة، حتى تحرم تلك المرأة التى تزين المعصية للناس من أكبر مقومات الجمال، فضلاً عن أن تكون عبرة وعظة لغيرها، وإن ذهب «ميخائيل سليمان» إلى أن عقوبة الزنا إنما كانت الإعدام، حتى وإن كانت مازال فى مرحلة الشروع، كما إنها كانت تتطلب شاهدين، وإن لم

(١) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١١، ١٦، ١٧.

(٢) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الثانى، ص ٦٢.

(٣) انظر عن بردية وستكار: محمد يوسى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الآداب والعلوم، الإسكندرية ١٩٨٩ م، ص ٧-٧٩، وكذا:

M. Lichtheim, op.cit., p. 215-222; G. Lefebvre, op.cit., p. 70-90; W.K. Simpson, op.cit., p. 15-30; E. Brunner-Traut, op.cit., p. 11-24; K. Sethe, ERL, 1927, p. 32-45.

تبين النصوص جنسهما، كشرط أساسى لتطبيق عقوبة الإعدام^(١).

وعلى أية حال، فلقد كان الزنا فى مصر الفرعونية خطيئة كبرى، ومن ثم فقد كان الرجل، دائماً وأبداً، يقر على نفسه فى وصيته أنه لم يرتكب فى حياته هذا الفعل القبيح، بل إن القوم إنما كانوا يكفرون عن خطيئتهم حينما يرتكبون فعل الزنا بالإعدام، بل إن الشرع فى الزنا - كما أشرنا من قبل - إنما كان يواجه بنفس العقوبة - كما جاء فى بردية لييد (Papyrus Moral de Leyde - Colonne 8)^(٢)، بل إن القوم - حتى فى أساطيرهم - إنما كانوا يشيرون بوضوح إلى عقوبة الإعدام كجزاء لزنا المرأة^(٣).

هذا وتقدم لنا الآثار والوثائق التاريخية ثلاثة وقائع تاريخية محددة تشير إلى عقوبة الإعدام على الزناة، بل إنها تقرر كذلك إقرار الفكر والقانون المصرى لعذر الغضب (عذر الاستفزاز)، أى أنهما يقران عدم عقاب الزوج الخدوع إذا قتل زوجته^(٤)، وفى «قصة الأخوين» ترى «إنبو» (أنوبيس) يقتل زوجته الداعرة - والتي حاولت إغواء أخى إنبو على فعل الفاحشة معها، ولكنه استعصم - ثم رمى بها إلى الكلاب^(٥)، وفى قصة الكاهن «أوبا أونر» أمر الملك التمساح (وكان الكاهن قد صنعه من شمع ثم قرأ عليه عزائم السحر) بأن يفتك بالفتى الزانى جزاء جرمه، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق، وذر رمادها فى النهر، ولعل ذلك إنما كان جزاء الزانية والزانى عند القوم، القتل غرقاً أو حرقاً^(٦)، وأخيراً قصة «بيتان» والذي رفع دعوى ضد زوجته الزانية أمام محكمة فرعون، وتأكيد «حاشور» بأن الزانية قد لقيت عقاب الإعدام، تقطيعاً بالسكين.

(1) M. Soliman, La repression de L'adultere en Egypte, These, 1925, p. 14, 25.

(2) J. Dagallier, op.cit., p. 177-178; M. Soliman, op.cit., p. 178.

(3) Kornfeld, L'adultere dans L'Orient in Rev. Biblique, 57, 1950, p. 106.

(٤) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٤٩، وكذا: Kornfeld, op.cit., p. 106.

(٥) انظر عن القصة: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية، الآداب والعلوم، ص ٧٣-٧٤، وكذا:

G. Lefebvre, op.cit., p. 137-138; J. Wilson, ANET, 1966, p. 23-26; E. Brunner - Traut, op.cit., p. 28-40; A. Erman, LAE, 1927, p. 150-161; E.F. Wente, op.cit., p. 92-107; J. Yoyotte, RDE, 9, 1952, p. 157-159; I. Vandier, op.cit., p. 45-46, 105, 106; M. Lichtheim, op.cit., p. 203-211.

(٦) انظر القصة: محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢٦، وكذا:

E. Brunner, Traut, op.cit., p. 11-24; W.K. Simpson, op.cit., p. 15-30; M. Lichtheim, op.cit., p. 215-222; A. Erman, op.cit., p. 36-47; G. Lefebvre, op.cit., p. 70-90.

وأما قتل الزوج المخدوع لزوجته الزانية، حال تلبسها بالفعل الإجرامي الدنيء، فقد كان يعد بمثابة تنفيذ شرعى لعقوبة الإعدام على الزوجية الزانية^(١).

ومن عجب أن يزعم «ديودور الصقلي» أن السرقة كانت حرفة عند أفراد من القوم، وأن يوافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين^(٢)، غير أن «كابار»^(٣) قد انتقد أخبار ديودور، كما جاء في وثيقة بمتحف موسكو، وكذلك فعل «نونيسين»^(٤)، على أساس معارضة هذا الاتجاه للروح الدينية السائدة عند القوم.

رذهب «دى جاردان» إلى أن أخبار «ديودور الصقلي» يجب أن لا تؤخذ على عمومها، وأن أخباره المتعلقة بحرفة السرقة لم تكن موجودة إلا في خارج المدن، أى في الصحراء خارج نطاق السلطة، وبعيداً عن قبضة فرعون، وأما «دى بو» فيذهب إلى أن ديودور الصقلي إنما يعنى «قطاع الطرق» من عصابات البدو الهمجية، ومن ثم فلا ينطبق قوله على اللصوص^(٥)، والأمر كذلك عند «أرك بييت» حيث يذهب إلى أن «داجالير» عندما تعرض لموضوع السرقة عند قدماء المصريين أقر صراحة بأن سرقة المقابر كانت جريمة معاقب عليها جنائياً بشدة، وأن هذا التأيد كان يستوجب بالتبعية القول بأن السرقة من أماكن أخرى - غير المقابر - إنما كان جريمة يعاقب عليها أيضاً عقاباً صارماً، فليس هناك من فرق بين طليعة السرقة، إذا ما تمت في المقابر، أو في غير المقابر، وإن كانت الأولى أشد نكراً^(٦).

(1) Kornfeld, op.cit., p. 108.

(2) J. Dagallier, Les Institution Judiciaires de L'Egypte Ancienne, Paris, 1914, p. 182.

(3) J. Capart, Esquisse d'une histoire du droit Penal Egyptien Extrait de la Revue de L'universite de Bruxelles, V. 1899-1900, p. 15.

(4) J.J. Thonissen, Etude sur L'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmanique, Egypte, Jure, I, Paris, 1869.

(5) A. De Pauw, Recherches Philosophiques sur les Egyptiens, II, p. 366.

(6) E. Peet, The Great Tomb - robberies of The Twentieth Egyptians Dynasty, Oxford, 1930, p. 18.

ومن ثم فقد ذهب علماء التاريخ والقانون المصري القديم إلى أن السرقة إنما كانت جريمة جنائية عامة تمس المجتمع كله، وليس الضحية فحسب، بل إن قانون الملك «حور محب» إنما يجعل عقابها ألف جلدة، وفي بعض الحالات، كانت تصل العقوبة إلى الحبس أو الإعدام بالخازوق، كما بين أن السارق كان يوصم بعلامات ظاهرة في خمسة أوضاع مختلفة من جسمه^(١).

وهكذا يذهب «دى بويه» إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان جددع الأنف^(٢)، بينما يذهب «بيذل» إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان الإعدام، وإن رأى أن فرعون كان يملك إصدار القرار الأخير حيال السارق، وأن المصريين القدماء إنما كانوا يأخذون بحبدأ المساواة في العقاب، أى أن عقاب السرقة إنما كان يوقع على الرجل والمرأة سواء بسواء^(٣)، على أن «تونيسين» إنما يذهب إلى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان الجلد، وإن اتفقوا جميعاً على أن جريمة السرقة إنما أصبح عقابها مالياً في أخريات العصور الفرعونية^(٤).

وعلى أية حال، فلقد سجل ديودور الصقلي أيضاً عقوبة الحكم بقطع اليدين على كل من يطفف في الكيل والميزان أو يزيف الأختام أو النقود أو يغش في المعاملة، وكذا الكاتب العمومي الذي يغير في نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة، والحكم على من يغتصب امرأة بالخصى حتى يحرم من رجولته التي دفعته إلى هذا العمل الشائن.

وعلى أية حال، فلقد ذهب بعض المؤرخين إلى أننا يمكن أن نعتمد

(١) باهور ليب، من التاريخ القانوني، القانون العقابي الفرعوني، ص ١٣٧-١٤٧، وكذا:

Broal, Le Crime et la Peine, paris, 1899, p. 40; B. Baldwin, Crim and Criminals in Craeco - Roman - Egypt, p. 256, 263.

(2) A. Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes jusqu'a L'etablissement du Christianisme, Paris, 1845, p. 20.

(3) E.D. BEdell, Criminal Law in The Egyptian Ramesside Period, Michigan, 1973, p. 147-148.

(4) Bluche, La Peine de Mort dans L'Egypte, Rev. Tnt. desdr. de L'astique, 22, 1975, p. 144-168.

وانظر: عبد الرحيم صدقي، المرجع السابق، ص ٤٠-٤٤.

فى مصادر القانون المصرى القديم على عدة مصادر، منها: المؤلفات الأدبية، حيث تضمنت بعض البرديات (من الوجهة الفكرية) اعترافات، وخاصة الاعترافات السلبية، مثل: لم أسرق، لم أرتكب خطيئة كذا.

هذا وقد جاء فى «كتاب الموتى»^(١) كثيراً من هذه الاعترافات السلبية، ومنها الدعاوى الجنائية التى جاءت فى الوثائق المصرية، مثل «بردية تورين» التى تحدثت عن مؤامرة الحرير ضد الملك «رعمسيس الثالث» (١١٨٢-١١٥١ ق.م)^(٢).

ومنها روايات المؤرخين والكتاب الإغريق والرومان من أمثال «ديودور الصقلي»، و«هيرودوت» (٤٨٤-٤٣٠ ق.م)، و«مانيتو» (٣٢٣-٢٤٥ ق.م) - المؤرخ المصرى، وقد وصف مانيتو الملك «بوخوريس» - ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠-٧١٥ ق.م) - بأنه كان مشرعاً عظيماً، وذهب «ديودور» إلى أنه من بين الستة المشرعين الكبار فى مصر، وأن له مجموعة من الشرائع والإصلاحات الاجتماعية والقضائية التى وجدت آثارها فى الوثائق الديموطيقية^(٣)، ونسب «هيرودوت» إلى «أحمس الثانى» (أماريس)

(١) كتاب الموتى: أو كتب الموتى، وكانت تحوى نصوصاً جنازية تحفظ مع الميت فى تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الأطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الديموطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات الخروج نهاراً»، مما يشير إلى أن الهدف منها إنما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر إلى ضوء الشمس، وتمكينه من الحركة بعد الموت، فضلاً عن توفير السعادة له فى العالم الآخر، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع إلى عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البطلمى لم تكن متكاملة فى عدد موضوعاتها، وإنما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الآخر، إلا أن جميع الموضوعات، كما وردت فى أكثر من كتاب إنما تتكون من ١٤٠ فصلاً، ورد الكثير منها مكتوباً فى متون الأهرام وفى متون التوابيت.

وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل إنه لم يحو نصائح معينة للميت، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحدة فكرية، ولعل أهمها الفصل (١٢٥) والذى يؤكد فيه الميت عدم اقترافه لأية معصية، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاورة (الأوشبتي) ويطلب من كل تماثيل أن يهب فى اليوم المحدد له، لكي ينوب عن صاحبه فى أعمال الزراعة فى عالم الموتى، أما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى، هذا ويمتاز كتاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتوليتها بألوان زاهية، فمثلاً كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الأرباب قد تردت من قبل فى متون الأهرام ومتون التوابيت، ولكنها أصبحت أوضح فى كتاب الموتى، حيث عبر عنها المصرى القديم باللفظ والصورة، وبالصورة المعنوية والمادية.

(2) A.D. Buck, JEA, 23, 1973, p. 152; H. Goedicke, JEA, 49, p. 154-163.

(٣) محمد يوسى مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٥٨٣، وكذا:

(٥٧٠-٥٢٦ ق.م) أنه سن قانونا يقضى على كل مصرى بأن يتقدم سنويا اذناكم مقاطعته ببيان عن مصادر دخله، وأن يثبت له حلالها من حرامها، وأن سن يهمل ذلك أو يعجز عن إثبات موارد رزقه حق عليه الإعدام، ثم أضاف أن المشرع الإغريقى «سولون» (حوالى ٦٣٥-٥٥٩ ق.م) قد اقتبس هذا القانون المصرى وطبقه فى أثينا، وقد يكون غرض أحسن من قانونه هذا، فرض ضريبة على الكسب أو الحد من البطالة والتواكل بين الشعب^(١).

ولعل من المثير للإشارة هنا أن هيرودوت وديودور، كما رأينا آنفا، إنما يذكران أن أشهر المشرعين الإغريق «سولون» إنما قد جاء إلى مصر (حوالى عام ٥٩٥ ق.م)، ولما عاد إلى بلاده، وقام بوضع التشريع المنسوب إليه (قانون سولون) فى عام ٥٩٤ ق.م، ضمنه الكثير من القواعد التى اقتبسها من «مجموعة بونخوريوس القانونية»، والتى كانت تمثل القانون المصرى وقت ذاك، هذا فضلا عن أن الرومان عندما سمعوا عن القانون المصرى، مما رأوه وشاد به المؤرخ هيرودوت فى الاحتفالات الأوليمبية، قاموا باقتباس الكثير من نصوصه وقواعده وضمونها أول قانون مدون لهم فى عام ٤٥١ ق.م (قانون الألواح الاثنى عشر)، ومن وقتها، والرومان يوصون بالأخذ بمبادئ القانون المصرى، مع صبغها بالصبغة الرومانية، ناهيك أن واضعى قانون الألواح الاثنى عشر، إنما قد ذهبوا إلى بلاد اليونان واطلعوا على قانون «سولون» الذى نهل من القانون المصرى، وضمنوا الكثير من قواعد قانونهم الذى وضعوه فور عودتهم إلى روما^(٢).

A.H. Gardiner, op.cit., p. 340; J. Yoyotte, in Melanges Maspero, Fasc. 4, p. 120-159, ASAE, 54, p. 153-177.

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ١٦٤٦ هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٣٠٩-٣١٠؛ عبد الرحيم صدقى، القانون الجنائى عند الفراعنة، القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٤-٢٥، وكذا: J.Dagaller, Les institution Judiciaires de L'Egypte ancienne, Paris, 1914, p. 174-175.

(٢) محمود السقاء، معالم تاريخ القانون المصرى من العصر الفرعونى حتى نهاية العصر الرومانى، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٦-٢٧، وانظر: E. Revillont, es Origines Egyptiennes du droit Civil Roman, Paris, 1912, p. 21F.; J. Gaudement, Institutions de L'antiquite, Paris, 1967, p. 384.

(٢) الهيئات القضائية:

تعرض بعض الباحثين إلى علاقة السلطة القضائية بغيرها من السلطات في مصر الفرعونية، فذهب فريق - منهم دى بو، وبرسييه، ومونتسكييه - إلى أن مصدر قدا أخذت بمبدأ «الفصل بين السلطات»، على أن فريقاً آخر - ومنهم تونيسين - ذهب إلى أن مصر لم تعرف مبدأ «الفصل بين السلطات» فى تلك الأزمنة الممعة فى القدم، بينما ذهب فريق ثالث - على رأسه رينيه رولان - إلى أن نظام «الفصل بين السلطات» على صعيد المسادئ النظرية لم يعرف فى هذه الفترة التاريخية، وإن كان من المحتمل أنه كان مطبقاً على الصعيد العملى، بمعنى أن السلطة القضائية كانت نظرياً فى يد الملك، ولكنها عملياً إنما كانت تفوض من جانبه إلى أشخاص آخرين، فما عدا التخلات الهامة (١).

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن القضاء كان فى مصر منظماً تنظيمًا جيداً، ورغم أن البعض قد تردد فى إمكانية وجود قانون مكتوب منذ تلك العصور المبكرة لعدم العثور عليه حتى الآن، فإن البعض إنما يعتقدون أن التشريعات بوجه عام لم تكن مدونة على أساس أنها كانت محفوظة فى أذهان القضاة، أى حكراً عليهم، وأن هذا الأمر ظل رديحاً طويلاً من الزمن فى عصر الفراعين القدامى، وعلى أى حال، فمن المعروف أن هناك ما يدل على أن الفراعين إنما كانوا يتحرون العدالة، بل إن العدالة إنما كان لها من القوة، بحيث لا تنافسها قوة أخرى، ومن ثم فقد جسدها القوم فى شكل إلهة أسموها «معات» أو «ماعت» بمعنى العدل أو الصدق أو الحق، وكانوا يمثلونها فى هيئة امرأة جالسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالاً صغيراً لهذه الآلهة يرمز إلى وظيفته، ومن ثم فقد حظيت «معات» بتقدير كبير من القوم، وبخاصة فى أوساط المثقفين، ولا غرابة فى ذلك، فالحقيقة هى باستمرار أهم دعامة الكمال الخلقى فى عام تسوده الفضيلة، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى، وإنى أشرب من نذاها».

(١) عبد الرحيم صدقي، المرجع السابق، ص ٦٦-٦٨، وكذا:

J. Thonissen, Etudes sur L'Organisation; Judiciaire les Lois Penales et la Procedure Criminelle de L'ancienne Egypte, 1868.

و كانت «معات» - بمعنى الحق أو العدل أو الصدق أو الاستقامة .. إنما هي القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار، نزلت منذ خلق العالم كالصنعة المنظمة للظواهر التي تم خلقها، وكان من الضروري أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر، أى ملك موله، ففى المناظر المسطرة على جدران المعابد، نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم للآلهة الآخرين، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الإلهية بالنيابة عنهم، كأنما هناك شيء لا يتغير، أبدي عالمي، يحيط بماعت (١).

هذا ويحتوى بعض نصوص الأهرام (٢) على أدلة قاطعة لا تقبل الشك، على أن طلبات العدالة والحق إنما كانت قوتها أقوى من سلطان الملك نفسه، وكان الفراعين يخشون التصدى لإلغاء أى قرار قضائي، بل إنه من الثابت - كما يقول بلوتارك - أن فراعنة مصر إنما كانوا يطلبون من القضاة أن يقسموا أمامهم بألا يطيعونهم، إذا ما طلب الملوك منهم الإجحاف أو الظلم بأحد من المتقاضين، ومن الصفحات المشرقة من هذا العهد، والتي أبهرت رجال تاريخ القانون والمؤرخين، سواء بسواء، إن فرعون إنما كان يلح فى أداء القاضى لهذا اليمين عند توليه مهام منصبه، ومن ثم فلم يكن الملك يتدخل بالتوجيه أو الفصل الشخصى فى أى نزاع مهما كان يسيراً، حتى لا توجد أية شبهة حول تدخله فى توجيه العدالة تجاه الظلم أو الإجحاف بحقوق الغير، وعلى هذا الأساس فلم يكن فرعون بمستطيع أن يعاقب - كما يحلوه له، فهو ملزم باحترام واتباع القوانين المقررة لكل حالة، صحيح أنه كان يتدخل أحياناً لصالح المعذبين، كما ظهر فى أشعار بنتاؤر التى تمجد رعمسيس الثانى، فضلاً عن بعض الدعاوى العمالية، ولكنه صحيح كذلك أن تدخله هذا لا يجعل منه قاضياً مثل القاضى العادى، فهو لا يرأس محكمة، ولا يعد اللجوء إليه درجة من درجات التقاضى (٣).

(١) محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، ص ٢٢٧-٢٢٨، وكذا: De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, p. 206F; J.A. Wilson, op.cit., p. 48; V. Lons, Egyptian Mythology, 1968, p. 115-116.

(٢) انظر عن نصوص الأهرام: J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939; J.H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912.

(٣) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٧٤، وكذا: J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 127; J. Dagallier, op.cit., p. 136.

ويذهب ديودور الصنقلى إلى أن ملوك مصر لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى، يعملون ما يشاءون تبعاً لأهوائهم، غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت القوانين للفراعين حدود تصرفاتهم فى حياتهم الخاصة والعامة، سواء بسواء، وكانت ساعات الليل والنهار مرتبة بحيث يعمل الملك فى الوقت المحدد ما يفرضه القانون عليه، وهكذا كان الملوك يلتزمون جادة الصواب والعدالة إزاء رعاياهم، ومن ثم فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيراً عما يكتونه لأهلهم من حب، حتى أن الكهنة وسكان مصر ما كانوا يولون نساءهم وأولادهم ومقتنياتهم الثمنية، ما كانوا يولونه من الاهتمام بسلامة فرعون، ومن ثم فقد احتفظوا ردحاً طويلاً من الزمان بالنظام السياسى الذى وضعه الملوك الأوائل^(١).

هذا وقد بلغ من احترام المصريين للقضاء وحبهم له، وإيمانهم بعدالة أن الوزير الذى كان - بحكم مركزه - الرئيس الأعلى للقضاء، وكان يتلقب منذ عصر الأسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠-٢٤٨٠ ق.م) بلقب قضائى يجعله «كبير خمسة دار تحوتى»، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم إلى المعبود تحوت (تحوتى) رب العدالة والحساب والكتابة، ثم تلقب خلال عصر الأسرة الخامسة (٢٤٨٠-٢٣٤٠ ق.م) بلقب «خادم العدالة»، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ربة العدالة^(٢).

وكان الوزير يضع فى صدر ألقابه الكثيرة لقب «الوزير كبير القضاة» أو «كبير الرؤساء القضائيين»، كما كان يرأس «محكمة الستة العليا»، وهى محاكم ذات صبغة معينة، ربما كانت كمحاكم الاستئناف الآن، وربما كانت هذه المحكمة تنقسم إلى ست دوائر، يرأس كل منها «قاضى قم نخن»^(٣).

(١) ديودور الصنقلى فى مصر، ترجمة وهيب كامل، القاهرة، ١٩٤٧، فقرات ٧٠، ٧١، ٧٨.

(٢) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٧٣، وهكذا:

A.F. Mariette, Mastabas, p. 228, 407-409; A. Weil, Die Veziere des Pharaonemreiches, 1908, p. 10-12.

(3) J.H. Breasted, op.cit., p. 127, 209-210; R.O. Faulkner, JEA, 41, 1955, p. 18-20.

وسرعان ما اكتملت للقضاء تنظيماته، ففضلا عن لقب القاضى «زاب» أو «ساب»، وجد أيضاً لقب «الكاتب القضائى» (زاب مش) أو (مش ساب)، وكاتب الشكاوى «مش سبرو»، وذلك مما يعنى الحرص على تسجيل القضايا، فضلاً عن تقديم الشكايات مكتوبة، هذا فضلاً عن وظيفة «مدير الإدارة القضائية» (زاب إيمى سشو)، وقد كان هؤلاء الموظفون القضائيون هم الذين يعرفون القوانين وطريقة تطبيقها وطريقة متابعة القضايا فى المحاكم أو أمام القضاة، ويستطيعون متابعتها وتنفيذ الأحكام، ثم تسجيل كل هذا، ومن هؤلاء الكتبة القضائيين كانت تتكون الإدارات القضائية التى تنظم هذه الناحية وظروفها وملاساتها، هذا ولما كان تنفيذ الأحكام القضائية يحتاج إلى بعض رجال الشريعة الذين يمكنهم استعمال القوة فى هذا الأمر، فإن من بين اختصاصات المشرفين على الإدارات القضائية، كان أيضاً الإشراف على بعض تنظيمات الشرطة حتى يضمن تنسيق التعاون بين إصدار الأحكام وتنفيذها، وذلك مما يتضح من دراسة ألقاب بعض الموظفين فى عصر الدولة القديمة^(١).

وكان فى عاصمة الدولة إدارة رئيسية للعدالة (حت ورت)، وتشمل على قلم قضايا للفصل فى قضايا العقارات والضرائب، وتشرف على المحاكم الفرعية فى الأقاليم، وأما محكمة الإقليم أو المحافظة فكانت تتكون من مجموعة من الأشراف يجلسون للحكم كقضاة فى المسائل المتصلة بالعقارات والأراضى، وترتكز الإجراءات القضائية على أساس مكتوب يحوى وثائق لها أصل فى السجلات، ولكن كان يمكن تجنب اللجوء إلى هذه المحكمة، إن نص فى العقد إبان كتابته على ذلك، على أن يفصل فى الخصومات عن طريق لجنة تحكيم من الكهنة الذين يمثلون الوقف، ويصبح حكمهم نهائياً بمجرد صدوره.

وكان حاكم المقاطعة يحمل لقب «مدورخيت» أى قاضى المدنيين، ومنذ الأسرة الخامسة أصبح يحمل هذا اللقب كذلك رجال محكمة الستة العليا، وانذين كانوا يباشرون عملهم تحت إشراف الوزير، الذى كان يحمل لقب «مدير محكمة الستة» أو «مدير كل المحاكمات»، وكان أعضاء هذه

(١) عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، القاهرة ١٩٦٢م، ص ١١٦.

المحكمة يختارون من بين أعضاء «مجلس عشرة الصعيد العظام»، وقد يحمل بعضهم ألقاباً أخرى مثل «رؤساء الأسرار» أو «رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة الستة»، وأهمهم جميعاً «القاضى فم نخن».

هذا وقد كان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارين يسمون «خري سثاء» أى القائمون على الأسرار، وهم من طبقتين: مستشارو التحقيق (من أعضاء مجلس عشرة الصعيد العظام)، ومستشارو الجلسات (من أعضاء مجلس العشرة - أو من القضاة رؤساء الكتاب)، كما كان هناك قضاة تحقيق، وكذا قضاة تحضير الأحكام التى ينطق بها رئيس الجلسة أو القضاة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن مصر قد عرفت أنواعاً مختلفة من القضاء - غير القضاء العادى - وهى:

١ - القضاء العسكرى. ٢ - القضاء التجارى. ٣ - القضاء الأسرى.

وأما القضاء العسكرى، فقد عرف فى الدولة الحديثة - على أيام الإمبراطورية المصرية - وأما القضاء التجارى، فقد عرف فى العصر المتأخر، وكلا العصرين يخرجان عن زمن البحث - الثورة الاجتماعية الأولى - والتى يمكن أن نحدد لها تاريخاً تقريبياً (الفترة من حوالى ٢٢٨٠-٢٠٥٢ ق.م) - أى منذ أخريات أيام الأسرة السادسة، وحتى قيام الدولة الوسطى.

وأما القضاء الأسرى، فلقد عرفت مصر القضاء المتخصص فى منازعات الأسرة، فضلاً عن الجرائم المرتكبة فى الوسط العائلى، وكانت أحكام هذا القضاء تسرى على كل أفراد الأسرة، فضلاً عن العبيد والعاملين فى خدمة الأسرة، وأما سرقات الخدم والعبيد فكان يقضى فيها رب الأسرة^(٢).

ومن قضايا الأسرة «قضية الملكة إيمتس» - زوج الملك «ببى الأول» من الأسرة السادسة - وقد اتهمت الملكة إيمتس بالاشتراك فى مؤامرة،^١ نعرفها - على وجه اليقين - فقد تكون ضد العرش، أو ضد صاحب العرش، وقد تكون غير ذلك. وفى هذه القضية لا يحكم الملك على الملكة بما يريد،

(١) نجيب ميخائيل، الحضارة المصرية القديمة، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

وإنما يعهد بذلك إلى هيئة قضائية، تكونت من صفيه «ونى»، ومعه القاضى «حارس نخن»، بغية أن يعرفوا وجه الحق فى هذه القضية، فضلاً عن أن يتحققوا إن كانت الملكة مذنبة، أم هى براء مما نسب إليها.

وفى الواقع فإن هذه القضية إنما تعكس إلى حد كبير روح العدالة عند الفراعين، فإن موضوع القضية لا بد وأن يكون أمراً خطيراً، وإلا لما تكونت هذه المحكمة من «ونى» و«حارس نخن»، إذ لو كانت أمراً سهلاً لما استدعت كل تلك الإجراءات، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت التهمة الموجهة ضد الملكة أحد الفرضين السابقين - ضد العرش أو ضد صاحب العرش - فلنا أن نتصور مدى حرص الفرعون على أن لا يدين المتهم، قبل أن يعقد لها محكمة تحقق فيما نسب إليها، وتعطى الفرصة لتثبت براءها، إن كانت بريئة، وتنال العقاب، إن كانت مذنبة، وإن كنا لا نعرف نتيجة المحاكمة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القضاء المصرى - فى العصور الفرعونية - إنما كان جداً حريصاً على تسجيل القضايا، فضلاً عن تقديم الشكاوى مكتوبة، ويبدو أن المتبع فى محاكم تلك العصور أن تقدم إليها الدعاوى مكتوبة باختصار، وقد امتدح «ديودور الصقلى»^(٢) هذا النظام كثيراً ولعل السبب فى تقديم الدعاوى مكتوبة، أن المرافعة الشفوية، فيما يرى البعض، إنما كانت، فى نظر القوم، أسلوب خداع، يقوم على حسن العرض والمهارة التى قد تبعد ذهن القاضى عن حقيقة الأمور، وكانت المذكرة المكتوبة تمر على القضاة (إذا كانت المحكمة مشكلة من أكثر من قاض)، للمداولة قبل صدور الحكم^(٣).

وهناك فى متحف برلين بردية قديمة تحوى حكماً صادراً من قاض لمدع كان يطالب بحقه فى ميراث، وتعتبر هذه البردية أقدم بردية من نوعها، ودلتنا الآثار على قضايا خاصة كان الحكم فيها الوزير نفسه، وأحد القضاة المنتميين إلى مدينة «نخن» (البصيلية).

(١) محمد يومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، ص ٥٢-٥٣، وكذا:

H. Goedick, JAOS, 1954, p. 88-89; J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 294-307F.

(2) Diodorus, I, 75-76.

(٣) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٥٩.

وهكذا يبدو واضحاً أن إدارة العدل في مصر كانت منظمة تنظيمياً حسناً، وكانت تقوم بدورها في نشر العدل في الدولة، وكان للقضاة - كما أشرنا من قبل - رتبة حامية هي «ماعت»، رتبة الحق والعدل والصدق، وكان جميع القضاة من ذوى المناصب الرفيعة يخدمونها ككهنة، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيراً لهذه المعبودة يرمز إلى وظيفته^(١)، وخلاصة القول أن العدالة إنما كانت مطلب فرعون ورجال حكومته المركزية والمحلية، وأنه كان يعمل جاهداً على نشرها بين رعاياه.

وفي عهد الدولة الوسطى - كما في عهد الدولة القديمة - كان يشرف على تطبيق العدالة رجال الإدارة (حكام الأقاليم) والذين كانوا يحملون لقب «القاضى»، وحاكم الإقليم (زاب عديج مر)، وقد كتب أحد موظفى المالية الكبار مفتخراً: «كنت أعرف القانون جيداً، وأطبقه بكل حزم وحرص»، وقد سجل رجلان من كبار القوم في عهد «سنوسرت الأول» (١٩٧١-١٩٢٨ ق.م) من الأسرة الثانية عشرة، فى ترجمة حياتهما أنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتيهما بالعدل، وبدون أية محاباة، وأنهما لم يفكرا أبداً فى أخذ مكافأة (ربما المراد رشوة) من أحد^(٢).

وكانت هناك ست محاكم كبيرة تدعى «البيوت الكبيرة»، وتعقد جلساتها تحت إشراف الوزير، وهناك كذلك محكمة مكونة من ثلاثين قاضياً تعرف باسم «بيت الثلاثين»، وتعقد برئاسة الوزير كذلك، وإن كنا لا نزال نجهل علاقتها بـ «البيوت الكبيرة»، وتدلنا الآثار على وجود أكثر من محكمة فى الصعيد تتكون كل منها من عشرة قضاة، وتعرف باسم «قضاة الصعيد العشرة» يعينون بأمر ملكى للفصل فى قضايا الإحصاء والضرائب، وإن كنا كذلك نجهل علاقتها بالقضاء الإدارى.

هذا وكان المصريون القدامى يحسون - بفطنتهم وذكائهم - أن العدالة أساس ازدهار المجتمع، وأن عدم سلامة جهاز القضاء أو انحرافه يهدد أمن،

(1) M.A. Murray, op.cit., pl. 28

(2) F.L. Griffith Proceedings of The Society of The Billical Archaeology, XVIII, 1896, p. 195F, plate II, 15-16.

انظر: جيمس هنرى برمتد، فجر القصور، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧٣.

المجتمع، خاصة إذا تفشت فيه الرشوة، ذلك لأن العيب بميزان العدالة إنما يؤدي إلى إدانة البريء، وتبرئة المذنب، ومن ثم فالثابت أن لقب «قاض» ما كان يعطى إلا لمن ينتمى إلى أسرة كبيرة عريقة، على شريطة أن يكون على معرفة جيدة بالقانون، وأن تكون له خبرة عملية بالوظائف القضائية، وهذا يعنى أن تدخل السلطة الحاكمة فى مصر فى اختيار القضاة إنما كان جداً محدوداً، كما كان مقصوراً على اختيار القضاة من أكفأ العناصر، وأكثرها هيبة، إذا تساوت الكفاءات والمكانة الاجتماعية، هذا فضلاً عن أن طريقة الانتخاب - كأسلوب لتعيين القضاة فى مصر - لم تكن معروفة لدى القوم. إن لم تكن مرفوضة من أساسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت العدالة فى مصر الفرعونية حقاً ثابتاً على الدولة أن توفره للناس ودونما أية التزامات مادية من جانبهم، فهو واجب الدولة نحو المواطنين، إن لم يكن أهم واجباتها، ولهذا فقد كان القضاة يأخذون أجورهم من الدولة، بل إنه من الثابت تاريخياً أن رئيس المحكمة إنما كان يتقاضى مرتباً ضخماً ضماناً لنزاهته، الأمر الذى يدل على رغبة الدولة فى وضع الحوافز المادية للقضاة كنوع من التقدير الأدبى لعملهم الهام والخطير كذلك، فضلاً عن تحقيق العدالة، وجعلها فى متناول المواطنين جميعاً^(١).

هذا ومن المؤكد أن قانون تلك العصور الغابرة إنما كان فى غاية الإحكام والوضوح، وإن كنا لم نعثر على نسخة كاملة منه حتى الآن، وما ثبت شعوانا هذه، ذلك العقد الذى أبرمه أمير أسيوط بين ذاته باعتباره حاكماً للإقليم، وبين ذاته باعتباره الرئيس الدينى الأكبر لمعبد مدينته، ولاشك أن كل هذه الدقة تثبت منتهى الحرص والحذر فى تنفيذ القانون، وصيانة الحقوق المعهود بها إلى هذا الشخص.

بقيت الإشارة إلى أن القانون المصرى القديم، إنما قد استمد وجوده من أرض مصرية خالصة، فجاء قانوناً متجاوباً تماماً مع المجتمع الذى نبت فيه بذوره، وأينعت على أرضه ثماره، وإذا ما أردنا أن نتعرف كينونة هذا

(١) عبد الرحيم صدقى، المرجع السابق، ص ٥٦-٥٧.

القانون رأينا في مجمله، قانونًا متطورًا، سبق في مفهومه كثيرًا من القوانين التي عاصرتة في المجتمعات القديمة، ولم يقف هذا القانون في أية مرحلة من مراحل تطوره عند حد الجمود، بل أخذ من المجتمع وأعطاء، وهذا يمثل قمة المفهوم الناطق بالنسبة للقوانين المتطورة.

هذا ورغم أن المصريين إنما كانوا أكثر الشعوب القديمة تمسكًا بأهداف الدين، غير أن القانون الفرعوني لم يصطبغ البتة بالصبغة الدينية، وإن كان الباحث يحس عند تحليل قواعده أنه قانون أسس على الفضيلة الدينية، فلقد كانت الأخلاق هي الطابع الغالب للقانون الفرعوني، وكانت العدالة سمة من سماته، وهدف من أهدافه، ومن ثم فإن القانون الفرعوني إنما يعتبر بحق أعظم ترجمة لمفهوم القانون الحقيقي بأنه «فن الخير والعدل»، فهو قانون قائم على اللازمة الأخلاقية، فيه روح العدالة، وفيه التعايش الكامل مع أحداث المجتمع المصري القديم الذي عاشه عبر قرونه التي كونت عمره التاريخي (٣٢٠٠-٣٣٢ ق.م)^(١).

وقد ظل هذا القانون الفرعوني يطبق على المصريين في أيام البطالمة (٣٣٢-٣١ ق.م)، بل إن هناك من يذهب إلى أن البطالمة أنفسهم قد تولوا تقنين القانون المصري في حالته التي استقر عليها بعد عهد الملك «بوخوريوس» من الأسرة الرابعة والعشرين، وأطلق عليه «القانون الوطني المصري» Khoras Nomos، وحدث نفس الأمر في ظل حكم الرومان، حيث قنن القانون المصري تحت اسم Aegyption Nomos^(٢).

ويذهب الدكتور السقا إلى أن القانون الروماني في مسيرته الأولى، وإبان مرحلة فطامه وتكوين قواعده، إنما قد عرف القانون المصري وأخذ عنه، بل وأوصى فقهاء الرومان باعتماد مبادئه، ثم جاءت المرحلة التالية عندما أصبحت مصر ولاية رومانية، وطبقًا لفكرة تلاقي القانون الروماني والمصري، وما تم من أثر متبادل بين القانونين، فإننا نقرر أن القانون الروماني الذي قنن

(١) محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٨-١٩؛ بيير مونتييه، الحياة اليومية في مصر في عصر الرعامة، ص ٦٢ (مترجم)؛ وكذا:

J. Pirenne, La religion et la Morale dans L'Egypte dantique, Paris, 1965, p. 39F.

(٢) محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٩.

فى عهد «جستيان» (٥٢٧-٥٦٥م) تأثر بكثير من أحكام القانون المصرى . ثم ينتهى الدكتور السقا إلى أن مجموعات جستيان إنما تعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر القانون الفرنسى الذى نقل عنه المشرع المصرى خلال القرن التاسع عشر الميلادى، مبادئه وقواعده القانونية، إبان تلك الفترة التى بنى فيها الحكماء المصريون تلك القنطرة التى وصلت ما بين مصر والحضارة الغربية، وفرنسا بصفة خاصة، ومن ثم فلا مناص من أن نقرر الآن بوجود ذلك الخيط الممتد من القانون المصرى الفرعونى عابراً الزمن مؤثراً ومتأثراً بالقانون الرومانى الذى قدم الأساس القانونى للقانون الفرنسى، الذى أمد بدوره القانون المصرى الحديث بمبادئه وقواعده القانونية، وهكذا التقت روافد القانون المصرى الفرعونى فى مصب واحد فى العصر الرومانى مع القانون الرومانى؛ ومن هذا المصب الجديد كان المجرى طبيعياً مع تيار القانون الفرنسى، ليصب مباشرة مواداً فى التشريع المصرى الحديث^(١).

وهكذا نظم القانون أمور القضاء فى مصر الفرعونية، وأصبح العدل مكفولاً تحت إشراف الوزير، وقد جرت العادة عند تنصيب الوزير أن يتعهدده الملك بالتعليمات والتوجيهات، وكلها تحذير من التحيز والمحاباة، إلى جانب التزام العدل والنزاهة والرحمة والإنسانية.

ولنقدم مثالا على ذلك، وإن كانت من عصر الدولة الحديثة، فلقد جاء فى خطاب وجهه الملك «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) إلى وزيره «رخمى رع» - عندما قلده منصب الوزير - يقول الملك الفرعون:

«يا أبى الرب التحيز، وهذه تعاليم يجب اتباعها... تطلع إلى منصب الوزارة هذا، وكن يقظاً لكل ما يحدث فيه، فهو عماد الأرض كلها، إنه ليس بالمنصب الهين، وإن كان مر المذاق، إنه لا يعنى احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد الشعب، فإذا قصدك شك من الصعيدي أو الدلتا، أو من أية بقعة فى الأرض، فعليك أن تتأكد أن كل شيء يجرى وفقاً للقانون والعرف، وأن يعطى كل ذى حق حقه».

«احترس من الذى يقال عن الوزير «خيتى»، فإنه كان يحكى عنه أنه

(١) محمود السقا، المرجع السابق، ص ٢٧.

جار في حكمه على بعض ذوى قرياه، منحازاً إلى غرباء، حتى لا يقال عنه أنه حايى ذوى قرياه خيانة منه، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذى أصدره «نخيتى» ضدهم، أصر على إجحافه لهم، إن ذلك أكثر من عدالة، إنه ظلم، فلا تنسى أن تحكمم بالعدل، لأن التحيز يعد طغياناً على الإله.

«تذكر أن من يلى منصباً كبيراً يردد الهواء والماء كل ما يفعله، ولا يمكن أن تستمر تصرفاته خافية، تصرف بالعدل، فالحباية بمقتها الرب، لا تتوان أبداً فى إقامة العدل، كن عادلاً مع من تعرفه ومن لا تعرفه، وعامل المقرب من الملك كالبعيد عنه، لا تشح بوجهك عن صاحب شكوى، ولا تؤانن سريعاً على قول من يحادثك، ولا تفضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه تكن مهيباً يهابك الناس، والنبيل من يجله الناس، وتأتى مهابته عندما يحق الحق، ويزهق الباطل، ولكنه إذا أخاف الناس، وأسرف فى ترويعهم كانت له نقيصة، تنزل به عن مصاف الكبار من الرجال، وسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق، فالناس يتوقعون العدل من كل تصرفات الوزير، وتلك سنة القضاء منذ أن حكم الإله الأرض، لا تتوان أبداً فى إقامة العدل، كن عفيفاً مع المتكبر، فالملك يفضل من يستحى على من يتكبر»^(١).

وهكذا نجد أن سياسة الدولة - على أعلى مستوى فيها - إنما يجب أن تسير على مبدأ الحق والعدالة الاجتماعية، فالوزارة - أسمى المناصب وأرفعها شأنًا - ليس الغرض منها تفضيل الأمراء والمستشارين على العامة من القوم، إنها ليست لاستبعاد الناس، وإنما هى وسيلة لتنفيذ العدالة والقانون على الناس جميعاً، دونما تفرقة بين قريب وبعيد، فليس من العدل أن يظلم من لا تربطهم صلات قرى بولى الأمر، كما ليس من العدل كذلك أن يظلم الأقربون، وإنما العدل أن يعطى كل ذى حق حقه، كما يجب أن يكبح ولى الأمر غضبه حتى يستطيع أن يحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم،

(١) انظر: محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٧٣-٧٥؛ عبد العزيز صالحي، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٢، وكذا:

J.H. Breasted, ARE, II, p. 266-281; J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 209-210; R.D. Faulkner, The Installation of The Vizier, JEA, 41, 1955, p. 18-29; A.H. Gradiner, op.cit., p. 196; Urk, IV, 1090F.

وهكذا نجد أن هذه الوثيقة الرسمية تضغط بشدة وبإلحاح منقطع النظير على تطبيق العدالة بين الناس جميعاً، هذا فضلاً عن أن خطاب الفرعون إنما هو بمثابة تكليف رسمي من رئيس الدولة إلى أكبر موظفيها يحوى المبادئ الأساسية للعدالة وتكافؤ الفرص وتطبيق القانون على المواطنين جميعاً.

وهكذا تتصدر مصر مكاناً ممتازاً فى هذا المجال، فعندما نفحص «قانون حمورابى» نجد أن إجراءات العدالة تشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية أنه عن نفس الجرم تختلف العقوبة والأضرار طبقاً للطبقة الاجتماعية التى يتعمى إليها الفرد الذى وقع منه الجرم، ذلك أن «قانون حمورابى» إنما قد سنّ: أن كل العقوبات والأحكام القضائية تدرج بحسب مراكز المذنبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية وهذه الحقيقة تفسر لنا ما دفع بعض كبار المؤرخين إلى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى فى غربى آسيا قليل جداً^(١).

ولو رجعنا إلى قانون الملك حمورابى^(٢) (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م) لوجدنا مواداً كثيرة منه لا تعترف بالمساواة بين الناس، وإنما تعاملهم على حسب طبقاتهم، فمثلاً المادة (١٩٦) تنص على أن من يتسبب فى إتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تعلق عينه، بينما تنص المادة (١٩٨) على أن من يفقد رجلاً من العامة عينه يدفع مينا من الفضة، وتنص المادة (١٩٩) أن من يفقد رجلاً عينه أو إحدى عظامه يدفع نصف القيمة.

وتنص المادة (٢٠٠) على أن من يسقط سن رجل من طبقتة تكسر سنه، بينما تنص المادة (٢٠١) على أن من يسقط سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة.

وتنص المادة (٢٠٢) على أن من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبة يجلد

(١) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag, 101-412, p. 79-235.

(٢) انظر عن قانون حمورابى: نجيب ميخائيل، حضارة العراق القديمة، ص ٥٣-٨١، عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٤٦١-٤٦٩.

T.J. Meek, The Code of Hammurabi, in ANET, 1966, p. 163-177; A. Deimel, Codex Hammurabi, 1930; W. Eilers, AO, 31, 1931; R.F. Harper, The Code of Hammurabi, 1904; G.R. Driver and J.C. Miles, The Babylonian Laws, I, Legal Commentary, 1952; J. Nougayrol, RA, XLV, 1951, p. 67-79.

ستين جلدة بسوط من جلد الثور علناً، بينما تنص المادة (٢٠٣) على أنه إذا لطم نبيل خد نبيل آخر من نفس المرتبة يدفع مينا من الفضة، بينما تنص المادة (٢٠٤) على أنه إذا لطم رجل من العامة خد آخر يدفع ١٠ شوقل من الفضة، بينما تنص المادة (٢٠٥) على أنه إذا لطم عبد خد نبيل تصلم أذنه.

وهكذا بينما يعترف القانون العراقي بأن الناس غير متساويين في أقدارهم أمام القانون، وأن العقوبة إنما تختلف طبقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها الذي وقع منه الجرم، فضلاً عن الذي وقع عليه، نرى مصر الفرعونية تعلن في وثائق الدولة الرسمية، وفي توجيهات الفراعين لوزرائهم عندما يتسلمون مهام مناصبهم، إلغاء مثل هذه الفوارق الاجتماعية، وأن الناس - كل الناس، رجال ونساء - أمام القانون سواء، لا فرق بين فقير وغنى، وبين كبير وصغير^(١).

ولعل الفيلسوف اليوناني «أفلاطون» (حوالي ٤٢٧-٣٤٧ ق.م) عندما قال في مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ربما لم يعلم إلا قليلاً، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت - قبل مقالته - هذا المثل الأعلى، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة، أو أن هذا دليلاً آخر على أن «أفلاطون» كان في مصر، وأن ذلك رأى استحوز عليه هناك في أرض الكنانة^(٢).

(١) محمد يومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٦٨-١٧١.

(٢) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٣٨.

الفصل الثانى أسباب الثورة الاجتماعية الأولى

تقديم:

لا ريب فى أن الباحث فى تاريخ مصر الفراعنة، حين يصل إلى «عصر الثورة الاجتماعية الأولى»، فإن مشاكل عدة تظهر أمامه، وتحتاج إلى حل، وأن أول ما يتبادر إلى ذهنه معرفة دوافع هذه الثورة، تلك الثورة التى قام بها المصريون ضد ملينكهم، وهم يؤمنون بأنه مقدس.

على أن الثورة - فى حقيقة الأمر - لم تكن ضد الملك المؤله وحده، وإنما كانت ضد النظام نفسه، ضد الفرعون، وضد الكهانة، بل ضد الآلهة نفسها، فضلاً عن حكام الأقاليم.

وليس هناك إلى سبيل من ريب فى أن القوم لم يصلوا إلى هذا الشعور، ضد كل مقدساتهم إلا حين وصلت حالة البلاد - فى أخريات أيام الأسرة السادسة - إلى الحضيض، نتيجة عوامل شتى - اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية - وكان الوعي الشعبى وقت ذاك، قد وصل إلى درجة دفعت الدائر إلى القيام بثورتهم.

قامت الثورة الاجتماعية الأولى - فى أعقاب انهيار الدولة القديمة - ذلك الانهيار الذى حدث لأسباب كثيرة.

ولنا «جون ويلسون» أسباباً خمسة لانهيار الدولة القديمة، منها (أولاً) تشييد معابد تهدد الاقتصاد، وتشيد أهرام لكل ملك جديد، أهرام كان المفروض فى كل منها، أن يخلد على الدهر، وكانت تبنى واحد بعد آخر فى كل جيل، ومنها (ثانياً) العبء الناتج عن تخصيص هبات دائمة، ليصرف منها على مقابر الملوك والملكات والنبلاء.

ومنها (ثالثاً) ازدياد روح الاعتماد على النفس، والاستقلال بين النبلاء، وبهذا كانوا يبعدون جزءاً من الأراضى عن حظيرة الاقتصاد الطبيعى، والقاء تبعات ثقيلة على الأراضى الأخرى.

ومنها (رابعاً) مشتري الولاء من حكام الأقاليم المصرية، البعيدة عن

العاصمة «منف» (١) - التي لم تعد قوية كما كانت من قبل -، ومنها

(١) منف: كانت منف (إنب - حج) - ثالثة المدن الكبرى (نخن - ثنى - إنب - حج) في بداية عصر الأسرات - من حيث الزمن - ولكنها ظلت أوفرها مجداً، وأبقاها شهرة، وتعددت الاحتمالات حول ترجمة اسمها، فهو قد يعنى «الجدار الأبيض» أو «الحصن الأبيض» أو «السور الأبيض» أو «الأسوار البيضاء».

هذا وقد سميت «إنب - حج» «منف» من عبارة «من نفر» بمعنى «المقر الجميل»، وقد أخذ هذا الاسم (من نفر) من اسم «هرم بى الأول» والمدينة التي بناها الملك حوله، وقد كان يسميان «بى من نفر» ويوجد على حافة الصحراء في مواجهة قرية سقارة الحديثة، وإلى الغرب منها بحوالى ثلاثة كيلو مترات، حيث أسس معبد بتاح ومعابد عظيمة أخرى، ولم يوجد اسم «من نفر» قبل الأسرة الثامنة على رأى، وقبل الأسرة السادسة، على رأى آخر، ثم حرفه الإغريق إلى «ممفيس»، ثم كتبه العرب «منف».

وتقع أطلال «منف» على الشاطئ الأسر للنيل، على مبعده ثلاثة كيلو مترات، ٢٢ كيلا إلى الجنوب من القاهرة تحت ويجوار قرية «ميت رهينة» بمركز البدرشين، بمحافظة الجيزة، وقد اشتق اسم «ميت رهينة» من الكلمة المصرية التي تعنى «طريق الكباش»، وكان هذا هو الطريق الممتد بين معبد بتاح الذى كان مقاما فى المدينة إلى جبانة سقارة التى تقع إلى الغرب، وكان على جانبي الطريق تماثيل الكباش.

وقد عرفت المدينة فى العصور التاريخية بأسماء عدة، منها «نوت» أى المدينة و«نوت نجح» أى المدينة الأبدية، و«عتخ توى» أى حياة الأرضين، و«حت كا بتاح» أى معبد روح بتاح، وفى الواقع أن اسم «مدينة بتاح» لا يحتاج إلى إيضاح، ذلك لأن «بتاح» كان رب المدينة ومعبودها وحاميها إليه يهرع الشعب فى أوقات العسر والشدة، وإلى ساحته يحج الناس من أقاليم الوادى، وفى معبده يتوج الملوك، وباسمه تجرى أمور الدولة، وتدير شئونها، وشبيه هذه التسمية ما هو شائع فى الأقاليم المصرية فى أيامنا هذه.

وينسب بناء المدينة إلى الملك ميناء إذ يحدثنا «هيرودوت» أن «ميناء» كان أول ملوك الأسرات، وأنه قد بنى هذه المدينة، على أن المؤرخين إما يختلفون فى الوقت الذى أصبحت فيه «منف» عاصمة البلاد، فبينما يذهب البعض أن «ميناء» لم ينتقل إليها من صعيد الوادى بعد إنشائها مباشرة، يذهب البعض الآخر إلى أن انتقال المقر الملكى من مكان ما فى الجنوب إلى هذا المركز الممتاز من ناحية الموقع عند رأس الدلتا، يجب أن ينظر إليه كمناصفة مباشرة لإرساء دعائم المملكة المزدوجة، وقد ناقش «كورت زيت» الأعمال الهامة التى نسبها «هيرودوت» إلى «ميناء» بكثير من البراعة، وهى عبارة عن إنشاء جسم ضخيم يحوى منف» من غائلة الفيضان، وكذلك بناء معبد بتاح إلى جنوب الأسوار المحصنة، ويؤكد هذا الأمر لوحة من الأسرة التاسعة عشرة تشير إلى «بتاح منيس» هذا إلى جانب حقائق أخرى كثيرة لا يمكن إحصاؤها تربط بين مينا ومنف، وعلى أى حال، فهناك إجماع على أن عاصمة الدولة إنما قد نقلت بصفة نهائية إلى الشمال فى منف، على الأقل منذ أيام «زوسر» مؤسس الأسرة الثالثة.

وأما أهمية موقع «منف» فهو فى منتهى الأهمية، إذ قام بدوره الهام منذ أول التاريخ، وكان نقطة الارتكاز فى كل محاولة لحكم قطرى الوادى، بل إن «القاهرة» - العاصمة الحالية لمصر، إنما تقع فى حدود هذا الإقليم، كما أن الإقليم ذو تاريخ حضارى قديم، فيه قامت حضارات حلوان وطرة والمعادى، ومن هنا كانت أهمية منف فى التاريخ المصرى، ودورها الهام فى كل العصور الفرعونية أو تكاد، فقد كانت عاصمة لمصر طوال عهد الدولة القديمة، كما كانت العاصمة العسكرية لمنف على أيام الدولة الحديثة، ثم أصبحت مع «عمسيس» (قنتير) بالتناوب، المقر الملكى الرئيسى فى الشمال، خلال عهد الأسرة الستة والعشرين، هكذا ظلت لمنف

(خامساً) احتمال انقطاع الموارد التي كانت تأتي من التجارة الخارجية^(١).

هذا ويضيف بعض المؤرخين أسباباً أخرى، منها (أولاً) أن قوماً من سورية الشمالية - أو من الحدود المصرية الشرقية، إنما قد غزوا مصر، وأنهم قد حكموا على أيام الأسرتين - السابعة والثامنة - وأنهم وصلوا إلى حدود مصر العليا، حتى كتب للأسرتين - التاسعة والعاشر - أن تضعوا حداً لسلطانهم^(٢).

ومنها (ثانياً) أن هناك غزواً آخر، انتهز فرصة الضعف، فأتى من الجنوب^(٣)، هذا فضلاً عن غزو ثالث أتى من الغرب - عن طريق الفيوم - قامت به «عائلة ختي» - ملوك الأسرتين التاسعة والعاشر -^(٤).

وهناك أسباب أخرى للثورة، منها (أولاً) تخلي الفراعين - مختارين - عن جانب من نفوذهم، فضلاً عن جانب من ممتلكاتهم، ولا ريب أن هذا التخلي - عن السلطان والممتلكات - لا خطر منه، مادام هؤلاء الملوك أقوياء.

غير أن الخطر شديد، عندما يصبح الملوك ضعافاً، لأن هذا التخلي إنما يدفع حكام الأقاليم البعيدة على الأخص، إلى أن يحاولوا الاستقلال بأقاليمهم، وهم بمنأى عن العاصمة - منف - التي لم تعد تعنى بما وراءها، وهكذا تلاشت القوة المركزية، وحاول كل حاكم إقليم أن يحتفظ بإقليبه، الذي كان يعتبره «ملكته الخاصة»^(٥).

أهمية كبيرة طوال التاريخ الفرعوني ولم تبدأ في التدهور إلا بعد دخول المسيحية البلاد، وإن كان مما لا شك فيه أن قيام الإسكندرية لتكون عاصمة إنما كان عاملاً حاسماً في تدهور منف وهبوطها إلى المركز الثاني بين مدائن مصر. وعلى أي حال، فلم يبق من آثار هذه المدينة العظيمة الآن، إلا أطلال بسيطة، أما جبانة سقارة في غربها، فهي زاخرة بالمقابر والأهرامات.

(1) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 98.

وفي الترجمة العربية التي قام بها الدكتور أحمد فخري، تحت عنوان «الحضارة المصرية»، القاهرة ١٩٥٦ م، ص ١٧٨.

(2) W.M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 120.

(3) Ibid., p. 126.

(4) Ibid., p. 128.

(٥) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

ومنها (ثانياً) إرهاب الشعب، وفساد ضباط الحكام، وخمبول الفراعين، وخراب الإدارة، وقد أدى ذلك كله إلى انهيار الحكومة المركزية، وقيام الثورة الاجتماعية الأولى.

هذه هي الأسباب أو الخطوط العامة، التي يرى فيها بعض المؤرخين أسباباً لانهيار الدولة القديمة - أو بعبارة أخرى أسباباً لقيام الثورة - ولنحاول الآن مناقشتها بقليل أو كثير من التفصيل، ونجملها في أسباب: اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية، فضلاً عن الغزو الأجنبي - الآسيوي والليبي والنوبي -.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث - بادئ ذي بدء، وقبل بيان أسباب الثورة - عن زمن قيام الثورة.

هذا ويختلف المؤرخون في الوقت الذي قامت فيه الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة، فبينما يرى فريق منهم أنها إنما تقع في عهد «ببي الثاني»، يرى فريق آخر أنها إنما تقع في عهد خليفته الضعيفين، وإنى لأعتقد أن عهد «ببي الثاني» قد مهد لقيام الثورة، وأعطاه مبرراتها، ولكنها لم تقم في عهده، وإنما في عهد آخر خط الملوك الممفيين، فربما قامت في عهد «مرى إن رع» (عتى إم سا إف) وأنه قد دفع حياته ثمناً لها، وطبقاً لرواية «هيرودوت» عن الملكة «نيتو كريس»^(١) فإن «مرى إن رع» قد قتل بيد رعاياه^(٢).

وربما قامت الثورة في عهد «نيتو كريس» نفسها، وربما كان انتقامها لأخيها، حين احتالت على قتله حين حبستهم في قصرها، ثم أطلقت عليهم ماء النهر فجأة عن طريق سد سري ضخيم، ثم انتحرت بعد ذلك، حين ألقت بنفسها في أتون متأجج من النار، وقضت على نفسها بنفسها،

(١) اختلف المؤرخون في الملكة «نيتو كريس»، فاعتبرها بعضهم أم الملك «ببي الثاني»، واعتبرها آخرون زوجته وأخته، وربما عاشت بعده، واعتبرها فريق رابع امرأة انتهت إليها وراثة العرش في آخر الأسرة السادسة، وأنها انفردت بالعرش لمدة عامين، غير أن أيامها انتهت بانهيار الأسرة بعدها. (عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٠٠)، وكذا:

P.E. Newberry, Queen Nitocris of The Six Dynasty, JEA, 29, 1913, p.51-54.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، ص ٢١٣-٢١٦، وكذا:

Herodotus, II, Parag, 100.

وربما أدى ذلك إلى أن ينهز الشعب فرصة خلو العرش من شائبة واحدة لـ
لكثيرين قتلوا من المصريين، فكان ذلك سبباً مباشراً للقيام بالثورة - بتأليب
أسبابها الأخرى الأصلية، والتي منوجز الحديث عنها حالاً - ومع ذلك،
فهذه كلها افتراضات^(١)، إذ أنه من المستحيل أن نقرر في أية لحظة حدث
الاضطراب الخطير، وأما حدوثه فأمر ليس فيه شك، وهناك ما يدع إلى الظن
بأن الفوضى قد ظلت بصفة مستمرة أو متقطعة، حتى الأسرة الحادية
عشرة^(٢).

(١) الأسباب الاقتصادية:

قامت الثورة الاجتماعية الأولى لأسباب اقتصادية كثيرة: منها (أولاً)
تشديد مبان تهديد الاقتصاد القومي، وتشديد أهرام لكل ملك جديد، أهرام
كان المفروض في كل منها أن يخلد على الدهر، وكانت تبنى واحداً بعد
آخر في كل جيل، ولقد كان بناء الأهرامات وغيرها من المباني الدينية نتيجة
سطوة الدين على المصريين وأثره في حياتهم وتفكيره، فالدين - كان ولا
يزال وسيظل - أكبر قوة تؤثر في حياة الإنسان، كما أنه كان منفذاً
للخيالات، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به، ذلك التفسير الذي أوحى إليه
بفكرة الخلود، أو الحياة بعد الموت، هذه الفكرة قد اعتنقها القوم وكان لها
أكبر الأثر في نفوسهم، بل إنه - فيما يرى برستد - لا يوجد شعب قديم أو
حديث بين شعوب العالم احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة
العظيمة التي احتلتها في نفس الشعب المصري القديم^(٣).

وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عدداً هائلاً من
المقابر والأهرامات والمعابد التي لا يمكن حصرها، بينما لا نجد إلا قليلاً من
ال منازل التي كان يعيش فيها القوم، بل إن العواصم الكبرى - كمنف وطيبة
- قد اختفت ولم تكد تترك من بعدها أثراً، ولعل السبب في ذلك أن الأولى
إنما كانت تبنى بالأحجار، بينما كانت الثانية تبنى باللبن إيماناً منهم بأن
الأولى أبدية، وأن الأخرى وقتية.

(١) محمد يومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١١٨-١١٩.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 109.

(3) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, London, 1939, p. 45.

غير أن هذه العقيدة، وما نتج عنها من مبان ضخمة هائلة أرهقت الاقتصاد القومي، وألقت عباً ثقيلاً على خزائن الدولة، وإذ صدقنا رواية هيرودوت من أن بناء الهرم الأكبر استغرق عشرين عاماً، عمل فيه مائة ألف رجل، كان يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور، وأن بناء طريق مرتفع لنقل الأحجار التي استخدمت في بناء الهرم إنما استغرق عشر سنوات، وأن هذا العمل لا يقل مشقة عن بناء الهرم نفسه^(١)، إذا صدقنا ذلك، رأضفنا إليه أن سنة ملوك الدولة القديمة، إنما كانت بناء الأهرامات، حتى بلغ مجموع ما في مصر من أهرام أكثر من سبعين هرمًا نعرف أماكنها، ويصعب على أي إنسان أن يذكر تقديرًا صحيحًا لما عساه أن يكون مايزال مدفونًا منها تحت رمال الصحراء^(٢)، لظهر لنا أي عبء ألقي على خزانة الدولة، ومع ذلك فقد ظلت هذه العادة متسائلة على عقول القوم وعقائدهم، حتى أننا نرى في الأسرة السادسة - رغم ضعف ملوكها، ونقص موارد خزائنها - فقد سار ملوكها على سنة أسلافهم من الفراعين العظام في بناء أهرامات يدفنون فيها، بل إن «بيي الثاني» - والذي وصلت البلاد في عهده إلى مرحلة تنذر بالخطر - لم يكتف ببناء هرم له، وإنما بنى - إلى جانب مجموعته الهرمية^(٣) أهرامًا ثلاث لثلاثة ملكات من زوجاته وهن «نيت» و«إيوت»^(٤) و«أوجبتن»^(٥).

وهكذا اهتم الفراعين في عهد الدولة القديمة ببناء الأهرام اهتماماً كبيراً، وقد كلف ذلك خزانة الدولة ما لا تطيق، خاصة في أخريات عهد الدولة القديمة، عندما وصلت مواردها إلى حد أن أصبحت حكومتها شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها، وممارسة حقوقها، وتحمل تبعاتها، ومع ذلك لم ينس الفراعين أن يقيموا لأنفسهم أهرامًا يدفنون فيها، مما أرهق الشعب أيما

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٤٧-٢٥٥، وكذا:

G.Rawlinson, The History of Herodotus, II, London, 1928, p. 177-179.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ٦.

(3) G. Jequier, Les Monuments Funeraires de Pepi, II, 3 Vols., Cairo, 1936-1940.

(4) G. Jequier, Les Pyramides de Reines Neit et Apouit, Cairo, 1933.

(5) G. Jequier, Le Pyramide d'Nupjebtin, Cairo, 1928.

إرهاق، وجعل بؤادر السخط تتجمع ضدهم، وهكذا يمكن أن يفهموا أن
أنفق من أموال على هذه الجيوانات الضخمة إنما كان واحداً من أسباب
الثورة، وإن كان هذا لا يعنى أن العاملين فى بنائها كانوا «مكرهين»
لأراضين، فذلك أمر آخر، سبق لنا مناقشته.

وكان السبب الاقتصادى الثانى، ذلك العبء الناتج من نهضة
هبات دائمة للصرف منها إلى أبد الآبدين على العناية بمقابر الملوك
والمملكات، فضلاً عن الأمراء والنبلاء، ومن ثم فقد كان الملوك يسدون جزءاً
من الأراضى عن حظيرة الاقتصاد الطبى، وإلقاء تبعات ثقيلة على الأراضى
الأخرى^(١)، وكانت تلك الأوقاف تبلغ أحياناً مقداراً كبيراً من المال فى
القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد، أوقف على قبر الأمير «نكاورع» بن
«خفرع» مالا يقل عن اثنتى عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة، وأوقف كل
دخلها على صيانة قبره^(٢).

وفى الأسرة السادسة أصدر «ببى الأول» أمراً ملكياً نيابة عن سلفه
«سنفرو» لصالح مدينتى هرميه، جاء فيه «أمر جلالتي، بأن تعفى هاتان
المدينتان إلى الأبد من أداء أى عمل للقصر الملكى، ومن أى عمل بالقوة
لأجل المقبر الملكى إلى الأبد»، ومن أية سخرة يأمر بها أى إنسان إلى
الأبد^(٣)، وفى عهد «ببى الثانى»، صدر مرسوم ملكى بإعفاء جميع
العاملين بمعبد الإله «مين» فى مدينة «قفط» من أية التزامات نحو الدولة،
وبصب اللعنات على أى حاكم للصعيد يكلفهم بأى عمل، أو يأخذ منهم
حبواً أو ماشية، بل إنه يتجاوز كل حد عندما ينظر إلى من يفعل ذلك، على
أنه خائن^(٤).

وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل إن أمراء الأقاليم قد نحتوا قبورهم
فى صخور أقاليمهم - وخاصة فى مصر العليا والوسطى - وكان ذلك عبئاً
جديداً على الخزينة، كلف الكثير من المال، حتى رأينا مدير قصر الملك

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 98.

(2) J.H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 99.

(4) W.C. Heyes, JEA, 32, 1946, p. 3-23; J.A. Wilson, The Culture of
Ancient Egypt, p. 89-100.

«وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنائزين لخدمة قبره، ويكافئ الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول إليه دخلا من الخبز والزيت كان يصرف من قبل على الملكة «نفر حتبه»^(١)، ولعل الذى دفعه إلى ذلك إنما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور، وذلك بتحويل القرايين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة إلى قبور حديثة العهد^(٢).

وأما ثالث الأسباب الاقتصادية، فهو عبء مشتري الولاء من حكام الأقاليم المصرية البعيدة عن العاصمة، وذلك حين بدأ هؤلاء الحكام يتباعدون عن الملوك وينشدون خلودهم فى أقاليمهم، وبذا تولدت لديهم نزعة فردية دفعتهم على أن يتباهوا بما فعلوه، وبما رفع من شأنهم فى خدمة الملوك، وكلما مر الزمن وضعف الملوك زاد حكام الأقاليم فى تباهيهم بما نجحوا فيه، مما اضطر الملوك إلى أن يعملوا على اكتساب رضاهم، وإقطاعهم الأراضى لربط دخلها على مقابرهم، التى كانوا يقومون ببنائها من خزانة الدولة.

وتحدثنا الوثائق التاريخية أن «ونى» قد التمس من فرعون أن يعطيه تابوتا من الحجر الجيرى من طره، فأعطاه الملك التابوت، فضلا غطائه، إلى جانب الباب الوهمى ومائدة القرايين^(٣)، ومن المعروف أنه قد تمتع بهذا العطف الملكى واحداً من أمراء الصعيد (زهو)، عندما التمس من الملك أن يهدى أباه من بيت المال تابوتا وكتانا وعطرا، فأمر الفرعون بإحضار تابوت من خشب، فضلا عن عطور وزيت ومائتى قطعة من أجود الكتان^(٤).

ويسمح الملوك بأن يرث الأبناء آباءهم فى إقطاعياتهم، وتتوزع ثروة البلاد بين الأسر القوية، فى الوقت الذى تتناقص فيه ثروة الملك تدريجياً، ويلجأ الفراعين إلى وسائل عدة لاسترداد سلطانهم، فيتعهدون تربية أبناء الحكام فى قصورهم، لعلهم يصبحون أوفياء للعرش، حين تصبح الأمور

(1) J. H. Breasted, op.cit., p. 61.

(2) Ibid., p. 62.

(3) جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦، ص ٦٩.

(4) A.H. Gardiner, ZAS, 70, 1954, p. 95-96.

بأيديهم في أقاليمهم^(١)، ثم يعيدون وظيفة «حاكم الصعيد» الذي «يؤيد»^(٢) إليه بالإشراف على ضرائب الصعيد، وشئون حكمه^(٣)، إلا أن ذلك كله لم يغير من الوضع شيئاً ولم ينجح الملوك في كسب ولاء الحكام، الذين أخذوا يستقلون عن القراعين بأقاليمهم، مما أدى آخر الأمر إلى قيام حكومة متنافسة أحياناً ومتعادية أحياناً أخرى، وحين تخرج الموقف للغابة، عمت الفوضى في البلاد، وبالتالي قامت الثورة الاجتماعية الأولى.

وأما رابع الأسباب الاقتصادية، فهو انقطاع أو احتمال انقطاع الموارد التي كانت تأتي من التجارة الخارجية، والتي كانت احتكراً ملكياً، فقد كانت مصر على علاقات تجارية مع بلاد غربى آسيا، ومع جزر البحر الأبيض المتوسط، ومع النوبة وليبيا وبلاد بونت، وتدلنا نصوص أواخر الدولة القديمة على وجود اضطرابات في تلك البلاد الأجنبية التي كانت تتجر معها مصر، مما استدعى بعض إجراءات حربية في النوبة والسودان^(٤)، ومنها تلك الحملات التي أرسلت لتأديب النوبيين تحت قيادة «بى نخب»^(٥)، وتلك التي أرسلت إلى غربى آسيا تحت قيادة «ونى» للقضاء على التمرد عند أنف الرئم^(٥).

(٢) الأسباب الاجتماعية:

شبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع المصرى القديم بـ «الهرم»، ثم وضع فى أعلى الهرم، هرم صغير مستقل، رأى أنه يمثل الملك الذى يحكم خوف وزرائه، الذين كانوا بدورهم فوق حكام الأقاليم، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء الذين كانوا بدورهم فوق الفنانين وصغار التجار والعمال والفلاحين، أما عن التنظيم الدينى فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً، لأن كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة

(1) Urk, I, p. 251F; H. Kees, ZAS, LXIV, p. 93

(2) إيتين دريوتون وجاك فاندويه، المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 100.

(4) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 350, p. 163.

(5) A.H. Gardiner, op.cit., p. 95.

إنما كانوا فى درجة واحدة، فقد كانوا جميعاً يكونون الطبقة التى تلى
فرعون مباشرة، وكان ينيبهم عنه فى تأدية المهام الخاصة به^(١)، وهكذا كان
المجتمع المصرى القديم يتكون فى أول أمره من طبقتين بينهما فرق واضح،
طبقة عليه وهى الدناك^(٢)، على رأسها فرعون وأسرته وحاشيته، ومن حولهم
كبار موظفى الدولة وأمراء الأقاليم وكبار الكهنة، ثم طبقة دنيا وهى العاملة
الكادحة تتكون من عمال الزراعة والصناعة والصيادين والملاحين والرعاة
والخدم وجميع أصحاب الحرف الذين يعملون فى الخدمات العامة
والخاصة^(٣).

وتشير آثار الأدباء والحكماء وأصحاب التأملات إلى هذا النظام
الطبقي، ومنهم حكماء الثورة الاجتماعية الأولى «إيسو - و» الذى حدثنا
كيف ساء الوضع على الرفيع، وكيف أن الذين لم تكن لهم أسر معروفة
قد أصبحوا من أصحاب اليسار، وكيف أخذ الجوع والفقر بأبناء البيوتات
من جميع أقطارهم، يقول الحكماء المصرى «انظر: لقد حدث هذا بين
الناس، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناء
مسوراً، انظر: أن النبيلات يرقدن الآن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون
فى المخزن، ومن لم يكن ييسر له أن ينام على الجدران، أصبح الآن صاحب
فراش وثير، انظر: أن الرجل الغنى أمسى يمضى ليله ظمآن، ومن كان
يستجدى بقية سوره أصبح يمتلك جعة قوية، انظر: أن الذين كانوا يلبسون
الملابس الفخمة أصبحوا الآن فى خرق بالية»^(٣)، ولعل هذا إنما يشير إلى

(1) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1964, p. 73.

(٢) لم يتفق الكتاب القدامى على تحديد عدد طبقات المجتمع المصرى القديم، فجعلها بعضهم
ثلاثاً، وبعضهم الآخر ستاً، وجعلها آخرون سبعاً، وأرقى تلك الطبقات اثنتان، طبقة الكهان
وكانوا أغنى الطبقات مالا وأعلاماً قدراً، وأقواها نفرداً، وأعظمها حظاً من الثقافة، ثم طبقة
المحاربين، ويسمى بهم هيرودوت «كالاسيرس» وكانوا غالباً من الدلتا ذات الأبواب المفتوحة
للدفاع عنها، وكانوا يقطعون أرضاً يرتزقون منها، كما كانوا يعملون فى خدمة الملك، ثم
تأتى طبقة رعاة البقر والخنازير، وكان رعاة الخنازير أحط الطبقات، وهناك طبقة التجار وطبقة
التراجمة، وأخيراً رجال الملاحة وطبقة عمال الزراعة، ونلاحظ أن هذا الترتيب، على
اختلاف الآراء فيه، لا يمكن أن يكون مضبوطاً، إذ ينبغى أن يكون أكثر من ذلك عدداً
(هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٩٧-٢٩٨)، وكذا: Diodorus, I, 73, 2.

(3) A.H. Gardiner, Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 10-11.

وانظر: محمد يوسى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، ص ١٣٣-١٣٤.

أن حكيمنا المصرى ربما كان من طبقة أرستقراطية، ومن ثم فلم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة عنها إلى غيرها أقل منها منزلة ومكانة فى المجتمع المصرى القديم.

وتقدمت الحياة بالناس إلى زمان الدولة الوسطى، ونشأت بين الطبقتين المذكورتين طبقة ثالثة، هى الطبقة الوسطى، طبقة حرة قوامها صغار الموظفين والتجار وأصحاب الحرف الممتازة، وإذا كان بعض الباحثين يحاول إنكار هذه الطبقة، فإن منطق الحياة قد يحتم وجودها، ذلك لأننا إذا سلمنا بوجود طبقة الأشراف الحاكمين من أعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الرأى فيها، وسلمنا بوجود طبقة عاملة من الزراع والعمال الكادحين وأصحاب الحرف المختلفة، فإن منطق الأشياء يقتضينا أن نفترض وجود طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء، وإلا فإين نضع صغار الموظفين وصغار رجال الجيش ومن يماثل أولئك وهؤلاء من الناس^(١)، ولنتحدث الآن عن طبقات المجتمع المصرى الثلاث:

(١) الطبقة العليا:

كان على رأس هذه الطبقة فرعون الذى آمن المصريون القدامى، راغبين أكثر منهم مكرهين، بأنه إله تكرم وأقام فوق أرض مصر ليحكم الناس بمقتضى الحق الإلهى الموروث، وليدبر أمورهم وفقاً لمشئته الله، فدانوا لسلطانه فى الدنيا وآمنوا باستثنائه فى الآخرة، وكانوا يدعونه الإله الطيب فى حياته، والإله العظيم بعد مماته، فهو الإله الصقر «حور» الذى تجسم فى هيئة بشرية، ومن ثم فهو، فى نظر رعاياه، إله حى فى شكل إنسان، يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق، فله حق الاتصال بهم، كما له على شعبه ما لغيره من الآلهة من التقديس والمهابة، وفى الواقع أن هذا أمراً لم تنفرد به مصر بين بلاد العالم، وإنما هو شىء كان يسود أم الدنيا المعروفة فى العصور القديمة، أو يكاد^(٢).

على أن فرعون رغم هذه المكانة المقدسة التى كان يحتلها، لم يعش

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨.

(٢) انظر عن «التنظيمات السياسية فى الشرق القديم»: محمد يوسى مهران، حضارة الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٩٩م.

فى برج من عاج، ولم يعزل نفسه عن شعبه، بل كان شديد الاتصال به، ذلك أنه على الرغم من الحقوق التى كان يتمتع بها فرعون، كان عليه عدة واجبات، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة والطامعة فى خيراتها، ثم يستمع لشكوى الناس، ويعنى بشئونهم، ويهتم بمراقبة موظفيه ورعايتهم، ويجزل العطاء لمن أخلص منهم، فأحسن وأجاد، ثم هو يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور لتيسير فلاحه الأرض وزراعتها، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين، فضلاً عن القيام بواجبه نحو الآلهة، فإن أهمل ذلك حق للآلهة ألا تعترف به كواحد منها، فأما بلاطه فكان مكوناً من حاشية كبيرة من عظماء أمته، والمقدمين من أمراء جنده، وكبار كهنته، يستشيرهم فى أمور دولته، ويستعين بهم على تدبير شئون شعبه، وهكذا يبدو واضحاً أن الملكية، وإن أفاءت على الملك ثوباً من القداسة، فقد حددت، فى الوقت نفسه، من سلطانه، بما فرضت عليه من واجبات، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد بالتفصيل.

هذا وقد كان للملك وضع خاص بين رعاياه، ربما يبعده عن وضع الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع المصرى، فقد كان القوم يعتقدون أنه إله، وليس بشراً، ورغم ذلك فهناك نصوص، وإن كانت نادرة، إلا أنها تكشف فى ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس هذا الإله من مشاعر نبيلة ولمسات إنسانية نحو رعاياه، تبدو فى بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة، فهناك نبوءة «نفرتى» التى تتحدث عن الملك «سفر» على أنه كان ملكاً محسناً، وأنه حين يخاطب أحد رجال رعيته يقول له «يا صاحبنى»، وحين يوجه حديثه إلى أحد رجال بلاطه مخاطباً إياهم بقوله «يا إخوانى» ثم حين يتنزل من عليائه الإلهية ليقوم بعمل كاتب، فيمد يده إلى صندوق مواد الكتابة ويأخذ قرطاساً وقلماً ومداداً، ثم يدون ما تحدث به الكاهن المرتل «باست»^(١)، كل ذلك يجعل هذا الفرعون فريداً بين أقرانه.

وربما أراد نفرتى بذلك الدعاية لملك قادم يأمل القوم أن يكون على

(1) A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, p. 112.

هذه الصفات، وأن نفرتى قد ذكرها لتكون هدياً للملك القادم شئ «معاملة رعاياه، قد يكون ذلك، وقد لا يكون، ولكنها مع ذلك تشير، ولو بطريق الأساطير الشعبية، أن هناك من الفراعين من يعاملون رعاياهم بالود والحنان، ولعل هذا يفسر لنا أسباب تلك المكانة التي كان يحتلها «سنفرو» في نفوس رعاياه، حتى استمرت عبادته في أكثر من مدينة مصرية حتى عصر البطالمة، وقد احتفظوا له بذكرى طيبة، ومن ثم فقد صورت أدابهم الشعبية متواضعا، يحيل إلى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع إليهم، ويكتب بنفسه، كما وصفوه بأنه «ملك فاضل»^(١).

وهناك ما يروى عن «نفر إير كا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة من أنه لم يترفع عن أن يترضى أحد رجاله (رع ور) عندما لطمت عصا الفرعون ساقه عن غير قصد، بل إنه يأمر بأن ينقش ذلك على حجر يوضع في قبر «رع ور» وهناك قصة أخرى تبين مدى حزن الفرعون نفسه على مدى ما أصاب وزيره «واش بتاح» الذي وافته منيته فجأة عندما كان فرعون يتفقد وربما يفتتح أحد المنشآت الملكية، وأن الملك حاول إسعافه ولكنه فشل، ثم عاد إلى حجرته يدعو ربه رع أن يشمل وزيره برحمته، ثم سمح لولده أن يسجل ذلك كله على قبره الذي منحه إياه^(٢)، وهناك كذلك فراعين كانوا يرسلون وزراءهم ويردون على رسائلهم بخط أيديهم، ومن ذلك ما كتبه الملك «جد كا رع» (أسيسى) إلى وزيره «شيسرع» حيث يقول: «الحق أن رع أكرمى بأن وهبى إياك»^(٣)، وإن رأى «فيكتيف» في حدوث واقعتى «رع ور» و«واش بتاح» في عهد ملك واحد (نفر إير كا رع) ما يدل على أن لفرعون مصلحة فيهما، وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين، فنخس أحدهما بعصاه التي ربما كانت مسمومة، وسم الآخر بطريقة ما، ثم أظهر حزنه عليه، وإن كنت أميل إلى أن الحادثين لا يستحقان كل هذه التخمينات التي ذهب إليها «فيكتيف»، وليس بدعا أن يكرم الفرعون موظفيه العاملين والمقربين إليه بعد وفاتهم.

وأيما ما كان الأمر، فلقد كانت الطبقة الحاكمة ترتبط بالملك بروابط

(١) محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، ص ٧٦-٧٧.

(2) J.H. Breasted, ARE, I, Parag, 242-249.

(3) Urk, I, 179.

كثيرة، ففي النصف الأول من الدولة القديمة كان الأمراء يعينون في مناصب الوزارة، وأكثرهم من أبناء الملك أو من ذوى قرياه، كما حدثت مصاهرات بين أفراد البيت المالكي وبين أفراد من الشعب، كما حدث في زواج «بتاح شبس» من «نخ ماعة» ابنة «شيسكاف»^(١)، وزواج «ببى الأول» من ابنة أمير أبيدوس، وهكذا فإن وجود أبناء الملك وأقاربه يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الأخرى غير واضح المعالم، ولكن من ناحية أخرى، فقد كانت الطبقة الحاكمة بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته، وأنها تمكنت من احتلال المناصب الكبيرة، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفاً على الملوك دون سواهم^(٢).

وكان هولاء الحكام ومن حولهم حاشيتهم من كبار الموظفين يعيشون عيشة ترف ورفاهية، فيسكنون الدور الفخمة، ويقتنون الضياع الواسعة ويقومون بالولائم المترفة، ويتنقلون في محفات تحمل على أكتاف الرجال، حتى إذا ما كانت أيام الدولة الحديثة^(٣). وعرفت مصر الخيل والعجلات استبدلوا بها المحفات وباتوا ينتقلون عليها، ويمارسون فوقها ألوان الفروسية والصيد والرياضة، ويستروحون عليها بين المزارع والحقول وعلى شواطئ النهر.

وكان لكبار الكهنة مركزاً ممتازاً لدى الشعب، وهيبة كبيرة، وكانوا يرفعون كثيراً في إخضاع سلطان الدين لكثير من التأويل والتعقيد، ويحتفظون بأسرار تعاليمهم الدينية، ويزعمون القدرة على استخدام السحر، كما كانوا متبحرين في العلم والمعرفة مما بسر أمورهم وسهل سيطرتهم على الشعب، وزاد في هيبتهم وسلطانهم، كما بلغوا جانباً كبيراً من الثراء^(٤)، وبخاصة كهانة آمون التي تضخم ثروتها، وبمرور الزمن تكونت في مصر ملكية خاصة بالإله آمون، منفصلة عن أملاك فرعون، بل إنها لم تكن

(١) J.H. Breasted, op.cit., Parag, 257.

(٢) محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ٧٨-٧٩، وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 75.

(٣) هناك في التوراة ما يشير إلى أن القوم قد استعملوا المركبات منذ عهد الهكسوس (تكوين

٤١: ٤٣)؛ وانظر: محمد يومي مهران، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة

١٩٧٦م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٤) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٥٠-٥١.

مقصورة على مصر وحدها، وإنما امتدت إلى النوبة التي كان أن يصبح ذهبها وقفاً على الإله آمون.

واستغل كهان آمون ذلك كله في توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم، حتى بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أمثالهم في العالم المعروف وقت ذاك، فنالوا نصيباً من الكنوز التي سلبت من العدو، ومعابد بأوقافها من الأراضي في الأقاليم المستولى عليها، هذا فضلاً عن فرق من الأسرى لأعمال السخرة، ومبان ملكية حول المعبد، وطففت شهرة آمون فعمت البلاد، بحيث لم يعد لأرباب الإقليم شيء من قوة، إلا في بلاطه وتحت رايته^(١)، حتى انتهى الأمر بكهانة آمون إلى القبض على زمام الحكم في البلاد بقيام دولة الكهنة في أعقاب الأسرة العشرين^(٢)، وإن كانت هناك آراء تذهب إلى غير ذلك^(٣).

(٣) الطبقة الوسطى:

لم يكن هناك نظام طبقات صريح يظل فيه النبلاء والصناع والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلاً بعد جيل، فكان المجتمع ينظم على أساس استمرار الأشياء الموروثة، فيستمر ابن الفلاح ليكون فلاحاً، وتوقع منه أن ينجب أبناء يعملون فلاحين، والأمر كذلك في طبقة النبلاء، ولكن المصريين كانوا عمليين متسامحين، ومن ثم فلم يجبروا شخصاً على أن يظل أبداً نادر في طبقته التي توارثها إذا وافته الفرصة أو الضرورة للتغيير، ففي العصور التي نمت فيها الدولة وتقدمت كانت البلاد في حاجة إلى خدمات الرجال ذوي المقدرة الذين يعتمد عليهم، ففي مثل تلك العصور يمكن أن يوجد الصناع بين الفلاحين ويصبح خدام المنازل عمالاً مهرة، ثم يكافأون بالممتلكات والوظائف والميزات، ومن ثم يصبحون ضمن زمرة الأرستقراطيين^(٤).

وهناك أمثلة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين إلى طبقة

(١) سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ص ١٩٧.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩ م.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران، مصر، الجزء الثالث، ص ٣٤٠-٣٤٨.

(4) J.A. Wilson, op.cit., p. 75.

كبار الموظفين في الدولة، فهناك مثلاً «ونى» الذى يفهم من نصه المشهور الذى تركه لنا على لوحة بقبره فى أييدوس^(١) أنه نشأ نشأة متواضعة، ثم استطاع أن يرتفع إلى أحد المراكز المرموقة فى البلاد، ذلك أنه بعد أن خدم كموظف صغير فى عهد «تنى» مؤسس الأسرة السادسة، ارتفع فى عهد «ببى الأول» إلى أن يصبح سميراً، أو رجل بلاط مقرب، وقد صحب هذا التشريف تعيينه فى مركز كهنوتى فى مدينة «رمه»، وسرعان ما كسب ثقة الملك الذى عينه عقب ذلك قاضياً، وقد برز فى هذا العمل فظهرت قدرته كمساعد للوزير، ليستمع إلى قضايا مؤامرة أفرخت فى الحريم الملكى والستة بيوت الكبرى (قضية الملكة إيمتس)، وحين أنهى هذا الواجب الهام أصبح القائد العام لخمس حملات جريئة أرسلها الملك إلى أسيا، واحدة منها كانت برية وبحرية معاً، حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة، وقد كتب له فيها جميعاً نجاحاً بعيد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال، ثم أصبح فى عهد «مرى إن رع» حاكم الصعيد، وأنهى حياته مؤدباً لأبناء الملك، ورفيقاً فى مخدعه^(٢).

وهناك مثل آخر من حياة المهندس المعماري نخبو الذى يرون أن فرعون وجد فيه بناء جاداً، ثم رماه إلى وظيفة مفتش بنائين ثم مشرفاً على طائفته، ثم رفعه جلالته إلى مصمم وبناء للملك، ثم مصمم وبناء ملكى تحت إشراف الملك ثم رماه جلالته إلى وظائف الرفيق الوحيد ومصمم وبناء الملك فى البيتين. لأن جلالته كان يعطف عليه كثيراً^(٣).

وسواء تمت هذه الترقيات بعطف من الملك، كما يذكر نخبو، أو بجدارة كل منهما، أو حتى بالميراث، وهذا ما لا ينطبق على «ونى» على الأقل، فإن ذلك يدل على أن الوظائف إنما كانت متاحة لكل من تتوفر فيه الصفات اللازمة لشغل هذه الوظائف، مما أدى آخر الأمر إلى أن يرتفع بعض أبناء الطبقة الدنيا إلى طبقة أعلى، وفى عهد الدولة الحديثة نرى الكثير من

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 134-135, 140-144, 146-150.

(2) محمد يومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ٤٦-٥٠، وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 95-96.

(3) D. Dunham, The Biographical Inscriptions of Nekhebu, JEA, 24, 1938, p. 4-5.

نصوص الأسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميته، وبأن الواحد منهم إنما قد بدأ وظيفته «دونما تأثير من أقاربه» أو أنه «من أسرة غير ميسر عليها في الرزق كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه في مدينته» .

ومكثا ظهرت طبقة وسطى قوامها الطبقة الوسطى من المواطنين، فضلا عن صغار ملاك الأراضي الزراعية وأصحاب الحرف الممتازة وهؤلاء إنما كانوا من الفنانين والصناع، ولعل السبب إنما يرجع إلى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة للحضارة المصرية، تلك الحضارة التي كانت في أحصر صفاتها حضارة فنية راقية، وفنونها وصناعاتها هي أجل ما امتازت به، حتى لا يعادلها، فيما يرى البعض، شيء من عقائدها وأدابها وعلومها، ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه لكان من المستحيل أن يبلغا ذروة الإبداع مع كثرة الإنتاج، كثرة لا يذانيها إنتاج أية أمة أخرى، وليس أهل على قيمة الفن والفنان من أن رئيس كهنة منف كان يعد في عهد الدولة القديمة رئيساً أعلى للفنانين، ويحمل لقب المشرف العام على الفنانين، ويدور أنه كان فعلاً يزاول هذه المهنة^(١) والسبب الذي جعل هذا الكاهن العظيم يشرف على رجال الفن أن الإله «بتاح» إله منف إنما كان يعتبر بمثابة الفنان بين الآلهة المصرية، ومن ثم فقد تختم على كبير كهنة هذا الإله أن يكون أكبر فنان في مصر، كما تختم على كهنة آلهة الحق والعدالة أن يكونوا المشرفين على أعمال القضاء، وقد استمر إشراف كبير كهنة بتاح على أهل الفن في مصر طوال العصور التي بقي فيها بتاح رب منف^(٢).

كان المرجو أن تكون حياة الصناع والفنانين ميسرة، جزاء لما أنتجوا من فن رائع، ولكن ليس هناك من دليل على أنهم كانوا من أهل اليسار، وإن لم يكونوا في معيشة ضنكا، كبقية الطبقة العاملة، وقد وضعهم «جيمس هنري برستد» الذي قسم المجتمع إلى أمراء وعبيد، بين هاتين الطبقتين، ودعاهم بالطبقة الوسطى التي احتكرت الصناعات والفنون الجميلة وبرعت

(١) محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٢) أدولف إيرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٤٨٥.

فيها كثيراً^(١)، وقد كانت هذه الطبقة بمثابة حلقة اتصال بين الحاكّمين والمحكومين، فهي أصلاً من المحكومين، ولكنها تحتك كثيراً بالحاكمين بسبب طبيعة عملها، فهي تحس بالآلام المحكومين وما يلاقونه من شذات العيش وعنت الحياة، وترى بأعينها ما ينعم به الثراء من القوم من متع الحياة وزخرفها، وإننى لأميل كثيراً إلى أنها غالباً، كغيرها من أبناء الطبقة الوسطى، لم تفسد عن انغماس في الشهوات، وهى فى نفس الوقت لم تذلل عن فقر وإملاق، ومن ثم فإن الطبقة الوسطى فى كل الشعوب إنما هى فى الغالب تحمل سمات المجتمع وما فيه من نقائص وعيوب، وكذا بما فيه من حذات وأفضال.

هذا وقد دأب أهل الطبقة الوسطى على إرسال أولادهم فى سن مبكرة إلى المدارس التابعة لمصالح الحكومة وغيرها من مدارس إعداد الموظفين لتأهيل أنفسهم لمهنة الكاتب، والحياة التى تقتضيها ظروف وظيفته، وكان صغار الموظفين والكتبة الذين يعملون فى الحكومة المركزية أو الإدارات المحلية أو الضياع الكبيرة من أسعد أفراد الطبقة الوسطى حالاً، فهم أهل المعرفة والخبرة، وأصحاب العلم والثقافة، وبين أيدينا طائفة من التعاليم التى كان يوجهها الآباء إلى الأبناء، يوضحون لهم فيها أن مهنة الكاتب مهنة راقية تفوق جميع المهن الأخرى، ومنها وصية «خيتى بن دواوف» إلى ولده «ببى» بثها إياه حين صاحبه ليلحقه بالمدرسة، فبين له فيها قيمة التعليم، وما يمكن أن يكون له من نتائج خطيرة فى حياة الناس، فهو يغريه بما ينتظره من مستقبل عظيم، وينبهه أن التعليم يؤهله لأن يكون رئيساً لمجلس الأعيان (مجلس الثلاثين، والذى خلف مجلس عشرة الصعيد العظام) ثم يصور له قبح الجهل، ويغريه بالعلم ويحبيه إلى نفسه، ويوصيه بأن «يضع قلبه وراء الكتب»، وأن «يحبها كما يحب أمه» لأن مهنة الكاتب تفوق كل مهنة فى هذه الدنيا، مقدراً له أنه إذا بلغها فسوف يصبح من سعداء الدارين، شارحاً له أن المتعلم لن تستطيع الدولة أن تسخره فى عمل شاق، وإنما يعفى من ذلك كله لأنه متعلم، ثم أخذ الرجل بعد ذلك يقبح لولده المهن الأخرى كصناعة النحاس والتجارة والتجارة والبستنة والفلاحة والدباغة وضرب الطوب

(1) J.H. Breasted, A History of Egypt, p. 83.

وصيد الطيور وغسل الملابس وغيرها من الصناعات^(١).

وفى تراث المصريين كثير من أمثال تلك الوصية، وبخاصة فى عهد الدولة الحديثة التى ازدادت فيها الحاجة إلى الموظفين، نظراً لاتساع الدولة فى الداخل والخارج وتضخم أعبائها، وتبين ألهمت قصص البطولة نفوس الشباب، بين أيدي الجنود العائدين من آسيا، ودفعتهم إلى الانخراط فى صفوف الجيش، انزعج أدباء العصر وأصحاب المعرفة والثقافة من إقبال الشباب على الجندية، وانصرفهم عن صناعة الكتابة، وأخذوا يسطرون القصص والطوال من المقطوعات الأدبية، يصورون فيها الحياة الخشنة التى يحيها الجندي، ويحذرون الشباب من الاندفاع فى هذا السبيل، ويرغبونهم فى الوظائف الكتابية، ومن ذلك ما جاء فى بردية «أنسطاسى» حين أخذ الكاتب يقبّح كافة المهن ويعدد مساوئها، ثم يختم حديثه بقوله «يبد أن الكاتب هو الذى يرأس أعمال جميع الناس، وهو معفى من الضريبة، لأنه يؤديها عملاً عن طريق معرفته ولن يكون مستحقاً عليه شيء، وعليك أيها الكاتب أن تظن إلى ذلك وتنزع من فكرك أن الجندي أحسن حالاً من الكاتب».

ويقول آخر لولده وهو يعظه «انظر ليست هناك طبقة غير محكومة أما الكاتب فقط فهو الذى يحكم نفسه»، ويقول آخر لولده كذلك «وطن نفسك على أن تكون كاتباً حتى تستطيع أن تدبر أمور العالم كله»، وأخيراً ينصح شبيب ولده قائلاً «كن كاتباً لتعفى من السخرة، وتحمى نفسك من كل عمل شاق، فالكاتب يتخلص من العزق بالفأس، ويكون فى غنى عن حمل السلال، إن مهنة الكاتب تخلصك من تحريك المجذاف ولا تسبب لك همًا ولا تكداً، ولا يكون لك فيها رؤساء كثيرون، واعلم أن مهنة الكاتب تكسب صاحبها غنى ومالاً، فالمتعلم يصبح عن طريق عمله، ومهنته عظيماً، بل إن زينة صاحبها من أدوات وقراطيس إنما تخلق البهجة والسرور»^(٢).

(1) A. Erman, LAE, 1927, p. 67-72; W.K. Simpson, op.cit., p. 329-336.

(٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٥، وكذا:

A. Blakman and E. T. Peet, JEA, XI, 1925, p. 290-291; Van de Walie, La Transmission des Textes Literature Egyptians, Bruxelles, 1948, p.

(٣) الطبقة الدنيا:

وتشمل التجار والعمال والفلاحين وأصحاب الحرف الصنيرة كالتجار والحلاق والبستاني وصانع السهام وطواف البريد والدباغ والإسكافي وغيرهم، أما طبقة التجار، فالمقصود بهم هنا أولئك الذين كانوا يعملون في التجارة الداخلية، والتي كانت محدودة إلى حد كبير، ولذا فإن النصوص لا تتحدث عن التجار مما يدل على أن التجارة الداخلية في مصر القديمة إبان تلك الفترة لم تكن ذات أهمية، إذ أنها لا تعدو المعاملات المحدودة والتي تجرى في الأسواق المحلية، وقد رأينا حكيماً ينصح ولده ألا يكون تاجراً يجوب الوادي متنقلاً بين أقاليمه ومدائنه وقراه، معرضاً نفسه لأخطار الطريق وما يلحقه من أذى الهوام والحشرات، في سبيل الحصول على ربح تافه يكاد لا يضمن ولا يغنى من جوع.

وأما طبقة العمال فهم الذي كانوا يعملون في المناجم والمحاجر وغيرها، وفي بناء الأهرامات والمقابر والمعابد، وكانت الدولة هي التي تحتكر استغلال المناجم والمحاجر، وهي التي تشرف على العمال بطريقة تضمن العناية بهم والسهر على مصلحتهم، فكانت تجند طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء للعمال ومفتشين، وتعمل على نقلهم تحت حماية جندها إلى مقر أعمالهم في الصحراوات المصرية، وقد كان العمال يقسمون إلى فرق ثم إلى زمر، وكانت كل فرقة تحمل اسماً معيناً، وكان هناك كاتب يسجل أسماء كل فرقة، كما يسجل عملها وتاريخ إنجازها، هذا إلى جانب مفتشين يمشون يومياً أو أسبوعياً، وقد عثر في منطقة الأهرام على مساكن العمال الذين بنوا هذه الشوامخ، وهي قاعات ضيقة طويلة يبلغ عددها قرابة المائة، يتسع كل منها لنحو خمسين عاملاً^(١)، وقد أسهمت طبقة العمال بنصيب وافر في بناء هذه الشوامخ من الأهرامات الخالدة والمعابد والمقابر البديعة، مما يثبت تلك الانتصارات المادية التي لم يسبق لها مثيل، ذلك لأنه لم يوجد شعب آخر في بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره، مثل ما ناله المصريون القدماء في وادي النيل،

(١) انظر عن منازل العمال في اللاهون والعمارة : محمد بيومي مهران، مصر ٢٠١٠-٣٦١، إخناتون، ص ٢١٦-٢٢١.

فقد بنى القوم بنشاطهم الجرم صرحاً من المدنية المادية ظهر أن الزمن يعجز عن محوه تماماً^(١).

غير أنه رغم هذا الجهد العظيم، فإن طبقة العمال لم تعيش حياة تتفق والمجد الذى حققته للمدنية المصرية، ربما كان النظام الدقيق الذى اتبع مع العمال قد أعطاهم بعض حقوقهم، وضمن لهم مأكلاً ولبساً، وربما كان أحسن حالا من الفلاحين، حتى أن حكيم الثورة الاجتماعية «إيسو - و» عندما أراد أن يبين أن الصناعة قد تعطلت، وأن الفنون قد أقسدها أعداء البلاد، إنما يقول «حقاً قد أصبح بناء الأهرام فلاحين»^(٢)، وربما كان هذا دليلاً على أن المشتغلين فى بناء الأهرام من العمال أفضل حالا من المشتغلين بالفلاحة، كما أنهم كانوا يأخذون أجراً فى مقابل عملهم، فهناك نصوص كثيرة نقشت على مقابر القوم تدل عباراتها على أن العامل إنما كان يعمل دائماً بأجر، ولا يجبره أحد على عمل يكرهه، من ذلك ما نقرأه على قاعدة تمثال جنزى «لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل، وكان راضياً عن الأجر الذى دفعته له».

ويقول مدير ضيعة يدعى «منى» من الأسرة الرابعة «أن كل رجل عمل فى تشييد قبرى هذا، سواء أكان صانعاً أو حجاراً فلقد أرضيته عن عمله»، مما يشير إلى أن كلا من هذين الرجلين إنما أراد أن يعلن أنه قد حصل على معداته الجنزية من طريق شريف، وأن كل من عمل فى إعدادها قد أخذ أجره، كاملاً غير منقوص، ومنها ما نقرأه «جميع من عملوا فى هذه المقبرة قد نالوا أجرهم كاملاً، من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح، وبكميات وافرة، كما أنى لم أكره أحداً على العمل»، هذا فضلاً عن أن الملك «منكاورع» كان قد أمر ببناء مقبرة لأحد رجال بلاطه، وقد عمل فيها خمسون عاملاً، وقد جاء فى النص الذى يروى هذا الحادث أن فرعون «أمر ألا يسخر أحد فى هذا العمل، فضلاً عن عدم إكراه العمال فى أى عمل»^(٣).

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 115-116.

(٢) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢ وكذا:

A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage n. 32: G.A.

Reimer, Mycerinus, ١٩٦٦، ص ٢١٧.

(٣) J. Breasted, op.cit., p. 115-116. Breasted, op.cit., p. 115-116.

١٩٦٦، ص ٢١٧.

وهناك ما يشير إلى أن أحوال طبقة العمال إنما قد تحسنت كثيراً في الدولة الحديثة، فقد كان عمال الجبانة الملكية في طيبة الغربية يتكونون من مجموعات خاصة من الرجال الذين عاشوا، وكذا أسلافهم من قبل، لعدة أجيال مضت في نفس القرية بجبانة طيبة يعملون في نحت وزخرفة المقابر الفراعين، الذين كانوا يعتبرون عملهم هذا في منتهى الأهمية، فقد كان من أهم الأهداف التي كان القوم يعيشون من أجلها، إعداد حياة الفرعون الخاصة بعد الموت، بصفته «الإله الطيب» بين الآلهة العظام، ومن هنا فقد كان هؤلاء الرجال الذين يؤدون هذه المهمة العظيمة أبعد ما يكونوا أقل رعايا الفرعون حظاً، بل إن من المشرفين على بناء المقابر الملكية من وصل إلى مركز هام في الدولة^(١).

وعلى أي حال، فلقد كان هؤلاء العمال يقسمون إلى فرق، كل فرقة تنقسم إلى قسمين، على رأس كل منهم مقدم عمال، كان يلقب «كبير الفرقة أو الجانب»، وكان لكل مقدم وكيل يعاونه في مهمته، كما كان هناك كاتب يحتفظ بسجل يسجل فيه ما أنجز من العمل، فضلاً عن أسماء العمال الذين تخلفوا وأسباب تخلفهم، وكان الكثير منهم مثلاً الجدد والاجتهاد، يكاد الواحد منهم لا يتخلف يوماً طوال أيام السنة، على حين جانب البعض التوفيق، فانقطعوا أكثر من نصف شهر، وكانت أعذار التخلف كثيرة، كالمرض ولدغة العقرب، وإن كنا نجد في القليل النادر الكسل قد ذكر أحياناً بعض الأسماء، وهناك عدد من العمال كانوا أتقياء ورعين، ومن ثم فقد تغيبوا بسبب تقديم القرابين للآلهة، كما كان انجراف مزاج الزوجة أو الابنة سبباً كافياً، وإن يكن غريباً، يسوغ أحياناً التخلف عن العمل.

هذا وقد كان من المتبع أن يستمر العمل طوال أيام السنة، ويمنح العمال في كل شهر ثلاثة أيام كمطلة، كانت تقع في اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر، كما كان العمال يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالأعياد الكبرى للآلهة الرئيسية، كانت كثيراً ما تصل إلى أيام متتالية، وكان العمال يأخذون أجرهم على عملهم حبوباً، من قمح أو شعير،

(1) W.F. Edgerton, The Strikes in Ramesses III's Twenty-Ninth Year, JNES, 10, 1951, p. 137.

فضلا عما كانوا يتقاضونه من تعينات منتظمة، فقد كانوا يمنحون من وقت لآخر، وفي مناسبات خاصة مكافآت من فرعون، وتشمل النبيذ والملح والشراب (وكان يستخدم بدلا من الصابون)، وجعة اسيوية مستوردة ولحوم، فضلا عن بعض الكماليات الأخرى المتشابهة^(١).

وهكذا يمكن القول أن هؤلاء العمال لم يكونوا مسخرين في العمل في المقابر الملكية، وإنما كانوا يعملون لقاء أجر، ويمنحون المكافآت في المناسبات الرسمية، كما كان البعض منهم يتخلف لأسباب مختلفة، بل إننا نرى الفراعين يفسرون بمعاملتهم برفق وسخاء، فهذا هو «سبي الأول» من الأسرة التاسعة عشرة يحدثنا عن بعض عماله، من أن كلا منهم إنما كان يتقاضى أربعة أرطال خبز، وحزمتين من الخضروات، وقطعة من اللحم المشوى كل يوم، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر^(٢)، وفي الواقع إن كان ما يقوله «سبي الأول» صحيحاً، لكان عماله يعيشون في مستوى قد لا يقل كثيراً عن مستوى العمال في العصر الحديث.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوثائق لم تحدثنا عن شكايات من التعيينات أو تأخر الرواتب قبل أخريات عهد رعمسيس الثالث، وربما كان ذلك بسبب الأزمة الاقتصادية التي كانت تعانيها البلاد، وربما بسبب عدم أمانة الموظفين، وربما بسبب تلك المنازعات السياسية التي بدأت تظهر في أخريات أيام رعمسيس الثالث^(٣)، وإن ذهب البعض إلى أن السبب إنما كان وباءً عاماً اجتاح البلاد، مما جعل الحكومة تفشل في أن تعد عمال دير المدينة بطيبة الغربية بمخصصاتهم^(٤)، الأمر الذي جعلهم يقومون بأول إضراب وصلتنا أخباره في التاريخ، ذلك «أنه في اليوم العاشر من الفصل الثاني من الشهر الثاني من العام التاسع والعشرين من عهد رعمسيس الثالث اخترق فريق من العمال في الجبانة الأسوار الخمسة صائحين نحن جوع»، وتجمعوا خلف معبد تحوتمس الثالث الجنائزى، ولم يعودوا إلى منازلهم إلا

(1) J. Cerny, Egypt From The Death of Ramesses, III, to The End of The Twenty-First Dynasty Cambridge, 1965, p. 18-21.

(2) J.H. Breasted, op.cit., p. 414.

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٨١-٢٨٤.

(4) E.F. Wente, A Letter of Complaint to The Vizier (To), in JNES, 20, 1961, p. 252.

عندما حلّ الليل، رغم الوعود بأن أمراً من الفرعون قد صدر بإجابة مطالبهم، وفي اليوم التالي تقدموا حتى بوابة الحدود الشمالية لمعبد الرمسيوم، ولكنهم في اليوم الثالث وصلوا إلى المعبد نفسه وقضوا الليل في فوضى عند بوابته ثم دخلوا المعبد نفسه.

وعندئذ تطور الموقف فأخذ مظهراً خطيراً مهدداً، فقد كان العمال المضربون مصممين على موقفهم، لكنهم لم يخرجوا على النظام، وكان هجومهم على المكان المقدس ذا أثر فعال، واضطرت السلطات المستولة إلى تهدئتهم، فأرسلت إليهم ضابطين من الشرطة، كما عمل كهنة الرمسيوم على تهدئة الأمور، وأجابهم المضربون «لقد أتينا إلى هنا بسبب الجوع والعطش، حيث لا يوجد لدينا ملابس أو دهان أو سمك أو خضروات، ألا فترسلوا إلى فرعون سيدنا الطبيب بذلك، واكتبوا إلى الوزير الذي يشرف علينا، افعلوا ذلك لنعيش»، ثم صرفت لهم مخصصات الشهر السابق في ذلك اليوم^(١).

وهكذا نجح السمال في تحقيق أهدافهم، وعلمتهم التجربة ألا تشيهم الترضية الجزئية من وصولهم إلى حقهم كاملاً، وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالي، الأمر الذي تم في اليوم الثامن من الإضراب، وتهدأ الأحوال إلى حين، حتى إذا ما أتى الشهر التالي، ورأى العمال أن أجورهم لم تصرف لهم، أضربوا عن العمل «واخترقوا الجدران وجلسوا في الجبانة، وحاول الموظفون إعادتهم، ولكن الصانع «موسى بن عا عنخت» أقسم بآمون وبالفرعون ألا يعود، فاضطر الموظفون إلى ضربه، ذلك أنه تجرأ فحلف باسم الفرعون هنا، وأدى ذلك إلى ثورة العمال، ودفع بهم غضبهم إلى تهديدهم لرؤسائهم واتهامهم بغش الملك^(٢)، وتهدأ الأحوال قرابة الشهرين، وعاد العمال إلى الثورة من جديد، واخترقوا الأسوار، وبينما كانوا متجمهرين خلف معبد «با إن رع مري آمون» (معبد مرنبتاح الجنزى)، مرّ عمدة طيبة الغربية فشكوا إليه حالهم، فأمر بأن تصرف لهم خمسين غرارة من الحبوب، حتى يصرف لهم فرعون مخصصاتهم، غير أن كبير

(1) W.F. Edgerton, op.cit., p. 140.

(2) Ibid, p. 142.

كهنة آمون سرعان ما اتهم العملة بأنه أخذ قرابين معبد رعمسيس الثانى ليطعم المضربين، ثم وصف عمله هذا بأنه «جريمة كبرى»^(١).

وأما طبقة الفلاحين التى أريد لها أن توضع فى القاع من هرم المجتمع المصرى القديم، هذه الطبقة كان المرجو لها فى بلد يعتمد، أول ما يعتمد، فى موارده الاقتصادية على الزراعة، أن تحتل مكانة لا يتناول إليها صاحب حرفة أخرى، غير أن الفلاح هو الذى لم يتناول إلى مكانة غيره من أصحاب الحرف الأخرى، كان حظه فى الحياة أقل من حظ غيره، وكانت الفرص المتاحة له أقل بكثير من الفرص المتاحة للصانع أو حتى خادم المنزل أو العبد الخاص بالنبل، ومع ذلك فقد كان هو العنصر الأساسى فى اقتصاد البلاد.

وكانت نظرة المجتمع إليه على أنه إنسان بائس لا يستحق سوى الرثاء، فهناك خطاب سجله أحد الكتاب إلى تلميذ له متحدثاً فيه عن نصيب الفلاح من الحياة، جاء فيه «لقد سرق الدود نصف الحبوب، ثم أكل فرس النهر النصف الآخر، هناك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول، كما هبطت جحافل الجراد، أما الماشية فهى تأكل، والعصافير تسرق، ولكن واحسرتاه على الفلاح فما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص، كما نفقت ثيرانه من الدرس والحرث، ثم وصل الكاتب بسفينته إلى الشاطئ وهدفه أن يتسلم المحصول، وقد حمل موظفوه عصيهم، فى حين أمسك الزوج بمقارعهم، وكلهم يقولون له: اعطنا الحبوب، فإذا لم تكن هناك حبوب ضربه وقيده وقذفوا به فى القناة فيغرق، أما امرأته فهى تقيد أيضاً أمامه، أما أولاده فيربطون ويتركهم جيرانهم ويولون الأدبار، ويسرعون لكى يحافظوا على حبوبهم»^(٢).

وهكذا كان الفلاحون، كما هم الآن، يولفون الغالبية العظمى من الشعب، وقد كانوا فريقين، الواحد، يمتلك أرضه وحقله، والآخر أجير عند فرعون، بادئ ذى بدء، ثم عند النبيل أو حاكم الإقليم، حين شارك هؤلاء سيدهم فى الغنيمة، أما الفريق الأول فهم يملكون أرضهم، ولم يكونوا

(1) J.A. Wilson, op.cit., p. 277.

(٢) أدولف إرمان وهرمان رانكه، المرجع السابق، ص ٥١٣-٥١٤.

خاضعين إلا لأداء الضريبة المقررة عليها من قبل اسوثة، أما الفريق الثانى، وهو الأكثر عدداً فقد كانوا مرتبطين بالأرض لا ينفكون عنها، بحيث إذا انتقلت ملكتها انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد، ولكنه انتقال للذمة، وليس للملكية، ذلك لأن القوم إنما كانوا جميعاً أحراراً، وأن الرق فى جميع العصور الفرعونية لم يمتد إلى أية طائفة من سكان الكنانة، وإنما كان ذلك من نصيب الأسرى دون سواهم^(١).

وطبقاً لمرسوم من عهد الملك «ببى الأول»، فإن العامل الزراعى إنما كان يعمل بأجر، وفى مرسوم آخر، وهو المرسوم الثالث من مراسيم معبد الإله «مين» نرى أن الفلاح إنما كان يعمل ساعات معينة من النهار^(٢)، فالمزارع إذن إنما يعمل بأجر، وفى ساعات معينة من النهار، فهو ليس مملوكاً لصاحب الأرض، وإنما هو يعمل بعقد معه، ولا يتصور هذه العلاقة التعاقدية إلا إذا كان الفلاح حراً، وهناك ما يثبت أن الفلاح كان يدفع لصاحب الأرض جزءاً من المحصول، فهو إذن كان يستأجر الأرض من المالك، وكان بينهما عقد مزارعة، الأمر الذى لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الفلاح حراً^(٣).

وبدهى أن هذا كله إنما يشير إلى أن العامل الزراعى لم يكن أبداً مملوكاً لصاحب الأرض التى كان يعمل بها، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن الفلاحين إنما كانوا يعملون، إلى جانب الزراعة، فى حفر الترع والقنوات وإقامة السدود، وليس هناك على أى حال، مجال للقول، بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالاً سيئاً خالياً من الرحمة، كما أنه لا أساس لما

(١) هناك ما يشير إلى أن أسرى الحرب كانوا يعملون فى مزارع الدولة بلا أجر، وتسميهم النصوص «المزارعين الملكيين» وفى مرسوم قفط من عهد ببى الأول ما يشير إلى أن الملك لا يعتبر الفلاحين والصناع المصريين من الزراع الملكيين، كما أن هناك ما يشير إلى أن الدولة كانت تنازل عن حقها فى هؤلاء الزراع الملكيين إلى الأفراد إذا باعت لهم بعض أملاكها التى يعمل بها هؤلاء الأسرى، فقد جاء فى ترجمة «متن» من عهد منفرو، أنه «اشترى مائتى أرور مع عدد كبير من الزراع الملكيين» والذين كانوا من أسرى الحروب. انظر:

J. Pirenne, op.cit., II, p. 257, 210, 318; A. Morel, Journal Asiatique, 1916, p. 296-322.

(2) R. Weill, Les Decrets Royaux de L'Ancien Empire Egyptien, p. 118; A. Morel, op.cit., p. 329-331.

(٣) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١٦.

يذهب إليه البعض من أن ذلك العهد إنما كان يتسم بالظلم والاستبداد لمسلحة الملك أو الأمراء، فليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه لتقرير ذلك، هذا وبروى هيرودوت أن النيل كان إذا ما أكل جزءاً من أرض أحد الفلاحين (نهر النهر) فإنه يتقدم إلى فرعون بأمره هذا، حتى يرسل لجنة تقرر مقدار ذلك الجزء الضائع حتى يدفع الضرائب على ما تبقى عنده من الأرض^(١)، وهذا يشير إلى أن إيراد الأراضي الزراعية إنما كان من نصيب صاحبها، بعد أن يدفع الضرائب عنها، على أنه في الوقت نفسه إنما كان يخضع لرقابة الدولة فيما يقوم به من عمل، وأنه لا يترك وشأنه فيما يتولاه من شؤون الزراعة، وقد نعوضه الدولة عن الخسارة، إذا ما جاءت نتيجة لكوارث طبيعية، وقد تزيد الدولة من نصيبه (ربما عن طريق تقليل الضرائب) عند ازدياد حاجاته المعيشية، ولعل ذلك كله إنما يشير إلى أن الدولة إنما كانت تنظر إلى الزارع على أنه يقوم بوظيفة اجتماعية، ومن ثم فهي توجهه الوجهة التي تحقق المصلحة العامة^(٢).

وأما بقية أفراد الطبقة الدنيا الذين ورد ذكرهم في كتب المؤرخين الإغريق، فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيادون والملاحون فلم يكن أحد منهم يمتلك أرضاً زراعية، وكانت أعمال الطوائف الثلاث الأولى مقصورة على التنقل في الأراضي القاحلة الخالية من السكان طلباً للكلا وبحثاً عن صيد^(٣).

وهكذا كان أفراد الطبقة الدنيا يمثلون الكثرة الساحقة من سكان هذا الوطن، يعيش معظمهم في القرى المتناثرة على طول الوادي وبين ذراعي النهر في شمال الوادي، يمارسون حرفهم التقليدية من زراعة وصناعة ورعي وصيد وملاحة، وكانوا من أرق الطبقات حالاً، يسكنون مساكن بسيطة لا تعدو الحجرة أو الحجرتين، وليس بها من الأثاث والرياش ما يجاوز الحصير وبعض المقاعد الخشبية والصناديق وآنية الفخار، كما كان طعامهم لا يعدو الخبز والخضر، فأما لباسهم فكان نقبة من نسيج الكتان يستتر بها الرجل فيغطي بها وسطه إلى أعلى الركبتين، كما كان لباس المرأة بسيطاً أيضاً،

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ١٣١.

(3) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N.Y., 1970, p. 14.

فهو عبارة عن ثوب ضيق وبخاصة أسفله، غير مكتم، مصنوع من الكتان الأبيض، يصل من الكتف إلى العقبين، ويثبت فوق الكتف بشريطين من النسيج نفسه.

ولم يكن للفلاحين من الحرية ما لغيرهم من الطبقات الأخرى، وإنما كانوا يعملون في مواسم الزرع، حتى إذا ما جاء الفيضان وملأت المياه الأحواض وتوقفت أعمال الزراعة، حشدت الحكومة جيوشاً من هؤلاء الفلاحين للعمل في المحاجر والمناجم وأعمال البناء وجميع المشروعات الحيوية العمرانية العامة، أو أعمال الري، وبرغم ما يسود هذا النظام من عيوب، فقد كان من مزاياه أنه جعل الشعب عاملاً قوياً دؤوباً، لا يعرف الملل ولا يركن إلى الراحة التي تدفع للناس عللاً اجتماعية وبدنية، كما أكسبه مهارة فنية كبيرة ونافعة.

تلك كانت طبقات المجتمع المصري القديم، وهي على الرغم مما نرى فيها من تباين وتفاوت، لا تكاد تحملنا على أن نجعل ذلك المجتمع طبقياً، كما تعنى هذه الكلمة تماماً، ففي مثل ذلك النظام يحدد المولد الطبقة الاجتماعية التي يتسبب إليها الفرد، أما في مصر فبالرغم من أن الابن كان يزاوِل مهنة أبيه في أغلب الأحيان، فقد كان من الممكن لأي شاب يمتلك مواهب مناسبة أن يحتل مكاناً أرفع مما وصل إليه أبوه، وقد يصعد إلى أعلى الوظائف، أو بمعنى آخر لم تكن هناك حدود فاصلة تماماً بين الطبقات، إذ كان من الممكن الانتقال من طبقة إلى أخرى، اعتماداً على المواهب والمؤهلات، كما أشرنا من قبل.

هذا فضلاً عن أن الحياة في مصر الفرعونية إنما قد جمعت سائر أفراد الشعب، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الحيوية، في وحدة متماسكة قوية، لأن طبيعة الحياة الزراعية وظروف العيش قد أدت إلى ذلك ودعت إليه في إلحاح ملح وفي عنف شديد، ولم يلجأ المصريون إلى ثورات ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي إلا في العصر الوسيط الأول (عصر الثورة الاجتماعية الأولى)، وإلا بعض إضرابات للعمال في الأسرة العشرين نتيجة المسغبة، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً (الثورات أو الإضرابات)، ومن ثم فقد

تميز المجتمع المصرى بذيوع ذلك الروح الصفو العذب، الذى شمل الناس جميعاً، كما جرت أيام الحياة لدى المصريين سهلة بسيطة يسودها جو من المرح الصافى، وعلى نفمة حلوة مرضية، ويسود أهلها الرخاء المادى الذى تجرى لهم به الحياة بين يدى النيل العظيم^(١).

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، المرجع السابق، ص ٥٢-٥٤.

(٣) قصة السخرة في بناء الأهرامات

لعل من الأهمية بمكان - بعد أن تحدثنا عن أسباب الثورة المختلفة - أن نتحدث قليلاً عما يسمى بـ «قصة السخرة في بناء الأهرامات» :
كان مؤرخو الإغريق والرومان أول من نظر إلى «بناء الأهرام» على أنه كان «سخرة» .

ولعل «هيرودوت» كان أول من نادى بهذه الفرية، حين اتهم «خوفو» بأنه قد انغمس في كل صنوف الشر، فأغلق المعابد، وحرم على المصريين تقديم القرابين للآلهة، وأجبرهم على العمل في خدمته لبناء هرمه المشهور (هرم الجيزة الأكبر)، الذي اشتغل فيه مائة ألف رجل، يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور، ثم سخر الشعب عشر سنوات في عمل طريق مرتفع لنقل الأحجار، بجانب عشرين سنة في بناء الهرم نفسه.

ثم يقول «وقد ذكر على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمنًا لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم وإذا وعت ذاكرتي بالضبط ما قاله لي الترجمان، عندما قرأ على النقش، فإن النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالت من الفضة» .

ومات خوفو بعد أن حكم خمسين عاماً، فخلفه على عرش مصر ولده «خفرع» (نخع إف رع) الذي حكم ستاً وخمسين سنة، وقد تعرض المصريون لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة، إذ لم تفتح أثناءها المعابد التي كانت قد أغلقت، ولا يرغب المصريون مطلقاً في تسمية هذين الملكين (يعنى خوفو وخفرع) لكرههم، بل إنهم ليسمون الهرمين باسم الراعى «فيليتيوس» الذي كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة^(١).

(١) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، وقدم له وشرحه أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٤٨-٢٥٩، محمد أنور شكرى، العمارة في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٢١-٣٢٢، أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص ١١٢-١١٤، نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ١٦٨/١-١٦٩، محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٨٤-٨٦، وهيب كامل، هيرودوت في مصر، قنرات ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ديودور الصقلي في مصر، فقرة ٦٤، وكذا: G. Rawlinson, The History of Herodotus, London, 1929, II, p. 177-179.

ومن عجب أن يتابع مؤرخنا الوطني الكبير «مانيتون» السمنودي، كتاب الأغارقة والرومان في مخفهم هذا، وأن يتهم خوفوا بالعجرفة، حتى مع الآلهة.

ثم استمرت هذه القمص عن بناء الأهرام منتشرة بين الناس، حتى أننا الآن نجد الكثيرين يرددون هذه الروايات، دونما وعي أو تحقيق، ثم يتخذونها مثلاً على تجبر الفراعنة وقسوتهم، مقلدين في ذلك المؤرخين المسلمين، ومعتندين في الوقت نفسه على أن القرآن الكريم قد وصف الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام، بالطغيان والجبروت، وتجاوز عن ذكر اسمه^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة - بادئ ذي بدء - وقبل أن نناقش قصة السخرة هذه، أن نشير إلى عدة أمور، منها: (أولاً) أن مصر إحدى البلاد التي لم تعرف السخرة والاستعباد قبل عصر الإمبراطورية الوسطى، حين كان الأسرى يدفعون إلى العمل، فيستعبدون عن هذا الطريق^(٢)، ومن هنا فإننا نرى أن النصوص تتحدث عن المساواة بين المصريين^(٣).

صحيح أن المجتمع المصري عرف نظام الطبقات الاجتماعية، ولكنه صحيح كذلك، أنه لم يعرف النظام الذي يقسم المصريين إلى أحرار وعبيد، الأمر الذي ساد في المجتمع العراقي القديم، حتى رأينا قانون حمورابي (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م) المشهور ينص على أن كل العقوبات والأحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية^(٤)، حتى ذهب البعض إلى أن يعتبر أن ما أضافته المدينة البابلية إلى إرثنا الخلقى في غربى أسيا قليلاً جداً^(٥).

(١) محمد يومي مهران، المرجع السابق، وكذا:

W.G. Waddle, Manetho, London, 1940, p. 46-48.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٣) انظر «نص المساواة»: محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٩، وكذا:

J. Wilson, ANET, 1966, p. 7-8.

(٤) انظر: المواد (١٩٦-٢٠٥) من قانون حمورابي، وكذا:

T.J. Meek, in ANET, 1966, p. 176.

(٥) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 221-222.

وهكذا كان عمل الأسرى لا يخالف منطق الظروف، فقد كانوا أسرى، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا، وإذا صح أن يسمى العمل فى مرافق الدولة يومئذ «سخرة»، وإذا صح أيضاً أن الأسرى لم يكونوا وحدهم هم الذين يسخرون، بل حتى إذا صح أن المواطنين كانوا يشاركونهم هذا العمل، فتلك أمور لم تجر فى عهد آل فرعون وحسب، بل جرت فى سائر العهود قديمها وحديثها، وليس علينا إلا أن نتذكر كيف شقت «قناة السويس»، وكيف شقت ترع المحمودية والإسماعيلية والإبراهيمية، وكيف بنيت القناطر الخيرية، وعلينا أن نتذكر كيف كان يستخدم عساكر الجيش أيام الملكية، وعلينا أيضاً أن نتذكر أن ذلك لم يجر فى مصر وحدها، بل جرى فى بلاد غير مصر، ويكفى أن نذكر نظام «الخدمة الإجبارية العامة» أيام النازيين فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية^(١)، بل وحتى فى أيامنا هذه، ألا يقضى شبابنا فترة ما يسمى بـ «الخدمة العامة» فى مقابل دراهم معدودة لا تشبع من جوع ولا تكسى من عرى.

ومنها (ثانياً) أن الهرم الأكبر بكل المقاييس الهندسية، ليس هو أعظم ما شيده المصريون من نوعه فحسب، بل هو إنما يمتاز أيضاً، بذلك الإتقان المعجز فى هندسته، والدقة فى تخطيطه وجمال نسبه، ومن ثم فقد كان، وما يزال، أهم عجائب الدنيا السبع^(٢). وانطلاقاً من هذا، فالشئ الذى لاشك فيه هو أن بناء الهرم من المعجزات الإنسانية، ولست أشك، كما يقول الدكتور أحمد بدوى^(٣)، فى أن رجال العمارة فى العصر الحديث، بكافة ما أوتوا من أدوات ووسائل، سوف يشفقون على أنفسهم، أشد الإشفاق، وقد يترددون، وربما يحجمون، إن نحن طلبين إليهم أن ينوا لنا هرمًا مثل هرم خوفو، بالرغم من إفادتهم من تجارب عصور قاربت آلافًا خمسة من عمر الزمان، ويقال إن اليابانيين فعلوها، فلم يفلحوا.

ومن ثم فلعل هذا دليل على عدم السخرة، ذلك لأن الفنانين والصناع، لو لم يكونوا موضع تقدير المجتمع وتشجيعه، لكان من المستحيل

(١) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٢٤.

(٢) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٤٥.

(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٢٥٢.

أن يبلغوا هذه الذروة فى الإبداع الفنى والهندسى، ومن البدهى أن الشعوب المقهورة لا يمكن أن تنتج فناً على هذا المستوى المعجز، وخاصة بهذا القدر من الضخامة، فضلاً عن الجلال والكمال الفنى.

ومنها (ثالثاً) أن بناء الهرم الأكبر، وما يتصل به من معابد وأهرام ومقابر فى عهد خوفو، وهى - وما أنشأه من معابد فى أنحاء البلاد - علم ناهض على قوة شخصيته، وما أوتى من قوة وسلطان، وبرهان قائم على ما بلغته مصر فى مدة حكمه من تقدم، وما استقام لها من حضارة وثراء، وما حظيت به من حكم موطد حازم، وما كان لها من موظفين أكفاء، ومهندسين ممتازين، وعمال مهرة مدربين، تفانوا جميعاً فى خدمة مليكهم، عن إيمان راسخ وعقيدة قوية فى ألوهيته وتقديسه^(١).

والحقائق وحدها كافية لتجعل هرم خوفو هذا ينال إعجاب الناس على مر العصور، ذلك لأن الهرم الأكبر إنما هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع، بنيت لتكون قبراً لفرد واحد، كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا كلها، ولم يحدث قبل «خوفو» أو بعده أن يبنى ملك مثل هذا المستقر الأبدى الضخم، ويكفى أن نعرف أن طول كل جانب من قاعدته ٢٣٠ متراً، وأنه كان يسمو فى الفضاء مائة وستة وأربعين متراً ونصف المتر، وأن زاوية ميل جوانبه ٥٢°، وأن مجموع عدد أحجاره يقدر، فيما يقال، بنحو مليونين وثلاثمائة ألف حجر. ومتوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف، وإذا علمنا أن أحجار هرم خوفو لم تكن تزن فى المحاجر، أقل من سبعة ملايين من الأطنان، يحتاج نقلها فى الوقت الحاضر إلى سبعة آلاف قطار حمولة كل قطار ألف طن، أدركنا ضخامة الأعمال التى اقتضاها هرم خوفو وحده، ومدى ما احتاجت إليه من تنظيم دقيق للعمل والعمال^(٢).

ومن ثم فطالما وقف الناس منذ آلاف السنين أمام هذا الهرم تملؤهم الرهبة والإعجاب، وستقف أجيال من الناس لم يولدوا بعد، وستملؤهم أيضاً الرهبة والإعجاب، وسيبقى اسم خوفو مذكوراً فى سجل الأيام ما بقى هرمه شامخاً بعظمته على حافة الصحراء^(٣).

(١) محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨١، محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٣) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٨١.

ومنها (رابعاً) أن الهرم الأكبر كان مشاراً وأوهام وادعاءات في عصور الضعف من تاريخ مصر، وهو ما يزال مبعث أضاليل وأوهام من نوع آخر عند كثير من الناس في العصر الحديث، تأبى أخيلتهم إلا أن ترى أنه بنى ليخلد بمقاييسه وزواياه وأركانه وأجزائه، أسراراً في الفلك والرياضة والدين، ويسجل أهم الأحداث للماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا كان الهرم الأكبر، وما يزال، مصدر إلهام للكثيرين من المفكرين، كما تسبب أيضاً في وجود كثير من النظريات الباطنية، ونظريات الأسرار الخفية، والنظريات الخاصة بمعرفة الغيب والتنبؤ بما سيحدث في المستقبل، كما كان عبدة النجوم في العصور الوسطى يعقدون اجتماعاتهم داخله، وكانوا يعتبرونه مصدر حكمة لهم، وفي أواخر القرن الماضي كتب «بيازى سميث» كتاباً أسماه «ميراثنا في الهرم الأكبر» ومنذ ذلك الوقت كثر ظهور كتب عن هذا الهرم من النوع الذي نحا فيه كاتبه إلى العقائد الخفية والتنجيم والعلوم الروحية، وكلها تدور حول الهرم الأكبر بالذات.

وهرم الجيزة الأكبر وحده دون سائر الأهرام، هو الذي استرعى أنظار من يطلق عليهم بعض الناس «مجانين أو عشاق الهرم» لأنهم يجدون في أبعاد حجراته وعمراته أساساً لنظريات كثيرة تفسر أو تتنبأ بحوادث ذات أهمية تاريخية، إلى درجة أن بعضهم ادعى أنه استطاع أن يجد داخل الهرم الأكبر تسجيلاً لما ورد في كل من التوراة والإنجيل، بل وصل الأمر بأحدهم أنه قال إنه توصل من حسابات قام بها إلى معرفة تاريخ مولد المسيح عليه السلام، لأن هذا مسجل داخل الهرم، ويعتقد بعض أولئك المتحمسين أن الهرم لم يبن ليحتوى على تنبؤات فحسب، بل إنه بنى، وكان بناؤه المعجز، بواسطة أسرار لا نعرفها الآن، وأنه لمن الممكن شفاء بعض الأمراض، بواسطة الإشعاع أو الأحوال الجوية الخاصة في أجزاء ممراته.

ومن عجب أن الشيء الوحيد الذي يتفق عليه كل الذين يؤمنون بتلك النظريات، هو أن الهرم الأكبر لم يبن ليكون قبراً للملك خوفو، ويقدمون جميع أنواع التفسيرات للغرض من بنائه، اللهم إلا التفسير الصحيح الذي يؤمن به الآثاريون، وبالرغم من أن أكثر من واحد من علماء الدراسات المصرية القديمة قد فند بشدة جميع هذه النظريات الغريبة، فإن أشخاصاً

كثيرين ما يزالون يؤمنون بها^(١).

ومنها (خامساً) أن بناء الأهرامات وغيرها من المباني الدينية، إنما كان، كما سنشير فيما بعد، نتيجة سطوة الدين على المصريين وأثره في حياتهم وتفكيرهم، فالدين - كان ولا يزال - أكبر قوة تؤثر في حياة الإنسان، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به، ذلك التفسير الذي أوحى إليه بفكرة الخلود، أو الحياة بعد الموت، تلك الفكرة التي اعتنقها القوم، وكان لها أكبر الأثر في نفوسهم، بل إنه فيما يرى - جيمس هنري برستيد^(٢) - لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت، المكانة العظيمة التي احتلتها في نفس الشعب المصري القديم، وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدماء عدداً هائلاً من الأهرامات والمقابر والمعابد التي لا يمكن حصرها، بينما لا يوجد إلا قلة من المنازل التي كان يعيش فيها القوم، ولعل السبب في ذلك أن الأولى كانت تبنى بالأحجار، بينما كانت الثانية تبنى بالطين، إيماناً منهم بأن الأولى أبدية، وأن الثانية وقتية:

ومنها (سادساً) أن مقابر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة في عهد خوفو، خلت من الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل، إلا من لوحة القربان، ولم يسمح «خفرع» إلا للخاصة من أفراد البيت المالكة بذلك، أما بقية الأسرة فقد سمح لهم بما يعرف بالرؤوس البديلة أو الاحتياطية، على أن تنام تحت سطح الأرض في مدخل غرفة الدفن، وأما في عهد «منقرع» (من كاو رع) فقد أتيح لكثير من الأفراد أن ينقشوا جدران مقابرهم بالمناظر، وأن يقيموا فيها الأبواب الوهمية والتماثيل.

وهكذا يبدو أن خوفو قد حرم على الأفراد إقامة تماثيل لهم في مقابرهم حتى لا تؤدي لها الطقوس التي كانت تؤدي لتماثيل الآلهة والملوك، والتي كانوا قد بدأوا يؤدونها لتماثيلهم في عهد «سنفرو» على الأقل، وذلك ليصون للآلهة قداستها، ويحول دون ابتذال شعائرها وطقوسها،

(١) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٧٩-١٨٠، وكذا انظر:

J.P. Lauer, Le Probleme des Pyramides d'Egypte, Paris, 1948, p. 133-160.

(2) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 45.

وليمنع محاكاة الأفراد للملك فيما اتخذ من عادات وتقاليد كإله، حتى يظل الفرق بينه وبينهم كبير.

وقد وقف «خفرع» من ذلك موقفاً وسطاً، فأجاز الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل لكبار أفراد الأسرة المالكة، واكتفى بأن سمح لمن لا يمتون إليه بصلة القرابة الوثيقة بما يعرف بالرؤوس البديلة، على ألا يقيمونها بحيث يمكن أداء الطقوس لها، وحرّمها على غيرهم، ثم جاء «منقرع» فأباحها لمن يستطيع توفيرها في مقبرته.

ثم جاءت أجيال أساءت فهم ذلك وانحرفت به عن حقيقته، وساعد على ذلك ضخامة هرمى خوفو وخفرع، فصورت عصور الضعف السياسى والفنى، أن هذين الهرمين لا يتأنيان بغير عسف وظلم، فكانت قصة السخرة فى بناء الأهرامات^(١).

ومنها (سابعاً) أن هيرودوت، أول من نادى بقصة السخرة، إنما كان، كما أشرنا من قبل، لا يعرف من لغة المصريين كثيراً ولا قليلاً، ومن ثم فقد اعتمد على التراجمة، أو صغار الكهنة، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم، إن لم يقلوا عنهم فى المعرفة، كما أن الروايات التى سمعها هيرودوت إنما سمعها بعد مضى أكثر من ألفى سنة على بناء الهرم^(٢).

ولنتناقص الآن النظريات المختلفة التى دارت حول السخرة فى بناء الأهرامات، فى ضوء الحقائق التاريخية الأنفة الذكر.

(١) انظر : محمد أنور شكوى، الفن المصرى القديم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٩٦-٩٩٧، الحضارة فى مصر، القاهرة ١٩٦٣-١٩٦٤.

(٢) انظر : محمد أنور شكوى، الفن المصرى القديم، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٩٦-٩٩٧، الحضارة فى مصر، القاهرة ١٩٦٣-١٩٦٤.

(١) نظرية السخرة في بناء الأهرامات

لعل أشهر المنادين بالسخرة في بناء الأهرامات : هيرودوت اليوناني،
ومانيتر المصري، فضلاً عن بعض المؤرخين المسلمين.

أولاً - رواية هيرودوت:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الباحثين إنما يلاحظون على
رواية «هيرودوت» أول من نادى بالسخرة، والتي نقلناها آنفاً، عدة أمور،
بعضها إنما كان نتيجة اعتماده على الترجمة، وبعضها الآخر، ربما كان من
جهل، وربما عن سوء نية.

ومن ذلك (أولاً) قول هيرودوت : قال الكهنة... ارتقى العرش بعده
«كيوبس» (خوفو) الذي ساق المصريين إلى البؤس، وأغلق المعابد، ومنع
المصريين من التضحية، والمعروف أن حياة الكهنة إنما كانت تعتمد على
القرايين، ومن ثم فقد ذعروا حين حرّمها خوفو، وقد أعطاهم بناؤه الهرم
الأكبر الفرصة ليفتروا عليه وهكذا تظهر الحقيقة في رواية هيرودوت، إذ منع
الكهنة من الإبحار في الدين، ومن ثم فهم يكتون له البغض، وانتهزوا فرصة
وجود هيرودوت ليعلنوا بغضهم هذا.

ويدهى أن عصر خوفو ما كان أبداً عصر بؤس، ولو كان كذلك، لما
قدّر خلفاؤه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمراني الذي نرى آثاره فيما
تركوا، وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادي، وإنما تدل
شواهد الأحوال أن «خوفو» كان ملكاً قوياً نشطاً، ترك البلاد في حالة
اقتصادية مستقرة ساعدت ولده «خفرع» على بناء الهرم الثاني، وهو بناء
يكاد يمثل شرم أبيه في عظمته.

ومن ثم فأكبر الظن أن يكون ما سمعه هيرودوت - أن كان قد سمعه
حقاً - بقية من آثار الدعاية التي قام بها كهان الشمس، وآثارها حرباً على
البيت المالكي أيام الأسرة الرابعة، وشواهد ذلك بادية واضحة في ذلك
القصص الذي نطالع في القرطاس المعروف باسم «بردية وستكار»^(١).

(١) انظر: عن بردية وستكار: G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21F; A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, London, 1927, p. 36-46; R.D. Faulkner, JEA, 37, 1951, p. 114; A.M. Blackman, JEA, 22, p. 42F; G. Lefevre, Romans et Contes L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-77.

ومنها (ثانياً) زعم هيرودوت أن خوفو أجبر البعض على جرّ الأحجار من المحاجر الموجودة بالجبل الغربى (أى المحاجر التى تقع شرق النيل) حتى النيل، وأمر البعض الآخر باستلامها بمد نقلها فى السفن عبر النيل، وجرها إلى الجبل المسمى بالجبل اللبى^(١) (أى الهضبة التى أقيمت فوقها الأهرام)، وهذا يعنى أن جميع أحجار الهرم قد جئ بها من الضفة الشرقية للنيل، وأنهم حملوها فى سفن عبر النهر، ولكننا نعلم تماماً أن الهرم ذاته مشيد من الحجر الجيري المحلى، أى المأخوذ من الهضبة نفسها، ولم يستعملوا فى بنائه أحجاراً من محاجر الضفة الشرقية، إلا تلك الأحجار الجيرية البيضاء الجيدة النوع التى بنوا بها الكساء الخارجى للهرم^(٢).

ومنها (ثالثاً) زعم هيرودوت أن الترجمان قرأ له من نقش على الهرم: أن النفقات بلغت ١٦٠٠ تالت من الفضة، فهو زعم غير صحيح، ذلك لأن حاسبة التكاليف إنما هى من عمله هو، هذا فضلاً عن أن الفضة لم تتداول فى مصر، إلا بعد عهد «خوفو» بوقت طويل، وفى ذلك ما يدل على بساطة هيرودوت، فهو لم يخدع فى هذه فحسب، بل خدع غير مرة، ومرات^(٣).

ومنها (رابعاً) زعم هيرودوت بأن بناء الطريق الصاعد استغرق عشر سنوات، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين سنة، أى أنهما استغرقا معاً ثلاثين سنة وأن مدة حكم خوفو استغرقت خمسين عاماً^(٤)، مع أن النصوص القديمة تذكر أن «خوفو» حكم ثلاثة وعشرين عاماً فقط^(٥).

ومنها (خامساً) زعم هيرودوت أن خفرع تولى الملك بعد أخيه خوفو، وأن مدة حكمه ستا وخمسين سنة، وفى هذا الزعم خطأ، الواحد: أن خفرع لم يكن من أخوة خوفو، وإنما كان من أبنائه، كما كان ثانى خلفائه^(٦)، وربما كان ثالثهم، غير أنه من المؤكد أن «جد فرع» هو الذى

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٣٤٩.

(٢) أحمد فخري، الأهرامات المصرية، ص ١٧٧.

(٣) أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥.

(٥) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 434.

(٦) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٥.

خلف خوفو على العرش المصري، ولمدة سنوات ثمان^(١)، والآثار: أن «من
كاورع» (منقرع) الذي تولى بعد «خفرع» (نخع إف رع) لم يكن ابناً
لخوفو (كيوبس)، كما يزعم «هيرودوت»، وإنما كان من أحفاده.

ومنها (سادساً) زعم «هيرودوت» أن المصريين ما كانوا يرغبون مطلقاً في
تسميته «خوفو» و«خفرع»، لكرههم لهما، بل إنهم ليسمون الهرمين باسم
الرائي «فيليتيوس» الذي كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك
المنطقة^(٢).

والواقع أن هذا العهد التاريخي إنما تكذب هذا الادعاء، ذلك لأن اسم
«خوفو» إنما كان تسمية قوية لمن يحملها، ونرى هذا الاسم مذكوراً على
«جعلان» (جعارين) كثيرة كان يحملها المصريون القدامى كتمايم تحميمهم
مما يخافون شره، كما ارتبط اسم خوفو أيضاً بكثير من الأساطير، وأشهرها
تلك التي جاءت على «بردية وستكار»، هذا فضلاً عن أن الشعائر الدينية
والطقوس الجنائزية الخاصة بالملك خوفو، إنما ظلت قائمة عند ضريحه على
أيام العصر الصاوي (٦٦٤-٥٢٥ ق.م) كما ظلت كذلك على أيام الحكم
الفارسي، كما عثر على تماثيل لخوفو في معبد أبيدوس.

أضف إلى ذلك أن هناك آثاراً من العصر البطلمي (٣٢٣-٣٠ ق.م)
تشير إلى استمرار عبادته ووجود كهنة له حتى ذلك العصر، بل إن هرم
خوفو نفسه، ظل قروناً عديدة مركزاً لأكبر جبانة مصرية تحيط به، وبعد أن
«مضى على موت خوفو أكثر من أربعة قرون كان المصريون الذين ينتمون إلى
الطبقات الكادحة (وهم المسخرون بطبيعة الحال) يحرصون على إقامة
مقابرهم على مقربة من هرم خوفو.

وهكذا يبدو واضحاً، أن خوفو إن كان من العتاة المستبدين - كما
يزعم هيرودوت ومن تابعه في دعواه - لما ظلت ذكراه عالقة بأفئدة المصريين
طوال هذه القرون، ولما حرصوا على تقديسه بهذا الشكل، وطوال قرابة ستة
وعشرين قرناً^(٣).

(١) انظر: محمد ييومي مهران، مصر، الكتاب الأول، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧.

(٣) محمد ييومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ٨٥، أحمد بدوي، المرجع السابق،
ص ٢٥٧، الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ١٩٦٠م،
ص ٦٢-٦٣، أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٥٠.

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 78.

وأما نسبة هرمى خوفو وخفرع إلى الراعى «فيليتيوس»، فهى موضع شك، وحتى لو سلمنا بصدق رواية هيرودوت فقد لا يعدو سببها فى الأغلب الأعم، سوى ملازمة ذلك الراعى منطقة هذين الهرمين، كما سُمى الناس فى العصر الحديث أحد الأهرام باسم «هرم الشواف»، وذلك لأن اللصوص من نباشى القبور قد استخدموه مرقباً، لرصد حركات الحراس، ولسنا نستبعد آخر الأمر أن يكون اسم «فيليتيوس» Philitis اسماً مصرياً مؤغرقاً^(١).

ومنها (سابعاً) رواية هيرودوت عن «منكاورع» الذى لم يرض عن أعمال أبيه (جده لا أبيه) ففتح المعابد وسمح للشعب بأن يمارس أعماله ويتقدم الأضحيات، فكانت الأحكام التى يصدرها أعدل من أحكام سائر الملوك، ومن ثم فقد أحبه الشعب دون سائر الملوك السابقين، كما كان يعطى تعويضاً من ماله الخاص كل من لم ترضه أحكامه، ويهدئ ثورة غضبه، وفجأة توفيت ابنته الوحيدة، فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب، ثم دفن ابنته فيها، وأن هذه البقرة لم تزل حتى عهده (أى عهد هيرودوت، ٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) فى مدينة «سايس»^(٢) فى القصر الملكى، يحرقون طول النهار بجانبها مختلف أنواع البخور^(٣).

وفى الواقع أن هذه الرواية تلخص عدة أمور، منها بقية من آثار الدعاية التى أثارها أصحاب مذهب هليوبوليس، فقد كان منكاورع أول من يسمون أنفسهم «ابن الشمس» (ابن رع = سارع)، ثم سار على منواله من أتى بعده، وإن أصبح لقباً دائماً من ألقاب ملك مصر، منذ عهد «نفريركا رع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة، ومنها الخلط بين الملك «منكاورع» وبين الملك «بوخوريس» ملك سايس فى الأسرة الرابعة والعشرين.

ومنها أن التابوت الذى على هيئة بقرة ربما مرجعه أن الناس كانوا

(١) أحمد بدوى، هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧.

(٢) سايس: كانت عاصمة الإقليم الخامس من أقاليم الدلتا، ويسمى «نيت» بمعنى إقد. «نيت» الشمالى، وعاصمة لمصر فى العصر الصاوى، وهى فى المصرية «سار»، وفى اليونانية «سايس»، وفى العصر الحديث «مها الجديدة»، على مبعده ٧ كيلاً شمال بسيون بمحافظة الغربية، وقد سميت فى العصر الصاوى «حات انب حج» بمعنى قصر الحائط الأبيض، وهو اسم المقر الملكى فى منف. (انظر: محمد بيومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، ص ١٧١)، وكذا: J. De Rouge, op.cit., p. 25; P. Lacau et H. Chevrier, op.cit., p. 233.

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر، ص ٢٥٧-٢٥٩.

بيرون سوراً ورسوماً على نوايت العصور المتأخرة، ومن بينها ما يشتمل على جنة الميت محمولة على ظهر بقرة، ومنها أن الجبانة التي كان يجب أن تدفن فيها ابنة منكاورع (من كاورع)، إن صح أن ينظر إلى مثل هذه القصة. إنما هي جبانة الجيزة، حيث مدافن الأسرة، ولم يكن هناك من داع مطلقاً إلى نقائها إلى سايس، وليس من المقبول أن نتصور أن الأجيال قد احتفظت بتأبوت ابنة منكاورع حتى أيام هيروdot، كما أنه ليس من المعقول أن يوضع تابوتها في القصر الملكي، ليحرق فوقه البخور، وتضاء من حوله المصابيح^(١).

وأخيراً منها (ثالثاً) ذلك الافتراء الدني من هيروdot حين صور «خوفوه» وقد بلغ من سوء الخلق أقصى حد، إذ أنه بعد أن نفذت ذخائره واحتاج إلى المال، وضع ابنته في مأخور لتحصل له على قدر من المال، فحصلت له عليه، بيد أنها رغبت أيضاً في أن يكون لها أثر خاص بها، فكانت تطلب من كل رجل يزورها أن يهدي إليها حجراً، وأنها شيدت من هذه الأحجار الهرم الذي يقع وسط الأهرامات الثلاثة، بجانب الهرم الأكبر^(٢).

ومن البدهي أن أقل الناس حظاً من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم، وإيمانهم بالقيم الإنسانية، واعتبارهم الزنا من كبائر الإثم، التي يجازى مرتكبها بالموت، لا يستطيع أن يصدق زعم هيروdot الكذوب هذا، ثم كيف يتفق هذا مع وصف هيروdot لخوفوه بالطغيان والجبروت؟ أما كان في استطاعة هذا الطاغية أن يجبر الناس على إكمال هرمه، الذي يزعم هيروdot أنه سخر الناس فيه عشرين سنة، فضلاً عن سنوات عشر في طريقه الصاعد؟ وإذا لم يستطع ذلك، أليست هناك وسيلة غير تلك التي يأبأها أحط الناس، وهو الملك المؤله، والذي بلغت الملكية الإلهية في عهده، قمة سطوتها، وعنفوان قوتها، في تسلطها على شعبها، وإيمانها بنفسها، وإيمان شعبها بها.

وعلى أية حال، فالرواية لا تستحق، فيما أظن، حتى مجرد التعليق

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.

عليها، وإن كانت تشير إلى مستوى كاتبها، أو على الأقل إلى مستوى مصادره التي نقل عنها، فضلا عن شعوره نحو الملوك المصريين.

ثانياً - رواية مانيتو:

لعل مؤرخنا المصري الكبير، قد وجد الكثير من الروايات التي تركها كهان «رع» ضد نخوفو وأسرته، كما رأينا من قبل من روايات هيروودوت وعلى أية حال، فإن رواية مانيتو عن السخرة وكراهية المصريين لنخوفو، إنما كان سببها الكره التقليدي الذي ورثه الكهنة جيلاً بعد جيل لنخوفو، ومانيتو، كما هو معروف، إنما كان كاهناً قبل أن يكون مؤرخاً.

ثالثاً - رواية المؤرخين المسلمين:

اعتمد المؤرخون المسلمون على وصف القرآن الكريم لفرعون موسى بالطغيان والجبروت^(١)، فضلاً عن ادعائه الألوهية من دون الله^(٢)، وربما اعتمدوا كذلك على روايات التوراة ومسلمة أهل الكتاب، والذين نشأوا على كره مصر والمصريين، حتى أن بنى إسرائيل إنما يعتبرون يوم خروجهم من مصر عيداً لهم، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح» يحتفلون به كل عام في الرابع عشر من أبريل (نيسان)، ويسمون مصر «أرض العبودية»، حيث استعبد أسلافهم هناك.

غير أن طغيان الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام (والذي جاء بعد «نخوفو» صاحب الهرم الأكبر، بأكثر من ألف وخمسمائة عام) شيء، وبناء الأهرامات بالسخرة شيء آخر، ذلك أنه إذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد وصف الفرعون الذي عاصر موسى، في القرآن الكريم، بالطغيان والجبروت، وتجاوز عن ذكر اسمه، فإننا - والحمد لله، نؤمن بالإيمان، كل الإيمان، بما جاء في كتاب الله الكريم، كما نؤمن كذلك عن عقيدة، لا تزعزعها السنوات الطوال، ولا الخطوب الجسام، بأنه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»^(٣).

(١) انظر: سورة يونس، آية: ٨٣؛ طه، آية: ٢٤، ٤٣، ٧٩؛ سورة الشعراء، آية: ١١؛ القصص، آية: ٤؛ الذاريات، آية: ١٧.

(٢) انظر: سورة الشعراء، آية: ٢٩؛ القصص، آية: ٣٨؛ سورة النازعات، آية: ٢٢-٢٤.

(٣) سورة فصلت، آية: ٤٢.

ولكن ليس من المنطق، فضلاً عن العدل، أن نعمم صفات الفرعون الذي عاصر موسى، على كل الفراعين المصريين، والذين حكموا مصر قرابة الالف ثلاثة من الأعوام (من الملك مينا حتى الإسكندر المقدوني = ٣٢٠٠-٣٣٢ ق.م)، فالحكام في كل زمان ومكان، وأيا كانت ألقابهم، يظهر منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم، شأنهم في ذلك شأن بقية جنسهم من بنى الإنسان، ومن ثم فوجود فرعون عاصر نبي الله موسى عليه السلام^(١)، ليس معناه أن كل الفراعين على شاكلته.

ثم إن اصطلاح «فرعون» إنما يعنى، كما أشرنا في أول هذه الدراسة، «حاكم مصر»، ويدهى أنه ليس بالضرورة أن يكون كل حاكم لمصر ظالماً جباراً، كما أنه ليس بالضرورة أيضاً، أن يكون كل من يحمل لقب «خليفة» مثلاً، عادلاً صالحاً، وكما في عصرنا الحاضر، فإن ألقاب رؤساء الدول قد لا تدل على نوع الحكم الذى يمارسونه مع شعوبهم، وربما يكون كثير ممن يحملون أكثر الألقاب بريفاً، وأشدّها قرباً من الشعب، أكثرهم جبروتاً وطغياناً، وقد يكون العكس صحيحاً.

وفى الواقع، فإن المؤرخين المسلمين، ومن تابعهم فى العصر الحديث من مرتزقة التاريخ، أولى الناس بمعرفة تلك الحقيقة وإلا لحكموا على الخلفاء الراشدين، الهداة المهديين، رضوان الله عليهم، بل وحتى معاوية ابن أبي سفيان، مؤسس دولة بنى أمية، بما حكموا به على ولده الطاغية الفاجر «يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»^(٢)، وهو الذى خلفهم فى حكم المسلمين،

(١) انظر عن اسم الفرعون الذى عاصر موسى، والآراء التى دارت حوله، وما يرجع من أنه «مرنباح» محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الأول، التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٣٥٧-٤٣٩، وانظر طبعة ١٩٩٩ م.

(٢) لن ينسى التاريخ لهذا اليزيد، الذى أبلى به الإسلام والمسلمون، أنه قاتل آل النبى، ﷺ، وعلى رأسهم مولانا الإمام الحسين، سبط النبى، فى كربلاء، وأنه الذى استباح مدينة سيدنا رسول الله، ﷺ، ثلاثة أيام، تجرى فيها دماء الصحابة والتابعين، بيد السفلة من جيوش يزيد، وأنه هو الذى استباح مكة المكرمة والمسجد الحرام، ثم إن يزيداً هذا ظل، كما كان أبوه، وكما سيكون خلفاؤه من الأمويين (غير عمر بن عبد العزيز) يأمرون الناس بلعن سادة أهل بيت النبى الكرام، وعلى رأسهم الإمام علي والإمام الحسين، على منابر المسلمين فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية، والعياد بالله، ثم يستفتون من يفتيهم من مرتزقة السلطان، بإهدار دمايتهم، وصواب عقابهم بما أصابهم. (انظر: محمد بيومى مهران، الإمام الحسين، سبط النبى وسيد شباب أهل الجنة)؛ وانظر: محمد بيومى مهران، سلسلة «فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين»، عشرة أجزاء، بيروت ١٩٩٠ م.

والعكس صحيح، أعني، وإلا لحكموا على خلفاء بنى أمية بالورع والتقوى، والعدل والاستقامة، لأن منهم الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز».

وهكذا تبدو رواية السخرة هذه، ليست فوق مستوى الشبهات، بل هي نفسها شبهة، ألصقها هيرودوت، بخوف العظم، ثم عمت على كل الفراعين في سياستهم البنائية الدينية، دون أن يكون لها نصيب من صواب.

(٢) نظرية القضاء على البطالة

هناك وجه آخر للنظر، يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك العمل الهائل الذي كان يستلزمه بناء الأهرامات الضخمة، نوع من الإحسان الاستبدادي يقوم به الفراعين نحو رعاياهم، ذلك أن بناء الهرم إنما كان يتم في وقت الفيضان، حين لم يكن هناك عمل زراعى يقوم به الفلاحون، لأن المياه كانت تغمر الأراضى، وكانت الأماكن التى يعيشون فيها تشبه الجزر، وكان أجورهم إطعامهم وكساءهم، وكان العمال العاطلون ينقلون الأحجار من منطقة الهرم نفسها، وأحجار الكسوة من طره، ويأخذون لقاء ذلك خبزهم وكساءهم، وليس فى هذا لون من ألوان السخرة والاستبداد^(١).

وهكذا كان الملك يتوسع فى إقامة منشآت عامة، أهمها هرمه، فى زمن بطالة الفلاحين أيام الفيضان، فيهيئ بذلك عملا لآلاف الفلاحين، فى مقابل أن تقوم الدولة بإيوائهم وتغذيتهم وكسوتهم على نفقتها.

غير أن هناك من يعارض هذا رأى القائل بأن تشييد الأهرام، ليس إلا مشروعاً لإنقاذ آلاف الناس من البطالة، ويرى أنه رأى غير معقول أو مقبول، لأنه رأى حديث جدا^(٢).

والرأى عندى أنه ليس هناك ما يمنع قبوله، وإن كنا لا نملك أدلة تؤيده، فضلا عن أننا إنما نحكم على أحداث مضت عليها قرابة آلاف، خمسة من السنين، بمقاييس عصرنا الحاضر، على أننا فى الوقت نفسه، إنما نحرم الفرعون، بمعارضتنا لهذا الاتجاه، من العمل لمصلحة شعبه، وهو

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٢) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 84.

أهم واجبات الفرعون، لا بحكم رياسته للدولة ومسؤوليته عن رعايته شعبه فحسب، بل بحكم كونه ملكاً مؤلفاً أيضاً، فقد كان الملك يتقيد في سياسته بتعاليم «الماعت» وهي إلهة رمز المصري بها إلى كل المثل العليا التي يجب على الحاكم أن يراعها في تنفيذ سياسته في الحكم، وهي العدل المطلق والصدق الكامل والرحمة، والقسوة مع المذنب، وكانت هذه المعاني هي الرائد لكل ملك، وهي الإطار الذي يتحرك فيه كماله عاش بين الناس يحكمهم، ويوجههم إلى الخير، ويمنعهم عن الشر^(١).

بل إن ألوهية الملك إنما كانت مرتبطة إلى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها، وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأنه في أية فترة من الفترات التي كان يضعف فيها الحكم كان القطران (الصعيد والدلتا) ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر، ولم يمسك عليهما وحدتهما إلا اعتمادهما المشترك على مياه النيل^(٢).

وبدهى أنه ليس هناك ما يمنع الفرعون من العمل على رفاة شعبه، وإيجاد عمل لآلاف الشباب العاطلين في أيام الفيضان، وخاصة في عصر كانت الزراعة فيه هي الحرفة الأساسية، إن لم تكن الوحيدة. في القرية المصرية، وفي نفس الوقت، فإن الفرعون يستفيد بوقت فراغ القادرين على العمل في بناء هرم له.

رحتى يثبت ذلك، فالرأى عندي أن استمرار بناء الأهرام حتى نهاية الدولة القديمة إنما يجعل الباحث المنصف يتردد كثيراً في قبول وجهة النظر هذه، حتى إننا نرى في الأسرة السادسة، كما سنفصل فيما بعد، أن الملوك، رغم ضعفهم ونقص موارد الدولة على أيامهم، يسيرون على سنة الدولة القديمة من أسلافهم من الفراعين العظام في بناء أهرامات يدفنون فيها، بل إن الملك «بيي الثاني»، والذي وصلت البلاد في عهده إلى مرحلة تنذر بالخطر، لم يكتف ببناء هرم له، وإنما بنى - إلى جانب مجموعته الهرمية - أهراماً ثلاثة لثلاث ملكات من زوجاته وهن : «نيت» و«إيبوت» و«أوجبتن»، بما كلف الدولة ما لا تطيق، وكان ذلك واحداً من أسباب الثورة الاجتماعية

(١) الموسوعة المصرية، ١١٧/١.

(2) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 45-46.

الأولى، وإن كان عهد خوفو وخفرع، يختلف كثيراً عن عهد «ببي الثانى»، مما يجعل بناء الأهرامات فى عهديهما، يختلف عنه فى عهد خلفائهم الضعاف، من حيث قوة الملوك، وموارد الدولة، على الأقل.

ومع ذلك تبقى هذه النظرية مجرد فرض، حتى تمدنا الوثائق بما يؤيدها، أو يقف حائلاً دون قبولنا لها.

(٣) النظرية الدينية

هناك وجه ثالث للنظر، يذهب أصحابه إلى أن الملك المصرى إنما كان إلهاً فى نظر شعبه^(١)، كان إلهاً كغيره من الآلهة الذين فى السماء، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض ليحكمها، ويسعد الناس بوجوده بينهم، فإذا تذكرنا ذلك، وتذكرنا أن المصرى كان شديد التدين، لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون فى القرى النائية بعيداً عن المدن، أن تتاح لهم فرصة على أيام الفيضان، وفى أيام الضيق المادى، وفى الوقت ذاته، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها، ويمتعوا الطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شئ لإلههم الملك عسى أن يكون فيه قربى ورحمة بهم، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة^(٢).

وقد آمن المصريون بأن الملك إله كغيره، أقام فى مصر ليحكمها، ويسع دالمحكومين فيها، كما آمنوا بأنه يستحق قرباناً عظيماً يقدمونه إليه بجهودهم، فقد أضيف إلى ذلك أن المصرى كان ولا يزال إنساناً متديناً بطبعه، فيجب علينا أن نعيد النظر فى موضوع السخرة هذا، وعلينا أن ننحو نحواً آخر فى تفسير بناء الأهرامات.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى حقيقة هامة، دينية وتاريخية، قبل أن نقدم التفسير الدينى لبناء الأهرام، تلك الحقيقة أن القران الكريم إنما

(١) انظر عن «نظرية ألوهية الملك فى مصر»؛ محمد يومى مهران، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ١١٩-١٣٦.

(٢) أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، ص ١١٢، وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 73.

حدثنا في قصة موسى مع فرعون عن «الملكية الإلهية في مصر الفرعونية»، وأوضح أن ألوهية الفرعون إنما كانت موضع جدل شديد مع النبي الكريم والملك الفرعون، بل إن تلك الألوهية المزعومة إنما كانت الصخرة التي تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما، بل إن الفرعون إنما يهدد النبي نفسه «لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين»^(١)، ثم يعلن للناس عامة «ما علمت لكم من إله غيري»^(٢) وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى، ما كان منه إلا أن رفض الدعوة كلها «ثم أدبر يسعي، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى»^(٣).

ثم هناك أمر آخر، يتصل بواجبات الملك نحو شعبه في الحياة الأخرى، ذلك أن المصريين إنما كانوا يعتقدون أن الملك المؤله لا يمكن أن يموت، وإنما يبدأ حياة خارقة للطبيعة، حياة يكون فيها الوسيط بين الأموات من الناس وبين الآلهة، فيظل الحامي والشفيع الذي يرعى الموتى، كما كان يرعى الأحياء.

ومن هنا جاءت لهفة القوم على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى، ولتهيئ له وسائل خاصة ملائمة وخالدة، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس في سقارة وأبيدوس، إنما تشهد على أن المصريين منذ عهد الأسرة الأولى كانوا يعلقون أهمية كبرى على شفاعته الملك الميت ليس عند الآلهة^(٤).

وانطلاقاً من كل هذا فعلينا، حين نناقش النظرية الدينية أو التفسير الديني لبناء الأهرام، أن نتذكر أن الفيضان إنما كان يغمر الأراضي ويجعل الفلاحين بدون عمل، فإذا صبح من أهل القرى النائية، يأتون إبانة لزيارة معابد الآلهة للتبرك، أو ربما كان ذلك من شعائر دينهم^(٥)، إن صبح ذلك،

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) سورة القصص، آية: ٢٨؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٦٢٢/٣، تفسير النسفي ٢٣٧/٣، في ظلال القرآن ٢٦٩٤/٥-٢٦٩٥؛ صفوة التفاسير ٤٣٤/٢؛ تفسير القرطبي، ص ٥٠٠٥-٥٠٠٤.

(٣) سورة النازعات، آية: ٢٢-٢٤.

(٤) عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٤٠-٤١.

(٥) حاول بعض الباحثين في علوم اللاهوت والاجتماع والآثار، أن يحصروا الدين في نطاق الأديان المستندة إلى الوحي السماوي، والتي تتخذ معبوداً واحداً، هو الخالق المهيمن على كل شيء، ومن ثم فالديانات الطبيعية المستندة إلى محض العقل، والديانات الخرافية التي هي وليدة الخيالات

وليس هناك ما يمنع صحته، فإن القادمين وقد أدوا واجبهم نحو الآلهة، إنما يبقى أمامهم واجب يؤدونه نحو الإله الجالس على الدرش، وكان هذا الواجب هو المشاركة في بناء مقبرة الإله الملك.

وربما يبدو ذلك خيالا بالنسبة للغربيين، وربما كان كذلك بالنسبة لسكان المدن عندنا، وربما لأولئك الذين لا يؤمنون بتفسير التاريخ تفسيراً للروحانيات شأن فيه، ولكن الأمر يختلف كثيراً بالنسبة لسكان القرى، والذين شيد أسلافهم هذا الطود الشامخ وغيره من آثارنا، فلا يزال أبناء القرى يتسابقون حتى الآن، إن دعى الداعى إلى بناء بيت من بيوت الله، يتساوى في ذلك العالم والجاهل، الغنى والفقر، الحاكم والمحكوم، الشيوخ والشباب، ثم هناك مثل آخر، تأخذه من تحمل المشاق في زيارة الأماكن المقدسة - في مكة المكرمة والمدينة المنورة - وإنفاق المال عن رغبة، وإن كان صاحبه على غير ميسرة.

ومن البدهى أن كل ذلك وغيره كثير، إن دل على شيء، إنما يدل على رسوخ العقيدة الدينية في النفوس، والإيمان الكامل بأن في ذلك قربي إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا كنا نفعل ذلك في القرن العشرين بعد الميلاد، هذا القرن الذى طفت فيه على أذهاننا فلسفة المادية ومنطقها، فلماذا نرفض الشيء نفسه، إن أتى من المصريين القدامى؟ مع الفارق بالطبع بين عقيدتنا وعقيدتهم، أعنى أننا - والحمد لله - نؤمن بالله الواحد الأحد، وهم يؤمنون بالوهية فرعونهم، الإله العظيم أو الإله الطيب، ابن رع، كما يسمونه، أو كما يسمى هو نفسه، كما تقول النصوص المصرية القديمة.

بل إن هناك مثالا نقدمه من خارج مصر، من بلاد العرب، لهؤلاء الذين يكرهون مصر، ولا يرون في كل تاريخها - وخاصة القديم منهم - إلا

والأوهام، وكل ديانة تقوم هي أو جانب منها على عبادة التماثيل أو عبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة.... إلخ. تخرج بمقتضى اتحادات هؤلاء الباحثين عن أن تكون ديناً، مع أن القرآن الكريم قد سماها ديناً، وذلك حين يقول سبحانه وتعالى ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ بل إن القرآن الكريم إنما يسمى معتقدات الآخرين ديناً، حتى إن كان هذا الدين هو الكفر ذاته، وذلك حيث يقول ﴿لكم دينكم ولى دين﴾. انظر: سورة آل عمران، آية ٨٥، سورة الكافرون، آية: ٦، محمد عبد الله دراز، الدين، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٥-٣٥، محمد يوسى مهران، الديانة العربية القديمة، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٦-٩.

الكفر والبهتان، وإلا الظم والطغيان، وكان العالم وقت ذاك كان كله، غير
«سمر» يدين بعقيدة التوحيد، ويحكم بشريعة الإسلام، ويعيش الناس فيه
بنميمة، سراسية كأسنان المشط، كلهم لآدم، وآدم من نراب.

وأما المثال، فهو إعادة بناء الكعبة المشرفة في عام ٦٠٥ م أو ٦٠٦ م،
وقبل البعثة النبوية الشريفة بخمس سنوات، بعد أن جرف مكة سيل عرم،
انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فلم تر قريش بداً
من أن تجدد بناءها حرصاً على مكانتها، وتذهب الروايات إلى أن القرشيين
إنما كانوا يصرون على أن ينوا البيت الحرام من كل طيب، حتى قال
قائلهم: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيائنا من كسبكم إلا طيباً، ولا
تدخلوا فيها مهر بنى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس» كما أصرَّ
القوم على ألا يشترك في البناء غير سادة قريش ورجالاتها الكبار، ذلك لأن
بناءً رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من قواعده قبل قرون سحيقة، لا
يوكل أمره إلى صغار الفعلة، ولا الغرباء، ومن ثم فلا غرو إذا أقبل على
البناء الشيوخ وأهل الصدارة، وعلى رأسهم السادة من بنى هاشم، رط
النبي ﷺ، وقد اشترك سيدنا رسول الله ﷺ، بنفسه وأعمامه في البناء^(١).

ولعل سائلاً يتساءل: ما علاقة بناء الكعبة ببناء الهرم؟

والجواب: إن العلاقة دينية، فالكعبة^(٢) عند قريش بيت الله بناه أبيهم
إبراهيم عليه السلام، فهي مقدسة عندهم، غير أن الكعبة وقت ذاك إنما
كانت «اجاً للأصنام»، حتى أن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، إنما
وجد بها يوم فتح مكة عام ٨ هـ / ٦٣٠ م (٣٦٠) صنماً، ذلك أن قريش
رغبة منها في اجتذاب القبائل العربية، أجازت للقبائل أن تنصب أصنامها
عند الكعبة، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين
لها^(٣).

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣٨٧/٢ - ٣٩٠، تاريخ ابن الأثير ٤٤/٢ - ٤٥، البداية والنهاية لابن كثير
٢٩٩/٢ - ٣٠٤، سيرة ابن هشام ١٩٥/١ - ١٩٩، طبقات ابن سعد ٩٣/١ - ٩٥، تاريخ
الدمعيس، ص ١٢٦ - ١٣١، أخبار مكة للأزرقي ١٥٧/١ - ١٦٤، المقدسي، كتاب البدء
والتاريخ ١٣٩/١ - ١٤٠، ياقوت الحموي ٤٦٦/٤، مروج الذهب للمسعودي ٢٧١/٢ - ٢٧٢.
(٢) قدّم المؤلف دراسة مفصلة عن الكعبة، انظر: محمد يومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن
الكريم، الجزء الأول، الرياض ١٩٨٠، ص ١٨١ - ٢٣٥.
(٣) انظر: تاريخ يعقوبى ٢٥٤/١ - ٢٥٥، الروض الأنف للسيهلي ٢٧٦/٢، أخبار مكة للأزرقي

فالأمر إذن أمر عقيدة يفسرها الناس في كل عصر بحسب إيمانهم بها، وعلى قدر تمسكهم بشعائرها، فلا غرابة إذن أن يبنى المصريون القدماء للملك هرمًا، حتى ولو كان هذا الهرم هو «هرم الجيزة الأكبر»، ذلك لأن الملك إنما كان يعتبر إلهًا على قدم المساواة مع الآلهة الأخرى، وأنه يمثلهم على سطح الأرض، وأنه في مماته يحكم الآلهة والبشر، وأن جسده مقدس، وأنه روح الدولة وقوامها.

هذا فضلًا عن أن خوفو وخفرع كان لهما فوق ذلك، من قوة الشخصية وحسن الإدارة، ما رفع من شأنهما لدى الشعب وزاد في تقديسهما، وكانت خزائن الدولة مليئة بما كان يسمح بالصرف، كسءاء وغنائم، على أعداد جمة من الفنانين والعمال في وقت ساد فيه الأمن والسلام في البلاد، وقد توفر آنذاك من البنائين والفنانين والعمال المدربين عدد وافر اكتسبوا خبرة ممتازة فيما أنشأوا من قبل من منشآت، وكان النيل يغمر الحقول ثلاثة أشهر طوال كل عام، ولم يكن للفلاحين والعمال خلالها من عمل يذكر.

وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة خوفو وخفرع في أن ينشئا هرميهما، وقد تفانى العمال والفنانون عن عقيدة وإيمان في بناء كل منهما، باعتباره عملاً دينياً وسياسياً معاً، فيه ما يحفظ على الدولة نظامها وقوامها^(١).

وانطلاقاً من كل هذا، فإننى أميل إلى أن بناء الأهرام، إنما كان عن عقيدة، ولم يكن عن سخرة، وهذا لا يمنع من أن الملوك قد انتفعوا بالقوى المعطلة على أيام الفيضان، فاخترأوه وقتاً لبناء أهراماتهم، على أن يؤدوا للعاملين فيها طعامهم وكساحم، وأما القول بأنه كان من الأفضل استغلال هذه الجهود - البشرية والمادية والفنية - في عمل عام ينتفع به المصريون جميعاً فهذا ما كنا نأمله، وليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ثم إنه من الخطأ الحكم بمقاييس عصرنا، على عصور مضت منذ خمسة آلاف عام.

١٣٠/١-١٣١: ابن الكلبي، كتاب الأصنام، ص ٢٧-٢٨، محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، الرياض ١٩٧٧م، ص ٤٢١-٤٢٢، الحضارة العربية القديمة، الطبعة الثالثة، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ٤٨٥-٥١٢.
(١) محمد أنور شكرى، المرجع السابق، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٤) الأسباب السياسية:

ترجع أسباب الثورة السياسية إلى ضعف الملكية، وتخاذلها أمام حكام الأقاليم، وقد بدأ هذا الضعف منذ منتصف الأسرة الخامسة - كما أشرنا من قبل - ثم اشتد في الأسرة السادسة، وخاصة على أيام «ببي الثاني» الطويلة، مما دفعه إلى أن يعين وزيرين، الواحد الصعيد، والآخر للدلتا^(١)، أملا في أن يساعده على حماية عرشه، ورغم ذلك فقد استمر الحكم في فرض الفرائب الفادحة، وامتنعوا عن توريدها إلى بيت المال، حتى أصبحت الحكومة في متف شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها، وممارسة حقوقها، والقيام بمسئولياتها، فتوقف إرسال البعثات إلى المناجم، وتجدد خطر الهجرات الآسيوية فيما وراء الحدود الشرقية، مما أدى آخر الأمر - بجانب عوامل أخرى - إلى قيام الثورة.

(٥) الأسباب النفسية:

في أخريات أيام الأسرة السادسة، بدأ الشعب يفقد ثقته في حاكميه، فلقد أصبحت الملكية ضعيفة، والكهانة مستغلة، والإقطاع ينافس الجميع في استغلاله، وهنا يحس الشعب أن عليه أن يتحرك، هذا التحرك هو ما يعن للباحث أن يسميه الإحساس بالظلم، فالثورات تقوم عادة حين يحس الناس بالظلم وهذا ما حدث في ثورتنا هذه، عندما أحس الشعب بالدور الذي يجب أن يقوم به ليخلص عن رقابه ظلم الملكية، وفساد الكهانة، وسوء استغلال الحكم وكان ذلك نتيجة وعي شعبي دفع الثائرين للقيام بثورتهم، فالشعب يثور عادة لأنه يحس بالغبن، وهو لا يصل إلى هذه المرحلة إلا حين يرتفع لديه الوعي والإدراك، فالشعوب الجاهلة لا تثور، وإنما تقوم الثورات بين قوم يستطيعون أن يقدروا مدى ما يحيط بهم، ويدركوا من الأمور خيرها وشرها، وليس من شك في أن الشعب المصري كان قد بلغ إذ ذاك هذه المرحلة، فأحس بوجوب تغير الأوضاع التي درج عليها لأنها لم تعد تتفق ومطالبه الجديدة في الحرية والحياة، ولم تعد تتفق وما ينشده من عز وكرامة، يرى أنها جميعا أصبحت عناصر لازمة لمقومات كيانه^(٢).

(1) H.Stock, Die, Ernte - Zwischenzeit, Agyptent, Rome, 1949.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٦) الأسباب الخارجية:

كان للثورة أسباب خارجية - بجانب الأسباب الداخلية - والتي ربما كانت نتيجة للانهييار الداخلي، مما أدى إلى التسلل الأجنبي إلى البلاد، والذي سيطر على جزء منها فترة من الزمن، إلا أن هذا الدافع من دوافع الثورة إنما كان أقسى دوافعها، حتى إن المصريين المعاصرين إنما كانوا يعزون حالة الانهييار التي أصابت البلاد، إنما كانت بسبب وجود آسيويين جامحين في الدلتا المصرية.

وقد قام جدل طويل بين المؤرخين حول هؤلاء الآسيويين الذين هبطوا مصر في غفلة من الزمن، فذهب فريق من المؤرخين إلى أنهم غزاة أتوا إلى مصر عن طريق غزو مسلح، نتج عنه احتلال أجنبي للدلتا، بينما ذهب فريق آخر إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تسلا لقبائل آسيوية من تلك القبائل الفطاعة أو المرتجلة حول الحدود المصرية كان «سير فلندرز بترى» أول من نادى بأن قوماً من شمال سورية قد غزوا مصر في نهاية الأسرة السادسة، ثم تسللوا إلى داخل البلاد حتى مصر العليا، وأنهم قد حكموا على أيام الأسرتين السابعة والثامنة، وإن الأسرتين التاسعة والعاشر قد وضعتا حداً لسلطانهم^(١)، ويذهب الدكتور الناضوري^(٢) إلى أن هناك تحركات سامية كانت من الأسباب التي أنهت الأسرة السومرية الثالثة في مدينة «أور»، بل إنها لم تقتصر في اتجاهها نحو جنوب العراق القديم، وإنما ظهرت شعبة سامية أخرى اتخذت طريقها نحو شبه جزيرة سيناء، واستقرت في شرق الدلتا أثناء عصر الانتقال الأول.

ويتابع «جيمس بيكي» (١٨٦٦-١٩٣١) مواطنه «فلندرز بترى» في دعواه، فضلاً عن غزو آخر أتى من الجنوب في أوائل هذه الفترة، وأدى إلى أن يستوطن طيبة، ذلك الجنس الذي أعطى مصر فيما بعد سلسلة الملوك الذين نعرفهم في الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وأن الصفات النوبية

(١) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 120; H. Frankfort, Egypt and Syrie in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 88.

(٢) رشيد الناضوري، جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨م، ص ٢٨٠.

فى دم الملوك «متروحتب» و«أمنمحات» و«سنوسرت» من هاتين الأسرتين، إنما يبدو واضحاً فى وجوه هؤلاء الحكام، كما أن هناك عنصراً ثالثاً قد نجح فى أن يؤسس لفترة قصيرة مملكة محدودة مزعزعة فى منطقة تمتد من الفيوم وحتى ثنى وأبيدوس، واستمر القادمون الجدد مسيطرين على هذه الأماكن المقدسة لفترة قصيرة^(١).

وهناك فريق ثان من المؤرخين يذهب إلى أن ذلك لم يكن غزواً، وإنما كان تسلاً، وأن الأمر إنما كان مقصوراً على حدود الدلتا الشرقية، فالدكتور «جون ويلسون»^(٢) يرى أنه لا يوجد شك فى أن الآسيويين قد أقاموا بالدلتا، وأن الوثائق الأدبية - وكذا الأدلة الأثرية^(٣) - إنما تثبت دخول عناصر آسيوية الأصل إلى مصر فى تلك الفترة، وهناك فقرات فى تحذيرات «إيسو - ورا» تثبت الدور الذى لعبه الأجانب بحيث اختزلت مصر الحقيقية إلى الصعيد فقط^(٤).

غير أن هذا كله، لا يعنى أن الدولة القديمة قد سقطت بغزو أجنبي آسيوى، أو أن هذا الغزو كان سبباً فى ظهور العناصر الجديدة التى عمت فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، إذ أن ذلك خلط بين السبب والنتيجة، فليس هناك من ريب فى وجود اضطرابات وتغيرات فى الحالة فى آسيا، ولكن لم يعبر جيش محارب صحراء سيناء، ويغزو مصر، ويقضى على الدولة فيها، وإنما الصحيح أن الدولة قد انهارت من الإجهاد الداخلى، فتركت الحارث مفتوحة بدون حماية، فتدفق الآسيويون المهاجرون بصفة مستمرة، واستقروا فى الدلتا، ولم تمض غير قرون قليلة حتى أصبح عددهم كافياً ليستقلوا بأنفسهم، مما جعل ملوك إهناسية يقومون بإجراء حربى ضدهم^(٥).

ولعل «وليم هيز» إنما يرى نفس رأى، ذلك أن الانهيار الذى أصاب

(1) W.M.F. Petrie, op.cit., p. 126-128; J. Baikle, A History of Egypt, I, London, 1929, p. 221; H.R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1993, p. 295.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 110.

(3) H. Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 88, 92; W.M.F. Petrie, Scrabs and Cylinders with Names, London, 1917, pl. 10, p. 7-10.

(4) A.H. Gardiner, op.cit., p. 107.

(5) J.A. Wilson, op.cit., p. 110-111.

البلاد في تلك الفترة، إنما كان من أسبابه - فيما يرى - الحروب الأهلية، وتسلسل البدو من سيناء وجنوب فلسطين، فضلاً عن انفصال أقاليم مصر عن الحكومة المركزية، وانتشار النهب والتمرد العام والفقر الشديد^(١).

والرأى عند «هنري فرانكفورت» أن الدليل الأثرى يثبت بالتأكيد أن نمو التهديد الآسيوي الذي نستطيع أن نقتفى أثره منذ الأسرة السادسة قد ظهر في التدفق الآسيوي، بينما كانت البلاد قد وهنت بسبب بداية الاضطرابات التي قضت على الدولة القديمة، أما إلى أي مدى عجل هذا التدفق الأجنبي بهذا السقوط؟ فذلك أمر من الصعب أن يقال، فمن الطبيعي أنه ليس هناك احتلال أجنبي قد حلّ بالبلاد، فإن هذا شيئاً لا يمكن تصوّره قبل أيام الآشوريين، في القرن السابع قبل الميلاد، وبعد ذلك بحوالي ستة عشر قرناً، ونظن أن زيادة التسلسل الأجنبي بسبب الضغط في آسيا، كان سبباً في دخول الدلتا أول الأمر، ثم تسربوا منها إلى داخل البلاد في مجموعات صغيرة أو كبيرة، وبدى أن التسلسل لا يقاوم حين تكون في البلاد حكومة مركزية متعطلة، وكانت هذه هي الحال وقت ذاك^(٢).

وتقدم لنا تحذيرات «إيبو - ور» صورة لهذا التسلسل، حيث يقول: «ما الذي جعل الأرض الحمراء (الصحراء) تنتشر في طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم وجاء الهمج الأجانب إلى مصر... لا يوجد في الحقيقة أناس في أي مكان... ويمشي ذو الأخلاق الريعة وهم محزونون لما أصاب البلاد، أصبح الأجانب أناساً في كل مكان، لماذا لم تصبح أرض المراعي في الدلتا مكاناً مرهوباً، إن سرّ الأرضي الشمالية أصبح معروفاً، انظر: إنها أصبحت في أيدي أولئك الذين لم يعرفونها، وصار الأجانب مهرة في أشغال الدلتا^(٣)».

وهكذا تثبت هذه الكلمات التدرج من تطفل الدخلاء، إلى حدوث الاضطراب، ثم أخيراً الاندماج، واستيعاب البلاد لهم، فلقد أصبح الآسيويون مع مضي الزمن مصريين، وأخذوا يزاولون أعمال سكان الدلتا^(٤).

(1) H. Frankfort, op.cit., p. 95.

(2) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 135-136.

(3) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 37-38.

(4) J.A. Wilson, ANET, p. 442.

أما عن الغزو الجنوبي، والذي يقدمون له من أدلتهم، مجموعة من تماثيل أبو الهول وجدت في تانيس بالدلتا، كما أن دماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بها دماء نوبية^(١)، فربما كانت هذه التماثيل ترجع إلى فترة أخرى من فترات التاريخ المصري القديم وحتى لو كانت ترجع إلى هذه الفترة التي نحن بصدددها، وأنها وجدت في مدينة «الكاب»، وأن دماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بها دماء نوبية، وإن هذه التماثيل لهؤلاء الملوك، فالرد على ذلك أن منطقة الكاب منطقة مصرية، وهي المحافظة الثالثة من محافظات الصعيد، من ناحية الجنوب، وكانت عاصمتها «نخن» (البصيلية) - والتي تقع عبر النهر تقريباً، وهي في نفس الوقت كانت عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد - ثم إن «نبوة نفرتى» تروى عن «أمنمحات الأول»، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، إنه ملك من الجنوب، يدعى «إمينى» ابن امرأة من «تاستى»، طفل من «نخن نخن»، و«تاستى» اسم أول محافظات الصعيد من الجنوب، وكانت عاصمتها «إليفانتين» (جزيرة أسوان)، وكان معظم سكانها من العنصر النوبى^(٢)، فإذا أضفنا إلى ذلك أن «أمنمحات» ولد في «نخن» على الأغلب^(٣)، فربما أمكن القول أنه مصرى من مدينة «نخن» (البصيلية)، وأمه من إليفانتين (أسوان) ومن ثم فهو مصرى من أم نوبية، ورث الدم المصرى عن أبيه، كما ورث الدم النوبى عن أمه، هذا إذا سلمنا بأن أمه من النوبيات القاطنات في مقاطعة «تاستى» (إليفانتين)، أضف إلى ذلك أن المنطقة شمال أسوان، وحتى نهاية المحافظة، يحكم أنها تتجاور بلاد النوبة، كانت - وظلت وحتى بناء السد العالى - على اتصال بشرى ببلاد النوبة.

وهكذا فإن الدليلين يكادان يتركزان في منطقة «نخن - الكاب» (أى البصيلية ومجاوراتها عبر النهر)، مما يجعلنى أتردد كثيراً فى قبول هذه الغزوة، ومن ثم فالرأى عندى أن ملوك الأسرتين الحادية عشر والثانية عشرة، إنما هم من هذه المنطقة، وأن سحتهم القرية الشبه بسحنة النوبيين طبيعية فيهم - بخاصة إذا سلمنا بأن أم «أمنمحات الأول» نوبية، هذا فضلاً عن أن الدماء

(1) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, 1924, p. 126.

(2) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 128.

(٣) نجيب ميخائيل، الرجوع السابق، ص ٣٢٠.

العربية في أهل المنطقة الحاليين، ربما أبعدتهم كثيراً عن هذه السحنة، وأما الغزو الليبية، فربما كان اعتماد «بتري» فيها على أن الغزاة كانوا ملتجئين بلحي وشوارب قصيرة، كما يبدو من الخراطيش^(١)، إلا أنه لا توجد أدلة تؤكد انتساب ملوك إهناسية إلى الأصل الليبي، فليس في أسماء أولئك الحكام ولا في أسلوب حكمهم ومظاهره، مما يشير إلى بعد أصلهم عن مصر، وقد يكون لموقع المدينة أثره في زعم الرواة والمؤرخين، فهي إنما تقع في مكان كانت القوافل تفضل النزول فيه عند الوادي، أو الخروج إلى الواحات، وهي بذلك كانت أول حاضرة تطالع الوافد من صحراء الغرب، ونبيها نزلت تلك القبيلة الليبية التي خرج منها «شيشنق الأول»، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، ولعل تلك الواقعة قد أثرت في أصحاب الرأي القائل بالرجوع بأصل حكام إهناسية إلى واحات الصحراء الغربية^(٢)، وهكذا لا يوجد دليل مادي أو أدبي قاطع يؤكد تلك الغزوة.

(1) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 129.

(٢) أحمد بدوي، في موكب الشمس، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٧-١٨.

الباب الثالث
الأحداث السياسية
في عصر الثورة الاجتماعية الأولى

الفصل الأول الأسرتان السابعة والثامنة (١) الأسرة السابعة

يجمع المؤرخون - أو يكادون - على أن عصر الثورة الاجتماعية الأولى - أو عصر الانتقال الأول - إنما يشمل الأسرات: السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر، وأنه ينتهي في أيام «متوحتب الأول» (نبت حبت رع)، الذي يكتب له مجعاً بعيد المدى في القضاء على الفوضى، وإعادة توحيد أرض الكنانة من جديد - كما قبل سلفه البعيد مينا من قبل - ويذهب «سير أكن جاردنر» إلى أن العقدة الحقيقية في الأمر عقدة تاريخية، فهناك خلاف كبير بين المؤرخين عن طول هذه الفترة، ولكن اتفقت معظم الآراء الحديثة على تقدير الفترة من عهد الملكة «تيثو كريس» إلى نهاية حكم الملك «متوحتب الأول» بمائتين إلى مائتين وخمسين عاماً، فهذا لا يعدو أن يكون مجرد تخمين (١).

وعلى أية حال، فهناك من يقدر عصر الثورة الاجتماعية الأولى، والذي يبدأ منذ أخريات الأسرة السادسة (حوالي عام ٢٢٨٠ ق.م)، وينتهي بقيام الدولة الوسطى (حوالي عام ٢٠٥٢ ق.م) - أي أن عصر الثورة استمر (حوالي ٢٢٨ عاماً) في الفترة (٢٢٨٠-٢٠٥٢ ق.م).

هذا ذهب المؤرخ المصري السمنودي «مانيتو» - أو «مانتون» (حوالي ٣٢٣-٢٤٥ ق.م) إلى أن ملوك الأسرة السابعة، إنما هم «سبعون ملكاً»، حكموا سبعين يوماً في «منف».

ويرجع «وليم هيز» (١٩٠٣-١٩٦٣ م) أن هذا إنما هو حكم طارئ، اتخذ من منف مقراً له، ليحل محل الملكية المنهارة في أخريات أيام الدولة القديمة. ولعله حكومة خاصة شكلت من مجلس شوري، أعضاؤه من الصفوة الممتازة من الحكام الذين عاشوا من سلالة ملوك الأسرة السادسة، أو من كبار الموظفين وحكام الأقاليم، الذين كونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم، غير أن هذا

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 102.

النوع من الحكم الذى لم يعهده القوم، لم يجد منهم قبولا، فلم يعيش أكثر من سبعين يوما^(١).

وعلى أى حال، فسواء أصبح هذا، أم أن حكم الأسرة السابعة فى منف لم يزد عن عدة شهور^(٢) أو أنها حكمت سنوات سبع^(٣) أو جتنى خمس وسبعين سنة^(٤) فإن كل هذا إنما يشير إلى الفوضى التى عمت البلاد، وإلى أن القائمين بالأمر فيها لم يكونوا على قوة تسكنهم من تدعيم حكمهم واستقراره، اللهم إلا إذا كانت فترة حكمها خمسة وسبعين عاما، حكمها خمسة ملوك، ففى هذه الحالة تكون فترة الحكم مناسبة، وأيا ما كان الأمر فإن هذه الأسرة ذهبت - سواء بعد حكم طويل أو قصير - دون أن تخلف من ورائها شيئا يذكرها، أو يذكر الناس بها.

(١) أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص ١٦٣، وكذا:

William C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 136.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٣) J. Vercoutter, L'Egypte Ancienne, Paris, 1963, p. 66; W.S. Smith, CAH, I, part 2, Cambridge, 1971, p. 197.

(٤) يرى «سمت» أن الأسرة السابعة حكمت فى الفترة (٢١٨١-٢١٧٢ ق.م) وأن ملوكها هم:

١ - نفر كارع الصغير.	٢ - نفر كارع نبى.	٣ - جد كارع شماى.
٤ - نفر كارع خندو.	٥ - مري إن حور.	٦ - نفر كامين.
٧ - تى كارع.	٨ - نفر كارع تيرور.	٩ - نفر كا حور.

انظر: J. Vercoutter, op.cit., p. 66; W.S. Smith, CAH, I, part 2, p. 197.

(٢) الأسرة الثامنة

قامت الأسرة الثامنة في «منف» - فيما تروى بردية تورين - وقد دفن أكثر ملوكها في «سقارة»^(١) الجنوبية - على مقربة من هرم «بيبي الثاني» - .
غير أن هناك من يذهب إلى أنها قامت في الصعيد الأعلى، وكان «كورت زيت» (١٨٦٩-١٩٣٤م) صاحب فكرة قيام الأسرة الثامنة في مدينة «قفط» - على تبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا، وهى الآن إحدى محافظات قنا - .

هذا وقد اعتمد ذلك - فى رأيه هذا - على المراسيم المشهورة التى وجدت فى معبد الإله «مين» بقفط، والتى منحها آخر ثلاثة من ملوك هذه الأسرة للأسرة الجاكمة هناك^(٢)، وأنها حكمت البلاد من «قفط» (جيتو حيتو = كبتوس)، طوال عشر سنوات على رأى، واثنى عشرة سنة على رأى آخر، وأربعين سنة على رأى ثالث^(٣).

(١) سقارة: أهم مناطق جبانة منف، وتقع على جافة الصحراء الغربية على تبعدة حوالى ٢٥ كيلا جنوبى هضبة الجيزة، ويغلب على الظن أنها اشتقت اسمها من الإله المصرى القديم «سوكرا» إله الموتى، وتنقسم إلى سقارة الشمالية وسقارة الجنوبية، وتمتد بطول الصحراء عدة كيلو مترات فى مواجهة منف، وتعد من أغنى المناطق بالآثار - سواء ما اكتشف منها، أو ما زال مطمورا تحت الرمال - وأما أهم آثارها، فهرم زوسر المدرج، وأهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة، والتى أشهرها أهرام: وناس وتى وبى الأول، إلى جانب مصاطب الرجال الموظفين والنبلاء، والتى من أشهرها مقابر «بتاح حتب»، «وتى» و«موروكا» و«كاجمنى» و«خرو»، وأخيرا فهناك السراييم أو مدفن العجول ومقابر من العصر الباكرو، وجبانات من العصر المتأخر، والعصر اليونانى الرومانى. (الموسوعة المصرية، ١/٢٧١-٢٧٢).

(2) W.C. Hayes, Royal Decrees From The Temple of Min at Coptos, JEA, 32, 1945, p. 3-23.

(٣) ذكر مانيتو أن عدد ملوك الأسرة ١٨ ملكا، ولكنه لم يذكر أسماءهم، وذهبت قائمة أيدوس إلى أنهم ١٧ ملكا، وحفظت بردية تورين أسماء ثمانية، وأما قائمة سقارة فقد تجاهلت الملوك من بعد «بيبي الثانى»، وحتى أول الأسرة الحادية عشرة، وقد رتب «سمث» ملوك الأسرة الثامنة كالتالى:

- | | | |
|------------------------|---------------------------|-------------------------------|
| ١ - واج كا رع بى سونب | ٢ - نفر كامين أنى | ٣ - كا كارع أبى |
| ٤ - نفر كا رع | ٥ - نفر كا حور | ٦ - نفر كامين |
| ٧ - نى كا رع | ٨ - نفر كا رع نورو | ٩ - نفر كا حور |
| ١٠ - نفر كا رع بى سونب | ١١ - نفر كامين عنو | ١٢ - كا كارع أبى |
| ١٣ - واج كا رع خع بارو | ١٤ - نفر كا حور تترى بارو | ١٥ - نفر كا رع (دمج إيب تاوى) |

انظر:

W.S. Smith, op.cit., p. 197-200; W.C. Heyer, The Scepter of Egypt, I, 1983, p. 134.

هذا ويذهب «هانزشتوك» إلى أنه منذ عهد «جد كا رع شماي» - الملك الثالث من الأسرة السابعة - قامت الأسرة الثامنة في «قفط» أو «أيدوس»^(١) ومؤسسها «نشر كا رع»، كما بدأت أسرة أخرى في «إهناسية»، وهي الأسرة التاسعة^(٢)، ولعل الجديد في رأي «شتوك» أنه جعل الأسرات: السابعة والثامنة والتاسعة، تكاد تعاصر بعضها البعض الآخر، غير أن هذا الاتجاه لم يقبله إلا الدكتور «أوتو»^(٣).

هذا وقد أثبتت «وليم هيز» منذ عام ١٩٤٦ م، أن الأسرة الثامنة من منف، وأنها لم تحكم سوى فترة قصيرة، وأن هذا الحكم إنما كان في «منف» وليس في «قفط»^(٤)، وأنه لا يوجد أي سند لما ذهب إليه دارسو التاريخ المصري القديم من أن الملوك الذين أصدروا المراسيم الخاصة بمعبد الإله «مين» في «قفط» - والتي كشفت عنها ريموند فيبي في ١٩١٠ / ١٩١١ م^(٥) - كانوا أعضاء في أسرة مبالكة في «قفط» نفسها، أو في أيدوس^(٦) بسبب وجود أسمائهم في قائمتها^(٧).

ويذهب «هيز» إلى أن المراسيم إنما قد أرسلت من العاصمة «منف» إلى حكام «قفط» الأقوياء، والذين كانوا على صلة من نوع ما بفرعون، فقد تكون صلة مصاهرة - كما يبدو من بعضها، وقد تكون صلة ولاء كالتى تربط حكام أسيوط بفراعين إهناسية، ولعل مما يؤيد هذا الفرض الأخير، أن هذه المراسيم، إنما كانت من نوع الامتيازات التى اعتاد الملوك الضعاف منحها للحكام الأقوياء ليضمنوا ولاءهم، وهكذا كانت هذه المراسيم لمصلحة الأساس الجنزى لمعبد الإله «مين» في مدينة «قفط»، ولمصلحة الأسرة الحاكمة في «قفط» كذلك^(٨).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الكثير من ملوك الأسرة

(1) W.S. Smith, op.cit., p. 198-199.

(2) H. Stock, Die Erste Zwischenseit Aegyptens, Rome, 1949.

(3) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٦٤، 29، BASOR, 119, 1950, p. 29.

(4) JEA, 32, p. 3-23.

(5) R. Weill, Les Decrets Royaux de l'Ancien Empire Egyptien, Paris, 1912.

(6) JEA, 32, 1946, p. 3; W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 135.

(7) H. Stock, Die Brste Ewisedenselt Agyptens, Rome, 1949.

(8) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, I, 1953, p. 136.

الثامنة إنما قد حملوا أسماء بعض ملوك الأسرة السادسة، فوجود لقب «نفر كا رع» الذى كان اسماً للملك «ببى الثانى» - إما ككل أو كجزء فى ألقاب ستة من الأسماء التى تقدمها قائمة أبيدوس - إنما يبين مدى إحساس تمسك هؤلاء الحكام الصغار بأكثر فراعين الأسرة السادسة توكيراً واحتراماً^(١)، هذا إلا أنهم قد دفنوا، أو عملوا على أن يدفنوا فى سفارة الجنوبية، على مقربة من هرم «ببى الثانى»^(٢).

ولعل هذا كله هو الذى دفع «إدوارد ماير» إلى أن يرى فى أولئك الحكام ورثة شرعيين لملوك الأسرة السادسة، وإن ذهب أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد بدوى - طيب الله ثراه - أن إقبال هؤلاء الحكام على هذا اللون من الأسماء، إنما كان بهدف سياسى، قصد به إرضاء الساخطين من منف - كما فعل ملوك إهناسية، وبعض ملوك الهكسوس - ومن ثم فإن قائمة سفارة قد أهملتهم، مما يدل على أنها قد اعتبرتهم غير شرعيين، لبعدهم عن البيت الحاكم أو خروجهم عليه^(٣).

ويذهب «وليم هيز» إلى أن «نفر كا رع» - مؤسس الأسر الثامنة - إنما كان ابناً أو حفيداً للملك «نفر كا رع» - ببى الثانى، والملكة «عنخس إن ببى»، وكان يسمى الصغير بالمقارنة بأسلافه السابقين الذين انتحل اسمهم، وأنه واحد من ثلاثة ملوك ذكروا فى بردية تورين، حيث خصص له مدة حكم قدرها أربع سنوات، وهى أطول فترة لواحد من الثلاثة، وقد بنى هرمه بسفارة الجنوبية وسماه «بقاء حياة - جد عنخ - نفر كا رع»، وقد دفنت فيه أمه أو جدته «عنخس إن ببى» فى تابوت حجرى مقصب، وأمدّها بلوحة من الحجر عليها اسمه^(٤).

وهكذا نرى أن ملوك الأسرة الثامنة يحاولون الانتساب - بحق أو بغير حق - إلى ملوك الأسرة السادسة ليسبغوا على ملكهم الصفة الشرعية، بصفتهم خلفاء شرعيين لأسلافهم، كما حاولوا الاعتماد على بعض الأسر القوية فى الأقاليم فصاهروهم كما منحوهم بعض الامتيازات، وقد كشف

(1) A.H. Gardiner, op.cit., p. 108.

(2) W.C. Heyes, op.cit., p. 136.

(٣) أحمد بدوى، فى موكب الشمس، الجزء الثانى، ص ١٣.

(4) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, I, p. 135.

«ريمو في» في عام ١٩١٠/١٩١١م في مدينة «قفط» عن مرسوم أصدره الفرعون «نفر كا حور» (نثري بارو)، ومحفوظ الآن بمتحف المتروبوليتان في نيويورك، وقد جاء فيه: «إلى المحبوب من الإله، الأمير بالوراثة، زبيب الملك شيماي، وقد ختم في حضرة الملك نفسه، وأن زوجته ابنة الملك الكبرى، محبوبة الملك الوحيدة، والتي لها أسبقية على كل النساء، ثم يعين قائد الجنود «خرو دوني» (تشورتني) لحراستها، وهكذا يعطى هذا المرسوم الأولوية لزوج «شيماي» على جميع النساء، كما يلقب المرسوم هذه السيدة بلقب «ابنة الملك الكبرى» (١).

وهناك مرسوم آخر يسجل تعيين ابن «شيماي» المدعو «إيدي» حاكماً على الأقاليم السبعة الجنوبية من أقاليم الصعيد، بعد وفاة أبيه شيماي، والذي كان يحكم الأقاليم الاثني والعشرين من مصر العليا من غير الملك «نثري بارو»، وقد جاء في هذا المرسوم «إلى الحاكم، رئيس الكهنة إيدي، لقد عينت مشرقاً وحاكماً ورئيساً للكهنة في مصر العليا، من النوبة جنوباً، وحتى إقليم سنتروم (ديوسيبوليس بارفا) = هو الحالية على مبعدة ٥٠ كيلاً من نجع حمادى) شمالاً، في مكان والدك، محبوب الإله، الأمير بالوراثة، رئيس مدن الهرم، الرئيس المبرر، الوزير، حارس المحفوظات الملكية، حاكم مصر العليا رئيس الكهنة شيماي، ليس لأحد في الادعاء ضده» (٢).

ومن عجب أن هذه المراسيم لا تظهر لنا الفوضى التي سادت البلاد وقتئذ، بل ليس في واحد منها ما يشير، من قريب أو بعيد، إلى القلق أو الاضطراب السياسي، وإن استطعنا أن نخرج منها باللهفة البائسة من جانب الملك، بغية استرضاء عظيم معين من عظماء الصعيد الأقوياء (٣).

ولعل من الأهمية بمكان أن بعضاً من الباحثين إنما يرى في وجود أسماء ذات طابع سوري من أمثال «خندو» أو «خندي» على خاتم اسطوانى أو «تررو» على جعل أو في نص متأخر، أن الأسرة الثامنة أسرة غير مصرية، وأن ملوك الأسرتين التاسعة والعاشر المصريتين هم الذين أراحوا هؤلاء

(1) ASAE, LV, p. 174; A.H. Gardiner, op.cit., p. 108; W.C. Heyes, JEA, 32, 1945, p. 14.

(2) W.C. Heyes, JEA, 32, 1946, p. 16.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 109.

الحكام السوريين الذين كونوا الأسرة الثامنة، وأن هناك مقاومة حدثت، وأنهم تحصنوا في «أتريب» في بنها الحالية) كعاصمة مؤقتة لهم، وأنهم استقدموا عن طريق وادي طميلات عدداً من القبائل الجوالة في الصحراء والذين هم أنفسهم على علاقة نسب وثيقة بهم^(١).

على أن «وليم هيز»، إنما يذهب إلى أنه على الرغم من أن بعض الأسماء من طراز آسيوى، فإن الأسرة الثامنة ليست من أصل آسيوى، أو على الأقل فمن المحتمل ألا تكون كذلك^(٢).

وعلى أى حال، فإن أمور البلاد على أيام الأسرة الثامنة إنما هي جد قلقة، ففي الدلتا كانت عصابات البدو، وقطاع الطرق، الذين تسللوا إلى البلاد منذ أخريات أيام «ببى الثانى» قد أصبحوا يتجولون في كل الدلتا، وقد انقطعت أخبارها المباشرة عنها، أما البعثات إلى سيناء لاستخراج الفيروز، فقد توقفت ولم تستأنف حتى قبيل أيام الأسرة الثانية عشرة^(٣)، وأما في الصعيد الأقصى فقد كانت الأمور غير مستقرة، ذلك لأن سلطان «قفط» لم يجد قبولا حسناً من حكام الأقاليم الجنوبية الثلاثة، والتي تكون الآن محافظة أسوان تقريباً (البصيلية وإدفو وأسوان) فقامت الحرب هناك وإن انتهت بانتصار «طيبة» و«قفط» وغلبتهما على «عنخ - تيفى» الذى ناصبهما العداء^(٤).

وانتهت الأسرة الثامنة دون أن ندرى كيف انتهت على وجه اليقين، وتصبح البلاد أقساماً ثلاثة، ففي الشمال كانت جحافل الآسيويين، وفي الجنوب التفت البلاد حول أمراء «طيبة»، وليس «قفط»، وإن كنا لا نعرف كيف اختفى حكام «قفط»، وهم الذين كانوا أصحاب الجاه والسلطان في المقاطعات الجنوبية، وربما كان ذلك بعد هزيمتها لأمير نخن «عنخ - تيفى»، أما في مصر الوسطى، فقد انتهز حكام إهناسية فرصة ضعف الملك «دمج إيب تاوى» - آخر ملوك الأسرة الثامنة - وأقاموا بيتاً جديداً للحكم في إهناسية، قدر له أن يحكم البلاد في الأسرتين التاسعة والعاشرة، وعرف في التاريخ باسم «العصر الإهناسى»^(٥).

(1) H. Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 98.

(2) W.C. Heyes, The Scepter of Egypt, p. 136.

(3) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 110.

(4) J. Vandier, Moalla, Cairo, 1950.

(5) W.S. Smith, CAH, I, part 2, 1971, p. 198.

الفصل الثانى

العصر الإهناسى (الأسرتان التاسعة والعاشرية)

(١) الأسرة التاسعة:

كان مؤسس الأسرة التاسعة هو «خيتى» الأول (مرى - إيب رع) (١)، ويبدو أنه بدأ حكمه بنوع من الشدة التى قصد بها تأييد ملكه، والذود عنه، ورددت الأجيال شدته وضخمت فيها، حتى أننا نرى «مانيتو» يصفه بأنه من بين التسعة عشر ملكاً إهناسياً، والذين حكموا (٤٠٩) عاماً، كان «خيتى الأول» أبعث للرعب من كل من سبقوه، وأنه كان يفعل الشر فى مصر كلها، ولكنه وقع بعد ذلك فريسة الجنون، وافترسه تمساح (٢)، وربما كان «مانيتو» صادقاً فيما رواه عن قسوة «خيتى» (إختوى)، فظروف البلاد ربما هى التى دفعت به إلى ذلك، فالبدو يتحكمون فى الدلتا، وحكام الصعيد يتنافسون فيما بينهم على السلطان، وهو نفسه محاط بمنافسين حاقدين، وربما كان ذلك هو السبب، وربما لأن شهرته بالقسوة أنت لأن الذين نافسوه كثيرين، ولأنه وصل حين تخلف الزعماء جميعاً.

وعلى أى حال، فإن «مرى إيب رع» (المحبوب من قلب الأرضين) لم يتردد - تأكيداً لدعواه - فى أن يظهر نفسه باللقاب فرعونية كاملة، ولا بد أنه كانت له صفات شخصية غير عادية، استطاعت أن ترتفع به إلى هذا المستوى العالى، وليس لدينا مما يؤكد وجوده سوى موقد نحاسى فى اللوفر، وعصا للتوكؤ من الأبنوس، عثر عليها فى «مير» (مركز القوصية، بمحافظة

(١) اختلف المؤرخون فى ترتيب ملوك الأسرة التاسعة، فذهب فريق إلى أنهم:

١ - واح كا رع. ٢ - مرى إيب رع. ٣ - نب كا رع. ٤ - مرى كا رع.

وذهب آخرون إلى أنهم:

١ - مرى إيب تورى. ٢ - واح كا رع. ٣ - نب كا رع.

وذهب فريق ثالث إلى أنهم:

- مرى إيب رع (خيتى الأول). - اسم ملك مهشم. - نب كا رع (خيتى الثانى).

- منوب. - خيتى (ربما خيتى الثالث). - ثم أسماء مهشمة لا يمكن قراءتها. انظر:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 112; E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, p. 629;

H. Geuthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 184-210.

(2) F. Daumas, Le Civilization De L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p.

575; A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 575.

أسيوط)، ثم أشياء أخرى قليلة الأهمية^(١)، منها قطعة في صندوق عاجي، مع نقوش طمعت بأحجار نصف كريمة، اكتشفتها بعثة متحف المتروبوليتان في «اللشت»^(٢) (إيث تاوى = على مبعدة ١٨ كيلا إلى الجنوب من منف)، هذا وقد عثر للملك مري إيب رع، على مجموعة من النصائح، منها قوله: «على من يريد أن يعيش آمناً أن يكون مستعداً للحرب».

وهناك شك في أن حكمه قد امتد إلى الدلتا، التي بقيت في قبضة الآسيويين أما في الجنوب فقد امتدت نفوذه حتى «ثنى» (أبيدوس)، وإن وجد اسمه في نقوش عند الشلال الأول^(٣)، ورغم أن هناك من يرى في ذلك، دليلاً على امتداد نفوذه حتى أسوان، فإن أمراء طيبة إنما قد تزعموا الأقاليم الجنوبية ضده، حتى نجحوا آخر الأمر في القضاء على البيت الإهناسي كله، مؤسسين الأسرة الحادية عشرة.

وهناك اختوى آخر، لقب نفسه «نب كا ورع» نعرفه عن طريق ثقل ميزان، عثر عليه «فلنדרز بتري» في «بشيوم» (تل الرطابة)^(٤)، فضلاً عن ورود اسمه في الأعمال القصصية المصرية القديمة التي بقيت لنا كاملة، وهي «قصة الفلاح الفصيح»، والتي تروى قصة فلاح من الواحة المتاخمة لوادي النطرون، كان قد اغتصب حمارة، وكذا بضائعه، وهو في الطريق إلى إهناسية، ولكنه قذف بشكواه إلى مولى السارق في فصاحة دفعت إلى احتجاجه، حتى تتم كتابة توسلاته وعتبه ولومه وسبابه، كي يدخل السرور إلى نفس الملك «نب كا ورع»^(٥).

(1) ASAE, 10, 1910, p. 185; W.C. Hayes, op.cit., p. 143; H. Gauthier, op.cit., I, p. 504.

(2) W.M.F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 131-132.

(3) A.H. Sayce, Letter From Egypt, in The Academy, 41, 1892, p. 333; W.C. Hayes, op.cit., p. 143.

(4) W.M.F. Petrie, Rec. Trav, XL, p. 188; A.H. Gardiner, op.cit., p. 112.

(٥) يجمع المؤرخون على أن قصة الفلاح الفصيح قد حدثت في عهد الملك «نب كا ورع»، ولكنهم يختلفون في مكانه من العهد الإهناسي، فالبعض يرى أنه من ملوك الأسرة التاسعة، بينما يرى فريق آخر أنه من ملوك الأسرة العاشرة، بل إن هناك من يراه آخر ملوك العهد الإهناسي كله، وأنها كتبت في عهد الأسرة الحادية عشرة على الأقل. (أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ١٧١؛ الكسندر شارف، تاريخ مصر، ص ٧٧؛ وكذا:

A.H. Gardiner, op.cit., p. 112; W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N.Y., 1953, p. 145.

وكان البيت الإهناسى يزداد ضعفاً على أيام الأسرة التاسعة، وفي نفس الوقت كان حكام الأقاليم يزدادون قوة، حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم هذه الأسرة وتلتها أسرة أخرى، هى «الأسرة العاشرة»^(١)، أظهرت شيئاً من النشاط، وبدأ الظلام الخيم على تاريخ مصر يتقشع ويبدأ، فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيعاظ^(٢).

(٢) الأسرة العاشرة:

كان «مرى - حاتحور» هو مؤسس الأسرة العاشرة، وقد عرفناه من نص مشوه، عثر عليه فى محاجر «حتتوب»^(٣)، وأما خليفته «نفر كا رع» فقد ورد اسمه فى بردية تورين، وأما ثالث ملوك الأسرة فهو «واح كا رع» (إختوى الثالث أو الرابع فيما يرى البعض)، وهو صاحب الإرشادات التى وجهت إلى الملك «مرى كا رع»، والتى تحدثت عن «الحرب الأهلية» بين طيبة وإهناسية، والتى دارت رحاها - فيما يرى القوم - على الأرض المقدسة فى «ثنى» (أبيدوس) بسبب النزاع على ملك الصعيد، وليس على أبيدوس فحسب، وانتهت بانتصار طيبة مؤقتاً، وخروج الأرض المقدسة من يد فرعون إهناسية.

وهناك ما يشير إلى أن أيام «خيتى الثالث» (واح كا رع) إنما كانت أيام حروب فهناك النزاع بينه وبين البدو الآسيويين والذى حاول فيه أن يطهر الدلتا من الأجانب المغتصبين، ويذهب البعض إلى أن الرجل قد كتب له نجاحاً بعيد المدى فى تطهير الدلتا منهم^(٤)، وإن ذهب فريقاً آخر إلى أن ذلك لم يتم إلا بعد توحيد مصر، وبناء حائط الأمير^(٥).

(١) رتب البعض ملوك الأسرة العاشرة كالتالى، مرى حاتحور، نفر كا رع، واح كا رع، مرى كارع، خيتى الخامس، وهناك بعض الملوك الذين حكموا فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى، ولم يستطع المؤرخون تحديد مكانهم فى هذا العصر، وهم: إيسحتوب، إنى، سخم كا رع، وأخيراً جسر - نوب.

(٢) أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٦٩.

وتقع محاجر المرمر فى «حتتوب» على مبعده ٢٧ كيلاً فى الصحراء، شرق العمارنة، وكتبت عنها «نيوبرى» عام ١٨٩١م، وبها كتابات من الأسرة الرابعة وحتى السادسة.

(3) R. Anthes, Die Felseninschriften Von Hetnub, Leipzig, 1828, pl. 7, p. 14.

(٤) الكسندر شارف، المرجع السابق، ص ٧٤؛ إيتين دريوتون وجاك فاندييه، المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(5) H. Frankfort, Egypt and Syria in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 99.

وعلى أى حال، فإن خيتى إنما يوجه النصح لولده بأن يكون مستعداً لكل احتمال، وأن يهتم بتحسين «منف» ولتسهيل المواصلات بينها وبين مقر الملك فى «إهناسية»، فعليه أن يقوم بفتح قناة (وربما جسر) طولها ٨٨ كيلاً، لتربط المدينتين الواحدة بالأخرى، ولعل ذلك قد يشير إلى أن «منف» - رغم إقامة الملك فى إهناسية - إنما قد ظلت مركزاً للإدارة، ومستقراً للمقابر الملكية^(١).

وجاء بعد «واح كا رع» واستقبلته مصر الوسطى بثورة ضده، وطبقاً لنص «رولاه» «خيتى» - محافظ أسيوط، فقد قضى مؤقتاً على هذا التمرد، وأنه أراد أن يعبر عن شكره من أجل هذا التوفيق الكبير، فأمر بإجراء إصلاحات ضخمة فى معبد الإله «وب واوة» الإله «ابن آوى» معبود أسيوط^(٢)، ويبدو أن «مرى كا رع» لم يعيش بعد ذلك طويلاً، فودّع الدنيا بعد أعوام قلائل، ثم دفن فى منف، على مقربة من مقبرة الملك «تنى» من الأسرة السادسة فى هرم يسمى «إشراق مرى رع الدائم»، وفى هذا ما فيه من تحريف ضخيم للحقيقة^(٣) ولا يزال المتحف المصرى بالقاهرة يملك له تمثالاً. ويبدو أنه لم يترك خلفاً يرث العرش من بعده فانتهت به الأسرة، وإن كان هناك من يرى أن «اختوى» (خيتى الخامس) قد خلفه على عرش إهناسية، وأنه لم يعيش على العرش طويلاً، إذ عادت جيوش طيبة هجموها فقضت على عائلة إهناسية، وأخضعت مصر كلها، وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهداً جديداً وعادت مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد، كما بدأت أيضاً الدولة الوسطى^(٤).

(٣) الفوضى السياسية فى عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

قدمت لنا الوثائق الأدبية الكثير من الأدلة على أن الشعب المصرى، إنما قد قام بثورة عاتية ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية التى اشتد فسادها، ويفهم من الوثائق أن الثورة قامت فى العاصمة «منف» فى بادئ

(1) W.G. Hayes, op.cit., p. 144.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 114.

(3) W.C. Hayes, op.cit., p. 144.

(٤) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٧١.

أمرها، ثم سرعان ما انتشرت فيما وراءها من الأقاليم، وإن رأى البعض أن الحمل الثورى إنما قد اقتصر على منطقة منف، وجزء من مصر الوسطى، وأن مصر العليا لم يصبها من الثورة سوء^(١).

هذا وقد صاحب الثورة فى بدايتها كثير من العنف والرغبة فى التفتيت والانقسام فتزع الشوار عن الملكية ما بقى لها من قداسة، وأباحوا لأنفسهم نهب خزائنها، واقتحام دواوينها، وأضاعوا حرمة محاكمها، وألقت قوانينها فى العراء، ومزقها العامة فى الشوارع، وانتشرت الفتن الداخلية، وفقد الناس الأمن والأمان، حتى خيل للقوم أن شعار الثورة ومنطقها قد أصبح «اهدم ما استطعت أن تضرب بمعولك، واقتل من تستطيع أن تقتله، وخذ كل ما تصل إليه يدك»^(٢).

وهكذا بدأت الثورة عنيفة عتية، ويبدو أنه قد أعوزتها القيادة الرشيدة، ومن ثم فقد استغلها بعض الغوغاء، وأهل السوء، ويقدم لنا الحكيم المصرى «إيسو - ور» وصفاً لبدايتها، جاء فيه: «يقول حراس الأبواب: فلننتطلق ولنهب، وتنحى الفسائل عن حملة، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمعركة، وحمل آخرون من الدلتا الدروع»^(٣)، وهكذا احتل الغوغاء مكاناً فى الثورة منذ قيامها، ومن هنا فقد غلب عليها التدمير والنهب وسفك الدماء، حتى أنها لم تترك أحداً دون أن تصيبه بشرها.

يصف «إيسو - ور» تلك المرحلة العصبية من تاريخ الكنانة فى قوله: «تدور البلاد كما تدور ربحى الفخار، حقاً إن البلاد قد امتلأت بالعصابات، لقد شجبت الوجوه، وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان، لقد انعدم رجل الأمن، ولكن اللصوص فى كل مكان»^(٤).

وهكذا عمت الفوضى البلاد حتى شملت مخازن الحكومة، ودواوين الدولة، فمزقت القوانين وديس عليها بالأقدام ولم ينبج من تلك الفتنة الهوجاء موظفى الدولة ومحاكمها، يقول «إيسو - ور»: «وفى الحق، لقد

(١) إيتين دويوتون وجاك فاندويه، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(3) A. Eman, op.cit., p. 94.

(4) J.a. Wilson, The Admonitions of Ipu - Wer, ANET, p. 441.

سلبت قاعة المحاكمة الفاخرة، وأصبح المكان السرى مكشوقاً، لقد فتحت الإدارات العامة، ونهبت قوانينها، لقد سلب الموظفون ونهبت قوائمهم، لقد دمرت سجلات كتبة المحاصيل، وأصبحت غلال مصر متاعاً منشاعاً، لقد ألقيت قوانين دار القضاء فى البهو، وديست فى الشوارع، ومزقها الرعاع فى الأزقة، لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة، وأخذ القوم يروحون ويجيئون فى دور القضاء العظيمة^(١)، وضاعت هبة الحكومة، وتجراً الناس على موظفيها فقتلوهم، وعلى قضاتها فنفروهم فى الأرض، يقول «إيبو - ور» : «وذبح الموظفون، وألقيت أوراقهم فى العراء، وطرده قضاء البلاد»^(٢).

ويصور «نفرتى» البلاد، وقد عزّ فيها الأمن، وسادتها الحرب الأهلية، فيقول: «إن البلاد فى كرب وعويل، لقد حدث ما لم يحدث من قبل، سيجعل الناس أسلحة الحرب، حتى تعبث الأرض فى قلق واضطراب، وسيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتمسوا الخبز بالدم، ويضحكوا ضحكة الموت، لن يبكى الناس من الموت، لقد أصبح الأب خصماً، والأخ عدواً، وأخذ الرجل يقتل أباه، واختفى كل شيء طيب، وخربت البلاد، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب وتعطى للغريب، وغدا المالك فى حرمان، والأجنبى فى شبع ورفاهية»^(٣).

ويضيف «إيبو - ور» : «لقد أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه، انظر، إن الرجل يذبح بجوار أرضه، وأخاه يتركه دون عون لينجو بنفسه، لقد أصبح الرجل ينظر إلى ولد نظرتة إلى عدوه، ويذهب إلى حقله، وهو مسلح بدرع»^(٤).

وقد انتهت هذه الأحداث الدامية آخر الأمر إلى انهيار الحكومة المركزية، التى كان القوم يعترفون فيها بأن «الملك - الإله» إنما كان هو الأقل والأقوى، ورخص السر الغامض، سر الطبيعة الإلهية للملك من جراء التنافس على الحكم، يقول «إيبو - ور» : انظر: لقد وصل بنا الأمر إلى الحد

(1) Ibid., p. 442.

(2) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 10.

(3) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 113-114.

(4) A.Erman, op.cit., p. 99; J.A. Wilson, op.cit., p. 442.

الذى جعل الناس يشعرون ضد حية التاج... التى كانت تهدى الأرضين، انظر: لقد عرف سر البلاد التى لا يعرف أحد حدودها، إن القصر الملكى يمكن أن يهدم فى ساعة، وتصبح أسرار ملك مصر معروفة^(١)، هذا وقد امتدت الاضطرابات من منف إلى الأقاليم حيث هاجم العامة هناك المسيطرين عليهم، وفعلوا ما فعله سكان العاصمة من تخريب وتدمير، وسلب ونهب، بل تادت كل مدينة «فلنطرد الأقوياء من بيننا»^(٢)، كما امتنعت بعض الأقاليم عن دفع الضرائب إلى الخزائن الملكية، كما فعلت ثنى واليفاتين^(٣).

وبزاد الأمر سوءاً، وينحرف الثوار ويسبغون فى طريق العنف والقوة، ويسبغون إلى المواطنين، حتى الأبرياء منهم، بل لم تقف ثورتهم عند حد فى أذاها، حتى الأطفال الرضع نالهم منها عذاب أليم، يقول «إيسو - ور» : «حقاً لماذا يقدفون الجدران بأبناء النبلاء، فالأطفال الذين كان أهلهم يدعون ربهم من أجلهم، أصبحوا يلقون فوق الأكوام»^(٤).

وتنقلب الأوضاع الاجتماعية فى البلاد رأساً على عقب «فيعر الأذلاء، وبذل الأعزاء، وتكتب الحاجة على الأغنياء، ويغتنى الفقراء، ويصور «إيسو - ور» هذه الحالة، وانقلاب أوضاع الطبقات، ويقارن بين ما كان فى الماضى، وما يحدث فى ذلك الوقت، وربما كان الحكيم المصرى من طبقة أرسراطية، ولم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة منها إلى غيرها أقل منها منزلة، فهو يقول: «انظر: لقد حدث هذا بين الناس، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناءً مسوراً، إن الفضيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون فى المخزن، ومن لم يكن فى إمكانه أن ينام على الجدران أصبح ضاحك سرير. انظر: إن الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يمتلك الجعة القوية»^(٥)، وبلغ الأسى بالحكيم المصرى نهايته أسفاً على ما أصاب

(1) J.A. Wilson, The Admonitions of Ipu-Wer, ANET, 1966, p. 441.

(2) Sir Alan H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1969 p. 10.

(3) Ibid., p. 31.

(4) Ibid., p. 10.

(5) Ibid., p. 10.

البلاد من اضطراب، لا يعرف له علاجاً، فيفقد الأمل في إنقاذ شيء،
ويزداد تأثره بالكارثة التي لحقت بالبلاد، حتى أنه يطلب من الآلهة أن تجعل
نهاية الأمر، نهاية الحياة نفسها، فيقول: «ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس،
فلا يحدث حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغرغاء وتنقضي
المشاحنات» (١).

ويتجه بعد ذلك نحو نفسه، فيوجه اللوم إليها، ويحملها جزءاً من الوزر
الذي ارتكبه حين سكنت على الشر، وامتنع عن أن يقول الحق، وتمنى أنه
قال ذاك فنصح وانتصح وأنقذ نفسه وأنقذ أمته مما تعانيه من الآلام وذلك
بقوله: «ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت، حتى كنت أنقذ نفسي من
الألم الذي أنا فيه الآن» (٢).

ولم يقتصر «إيبو» - وره في توجيه اللوم على نفسه، بل وجه اللوم
كذلك إلى الجالس على العرش حينئذ في تقريرات قاسية، ونقد لاذع،
فيتهمه بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التي سادت البلاد، ذلك لأنه، وإن
كان قد أعطى السلطة والمحكمة، إلا أنه قد بقي في قصره يحيط نفسه
بمجموعة من رجاله، لا تنقل إليه إلا صوره غير حقيقية عن الأمور، حتى
ساءت الحال، وفقد الناس الطمأنينة والأمن، حتى أنه إذا سار ثلاثة في
الطريق فلا يعود منهم إلا اثنان، فالعدد الأكبر يقتل منهم أقل (٣) عدداً، ثم
يقص عليه بلايا الناس، وأخيراً يبلغ به العنف أشده، حتى أنه يتمنى للفرعون
نفسه أن يتذوق هذا البؤس بنفسه، وذلك حين يقول له «ليتك تتذوق هذا
البؤس بنفسك» (٤).

(٤) الانهيار الاقتصادي في عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

كانت الأحداث الدامية التي مرت بها البلاد، سبباً في الأزمة
الاقتصادية الطاحنة التي صاحبت أيام الثورة الاجتماعية الأولى، ويفهم من
الوثائق أن أسباب الأزمة الاقتصادية إنما يرجع إلى عدم استتباب الأمن،

(1) J. A. Wilson, op.cit., p. 442.

(2) Ibid., p. 412.

(3) A.H. Gardiner, op.cit, p. 84-85.

(4) J.A. Wilson, The Admonitions of Ipu - War, ANET, 1966, p. 415.

والامتناع عن زراعة الأراضى، فضلاً عن امتناع بعض الأقاليم عن دفع الضرائب، وتعطيل الصناعة، وعدم القيام بالبعثات إلى سيناء، هذا إلى جانب انقطاع التجارة الخارجية، وضيق ثروات الدلتا التى أصبحت تحت أيدى الآسيويين.

كان اضطراب الأمن فى البلاد من أسباب الأزمة الاقتصادية، فالناس لا يستطيعون أن يعملوا إلا إذا كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم، وقد فقدوا ذلك كله إبان الثورة، مما أدى إلى أن تعطلت الزراعة، حين امتنع الفلاحون عن زراعة الأرض، يقول «إيسو - ور» : «إن النيل يفيض ومع ذلك لا يقوم أحد من الفلاحين بحرث الأرض، لأن كل إنسان إنما يقول إننا لا نعلم ما سوف يحل بالبلاد»^(١).

ويؤيد المتنبي «نفرتى» وجهة النظر التى ذهب إليها «إيسو - ور» وإن كان يعلل امتناع الفلاحين عن زراعة الأرض - بجانب اضطراب الأمن - إلى عدم فيضان النيل، حيث يقول: «لقد جف نيل مصر، حتى ليخوضه الناس بالقدم، وسوف يبحث الناس عن الماء، لتمخر عبابه السفن، فإذا بهم يجدون أن الطريق قد صار شاطئاً، وأن الشاطئ صار ماء»^(٢).

وربما كان «نفرتى» إنما يعنى أن اضطراب الأمن إنما قد أدى إلى عدم تسخير الترع، وحفر ترع جديدة، فضلاً عن إصلاح الأرض البور التى كثرت نتيجة إهمال العناية بأمر الزراعة، وتحويل كثير من الأراضى الزراعية إلى أرض بور، نتيجة هجرة أصحابها لها أو تركها بدون زراعة لسبب من الأسباب وربما حدث انخفاض فى النيل فى تلك السنين القاسية، فساد ذلك - بجانب غيره - عن حدوث المجاعة التى تحدث عنها المتنبي «نفرتى» و«إيسو - ور».

وينتهز حكام الأقاليم فرصة الاضطرابات فيستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم، كما فعل أمراء ثنى وإلفانتين، يقول «إيسو - ور» : «لماذا لم تدفع إلفانتين وثنى الضرائب، وهناك حاجة إلى الفاكهة والقمح، وكل أنواع

(1) A. H. Gardiner, op.cit., p. 10.

(2) A. Erman, op.cit., p. 113.

التجارة، وكل ما تنتجه الضياع، فما فائدة الخزانة بدون دخل^(١)، وزاد الطين بلة، أن القليل من الضرائب الذى كان يصل إلى الخزائن الملكية، إنما كان ملكاً مشاعاً لكل قادر على النهب، حيث دمرت سجلات كتبة المحاصيل، وأصبحت غلال مصر ملكاً مشاعاً^(٢)، كما زاد عدد الموظفين المشرفين على جمع الضرائب بحيث أصبحت موارد الدولة لا تطيق مرتباتهم، هذا فضلاً عن قلة فى الإنتاج، ومغالة فى تقدير الضرائب، وتطفيف فى الكيل، يقول «نفرتى» : «لقد نقصت الأرض وتضاعف حكامها، وأصبحت الحقول عارية، ومع ذلك فضرائبها كثيرة وغلتها قليلة، كما صار المكيال كبيراً»^(٣).

وكان تعطيل الصناعة من أسباب الأزمة الاقتصادية الطاحنة، فقد تسببت أحداث الثورة، وما أدت إليه من اضطراب فى الأمن، إلى تعطيل العاملين فى الصناعة، وساهم الأجانب فى الأزمة الاقتصادية، والقضاء على صناعة البلاد. «لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها»^(٤).

وأدت أحداث الثورة الدامية إلى حرمان البلاد من دخل التجارة الخارجية التى كانت تجنى منها دخلاً كبيراً، يقول «إيسو - ور» : «ما عاد أحد يبحر إلى جبيل، فما الذى سوف نفعله بشأن أخشاب الأرز، التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا، والزيت التى يحفظ بها الأمراء، والتى كانت ترد إلينا من هناك، ومن كفتيو (كرت)»^(٥)، كما أن استيلاء الآسيويين على الدلتا إنما قد حرم البلاد من ثروتها، يقول «إيسو - ور» : «ما الذى جعل الأرض الحمراء (الصحراء) تنتشر فى طول البلاد وعرضها، خربت الأقاليم، وجاء قوم أجانب إلى مصر»^(٦)، كما تسبب الأجانب كذلك فى عدم استغلال مناجم سيناء، ومن ثم فإننا لا نرى سوى إشارة عن بعثات أرسلت لاستغلال بعض محاجر الصحراء الشرقية، أما استغلال المعادن - كما كان

(1) A.H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

(2) J.A. Wilson, The Admonitions of Ipu - Wer, ANET, 1966, p. 442.

(3) A. Erman, op.cit., p. 114.

(4) A.H. Gardiner, op.cit., p. 10.

(5) Ibid., p. 32.

(6) Ibid., p. 36.

قبل عهد الثورة - فلم يعد إلا على أيام الأسرة الثانية عشرة (١).

ويعصور الحكيم المصري «إيب - ور» أحوال البلاد الاقتصادية، وانتشار الجماعات بين الناس، فيقول: «لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش، ويشربون الماء، ولا توجد فاكهة، كما لا يوجد عشباً يأكل منه الطير، وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير، ولم يعد أحد يقول: هذا لك فخذه بدلاً منى، لأن القوم صاروا جوعاً» (٢)، ويقول: «لقد ضاع محصول القمح وأصبح القوم لا يجدون لباساً أو عطوراً أو زيوتاً، وكل إنسان يقول لم يبق شيء، وأصبحت مخازن الحكومة خاوية، وقد ألقى حراسها على الأرض» (٣).

ويعصور أمراء الأقاليم هذه الأزمة الاقتصادية في نقوش مقابرهم مشيرين إلى جهودهم في محاولة حلها، والقضاء على أسبابها، وهكذا رأينا الواحد منهم يحدثنا عن جهوده في استتباب الأمن، وتطهير الترع، ومد المعونة للمعوزين، ولكن يجب علينا أن نأخذ ذلك بحذر، فهم كثيراً ما كانوا يبالغون في نقوشهم هذه، فها هو «عنخ - تيفي» أمير «نخن» (البصيلية) يتحدث عن سنى الجماعة في مقبرته في المعلا، (فيما بين إسنا وأرمنت)، فيقول إنه مدّ خلالها مدن أخرى - إلى جانب مدينته - بالهبات والقمح، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» - على مبعده ٥ كيلا شمال غرب قنا، عبر النهر - وبذا أنقذ الصعيد الجنوبي الذي كاد يموت جوعاً، وكل رجل فيه كان يغتال أطفاله (٤).

وهناك «مرى» أمير دندرة على أيام الأسرة الثامنة، حيث تقدم لنا نقوش مقبرته سيرة عطرة لصاحبها، مملوءة بتقارير عن حكمته وعدله وعطفه على الفقراء والمضطهدين (٥)، وهناك مقبرة لرجل يدعى «نفسريو» من نفس المنطقة، يزعم فيها أنه قد أعطى الخبز للجوعان، والملابس للعريان، وأنه أغاث الرجل العظيم حتى انتهت سنة المدايح (٦).

(1) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 110.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 412.

(3) A. Erman, op.cit., p. 99.

(4) A. H. Gardiner, op.cit., p. 111; J. Vendier, Le Tombe d'Ankhtifi A Moslla, Le Cairo, 1950

(5) Sir Alen H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 111.

(6) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 138.

ونقرأ في نقوش مقبرة «خيتى الثانى» أمير أسيوط» على أيام الإهناسيين عن جهوده فى القضاء على الأزمة الاقتصادية بأن قدم هدية لمدينته، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفلاحون منها أرضهم، ويسقوا زرعهم، ثم يقول: «إننى غنى بقمح الشمال، حيث كانت الأرض فى جفاف، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته، وقد أعطيت الأرملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى، وملأت المراعى بالماشية»^(١).

ويتحدث «أمينى» أمير بنى حسن، عن دور فى القضاء على هذه المجاعة فيقول: «وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضي الإقليم، من حده الجنوبي إلى حده الشمالى، وأبقيت الأهالى أحياء، وأعطيتهم طعاماً، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد، وقد أعطيت الأرملة، كما أعطيت المتزوجة»^(٢)، وعلى نفس طريقة «أمينى» يقص علينا جيرانه أمراء «حتوب» من أن الواحد منهم إنما كان قد «أنقذ الأرملة، ووأسى المتألم، وأطعم الطفل، وعال مدينته فى زمن القحط، وأطعمها أيام المجاعة، وهو الذى زودها بسخاء بلا تفرقة، فكان عظماء مدينته كغيرهم فى ذلك»^(٣).

(٥) الحرب الأهلية بين «إهناسيا» و«طيبة»:

لعل من الأهمية بمكان أن نقدم - بادئ ذى بدء - تعريفاً عن المدينتين المتحاربتين: إهناسية وطيبة:

(١) إهناسيا:

إهناسيا هذه التى قدّر لها أن تحكم مصر أثناء الأسرتين التاسعة والعاشر، وفى العصر الذى عرف باسمها «العصر الإهناسى» إنما هى مدينة فى مصر الوسطى، وتقع على الجانب الغربى لبحر يوسف، جنوب شرق الفيوم - فى مقابل بنى سويف - وعلى مبعده ٨٨ كيلا، جنوبى منف.

(1) ARE, I, 1906, p. 181; J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1936, p. 101F.

(2) J. Vandier, op.cit., p. 111.

(3) P.E. Newbery, Beni Hatsau, I, London, 1883, p. 27.

وكانت إهناسيا تسمى في المصرية القديمة «نن - نى - سوت»، ويرجع أصل هذا الاسم إلى عصور ما قبل التاريخ، غير أن أقدم ذكر لها معروف لنا، إنما ورد في الدولة القديمة، وهو «ننو - نسوت»، وأما في العصر الروماني الأول - عصر الثورة الاجتماعية الأولى - فهو «نن - نسوت»، ومعناه «مدينة الطفل الملكي»، وكانت كلمة «نسوت» قد نشأت في «إهناسيا»، كلقب للأمراء المحليين بها في عصور ما قبل التاريخ، ثم أصبح لقباً للملوك مصر العليا (الصعيد)، ثم لقباً للملوك مصر المتحدة^(١).

هذا ورغم أنه لم يبق لنا «الخاف» واحد دليلاً محلياً، ليكشف لنا عن أهميتها المبكرة^(٢)، فإن لها أهمية دينية خاصة، ففيها - طبقاً لأساطير القوم - أشرقت الشمس للمرة الأولى، في اليوم الذي خلقت فيه السماء والأرض، وفيها رفع «شو» - أحد آلهة نظريات الخلق في عين شمس^(٣)، وهو المتكفل بالفضاء والهواء والنور، وهو أخو «تفنوت»، وأبوهما «أتوم» - فصل دائرة السماء عن الأرض، وكانتا رتقاً وقت ذاك، وجعل الأرض يابساً وفيها هبطت «سخمت» (سخمة)^(٤) من سماء البلاد بأمر «رع»^(٥) لتهلك بنى الإنسان، جزاءً وفاقاً على ثورتهم على هذا الإله - حين بلغ من العمر عتياً^(٦).

وفي إهناسيا توج «أوزير»^(٧) - ذلك البشر الموله أو الإله البشر - سلطاناً على الدنيا في مصر، ثم نودى من بعده، بولده «حور»^(٨) خليفة له، ووارثاً لعرشه، وفيها كان يقيم محطم العظام، باعث الرعب لكل روح شريرة في يوم الحساب - وهو أحد القضاة الاثني والأربعين، الذين يجلسون في قاعة

(1) M.G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957, p. 55-69.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 112.

(3) انظر عن نظرية عين شمس لفكرة الخلق عند المصري القديم: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، ٣٠٣/٢-٣٠٩.

(4) انظر عن المعبودة سخمت: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة ٤١٦/٢-٤١٨.

(5) انظر عن «رع»: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، ٣٦٢/٢-٣٦٧.

(6) انظر عن أسطورة هلاك البشرية وإنقاذها: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة ٤٣/١-٥٠.

(7) انظر عن «أوزير»: الحضارة المصرية القديمة، ٣٤٩/٢-٣٦٢.

(8) انظر عن «حور»: محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة ٣٣٤/٢-٣٤١.

العدل المزدوحة - كما يشير الفصل (١٢٥) من كتاب الموتى - وكانت تقسم في قلب المدينة «نخب - كارة» - إله الشعبان أننى قطرت رحيق الإله (١).

وكان ذلك التاريخ المجيد - بجانب اضطراب الأحوال في العاصمة القديمة «منف» - مما جعل مؤسس الأسرة التاسعة، يتخذ من إهناسيا، عاصمة للملك، ليكون بعيداً عن منف - مهب الفتن، ومبعث الاضطرابات الحامحة - هذا فضلاً عن أن إهناسيا، على مقربة من «منف»، كما أنها تقوم مقام القلب من الوادى.

وكان معبود إهناسيا الرئيسى - رغم كثرة ما بها وما فى مجاوراتها من آلهة - هو «حرشف» وترجع عبادته بها إلى عصور ما قبل التاريخ، وهو الذى قرنه الأغارقة، بمعبودهم «هرقل»، ومن هنا أخذت اسمها الذى عرفت به عند اليونان «هيراكليونبوليس» (٢).

(٢) طيبة:

اسم متأخر لمدينة الأقصر الحالية - وتقع على مبعدة ٦٧٠ كيلا جنوبى القاهرة - سبقه إلى الوجود اسم «ويسة» (واسة - واست - ويزة) بمعنى «الصولجان» وهو رمز الحكم والسلطان عند الفراعنة - وكان رمزاً لإقليم طيبة - الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد -.

وأما اسم «طيبة» فربما يعنى «الحريم أو الحرم للمعبود آمون» (٣)، وربما كان اشتقاقاً من «طيبة الإغريقية»، وذلك يرجع إلى طريقة الإغريق فى عصورهم المتأخرة من إطلاق أسماء إغريقية لمناطق مشهورة لديهم على مناطق أجنبية لا يستطيعون نطق أسمائها، ولعل الذى دفعهم لاختيار هذا الاسم للمدينة (ويسه) بأكملها، وجود قرية صغيرة، على مقربة من «ويسة» تحمل هذا الاسم (طيبة) فى العصور المتأخرة (٤)، وربما كان الاسم مصرى

(١) نجيب ميخائيل، مصر، ٢٦٣/١.

(2) M.G. Mokhtar, op.cit., p. 128; E. Naville, Ehnasa, El Medinch, London, 1894.

(٣) عبد العزيز صالحي، حضارة مصر القديمة وأثرها، ٣٤/١.

(٤) الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور، عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٨.

الأصل ، وهنا ، فأكبر الظن ، أن يكون مرجعه إلى اسم أماكنها المقدسة «إيه» ، وأن يكون مركباً من هذا اللفظ ، وفي أداة التعريف «تي» بحيث يصبح الاسم كله «تية» (طيبة) (١) .

هذا وقد نسبت «ريسة» إلى ربها «أمون» (٢) - رب الدولة منذ أيام الدولة الوسطى (٢٠٥٢-١٧٨٧ ق.م) فسميت «نوت أمون» أو «نه أمون» - أى مدينته - وتحوّر اسمها في العبرية إلى «نو» أمون ، وفي الآشورية «ناى» ، وفي القبطية «نه» ، وترجم الأغارقة - عن شهرتها الدينية - باسم «ديوس بوليس ماجنا» - بمعنى «مدينة الرب الكبرى» ، ثم ذكروها باسمها الشائع ، منذ عهد «هوميروس» (٣) .

وأما اسم «الأقصر» - وهو جمع تكسير لكلمة «قصر» - فهو الاسم العربى للمدينة ، ويرجع ذلك إلى أن العرب حين دخلوا المدينة - فى عام ٦٤٢ م - تخيلوا معابدها قصوراً ، ثم قارنوا بين واحد من هذه المعابد ، وبين «الخورنق» (٤) - قصر النعمان بن المنذر ، أو النعمان الأول (٣٩٠-٤١٨ م) - فسموا المعبد بذلك الاسم «الخورنق» ، الذى حرف إلى «الكرنك» (٥) .

ولعل من أهم آثار طيبة فى البر الشرقى (مدينة الأقصر) إنما هى : معابد الكرنك ومعبد الأقصر ، وطريق الكباش ، والمسلات التى فى معبدى الكرنك والأقصر .

وأما فى البر الغربى - حيث كانت جبانة طيبة - وأهم الآثار هناك ، إنما هى : معبد منتو - حتب الأول (نب حتب رع) الهرمى فى منطقة الدير البحرى (٦) ، معبد حتشبسوت (معبد الدير البحرى) (٧) ، تمثالا

(١) أحمد بدوى ، فى موكب الشمس ، ٣٢١/٢ .

(٢) انظر عن «أمون» : محمد بيومى مهران ، الحضارة المصرية القديمة ٣٧١/٢-٣٧٨ .

(٣) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٤) انظر عن «قصر الخورنق» : محمد بيومى مهران ، تاريخ العرب القديم ، الطبعة السادسة عشرة ، الإسكندرية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ٤٥٦/٢-٤٥٧ .

(٥) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص ٤ .

(6) E. Naville, The XIth Dynasty Temple at Deir El Bahari, 3Vols., London, 1907/1913.

(7) A.F. Mariette, Deir El-Bahari, Leipzig, 1877; E. Naville, The Temple of Deir El Bahari, 7Vols., London, 1844-1908.

ممنون^(١)، معبد الرمسيوم^(٢)، معبد مدينة هابو (معبد رعمسيس الثالث)^(٣) مقابر الملوك والملكات^(٤).

هذا ولم تكن طيبة في عهد الدولة القديمة، أكثر من قرية قليلة الأهمية، تمتد على طول الضفة الشرقية للنيل، والواقع أنها ربما كانت أصغر أربع مدن صغيرة تضمها المقاطعة (الإقليم) الرابعة لمصر العليا (الصعيد).

وأما المدن الأخرى فهي:

١ - طود: على مبعدة ٣٢ كيلا إلى الجنوب الشرقي.
٢ ... أرمنت: في مواجهة طود - عبر النهر تقريباً، وعلى مبعدة ١٥ كيلا جنوب الأقصر.

٣ - المدامود: على مبعدة ٣ كيلا، شمال طيبة، قرب الصحراء الشرقية.

وفي الأسرة الثامنة كانت طيبة إقليماً من أقاليم سبعة - تمتد من إلفانتين (أسوان) حتى «بارفا» (هو - على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب نجع

(١) انظر: سيد توفيق، أتم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) معبد الرمسيوم: من أهم المعابد الجنزية في طيبة الغربية، وهو معبد ضخم شاده رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م) وملاً واجهة صرحه (البيلون) بتماثيله الضخمة، وبه أعمدة شاهقة، كما يتميز كذلك بنقوشه البارزة، وأملأه المتناثرة، هذا ويحيط بحرم الرمسيوم سور من اللبن، يضم مساحة واسعة، تشغل جانباً كبيراً منها مبان لائوية ومخازن من اللبن، وعثر فيه على عدد كبير من البرديات، وأشهر معالمه المناظر الفلكية التي تزين سقف قاعة الأعمدة الصغرى، وأجزاء من تمثال لرعمسيس الثاني، يعد أضخم ما نحته المصريون. (الموسوعة المصرية ٢٥١/٢-٢٥٢، سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٧).

(٣) انظر عن معبد مدينة هابو: محمد يومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، ص ٢٥٨-٢٧٠، صبحي محمود مصطفی، دراسة تاريخية وأثرية لمنطقة مدينة هابو، الإسكندرية ١٩٨٥، سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢١٧، وكذا:

A.H. Gardiner, JEA, XXIV, 1938, p. 177; W.F. Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Ramesses, III, I, II, Chicago, 1936, p. 263, 339-344.

(٤) وانظر عن أهم آثار الأقصر:

سليم حسن، مصر القديمة، ١٣ جزءاً، القاهرة ١٩٤٠-١٩٥٩، عبد الغنى صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢، عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦، أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢، محمد يومي مهران، مصر، ١، ٢، ٣، الإسكندرية ١٩٨٨، محمد عبد القادر، آثار الأقصر، القاهرة ١٩٨٢، جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٦٣.

حمادى - منحها الملك «نثر - بارو» إلى «إيدى بن شيمائى»، وكانت كتلة واحدة تحت زعامة «قفط» - على مبعدة ٢٢ كيلا جنوب قنا - ثم انقسمت إلى فريقين، الواحد: يضم طيبة وقفط فى جانب، واليفانتين وإدفو ونخن (البصيلية) فى جانب آخر، ثم انتهى الأمر بانتصار فريق طيبة وقفط، ومن هنا بدأت طيبة تظهر، بينما أخذت «قفط» تختفى من ميدان الزعامة، وقد حدث هذا فى عصر الانتقال الأول - على أيام الأسرة الثامنة أو العاشرة، على خلاف فى رأى، كما أشرنا من قبل عند الحديث عن مقبرة «عنخ - تيفى» أمير «نخن» (البصيلية).

ومن ثم فقد ظهرت طيبة فى التاريخ الفرعونى - كعاصمة سياسية ودينية لمصر كلها - فى مرحلتين، الواحدة: قصيرة، أثناء عصر الدولة الوسطى، والثانية: طويلة، أثناء عصر الأسرة الثامنة عشرة - باستثناء فترة من حكم إخناتون كانت العاصمة فيها مدينة العمارنة - وأوائل عصر الأسرة التاسعة عشرة - حتى الانتقال إلى «بر - رعمسيس» (قنتير الحالية) - غير أنها احتفظت دائما بمكانتها الدينية، طوال العصور الفرعونية.

(٣) الحرب الأهلية:

كانت طيبة بدأت تأخذ زمام القيادة على أقاليم الجنوب، منذ أيام الأمير بالبرائة «أنتف الأول» (أنيوتف)، المولود من «إيكو» مؤسس سلسلة المارك المعروفين باسم الأسرة الحادية عشرة، وهو نفس الأمير بالبرائة «أنيوتف» الذى نلتقى به فى العصر المضطرب للملوك الذين يحملون هذا اللقب «والمذكورين فى جدول الكرنك، وهناك ثلاث لوحات يمكن أن تعد وثائق معاصرة لهذا الأمير، يوصف فى اثنين منهما - وربما آخر يحمل نفس اللقب - بأنه «الرئيس الأعلى لمصر العليا»، ويوصف فى الثالثة بأنه «الرئيس الأعلى لمقاطعة طيبة»، وربما كان أكثر قبولاً أن نفترض وجود سلف واحد فقط يحمل نفس اللقب، وأن «أنيوتف» هذا إنما هو «أنيوتف عا» (أنيوتف العظيم) الذى استطاع أن يخضع نواحي الجنوب من وراء حدود إقليمه، وإن لم يجرؤ على انتحال الملكية^(١).

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 117-118.

أما أول «أنيتوف» ملكي، فقد كان «سهر تاري» (مهدئ الأرضين)، ويظن «هربرت ونلوك» (١٨٨٤-١٩٥٠ م) أنه صاحب المقبرة الشمالية من مجموعة المقابر الثلاثة الكبرى ذات الطراز الخاص الذي كشف عنها في السهل على خط وهمي بين معبد «مونت» في الكرنك، والفتحة المؤدية إلى مقابر الملوك، وتسمى «الصف» لأنها ذات مداخل تجعلها تبدو كأنها هي محاطة بأروقة من ثلاث نواح، وربما كانت مقابر لهؤلاء الثلاثة الأوائل الذين يحملون لقب «أنيتوف» مادام من المؤكد أن إحداها - وربما كانت الوسطى - تخص «واح عنخ أنيتوف الثاني» (١).

وعلى أي حال، فلقد كان «سهر تاري» أول حاكم طيبى أحسن في ن... القوة على أن يغتصب نوعاً من الملكية في الجنوب، وإن لم يستطع هو - أو أحد خلفائه الثلاثة - أن يلبس التاج المزدوج وإن أسبغوا على أنفسهم لقب «نسوت بيتي»، الذي يمكن ترجمته إلى ملك مصر العليا والسفلى، وقد حفظ لنا اسمه «حور سهر تاري»، (مهدئ الأرضين ابن رع، أنيتوف)، وهو - على أي حال، أول حكام الأسرة الحادية عشرة، الذين حكموا نصف البلاد، حوالي عام ٢١٣٤ ق.م، أي قبل قيام الأسرة الثانية عشرة في عام ١٩٩١ ق.م، بحوالي ١٤١ سنة كما أنه كان أول حاكم طيبى يكتب اسمه داخل خانة ملكية (خرطوش) كما أنه ظهر كثائر ومناهض لخصمه القوى فرعون إهناسية، إلا أن الاحتكاك الحربي بين طيبة وإهناسية لم يبدأ إلا في عهد خلفه، واح عنخ أنتف (٢١٣٠-٢٠٨١ ق.م) (٢).

وكانت إهناسية تحس أن سلطانها على مصر لن يتم، مادام هناك أسوى في الشمال، وطيبى في الجنوب، وكل منهما يحتل جزءاً من البلاد، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد، والتحكم في شئونه، مادامت تدين بالولاء لإهناسية، وتدفع لها الجزية، وكان كل من الفريقين يتربص بالآخر الدوائر، ويعمل على تجميع أنصار له،

(1) H. Winlock. The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1947, p. 11.

(2) W.C. Hayes, CAH, J, part 2, 1971, p. 476; H. Winlock, op.cit., p. 10; R.O. Faulkner, The Rebellion in The Hare Nome, JEA, 30, 1944, p. 54-63.

وهكذا عمل الإهناسيون على ربط حكام الأقاليم بهم برباط الود، واتبعوا في ذلك سياسة بعض ملوك الدولة القديمة في تربية أبناء الحكام الأقوياء في قصورهم ليشبوا أوفياء لهم، ويحدثنا «خيتي» أمير أسيوط عن ذلك بقوله: «لقد كنت محبوباً من الملك، وثقة من أمرائه، وممجداً في مصر الوسطى، وقد أدى ذلك إلى أن أحكم وأنا طفل طوله ذراع، ورفع منزلي في شبابي، وتعلمت السباحة مع أطفال الملك، وكنت شخصاً جاداً في حديثه، مبراً بما يسيء سيده، الذي رباه طفلاً، وسعدت أسيوط بحكمي، وشكرت إهناسية الإله بسببي، وقالت «مصر الوسطى والدلتا: تربية ملك»^(١).

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الأحلاف من حولها وربما نجحت في ذلك بعض الشيء، ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانها، وعلى صلابه رجالها الصاعدة، وعلى إذكاء روح الأمل فيهم.

وبدأ التنافس بين إهناسية وطيبة في صورة خفية أول الأمر، ثم سرعان ما اتخذ صورته المكشوفة بعد ذلك، إذ قامت بين الفريقين المتنافسين معارك دارت رحاها على صفحة الماء مرة وفي البر مرة أخرى ولعل السبب أن كلا من «خيتي» وأنثوتف» إنما كان يتطلع إلى «أييدوس» كأنما هي من أملاكه الخاصة، فهي بالنسبة لملك إهناسية أو بالنسبة إلى مولاه «تف إيب» صاحب أسيوط، - قلعة باب الجنوب - وهي بالنسبة إلى أنثوتف، بوابة الشمال، ومنطقة أييدوس هذه منطقة حساسة هي مركز القداسة لدى الجميع وإثارة الحرب على أرضها تدنيس يحمل وزره من يسعى إليها، ولعل هذا ما دعا «خيتي» إلى إظهار ندمه، وخاصة بعد نهب المقابر، وانتهاك حرمانها^(٢).

بدأت إهناسية الحرب على طيبة، ويصف لنا «تف إيب» الذي كان قد خلف أباه «خيتي» في إمارة أسيوط، أول معركة بين جنود الصعيد الأقصى وبين قوات إهناسية، والتي يبدو أنه انتصر فيها، وذلك حين يقول: «لقد

(1) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Chicago, 1906, Parag, 413, p. 190.

(٢) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٠٧؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٩١؛ R.O. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63. وكذا:

أُتيت إلى المدينة وهزمت أعداء الفرعون، واقتفيت أثرهم إلى حصن رأس مصر العليا، وأعطاني الملك أرضاً كمكافأة^(١)، وقد تابع «تف إيب» الحرب ضد أهل طيبة وحلفائهم حتى فروا إلى شرق البلاد، بينما اضطادهم آخرون في الجنوب، مثل كلب الصيد الذي يقفز في خطوات واسعة خلف غزال مذعور^(٢).

وهكذا هزم أمراء طيبة، وإن لم تكن هزيمتهم حاسمة، إذا احتاج الإهناسيون إلى عمليات حربية أخرى، مما اضطر «تف إيب» إلى منازلة ثوار طيبة مرة أخرى فهو يقول: «قد جاء آخر كاهن آوى، مع جيش آخر من حلفائه، فخرجت لملاقته، ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية، واستخدمت الريح الشمالية كما استخدمت الريح الجنوبية.. وسقط في الماء، وغرقت سفن أسطولها، وكان جيشه كثيران تهاجم بحيوانات مقدسة فتجري، وذيلها إلى الأمام^(٣)»، وفي النهاية لن نقرأ: «وكانت البلاد في فرح من جنودى، ولم تعد هناك بلاد أجنبية لا تخاف إهناسية، بعد ما رأت الدخان يتصاعد في المقاطعات الجنوبية^(٤)»، ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هذه الموقعة إنما كانت الأولى من نوعها في التاريخ المصري، ذلك لأننا لا نعرف معركة من قبل دارت رحاها على صفحة الماء.

وهناك إشارة بقيت لنا عن هذا الصدام في أيام «واح عنخ» يفهم منها أن الجانب الطيبى إنما قد استطاع أن يسترجع أيدوس، وأن يمد حدوده حتى الإقليم العاشر، أى حتى مدينة «واجت» (إفروديتوبوليس)، وهى «كوم أشقاو» الحالية على مبعده خمسة كيلو مترات شرقى «مشطا» (بمركز طهطا محافظة سوهاج).

وعلى أية حال، فلقد كان من المنتظر أن يعود «واح عنخ - أنتف» إلى طيبة، وأن ينتظر ما تقرر إهناسية بعد هزائمه السابقة، غير أن تائداً مثله، فيه عناد أهل الصعيد، وفيه صلابتهم، وفيه صبرهم على الكفاح - لن يفسح من

(1) R. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1947, p. 14.

(2) E. Winlock, op.cit., p. 14; J.H. Breasted, Parag, 396, p. 182-183.

(3) J.H. Breasted, op.cit., I, Parag, 395, p. 183.

(4) H. Winlock, op.cit., p. 15.

الغنيمة بالإياب، ولن يستسلم عن استكانة وضعف وخنوع، ومن ثم فقد أعاد الكرة من جديد، حيث كتب له من النجاح ما لم يكتب له من قبل، ونقرأ قصة نصر «واح عنخ» هذه في لوحته التي عشر عليها، «أوجست فريناند فرانسوا مارييت» (١٨٢١-١٨٨١ م) في عام ١٨٦٠ م، ولكنه تركها في مكانها حتى عشر عليها «جاستون ماسبيرو» (١٨٤٦-١٩١٦ م) في عام ١٨٨٢ م، ثم جمع «دارسي» ما تبقى منها حيث حفظت بالمتحف المصري بالقاهرة، وهي ذات شقين، الواحد ديني، والآخر سياسي، وفي الشق السياسي يخبرنا «سورر واح عنخ» ملك مصر العليا والسفلى، ابن رع، أنيوتف الكبير، كيف سقطت «ثني» وكيف دمرت تخومها الشمالية حتى إقليم إفروديتوبوليس، حيث يقول: «لقد نزلت بالوادي المقدس، واستوليت على إقليم ثني، وفتحت كل حصونه، لقد جعلت ثني بوابة الشمال، كما أن إيفانتين، بوابة الجنوب» (١).

وهكذا استطاع «واح عنخ» أن يضيف إلى أملاكه مقاطعة «ثني» وأن يوطد حدوده الشمالية عند «أفروديتوبوليس» (كوم أشقار) في غربي النيل، وعند «بانوليس» (أخمميم) في شرقي النيل، إلا أن الغنيمة الكبرى إنما كانت أييدوس، ومعبد «أوزير» الذي يرجع إلى أيام الدولة القديمة، فضلا عن مقابر الملوك الأوائل في الصحراء، فيما وراء أييدوس (٢) عند «أم القعاب» على مبعدة ٢ كيلا جنوب غرب معبد رعمسيس الثاني.

ولعل مما يؤكد اتساع الرقعة التي كان يحكمها، واح عنخ، ما تسجله الآثار التي خلفها عدد من الموظفين في إقليمه، ولعل أجملها ما تحمل اسم حامل الختم المدعو «تيتي» الذي يفخر أكثر ما يفخر بأنه عهد إليه إدارة الثروة الواسعة التي جئ بها لمولاه، من مصر العليا والسفلى، فضلا عما جئ به من رؤساء بلاد الصحراء (٣).

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى من النزاع بين طيبة وإهناسية بغلبة طيبة،

(1) W.C. Hayes, CAH, I, part 2, 1971, p. 477; W.M.F. Patie, A History of Egypt, I, p. 126.

(2) H. Winlock, op.cit., p. 15-16.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 119; JEA, XVII, p. 55F.

ويُنقل «واح عنخ» إلى جوار ربه، ويخلفه في زعامة طيبة ابنه «نخت نب نب نفرة» إنيوتف، ومعنى لقبه «قوى سيد البداية الجمية»، ولم يمكث في الحكم سوى سنوات ثلاث، ثم جاء من بعده «سمنخ إيب تورى» (متتو حتب الأول) ولقبه يعنى «آمون راض» وكان المؤرخون يعتبرونه الملك السابق للفرعون «نب حتب رع» الذى كتب له نجحاً بعيد المدى فى النصر على الإهناسيين والقضاء على ملكهم وإعادة توحيد البلاد كلها، وقد حدثت ثورة فى العام الرابع عشر من حكم «سمنخ إيب تورى» فى «ثنى» أدت إلى معارك جديدة، أودت بالملكية الإهناسية وقضت عليها، وإن كان النص النهائى إنما كان من نصيب «نبت حتب رع» (١).

هذا وقد توصل «هانز شتوك» (٢) إلى ثلاثة ألقاب منفصلة، كانت تنسب من قبل إلى ثلاثة ملوك مختلفين، يحملون جميعاً لقب «متتو حتب» تخص فى الواقع ملكاً واحداً فقط، ويعكس كل لقب منها مرحلة مختلفة من حياته، والواقع أن مثل هذا التغير الأساسى فى الألقاب، إنما هو فريد من نوعه تقريباً فى الحوليات الفرعونية، ولكن يحمل على تصديقه الأحداث الخطيرة الشأن التى يعكسها، ففى بداية حكم «متتو حتب الأول» - شأنه فى ذلك شأن الحكام الأوائل فى أسرته - اكتفى باسمه ورضى أن يطلق عليه «الحور سمنخ إيب تورى» (الذى يجعل قلب الأرضين يعيش)، وقد يعنى «ذلك الذى يحيى آمالهم»، وهناك لوحة فى المتحف البريطانى تعد واحدة من الآثار القليلة التى تسجل هذا المظهر، وهى تشير إلى أنه فى السنة الرابعة عشرة من حكمه ثارت «ثنى»، ربما أرادت أن تعطى الإشارة للملك التقدم شمالاً.

وفى المظهر التالى، أردف «متتو حتب» اسم «نب حبت رع» إلى كنيته (لقبه العائلى)، وربما كان المراد من ذلك الإشارة إلى سيطرته التامة على مصر العليا، ولم يصلنا أى شىء مؤرخ من هذه الفترة، ولكن اللقب الحورى هنا يروى قصته، ومنذ العام التاسع والثلاثين - وربما قبل ذلك - استبدل اللقب الحورى إلى «سام تورى» (موحد الأرضين)، بينما ظل الاسم يقرأ

(1) J. Vercoutter, op.cit., p. 348.

(2) H. Stock, Mitt, Kairo, XIV, p. 42F.

«نب حبت رع» وإن كتب بعلامة المجذاف، بدل أن يكتب بعلامة غير معروفة. تماماً، وقد أدت هذه الحقيقة الأخيرة إلى الاسم النهائي الذي قرئ خطأ «نب خرو رع»، ونسب إلى «متو حتب» آخر، يختلف عن الاثنين اللذين حملتا اللقب السالف الذكر، وإذا نبذنا هذا الخطأ، فإنه بدلاً من الأسماء الخمسة التي تحمل اسم «متو حتب» والذين يعدهم معظم المؤرخين في الأسرة الحادية عشرة، سوف نعترف هنا بثلاثة فقط، ومن ثم فإننا سوف نتعامل مع أحداث الصدام في عهد «سمنخ إيب تووي» و«نب حبت رع» على أنها قد حدثت في عهد ملك واحد^(١).

كان «مرى كا رع» وقد اعتلى عرش إهناسية بعد وفاة أبيه «خيتي» الذي ترك له تعاليمه المشهورة، كما كانت إمارة أسيوط قد آلت إلى «خيتي الثاني»، بعد وفاة أبيه «ثف إيب». أما في طيبة فقد كان الحاكم فيها، «سمنخ إيب تووي»، ويبدو أن ثورة عاتية قد استقبلت عهد «مرى كا رع»، ومن ثم نجده «خيتي الثاني» والى أسيوط - والذي ربما كان يشغل منصب القائد الحربي لمملكة إهناسية - يفاخر بأنه قد أدب مصر الوسطى، وأخضع الثوار، وأعاد النظام، وصفى مياه مصر من الغيوم، وذلك حين يقول:

«أضأت السماء، وأصبحت الأرض، كلها معه، وجاء أمراء مصر الوسطى وأقطاب إهناسية - إقليم سيده الأرض - ليدفعوا العدوان، ارتعدت الأرض. واستولى الخوف على مصر الوسطى، وأصبح كل الناس في رعب، وكانت القرى، مذعورة، وداخل الرعب كل نفس، ووقع موظفو الفرعون فريسة للخوف، وأضحى المقربون في إهناسية ضحية الذعر، واخترقت البلاد بسعيرها - ولم يكن هناك شيء أمام الأسطول الذي وصلت مقدمته إلى «شاس حوتب» (الشطب الحالية، على بعد ٢,٥ كيلاً جنوبى أسيوط)، بينما كانت مؤخرته فى.... ولقد عادوا بالماء، ورسوا بأرض إهناسية، وجاءت المدينة فرحة بسيدها وابن سيدها، واختلط الرجال بالنساء والشيوخ والأطفال، ووصل ابن السيد إلى المدينة، ودخل بلاط أبيه، وأعاد هؤلاء الذين تركوا بيوتهم ودفن هؤلاء الذين لا أولاد لهم، سيد الأرضين، الملك «مرى كا رع»^(٢).

(1) J. Vercoutter, op.cit., p. 348; A. H. Gardiner, op.cit., 120-121.

(2) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 401, p. 185-188.

وهكذا يبدو أن هناك ثورة استقبلت عهد «مرى كا رع»، وربما كانت الثورة التي حدثت في السنة الرابعة عشرة من حكم «سمنخ إيب توي» في إهناسية، وربما كانت ثورة أخرى، ولكن ليس في الدلتا التي كان أبوه يخشى ثورتها، وإنما في قلب مملكته في إهناسية نفسها، فيما يرى جيمس نيكي، وربما في الأقاليم التي تمردت عليه، وبدأت تعلن العصيان، وربما كان هذا أو ذاك، وربما كان قد نجح في أن يهدئ الأحوال مؤقتاً^(١).

لم تقدم لنا نقوش «خيتي» والى أسبوط صورة حقيقية عن الحالة في إهناسية وبين حلفائها، فليس صحيحاً كل ما ذكره، ولعله أراد بهذه الكلمات الحماسية أن يخفي الحقيقة المرة التي كانت تواجهه، وتنبذ به أن حرباً شعواء سوف تندلع في عهد سيده، «مرى كا رع»، وليس صحيحاً كذلك أن كل زعماء مصر الوسطى كانوا في صف سيده، فهناك ما يشير إلى أن ولاء حكام أقاليم مصر الوسطى لقضية حكام إهناسية ليس فوق مستوى الشبهات، ففي مقابر «حتوب» كتابات لا تهيل النعوت المليئة بالزلفى على الحكام الإقليميين فحسب، بل تجدها تصحب أسماءهم بصيغ التمنيات مثل «ألا فليعيش إلى الأبد»، أو «حماية الحياة تحيط به مثل رع إلى الأبد»، وهي صيغ عرفناها - من قبل ومن بعد في أماكن أخرى - مقصورة على الفراعين دون سواهم، ولعل أعجب من هذا أن هذه الكتابات مؤرخة بسنن الحكم لأمراء الأقاليم، وليس للملوك المعاصرين، وهناك كتابتان من أقدمها تسجل العامين الثلاثين والعشرين للحكم على التوالي^(٢).

وهناك ما يثبت أن «الأشمونيين» قد ثارت على الإهناسيين منذ عهد واليها «نحري»، ففي نقش ربما كان من السنة السابعة، يتحدث فيه «كاي بن نحري» عن الجنود الذين حلوا عن آخرين شتتو بسبب العصيان، ولقد جندت جنودها من الشباب لكي تكون قوتها كثيرة العدد، بدل الجنود الذين أصبحوا موظفين واستقروا في دورهم ولم يخرجوا للقتال في وقت الفرع من القصر ولقد أنقذت مدينتي في يوم الشدة من رعب القصر، وكنت قد حصنتها في يوم المعركة، وملجأها في شديت شا، ويقول «دحوت نخت»

(١) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٢٨-١٤٦.

(2) A.H. Gardiner, op.cit., p. 114.

أخو «كاي»، والمشرف على الأمور الدينية في الإقليم، في نفس السنة السابعة، «لقد كنت مواطنًا شجاعًا، ضرب قوات الملك في يوم المعركة» (١).

وهكذا يعلن أمير مقاطعة الأرنب الحرب على الفرعون، ويفخر بأنه حمى مدينته من الفرعون نفسه، وإن كان عاد ثانية إلى خطيرة مولاه اسميا، وهكذا أفلت الزمام من أيدي ملوك إهناسية، ولم تعد سياستهم تجاه الأمراء ذات فائدة للحفاظ على عرشهم، وأصبح القضاء عليهم أمر وقت، وكان ذلك على يد «متوحتب الأول».

وليس هناك شيء محدد تماما عن الحملات التي استطاع بها، متوحتب الأول استعادة التاج المزدوج، وتوحيد البلاد، والقضاء على الفوضى الداخلية التي بدأت فيها منذ نهاية الأسرة السادسة والتي فصلت البلاد إلى شمال وجنوب، ولكن مما لا شك فيه أن «متوحتب الأول» قد بذل كثيرا من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت في طريقه، حتى انتهى الأمر باستيلائه على إهناسية، وبذلك استطاع أن يخضع الصعيد لسلطانه، وأن يستخدم اللقب الحورى «نب حدج» الذي يعنى «سيد التاج الأبيض»، ثم تابع جهاده في سبيل السيطرة على الوادى كله، فطوى الدلتا تحت رايته، وبذا بدأ منذ العام التاسع والثلاثين - وربما قبله - فغير لقبه الحورى إلى «سام تاوى» (موحد الأرضين)، ثم اتجه بعد ذلك إلى تأمين حدوده، فحارب العدو في الشرق والغرب، كما أخضع المنطقة جنوبى أسوان، ولم يحارل أن يصطدم بالأمراء الأقوياء فتركهم يحكمون أقاليمهم واكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء.

أما الأدلة الأثرية على ذلك كله فكثيرة منها تلك المقبرة التي عثر عليها «هربرت ونلوك» تضم جثث قرابة ستين جنديا، على مقربة من معبدته في طيبة الغربية، رأى فيهم «ونلوك» جنودا وقعوا في معارك ضد الشمال، وتدل أجسادهم على أنهم قتلوا عندما كانوا يهاجمون حصنا، وأن فريقا منهم إنما قتل في ساحة الوغى، بينما جرح الفريق الآخر من المهاجمين الذين كانوا فوق الأسوار، وحين هرب رفاقهم نزل رجال الحامية والتقطوهم

(1) R.G. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

من شعرهم الكثيف، ثم ضربوهم بالعصى حتى قتلوهم ثم تركوهم في ميدان القتال حتى نهشتهم جوارح الطير، وأخيراً تمكن «منتوحتب الأول» في هجومه الثاني من جمع موتاهم وحملهم إلى قبر على مقربة من مدفنه الذي كان يجهزه لنفسه^(١)، هذا ويرى الدكتور أحمد بدوى أنهم قتلوا أثناء مهاجمة القلاع الواقعة في تخوم أيديوس^(٢)، ورأى «شير ألن جاردنر» أنهم ذبحوا دون شك في معركة على مسافة لا تبعد كثيراً عن العاصمجة^(٣)، ورأى الدكتور عبد العزيز صالح أنهم استشهدوا في معركة انفصالية ضد «منتوحتب» على مقربة من عاصمته طيبة، فوسدهم إخوانهم في قبر كبير نحتوه في الصخر على هيئة المغارة قرب القبر الذي أعده ملكهم لنفسه^(٤).

كان «منتوحتب الأول» (نب حبت رع) أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، الذي أصبح ملكاً حقيقياً على مصر كلها، ومن هنا فإن المصادر إنما تجمع على ذكر اسمه، فعلت ذلك بردية تورين وقائمة أيديوس - ولعل ذلك هو الذي دفع البعض إلى اعتبار قيام الأسرة الحادية عشرة إنما كان في عام ٢٠٥٢ ق.م، أي منذ توحيد القطرين تحت زعامة «منتوحتب الأول».

هذا وقد احتل «منتوحتب الأول» مكانة عظيمة بين أقرانه من عظماء الفراعين، بوصفه واحداً من مؤسسي الدول فلقد اعترف كاتب قائمة الكرنك بالمركز الهام الذي ناله هذا الفرعون، بوصفه ملكاً على مصر كلها، ومن ثم فلم يكتف بوضع اسمه في جزء آخر من قائمة الأجداد الصغيرة، غير الذي كان فيه أجداده الذين سبقوه مباشرة، بل إنما يصفه كذلك بأنه «الإله الطيب، رب الأرضين، ملك مصر العليا والسفلى، سيد القريان، نب حبت رع، المبرأ»، كما نجد اسمه كذلك في قائمة الملوك بمقبرة «نترى» بسقارة، وقد ذكره «ترنوا» في قائمة أيديوس، وتظهر مكانته بصورة بارزة في الرمسسيوم، فهناك نجد الملك «ميناء» والملك «نب حيث رع» (منتوحتب

(1) R.E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes N.Y., 1947, p. 29; H.E. Winlock, The Stein Soldiers of Neb-Hebet - Re, Mento - Hotpe, N.Y., 1945.

(٢) أحمد بدوى، في موكب الشمس، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٠، ص ٥٠.

(3) A.H. Gardiner, op.cit., p. 121.

(٤) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

الأول) والملك «نب بحتى رع» (أحمس الأول) يظهرون بوصفهم المؤسسين للدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة^(١).

هذا وقد اتخذ «منتوحتب الأول» الألقاب التى تدل على أنه ملك مصر الحقيقى، فسمى نفسه «الحور» سما تاوى (موحد الأرضين) وصاحب الإلهتين سام تاوى، حور الذهبى، قا - شوتى، ملك مصر العليا والسفلى، نب حبت رع، ابن رع، منتوحتب الأول، وهذه هى الألقاب الفرعونية الخمسة^(٢).

(1) H.E. Winlock, op.cit., p. 31; W.C. Hayes, op.cit., p. 181; M.Cassirer, An Egyptian Funerary Stele with a Rare Title, ASAE, 52, 1954, p. 42-43.

(2) H.E. Winlock, op.cit., p. 30.

الباب الرابع

نتائج الثورة الاجتماعية

الفصل الأول في المجال السياسي

قامت الملكية الفرعونية - منذ العهد الثيني^(١) أو عهد التأسيس - على أساس ديني، فالملك فيها «إله» تكرم فأقام في أرض مصر ليحكمها وليسعد المحكومين من أبنائها، ومن هنا سيطر الفراعين على رعاياهم في دنياهم وآخرتهم، ثم ما تلبث الأمور أن تتغير، وتقوم الثورة الاجتماعية الأولى، ويتغير مركز الفراعين المؤلهين، وتصور تحذيرات «إيسو - ور» كيف هان شأن الفراعين، وكيف أصبحوا مجالا للنقد والتجريح المرير، بعد أن كانوا مجالا للتأليه والتقديس، حتى أن «إيسو ور» يتهم الملك بأنه سبب البلايا التي حاقت بالبلاد، ويتمنى له أن يتذوق منها^(٢)، بعد أن كان أي فرد في البلاد - مهما علت مكانته - يفخر، إن كُتب له هذا الفخر، بأنه قد سمح له أن يقبل قدم الملك، بدل أن يقبل الأرض بين يديه.

وفي العصر الإهناسي، ترى الفرعون نفسه يتطرق إليه الشعور بضياغ الهالة التي كانت تسبغ على الملكية، فيعترف بخطئه وأن القصاص قد حل به، فعوقب بمثل جريمته، «إن مصر تحارب حتى في الجبانة، إني فعلت ذلك، وحدث لي ما يحدث لمن يخالف أوامر الإله، انظر: لقد حدثت كارثة

(١) نسبة إله «ثني» عاصمة الإقليم الثامن (تا - ور)، وإحدى المدن الكبرى الثلاثة في عصر الإيس (الأسرة الأولى والثانية)، وقد زالت «ثني» تماما، ومن هنا كان اختلاف المؤرخين حول تحديد مكانها على وجه اليقين، وإن كان «هرمان كيس» يذهب إلى أنه إنما تقع بالأكيا إلى الشمال من (أبيدوس) (جبانة ثني)، وفي مركز جرجا بالذات، وأن الاختلاف يجب أن يقتصر على التحديد الدقيق للمكان من هذا المركز، ومن ثم فقد ذهب رأي إلى أن «ثني» إنما تقع في مكان قرية «البربا» الحالية، على مبعدة خمسة كيلو مترات إلى الشمال الغربي من جرجا، غير أن هذا المكان لم يعثر فيه على آثار هامة تؤيد هذا الرأي، كما أنه يبعد نسبيا عن أبيدوس.

على أن هناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن «ثني» إنما تقع في مكان قرية «الطينة» الحالية، بينما يتجه رأي ثالث إلى أنها عند «نجع الدير» - على الشاطئ الشرقي للنيل، جنوب جرجا، وعلى بعد قريب من نجع المشايخ وأما «سير آلن جاردنر» فإنه يميل إلى رأي مواطنه الأخرى «سايس» الذي يذهب إلى أن «ثني» إنما هي «نجع المشايخ»، جنوب شرقي جرجا عبر النهر، وعلى أي حال، فإن «ثني» تقع في مكان لا يبعد كثيرا عن «جرجا» لأن إلهها «ألوريس»، غالبا ما يدخل في أسماء أعلام الجهة المجاورة، وهي نجع الدير، ونجع المشايخ.

(2) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 242.

فى عهدى، غزى إقليم ثنى بسبب ما فعلت، غير أنى لم أعرف إلا بعد حدوثه، انظر: إن ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به، فالضربة ترد بضربة أخرى^(١)، مما يدل على أن الهالة التى كان الفراعين يحيطون بها أنفسهم - أو يحيطهم بها شعبهم - قد ضاعت، وأن ذلك الحجاب الفاصل بين الفرعون الإله وبين العامة من شعبه، قد انهار.

هذا وقد دعا عصر الثورة إلى تطبيق العدالة الاجتماعية بين الناس جميعاً، وكان على الحكام أن يفعلوا ذلك، ومن هنا فقد رأينا بعض الفراعين إنما يتخذ عند جلوسه على العرش أسماء رسمية، تعبر عن رغبتهم فى أن يكون العدل الاجتماعى هدفهم، وأن تكون «ماعت» - إلهة الحق والعدل - رائدهم، فإن ألقينا نظرة على أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة نرى «ماعت» تتكرر باستمرار، فيذكرون «ماعت» التى تعنى الحق أو العدل، أو «ماعت» بمعنى الصادق أو العادل، وقد اتخذ «أمنمحات الثانى» اسمى «الذى يسره العدل»، و«ذو الصوت الصادق»، أما «سنوسرت الثانى» فقد سمي نفسه «الذى يرفع شأن العدل»، وكان «أمنمحات الثالث»، «المتنمى إلى عدل رع»، وكان أمنمحات الرابع «رع هو الصوت الصادق»، وفى هذه الأسماء نرى شيئاً من مميزات ذلك العصر^(٢).

وهكذا نرى أن الثورة الاجتماعية - رغم أنها أبقت على الملكية الإلهية - لم تترك الفرعون بكل ما كان له من ميزات، بل شاركه فيها الكثيرون، ولم يعد حكام الأقاليم ينظرون إلى الفرعون - كما كانوا ينظرون إليه من قبل - إذ عملت أحداث الثورة وعواملها على التقليل من قدسية الفرعون، كما رفعت شأن النبلاء وأصبح كل منهم يفخر بنفسه، ويثق فى قدراته، فمن ذلك «عحا نخت» الذى يقول فى نقش على مقبرته فى البرشا (جبانة الأشمونين) «كنت إنساناً أدى الحق، ذرب اللسان بين الخصوم، تكلم بلسانه (أى بدون وحى من أحد)، وعمل بساعديه، متيقظاً لخطوات الأمراء، والذى يدخل أولاً، ويخرج أخيراً، وكنت صاحب المشورة فى استشارة الموظفين، المخلص «عحا نخت» «المبرأ»^(٣)، ويفخر «إمينى» أمير بنى

(1) J.A. Wilson, ANET, 1966, p. 415.

(2) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 133.

(3) P.E. Newberry and F. I. Griffith, El Bersheh, London, 1893, Tomb, 5, p. 32.

حسن، بأن كل ما يأمر الملك بعمله إنما يتم عن طريقه: «لقد كنت كحاكم لإقليم الوعل، كل أعمال بيت الملك تمر من بين يدي»^(١).

وهكذا لم يعد الملك بعد الثورة، ذلك الإله المترفع الجبار، الحاكم فوق البشر، وإنما غداً إنساناً له ما للإنسان من ضعف ونزوات، وحاكماً يعمل لخير شعبه، ويعمل جهد طاقته على أن يكون دائم اليقظة والانتباه، حتى لا يؤخذ على غرة بيد أئمة، شأنه مع شعبه، وشأن شعبه معه، شأن أى إنسان من كافة البشر، قد يفعل الخير فيجد خيراً، وقد لا يجد سوى الشر.

وبخلاصة القول، أن الملك الذي كان قبل الثورة إلهاً أكثر منه إنساناً، أصبح، فيما بعد الثورة، إنساناً أكثر منه إلهاً، ذلك لأن ضعف الملكية في العهد الإقطاعي وضياح قدسيته، قد هبط بها كثيراً من عليائها، كما أن الدعوة إلى العدالة الاجتماعية أدت إلى ارتفاع شأن الشعب، ومن ثم فإن الفروق بين الملكية والرعية قد قلت كثيراً، أو لم تعد لها تلك الهالة القديمة التي كانت لها فيما قبل الثورة.

كانت نظرية تولى العرش في مصر تجعل العرش وفقاً على من تكون أمه من نسل ملكي، وكذا يجب أن يكون أبوه، ولعل هذا هو السبب في زواج الأخ بأخته، التي لجأ إليها بعض الفراعين، بغرض تأكيد صفاء الألوهية. ولغرض آخر، هو التقابل من عدد المتطلعين إلى العرش^(٢)، أما الآن شجد أن «نفرتي» يصرح في نبوءته بأن مليكه الجديد «ليس من سلالة البيت المالك القديم، فهو إذن ليس بإله - كغيره ممن سبقه من الفراعين الآلهة، وإنما هو «ابن امرأة من تاستي طفل من خن نخن»^(٣).

هذا وقد رسم عصر الثورة صفات جديدة للحاكم الذي يجلس على العرش، فإن القوم - بعد أن سمعوا بأحوال الملكية المتسيطرة القديمة، وبعد أن لمسوا أحوال الملكية المهلهلة الضعيفة، وبعد أن جربوا سيطرة العوام - رأوا أن يكون الجالس على العرش رجلاً يخدم مصالح الدولة، ويرعى شؤونها، ويعمل على وحدتها. رجلاً يمتلئ قلبه بحب رعاياه، والرغبة في العمل من

(1) P.E. Newberry, Beni Hassan, I. London, 1890, p. 26.

(2) J.A. Wilson, op.cit., p. 96-97.

(3) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 125.

أجل مصلحتهم، ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب، وأصبحت تحس بإحساسه، وتهتم به، وتتفانى في خدمته، يقول الملك الإهناسي: «أكسب إلى جانبك الجماهير، وابعد عنها اللهب، فالشعب الغنى لا يثور، فلا تفقره حتى لا تدفعه إلى الثورة لأن الفقير هو الذى يخلق المتاعب... اعمل على غنى الفلاح وأهل المدينة»^(١).

وطالبت الثورة الملوك بالتزام العدل بين رعاياهم، وحذرتهم من العقاب الخطأ، وإن اضطروا إلى ذلك فالضرب والحبس، وليس القتل، هو الطريق الذى يجب أن يسلكوه فى تقويم المعوجين من رعاياهم، اللهم إلا الخونة المتآمرين فإن دمهم مباح لأن جرمهم أشنع من أن تكون الرحمة سبيل الحاكمين فيه، ولهذا يقول الملك الإهناسي لولده «مرى كا رع»: «الزم العدل تخلص على الأرض، واحذر أن تعاقب خطأ، فالقتل لن يفيدك، بل عاقب بالحبس والضرب، وبذلك تزدهر أحوال البلاد، أما المتآمر، فالله يقدر خبثه، ويطلب دمه جزاء جرمه»^(٢).

ونادت الثورة بأن صلاح الأمور فى البلاد إنما يأتى عن طريق حكومة صالحة، وإن انقسم مفكروها إلى فريقين، الواحد يرى أن ذلك يتأتى على يد جيل جديد من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول، والآخر يرى أن ذلك يتأتى على يد ملك حازم مخلص عادل مجدد، ينقل البلاد من الهوة التى تردت فيها.

وفى تعاليم «خيتى» معالم واضحة لفكرة الفريق الأول، الذى ينادى بتكوين جيل جديد من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول، فالملك ينصح ولده بمبدأ يعتبر من أنبل المبادئ التى تمخضت عنها الثورة الاجتماعية، إذ يحثه على أن يقدر الفرد لذاته، وذلك بأن يبحث عن الكفايات الممتازة فى الأوساط الدنيا، وتكوين جيل جديد من هؤلاء ويحذره من أن يتخذ من الحسب والنسب أساساً للاختيار، وإنما الاختيار يجب أن يعتمد على الكفاية

(1) Francois Dumas, La Civilization de l'Egypte Pharonique, Paris, 1955, p. 394-395.

(2) J.A. Wilson, The Intruction for King Meri-Ka-Re, ANET, Princce-ton, 1955, p. 415.

الشخصية فحسب، ولعل هذا ما نسميه الآن بمبدأ تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين^(١).

ثم ينصح به بعد ذلك أن يجعل لموظفيه مرتبات موفورة، لأن العفة والكرامة وطهارة اليد واللسان، والتزاهة فى الحكم والقدرة على تنفيذ الأمور، لن تكون لرجل جائع يفنى نفسه تفكيراً فى الحصول على قوته وقوت عياله^(٢).

غير أن ذلك وحده لا يكفى ، وإنما يجب أن يسانده حاكم عادل، ففى «قصة الفلاح الفصيح» ما يدل على أن ذلك العلاج وحده غير ناجع، فلقد وقع على مقربة من قصر فرعون فى مجاورات إهناسية، اضطهاد غاشم أقدم عليه موظف سىء الخلق فى ضيعة المدير العظيم لبيت الملك ، مما يدل على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له^(٣)، وإنما يجب أن يصاحب ذلك حاكم قوى حازم يحمى الضعيف من عسف القوى، ويمنع تلك الطبقة من الموظفين التى تتخذ من صلتها بالحاكمين وسيلة لظلم الناس، وهكذا تدل قصة الفلاح الفصيح على مدى حاجة الدولة إلى حاكم قوى ، عادل حازم.

وهكذا يذهب «إيبو- ور» و«نفرتى» إلى أن صلاح الأمور سوف يأتى على يد ملك عادل، وأن ذلك الحاكم إنما قد حكم فى يوم من الأيام باسم إله الشمس «رع»، ولما كان «إيبو- ور» يرى فى سلطته المقدسة العصر الذهبى، فإنه يوازن بينه وبين الحاكم الغاشم، الذى ترزح البلاد تحت عبئه على أيامه، وهكذا ، فإنه يصف ذلك المنقذ، الذى يأمل الخير على يديه: «إنه يجلب البرودة إلى اللهب، إنه راعى الإنسانية، لا يحمل فى قلبه شراً، يقضى يومه فى لم شمل رعيته»^(٤).

وأما نفرتى» الذى كتب نبوءته بعد الثورة، كدعاية للملك «أمنمحات

(1) A.H. Gardiner, The Instruction for King Merykare, JEA, I, 1914, p. 27.

(2) Ibid., p. 26.

(3) J.H. Breasted, ARE, I, p. 183.

(4) A. Erman, op.cit., p. 105-106; J.H. Breasted, op.cit., p. 198.

الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، والذي كان مجيئه هو الأمل الذي ينتشده الحكيم «إيو - و» وقد سماه «نقري» «إميني»، وهو اختصار مؤكد لاسم الملك أمنمحات الأول، إذ يقول «سيأتي ملك من الجنوب، يدعى «إميني» ابن امرأة من تاستي، طفل من خن نخن، - يستقبل التاج الأبيض، وسيلبس التاج الأحمر، وسيسعد من يعيشون في عصره، وهو ابن واحد منهم، اسمه خالد إلى الأبد» (١).

وأما الذين كانوا قد تأمروا على الشر، ودبروا الفتنة، فسيطبقون أفواههم خوفاً منه، وسيسقط الآسيويون سيفه، والليبيون أمام لهيبه، وسيستسلم الثوار أمام غضبه، والعصاة أمام جلالته، وستخضع المتمردون للصل الذي على جبينه، وسوف ينني حائط الأمير حتى لا يدع الآسيويين يهبطون مصر، أملاً في الحصول على الماء لتشرب ماشيتهم، ومتعوذ العدالة إلى مكانها، ويقضى على الظلم، وسيفرخ من سيرى، ومن سيكون في خدمة الملك» (٢).

هذان هما الرأيان اللذان نادى بهما المفكرون الاجتماعيون لإصلاح الأمور، والدخول في عهد جديد، على يد جيل من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول، أو على يد ملك حازم عادل مخلص ينقذ المجتمع مما هو فيه، والرأي عندي أن كلا الرأيين في حاجة إلى الآخر حتى ينجح الإصلاح ذلك أن حكم الملك الحازم العادل لن يأتي بشماره المرجوة، ما لم يعتمد على طائفة من الموظفين الأكفاء الأمناء العدول ليقوموا بتنفيذ الأوامر الملكية العادلة، والعكس صحيح، فإن الموظفين الأمناء لن يتأتى إصلاح على أيديهم، إن كان على رأس الدولة ملك فاسد خانع، وهكذا لن يتم الإصلاح إلا على يد ملك حازم عادل، تسنده جمهرة من الموظفين الأمناء الأكفاء العدول» (٣).

(1) A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 126.

(2) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

(٣) محمد بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٦م، ص ١٧٦-١٨٦.

الفصل الثاني في المجال الاجتماعي

دعت الثورة الاجتماعية الأولى إلى «مبدأ تكافؤ الفرص» بين المواطنين جميعاً، ومن ثم فيجب أن يختار الحاكم أعوانه على أساس من كفاءتهم الشخصية، وليس على أساس من حسب أو نسب، يقول الملك الإهناسي لولده «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن الفقير، وتخير الفرد بكفاءته الشخصية»^(١)، وليس ثمة يزيد أهمية هذا المبدأ، أن قائله ملك، وأن الموجه إليه ملك، وهذا يعني أن سياسة الدولة على أعلى مستوى فيها إنما تنادي بمبدأ تكافؤ الفرص.

وقد أدى هذا المبدأ إلى ظهور طبقة جديدة من الموظفين، لا تعترز بالحسب والنسب، وإنما تمجد العصامية، يفخر الواحد منها بأنه حر في رأيه، ويعمل بساعده، ويحرث بمواشيه، وينتقل بقاربه، يقول «ابن وجا»^(٢)، «كنت مواطناً نشطاً، ذا سمعة طيبة، عاش في أملاكه، وحرث بثيرانه، وسافر بسفينته ولم يكن ذلك وجدته في حيازة أبي المبجل «وجا» ويقول «حقاً إيب» : «كنت مواطناً صالحاً يتكلم بفمه، ويعمل بساعده، وقد جعلت مدينتي قرية منى، لقد كنت نبيلاً في طيبة، والساعد العظيم في «ختتي ويت»، وقال الناس لقد أحرز الممتلكات بساعده»^(٣).

هذا وقد نادى الثورة بالمساواة التامة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وفي تعاليم الملك الإهناسي ما يدل على أن الناس سواسية أمام خالقهم، وأن للملكية واجبات توازي حقوقها، وأن كل راع مسئول عن رعيته، وأن نعم الله التي أسبغها على خلقه إنما هي لهم جميعاً، وأن رحمته إنما قد تداركتهم وهم ما يزالون أجنة في بطون أمهاتهم»^(٤).

ولعل من أهم دواعي المساواة بين الناس «أن الله خلق كل إنسان مثل

(1) J.A. Wilson, ANET, 1955, p. 415.

(2) D. Dunham, Nega ed Der Stela of The First Intermediate Period, 1947, Pl. XXXII, p. 104.

(3) H.G. Polteky, The Stela of Heka - Yeb, JEA, XVI, 1930, p. 144.

(4) A.H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 34.

أخيه الإنسان، وأنه لم يأمرهم بالشر، وإنما نفوسهم هي التي وسوست لهم به، ولعل الجمع هنا بين المساواة وبين فعل الشر إنما ليشير إلى أن الفوارق الاجتماعية ليست من أمر الله، وإنما هي من شر بني الإنسان، وأن المجتمع المثالي مجتمع يتساوى فيه جميع مواطنيه في الحقوق والواجبات.

وهناك نص عثر عليه في «متون النواييت» جاء فيه: «إن الله خلق أشياء أربعة لمنفعة الناس، وساوى بينهم فيها، صنع الرياح ليتنفس منها كل إنسان مثل أخيه إبان حياته، وهذا أول الأفعال، وصنع مياه الفيضان العظيمة، وجعل فيها للفقير ما للعظيم من حق، وذلك ثاني الأفعال، وخلق كل إنسان مثل أخيه، ولم يأمرهم بفعل الشر، إلا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعل، وذلك ثالث الأفعال، وخلق قلوبهم بحيث تفكر في الغرب (الآخرة) لكي تقدم القرابين المقدسة لآلهة الأقاليم، وذلك رابع الأفعال» (١).

وهكذا نادت. مصر - قبل ظهور المسيح عليه السلام، ودعوته السمحاء - بأكثر من ألفين من السنين، بالقضاء التام المطلق على الفوارق الاجتماعية بين بني البشر جميعاً، ومن هنا كان هذا العصر من أهم العصور التاريخية في مصر الفرعونية لأنه نادى بالقضاء على الفوارق بين الناس، ومن أسف أن مصر لم تسر في هذا الشوط حتى نهايته، ربما لأن الوقت كان مبكراً جداً في تاريخ العالم، ليصل أى شعب إلى تحقيق هذا العدل تحقيقاً تاماً، وربما لأن الظروف التي أحاطت بذلك العصر هي التي ألهمت مفكره تلك المبادئ الخالدة، أما حين تتغير الأحوال، وتقوم الدولة الوسطى، وتؤدي رسالتها خير أداء، فيسود الأمن، ويعم الرخاء، فإن هذا المذهب القائل بمساواة كل رجل بأخيه، وإصرار الفلاح الفصيح على أنه يجب أن يكون لأفقر الناس حقوقاً طبيعية، فقد أصبحت أشياء باهتة ونسبها الناس في غمرة الرخاء الذي عم البلاد، ولم يعد فرعون في حاجة إلى أن يقضي الليل ساهراً يحرس قطيعه، فلقد أصبح القطيع سميناً إلى الحد الذي تمنه سمته من أن يتحرك فيضل طريقه بعيداً عن العرش (٢).

(1) J.A. Wilson, Creation and Myths of Origins, All Man Created Equal in Opportunity, ANET, 1966, p. 7-8.

(2) J.A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 143-144.

هذا وقد نجح عصر الثورة الاجتماعية في تحقيق العدالة الاجتماعية، فقصصة الفلاح الفصيح تلح وبشدة في طلب العدالة الاجتماعية، واعطاء الفقير حقه، ومن حسن الحظ أن مصير العدالة الاجتماعية لم يكن كمصير المساواة في العصور التالية، فلقد استمر المصريون في عهد الدولة الوسطى يؤمنون بالعدل الاجتماعي، وحقوق الفرد، وجهد الفراعين على رفاهية شعبهم، ونشر العدالة بين أفرادهم، فهناك نسخ من خطاب اعتاد الملك أن يوجهه مشافهة إلى وزيره الأعظم إبان تعيينه، ويرجع إلى الدولة الحديثة، ويقدم الدليل على أن أحلام «إيسو - و» و«نفرتي» في ظهور مخلص عادل، إنما قد تحققت فيما يتصل بالأخلاق الملكية، أو بعبارة أخرى أن روح العدالة التي كان يشعر بها المتنبئون قد وصلت إلى صاحب العرش، ثم سرت في كيان حكومته.

وقد جاء في الخطاب الذي وجهه الفرعون إلى وزيره: «إن الوزارة ليست حلوة بل إنها مرّة، إنها لا تعنى إظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير من الشعب عبداً له، اعلم أنه عندما يأتي إليك صاحب مظلمة أو حاجة من الصعيد أو الدلتا، أو من أية قطعة من البلاد، فعليك أن تراعى أن يسير الأمر وفقاً للقانون، وأن يعطى كل ذي حق حقه»، ثم يقول «احترس من الذي يقال عن الوزير نخيتي، إذ يحكى أنه جار في حكمه على بعض ذوى قرياه، منحازاً إلى غرباء، حتى لا يهين عنه: إنه حابى ذوى قرياه خيانة منه، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذي أصدره «نخيتي» ضده، أصرّ على إجحافه لهم، إن ذلك أكثر من عدالة، فلا تنس أن تحكم بالعدل، لأن التحيز يعد طغياناً على الإله نفسه»^(١).

ثم يقول له «عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كالبعيد عنه، ولا تغضب على رجل لم تتحر الصواب في أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه»، ثم يقول له: «لا تتوان قط في إقامة العدل، وهو القانون الذي تعرفه، واعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف»^(٢).

(1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 209.

(2) Ibid., p. 210.

وهكذا نجد أن سياسة الدولة أصبحت تسير على مبدأ العدالة الاجتماعية، فالوزارة - أسمى المناصب وأرفعها شأنًا - ليس الغرض منها تفضيل الأمراء والمستشارين على العامة من القوم، كما أنها ليست وسيلة لاستعباد الناس، وإنما هي وسيلة لنشر العدالة، وتنفيذ القانون على الناس جميعًا، دونما تفرقة بين قريب أو بعيد، غلب من العدل أن يظلم من له صلة بولي الأمر، كما أنه ليس من العدل كذلك أن يظلم الأقربون، وإنما العدل أن ينال كل ذي حق حقه، كما يجب أن يكبح ولي الأمر غضبه، حتى يستطيع أن يقوم بالعدل بين الناس بالقسط المستقيم، وهكذا نجد أن هذه الوثيقة الرسمية إنما تضغط بشدة وبالحاح على تطبيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين جميعًا، وهكذا تتحقق أحلام «إيسو» - و«إذ أن هذا الخطاب يعد بمثابة تصريح رسمي من رئيس الدولة إلى أكبر موظفيها يحوى المبادئ الرئيسة للعدالة الاجتماعية.

وهكذا تتصدر مصر مكانًا ممتازًا في هذا المجال، فعندما تفحص قوانين حورابى، والتي ترجع إلى عصر تال، نجد أن إجراء العدالة إنما يشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية، إنه عن نفس الجرم إنما تختلف العقوبة والأضرار طبقًا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد الذى وقع منه الجرم^(١)، وفى تنصيب الوزير المصرى تمحى مثل هذه الفروق. والجميع يعاملون على قدم المساواة وعندما قال «أفلاطون» فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم»، ربما لم يكن يعلم إلا قليلًا، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلقت، هذا المثل الأعلى، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة، أو أن هذا دليلًا آخر على أن أفلاطون كان فى مصر، وأن ذلك رأيًا استحوذ عليه هناك^(٢).

(1) Theophile J. Meck, The Code of Hammurabi, ANET, 1966, p. 163-177.

(٢) جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٣٨.

الفصل الثالث

فى المجال السدىنى

دفت أحداث الثورة المصرىين القدامى إلى أن يىءو آراءهم فى العقائء التى كان يعتنقها السلف بالنقد تارة، والمبىء تارة أخرى، وبالرغبة فى التعءىل - فى بعض الأحایىن - مرة ثالثة.

كان المصرىون أول من فكر فى معنى الحىاء، فءوار «المءعب من الحىاء مع روءه»^(١) نموءجاً لذلك، إء نرى صاءب الءوار (نسوء) يفكر فى الءلاص من الحىاء، لأنها أصبحت - فى نظره - لا ءطاق، لما فىها من آلام ونكبات أحاطت به وبقومه، وىءارول «نسوء» الءساؤل عن معنى الحىاء من ناحىءىن، الواءءة ءنطق بمعنى الحىاء، إءا اءءفى منها كل ما كان من شأنه أن جعلها سعىءة، والأخرى أكثر عمقاً، وأوسع مءى، فلم يءءف الكاءب فىها بأستمرار ذلك العراك بىن الأفكار والرغبات، وإنبا عمد إلى الموازنة بىن وءهءى النظر الءءلءفءىن اللءىن ساءتا الحىاء فى ذلك العصر، بىنما ءءء روح «نسوء» ءلءزم الءفاع عن مءع الحىاء الرءىبسة، وءءعو ألا يفكر كءىراً فى الآءرة، وأن ىءقبل برضى كل ما ءءءمه الحىاء.

ویمثل الكاءب ذلك الفریق من المصرىين الءىن اءءفظوا بءأشهم، والءىن مءصءهم الآلام والنكبات وءهرءهم من أءرائها، فأكسبءهم بصىرة، وزاءءهم إىماناً بالآءرة، وبقىمة أءمالهم الصالءة فى الحىاء الءنىاء، ومن ذلك ىءضء أن ما ءءء ىءكرر فى الإنسانىة، وأن فرط النكبات والمساوءى الاءءماعىة المءءشرة، وإزءىاء البلاء، ىءءء أثراً مزدوءجاً ففریق من ءصیبهم النكبات - وهم الأكثرىة - ىءرفهم ءىار الأحداث بىنما ىءفرض أن ءءعو ءلك الأحداث إلى ءبصر، وأءیاناً إلى ءشكك^(٢).

ءذا وءء ناءى «إىسو - وء»، كذلك، بفكرة ءءلاص من الحىاء وأن ىكون ذلك نهایة الناس من الءنىاء، «ألا لىء ذلك ىكون نهایة الناس، فلا ءمل ولا ولاءة، لىء العالم ىءلاص من الغوءاء، وءنقضى المشاءنات»^(٣).

(1) J.H. Breasted, op.cit., p. 168-181; A. Erman, op.cit., p. 85-92.

(٢) ءىب مىءائل، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(3) J.A. Wilson, op.cit., p. 412.

ولم يقتصر الأمر على التفكير فى معنى الحياة، وتمنى الخلاص منها، بل إن الثورة إنما دعت فريقاً من الناس إلى الشك فى الآخرة نفسها، ودعوة المترفين إلى التمتع بمباهى الحياة الدنيا، ما وسعهم إلى ذلك من سبيل، دونما قلق على الآخرة، وما يصيبهم فيها، لأنهم لا يعلمون عنها شيئاً، ذلك أن واحداً من الراحلين لم يأخذ معه شيئاً مما اقتناه فى الدنيا، حين ذهب إلى الآخرة^(١).

هذا وكانت عصور ما قبل الثورة الاجتماعية الأولى، إنما تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالداً على مرّ السنين، إذ أن ذلك، فى نظر القوم، ضمان للخلود فى العالم الآخر، بل إن فقدان القبر، إنما كان فى عقيدة القوم، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصر، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقصى عقاب لمن يمكن أن يشك فى ولائه لفرعون حتى أن أحد الحكماء قد حذر أولاده من هذا العقاب الأليم، إذ يقول «لا قبر لإنسان خارج على الملك، وإنما سيلقى بجثته فى الماء»، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب، ومن ثم فإننا نرى الملك الإهناسى ينصح ولده بإقامتها «زين مشواك الذى فى الغرب، وجمل مقعدك فى الجبانة»^(٢)، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة فى الحياة الثانية، وإنما أصبح للأخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الإنسان بعد وفاته.

وهكذا أصبحت الأهمية الكبرى للوصول إلى الخلد هو العمل الصالح، بعد أن كان ذلك من قبل الثروة والقربى من الملك الإله، وتقدم لنا الملك الإهناسى أمثلة كثيرة على ذلك، ففى تعاليمه التى وجهها لولده «مرى كا رع» حثه فيها على نبذ المادية فى ثلاث فقرات «لا تكن شريكاً، فالصبر خيز، اجعل بيت ذكراك خالداً بحب الناس لك»، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الأخلاقى ببناء بيت الذكرى، قال له «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا، فالخلق الطيب ذكرى للإنسان»، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الأشرار، «إن فضيلة الرجل المستقيم أحب إلى الإله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه

(1) Ibid., p. 467.

(2) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, p. 86.

كقربان^(١)، ويقدم صاحب قصبة القروى الفصيح مثلاً آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكى فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب «احذر فإن الأبدية تقترب»^(٢).

هذا ويرى أمراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والعناية بهم، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الأرملة ورأسى المتألم وأطعم الجائع، ولم يفرق بين رجل فقير، وآخر عظيم فى شيء، وما هو «أمينى» أمير بنى حسن يقول فى نقش كتبه على مزار قبره «إننى لم أستعمل القوة مع أية واحدة من بنات الأهالى، ولم أظلم أية أرملة، ولم أقبض على أى عامل، ولم أطرده راعياً، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عمالة أثناء العمل، وليس هناك فقير، ولا جائع فى عصرى»^(٣)، ويذكر «حقاً إيب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع، والكساء للعريان، وأنعمت على البسطاء سرّاً، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا، وقدمت الزيت لإقليم «نخن»، بعد أن أخذت منه مدينتى حاجتها، وصنعت سفينة طولها أربعون ذراعاً، وكذا قارباً، لنقل الماشية، وتعدي من لا قارب له فى فصل الفيضان»^(٤).

ويفخر «خيتى» أمير أسيوط على عهد الإهناسيين بإدارته الحكيمة وما قدمه من خير للحكومة، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتى، عندما حفرت فى الأرض الصالحة للزراعة، قناة عرضها عشرة أذرع، وقدمت أجوراً من الحبوب للساقين ليتولوا توزيع المياه وقت الظهيرة، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه، وحفرت نبعاً فى الجبل الذى عز فيه الماء، وضمنت الحدود الزراعية، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل، وكما أرضيت الجار سقيت جاره»^(٥).

(1) J. Wilson, ANET, p. 417.

(2) A. Erman, op.cit., p. 123.

(3) P.E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, p. 27.

(4) H.J. Polotsky, JEA, 16, 1930, p. 194.

وانظر: محمد يومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى، ص ١٨٦-١٨٨.

(5) J.H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 188.

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لإقامة الشعائر الدينية لينال عطف الإله، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئاً، ما لم تسنده أعمال طيبة، وفي جملة الملك الإهناسى التى تنص على أن الإله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة، والتى تعد أجمل ما جاء فى التفكير الخلقى فى مصر الفرعونية فى ذلك العصر المبكر، وفى هذه الجملة دلالة على أن للفقير ما للغنى من حق فى رعاية الله، ذلك لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وليس أكثرهم قرباناً، وهكذا فإن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى، أو قرابين تقدم، ولكنها أصبحت فى العمل الصالح، والعدل بين الناس، والعطف عليهم والعناية بهم، وفى هذا يقول الملك الإهناسى «أقم العدل لتوطد به مكائتك فوق الأرض، وواسى الحزين، ولا تسيثن إلى الأرملة، ولا تحرم من رجلا من ميراث أبيه، ولا تضرن الأشراف فى مراكزهم» (١).

وهكذا ظل المصريون، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية، يؤمنون بأهمية الوسائل المادية كطريق للسعادة فى الحياة الآخرة، فالقبر الفخم والهبات الجنائزية السخية من الأمور الهامة فى ذلك، ولكن الثورة أضافت إلى ذلك، أن السعادة فى الآخرة، لن تكون فقط بقبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام، أو بعطف من الملك ورضاه، وإنما السعادة فى العالم الآخر بشيء أفضل من ذلك وأهم، بالعمل الصالح، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى، وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة حين تؤكد مبادئها بأن الآخرة إنما هى نتاج عمل الدنيا، وأن الدين اعتادوا عمل الخير فى الدنيا، سوف يسلكون نفس الطريق، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا، لأن «الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه، ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها».

وهكذا تكشف الثورة للمصريين، منذ ذلك العهد البعيد، أن القيم الخلقية يجب أن تحتل محل القيم المادية، وأن الإنسان إن أراد خلوداً فى آخرته، وسعادة فى حياته الثانية، فليسلك إلى ذلك سبيل الخير، ومن ثم فإن

(١) محمد يوسى مهران، المرجع السابق، ص ١٨٧-١٨٨، وكذا:

A.H Gardiner, JEA, I, 1914, p. 28.

مصر تكون أول أمة عرفت القيم التي في الإنسان العادي، ولم يقف الأمر في مصر عند هذا الحد، بل إن هذه المعرفة إنما كانت تهدف في محاولاتها إلى أن يتسنع عدد كبير من الناس بحياة أفضل^(١).

هذا وكان المصري القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام «إله الشمس»، وذلك استجابة لطلب أي إنسان كان الميت قد أخطأ في حقه وليس حساباً على شيء آخر، فإذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصدفه فمن المحتمل ألا يتعرض في الحياة الثانية لمحاكمة أخرى، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التي تنتظر كل إنسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقاً لقواعد الأخلاق.

وهكذا فإننا نقرأ - ولأول مرة في التاريخ المصري - عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعاً يؤدون امتحاناً عسيراً عما قدموه في دنياهم، خيراً كان أم شراً، ولن ينجح في هذا الامتحان الإلهي أصحاب الثروة والجاه والأهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لأصحابها من قرابين وأدعيات، وما أقام فيها من طقوس وصلوات وإنما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة، ذلك لأن أعمال كل إنسان - أيما كان هذا الإنسان - ستوضع مكدسة بجواره، وستقرر المحكمة مسير الموتى أجمعين، وهكذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحاناً عسيراً أمام هذه المحكمة لينال السعادة المتشردة في العالم الآخر.

وفي تعاليم الملك الإهناسي إشارة إلى ذلك، حيث يقول لولده: «إنك تعلم أن القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقي يوم المحاكمة، وتسوء العاقبة إن كانت التهمة من الواحد العاقل (ربما تحوت الذي يدير المحاكمة يوم القيامة)، لا تضع ثقتك في طول السنين، فهم ينظرون إلى فترة المحاكمة، وكأنها ساعة، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام، لأن الخلود مثواه هناك في العالم الآخرة، الغيبى من لا يهتم بذلك، أما من يأتي يومئذ دون أن يرتكب إثماً، فإنه سوف يعيش هناك كما يعيش الأبرار المتوفين، سادة الأبدية».

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥.

J. Wilson, The Burden of Egypt, p. 114, ANET, p. 415.

وهكذا يحذر فرعون إهناسية ولده، من يوم الحساب، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا جاء ولا سلطان، لأن من سيحاسب الناس إنما هو الواحد العاقل، كما يحذره من أن يفتر بطول السنين، لأنها في نظر قضاة الأبدية وكأنها ساعة مما يعد القوم، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». وهكذا تكون نتيجة المحاكمة، فمن يصل إلى الآخرة، وقد عمل الخير في دنياه، فإنه سيثوى هناك مرحباً مع الأبرار المتوفين، ومن لا يكثر بتناج هذا اليوم فهو غيباً أحرق، وسيكتب عليه سوء المصير^(١).

هذا وقد تصور القوم أن «أوزير» إنما سيكون سيد مملكة الموتى، والمشرف على حساب الميت، هذا وقد صور كتاب الموتى، من عهد الدولة الحديثة، المحاكمة أوضح تصوير، وعبر عنها باللفظ والصورة، فهناك ما يمثل أوزير جالساً على عرشه في أحد جانبي بهو العدالة، وأمامه أبناء حور الأربعة (إيمسى وحابى ودواموتف وقبح سنواف)، فضلاً عن ملتهم الموتى، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر.

وفي الجانب الآخر يتقدم الميت لتلقاه آلهة الحق والعدالة وفي الوسيط ميزان ينصب ويوضع في إحدى كفتيه قلب المتوفى، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير، بينما تصور في الكفة الأخرى (ريشة)، ترمز من حيث اللفظ إلى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة، وترمز من حيث الصورة إلى دقة الوزن وحساسيته، ويجرى الحساب، كما قلنا آنفاً، في حضرة أوزير، رب الآخرة، وبحضور اثنين وأربعين قاضياً يمثلون أرباب عواصم الأقاليم، ويتحقق حور وأنوبيس من صحة الوزن، بينما يقوم على تسجيل الحسنات والسيئات تحوت، رب الحكمة والكتابة، فيسير على لوحة بنتيجة الوزن ونتيجة دفاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه وإلهه الأكبر، وحينئذ يتحدد مصيره، فإما إلى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها إلى سبعة أذرع، وإما إلى جهنم تتنوع فيه صور الحرمان والفرع وأذى الوحوش والحيات والثيران.

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩، ٤١٤-٤١٦.

A.Erman, op.cit., p. 77; I, J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 250.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه على المتوفى أن يتقدم بدفاعين، الواحد عن نفسه، وهو دفاع عام، والآخر عن كل من القضية باسمه وصفته وأن يرى نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة، وما يقوله في دفاعه الأول : «إننى لم أقترف اثماً ضد البشر، ولم أفعل شيئاً تهمة الآلهة، ولم أسع بأحد عند رئيسه، ولم أجوع أحداً، ولم أدع أحداً يبكى، ولم أقتل، ولم أحرص على القتل، ولم أسبب لأحد الماء، ولم أخيف من خبز الآلهة، ولم أطلب طعام الأبرار، ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى، ولم أستعمل مكيفاً منقوصاً ولا ذراعاً نقص الطول، ولم أزيغ فى أبعاد العقل، ولم أزد مشاقيل الميزان، ولم أزعج لسان الميزان، ولم أسلب اللين من فم الطفل، ولم أسرق الماشية من مرعاهاء، ولم أصيد طيور الآلهة، ولا الأسماك من بحيراتهم، ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته، ولم أسد على الماء الجارى، ولم أؤذ قطعان المعابد، ولم أعترض إرادة الإله» .

وأما الذنوب التى ينكرها الميت فى دفاعه الثانى، فمنها أنه لم يسرق معلماً، ولم يذبح الشيران المقدسة، ولم يسترق السمع، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق، ومن ثم يقترب ما يقدم عليه، ولم يتكلم كثيراً بلفظ، ولم يجهر بصوته، ولم يسئ إلى الملك ولا إلى الإله.

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا إلى حد ما من المبدأ الذى قرره آتوب السماء، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا، فمن عمل صالحاً لنفسه، ربح أساء فعليها.

ولكن هناك أمراً هدمت ذلك المبدأ النبيل، أو على الأقل أوجدت ثغرة فيه، ولعل أهم تلك الأمور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم فى أن العوامل المادية كإقامة القبور الفخمة والإنفاق عليها بسخاء، إنما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الآخر.

ومن هنا ترى الملك الإهناسى ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو فى الغرب، فهو الشيء الذى تركز إليه قلوب أهل الاستقامة، ومنها كذلك انتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه فى عالم الآخرة، ومن ثم فقد لجأوا إلى التعاويذ التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الأخطار التى تحف به فى الآخرة،

أو على الأقل تزوده في آخرته بما هو في حاجة إليه من نعيم، فانتهاز الكهنة تلك الفرصة لابتزاز أموال الناس حباً في الكسب الذي كان يأتي إليهم بهذه الطريقة السهلة، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة، وادعوا أنهم يستطيعون إنقاذ الموتى في كل موقف حرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتماً، وبذا يضمن المتوفى قبوله خلقياً عند المحاكمة في عالم الآخرة.

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم برأيهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة، ذلك أن الديموقراطية، التي نادى بها «سر الثورة الاجتماعية لم تكن وفقاً على الحياة الدنيا، وإنما تعدتها إلى الحياة الثانية، ومن ثم فقد شارك العامة الفرعون في مصيره الأخرى، فكما أن الفرعون سيصير «أوزيراً» في الآخرة، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير»، فما كاد الحي ينتهي إلى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته، فيرعى جسده حارس الموتى «أنوبيس»، وتحنو عليه ربة السماء «نوت»، وتبكيه أختاه إيزة ونفتيس، ويقوم إلى جواره ولده ليدفع عنه شر المعتدين وأذى الكاثدين، ثم يقوده في موكب النصر والرحمة إلى مكانه من السماء.

وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه إلى مطلع الحياة من أيام الدولة الوسطى، حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى مختلفة تشير كلها إلى أن الناس قد تساوت مقاديرهم في هذه الدنيا، فأصبحوا في عالم القبور سواء، ذلك لأن مجرد الامتزاج بأوزير أصبح كفيلاً بأن يحقق براءة الميت، وأصبح كل ميت يلقب بـ «المبرأ».

ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأي ذنب اقترفه في حياته، إذ كان عليه، كما رأينا أنفاً، أن يعلن براءته من كل ذنب وخطيئة، وأن يدعى لنفسه سلسلة طويلة من الفضائل والأعمال الحسنة، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالإله أوزير، وامتزاجه به إلى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة، وأصبح الاهتمام بالسحر والشكليات شائعاً.

وهكذا أدت كل هذه العوامل دوراً هاماً في القضاء على الهدف من المحاكمة، وجعلت منها شيئاً يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم

نسبيًا، استطاعوا أن يصلوا إلى هذا المستوى من التفكير الديني والخلقي، فقد أصبح للأخلاق في نظرهم شأن عظيم في تقرير مصير الإنسان بعد الموت، بعد أن كان ذلك وقفًا على الوسائل المادية، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الإله ورضاه عنه^(١).

تم بحمد الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وجدنا
محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٨٩-١٩٠، ٢١٦-٢١٧؛ أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١؛ محمد أنور شكري، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٦؛ وكذا: J.H. Breasted, op.cit., p. 268.

وانظر: الترجمة العربية (برستد، فجر الضمير، ص ٢٦٦-٢٩٠)

المراجع المختارة

أولا - المراجع العربية

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - كتب الحديث الشريف
- ٣ - التوراة
- ٤ - الإنجيل
- ٥ - الدكتور إبراهيم زيادى، ملامح جغرافية جمهورية مصر العربية، الإسكندرية ١٩٩٣ م.
- ٦ - الدكتور أحمد بدوى، فى مركب الشمس، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٦ م.
- ٧ - الدكتور أحمد بدوى، فى مركب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٠ م.
- ٨ - الدكتور أحمد سليم، دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء الأسرة الأولى والثانية، الإسكندرية ١٩٧٧ م.
- ٩ - الدكتور أحمد سليم، دراسة تاريخية لنشأة الأسرة الثالثة وتطورها السياسى والحضارى، الإسكندرية ١٩٨١ م.
- ١٠ - الدكتور أحمد صبحى منصور، مصر فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٩٠ م.
- ١١ - الدكتور أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣ م.
- ١٢ - الدكتور أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١ م.
- ١٣ - الدكتور أحمد فخرى، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى - الأدب المصرى، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ١٤ - الدكتور أحمد محمود صابون، دراسة تاريخية للإقليم الثالث: «نخن - نخب»، الإسكندرية ١٩٨٤ م.
- ١٥ - الكندى (عمر بن محمد بن يوسف)، فضائل مصر، القاهرة ١٩٧١ م.
- ١٦ - الدكتور رشيد الناضورى، جنوبى غربى آسيا وشمال أفريقيا، الإسكندرية ١٩٦٥ م.
- ١٧ - الدكتور رمضان عبده، تاريخ مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٨ م.
- ١٨ - الدكتور سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٠ م.
- ١٩ - الدكتور سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٤٠ م.
- ٢٠ - الدكتور سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥ م.

- ٢١ - الدكتور سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٢ م.
- ٢٢ - الدكتور عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ١٩٦٦ م.
- ٢٣ - الدكتور عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٢٤ - الدكتور عبد المنعم أبو بكر، تاريخ الحضارة المصرية: العصر الفرعوني - النظم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٢٥ - الدكتور محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، القاهرة ١٩٨٤ م.
- ٢٦ - الدكتور محمد أنور شكرى وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، القاهرة.
- ٢٧ - الدكتور محمد بيومى مهران، حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦ م.
- ٢٨ - الدكتور محمد بيومى مهران، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، الإسكندرية ١٩٦٦ م.
- ٢٩ - الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨ م.
- ٣٠ - الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٨٨ م.
- ٣١ - الدكتور محمد بيومى مهران، مصر، الجزء الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨ م.
- ٣٢ - الدكتور محمد عبد القادر، آثار الأقصر، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٣٣ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٦٢ م.
- ٣٤ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى، الإسكندرية ١٩٦٢ م.
- ٣٥ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس، الإسكندرية ١٩٥٩ م.
- ثانياً - المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:
- ٣٦ - أدولف إيرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٢ م.
- ٣٧ - أدولف إيرمان وهرمان رانكة، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٥٣ م.
- ٣٨ - الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٣٩ - ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل، القاهرة ١٩٧٣ م.

- ٤٠ - إيتين ذريوتون وجاك فاندييه، مصر، ترجمة عباس بيومي، القاهرة ١٩٥٠ م.
٤١ - جون ويلسون، الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٥٦ م.
٤٢ - جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل (٤ أجزاء)، ترجمة شفيق فريد وليب حبشى، القاهرة ١٩٨٧/٦٣ م.
٤٣ - جيمس هنرى برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦ م.
٤٤ - جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦١ م.
٤٥ - مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر، ترجمة نجيب ميخائيل، القاهرة ١٩٥٧ م.
ثالثاً - المراجع الأجنبية:

46. Barguet, (P.), Le Temple d'Amon -Re A Kamak, Cairo, 1962.
47. Baikie (J.W.), A History of Egypt, I, London, 1928.
48. Breasted, (J.H.), A History of Egypt, N.Y., 1946.
49. Breasted, (J.H.), Ancient Records of Egypt, 1-2, Chicago, 1906.
50. Breasted (J.H.), The Dawn of Conscience, N.Y., 1939.
51. Cerny, (J.), Ancient Egyptian Religion, London, 1952.
52. Daumas, (F.), La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956.
53. Dunham (D.), Naga - ed - Der Stelea of the First Intermediate Period, 1937.
54. Dunham (D.), The Baographical Inscriptions of Nekhebu, JEA, 24, 1948.
55. Drioton (F.) et Vandier, Egypte, Paris, 1962.
56. Erman, (A.), The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927.
57. Faulkner, (R.), The Rebellion in The Har - Nomo, JEA, 30, 1944.
58. Gardiner, (A.H.), Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
59. Garidner, (A.H.), A Stela of The Earlier Intermediate Period, JEA, 8, 1922.
60. Gardiner, (A.H.), The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909.
61. Gardiner, (A.H.), The Instruction for King Mery Ka Rc, JEA, 1, 1914.
62. Gardiner, (A.H.), The Story of Eloquent Peasant, JEA, 9, 1923.
63. Garinder, (A.H.), The Prophecy of Neferti, JEA, 1, 1914.
64. Griffith (F.L.), Beni - Hassan, London, 1883-1900.
65. Hayes, (W.G.), The Scepter of Egypt, I, N.Y., 1953.

66. Hayes, (W.G.), The Coptes Decrees, JEA, 32, 1946..
67. Kees (H.), Ancient Egypt, London, 1961.
68. Mokhtar (M.G.), Ihnasya El-Medinah (Heracleopolis Magna) Its Importance and Its Role in Pharaonic History, Cairo, 1957.
69. Newberry (P.E.) and Griffith (F.L), El-Bersheh, London, 1895.
70. Petrie (W.M.F.), A History of Egypt, I, London, 1924.
71. Poltsky, (H.G.), The Stela of Heka - Yeb, JEA, 16, 1930.
72. Wilson (J.A.), The Burden of Egypt, Chicago, 1954.
73. Wilson, (J.A.), The Protests of The Floqunt Peasnt, in ANET, 1966, p. 407-410.
74. Wilson, (J.A.), A Dispute Over Suicide, ANET, 1966.
75. Wilson (J.A.), The Admonitions of Ipu - Wer, in ANET, 1966.
76. Wilson (J.A.), The Prophecy of Nefer - Rohu, ANET, 1966.
77. Wilson (J.A.), The Inscription For King Meri - Ka Re, in ANET, 1966.
78. Winlock, (H.E.), The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N.Y., 1940.



المؤلف في سطور

دكتور

محمد يوسفي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

- ١ - ولد في البصيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.
- ٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقتا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.
- ٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).
- ٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥ - عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.
- ٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.
- ٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.
- ١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧ م.
- ١١ - عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م.
- ١٢ - عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ١٩٨٢ م.
- ١٣ - أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة في الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧ م.

- ١٤ - عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (١٩٨٧-١٩٨٨ م).
- ١٥ - اختيار مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨-١٩٨٩ م).
- ١٦ - عين أستاذًا متفرغًا فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨ م.
- ١٧ - عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨ - عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.
- ١٩ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.
- ٢٢ - أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣ - أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢ م.
- ٢٤ - شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١ م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ فى عام (١٩٨٢/٨٣ م).
- ٢٥ - عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- ٢٦ - عضو مجلس إدارة اتحاد الأثاريين العرب.
- ٢٧ - عضو نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

(أ) دراسات تاريخية:

أولاً - فى تاريخ مصر القديم (رسائل علمية):

- ١ - الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية، رسالة ماجستير، الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، رسالة
دكتوراه الإسكندرية ١٩٦٩

ثانياً - دراسات فى تاريخ اليهود القديم:

- ٣ - التوراة - مجلة الأسطول - العدد ٦٣. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٤ - التوراة - مجلة الأسطول - العدد ٦٤. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٥ - التوراة - مجلة الأسطول - العدد ٦٥. الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - قصة أرض بين الحقيقة والأسطورة، مجلة الأسطول، العدد ٦٦. الإسكندرية ١٩٧١
- ٧ - الذبابة الجنسية عند اليهود (١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٧. الإسكندرية ١٩٧١
- ٨ - النقاوة الجنسية عند اليهود (٢)، مجلة الأسطول، العدد ٦٨. الإسكندرية ١٩٧١
- ٩ - أخاديد يات الحرب عند اليهود من التوراة، مجلة الأسطول،
العدد ٦٩. الإسكندرية ١٩٧١

- ١٠ - التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠. الإسكندرية ١٩٧٢

ثالثاً - دراسات فى تاريخ العرب القديم:

- ١١ - الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلي. الرياض ١٩٧٤
- ١٢ - العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة. الرياض ١٩٧٦
- ١٣ - مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة. الرياض ١٩٧٧
- ١٤ - الديانة العربية القديمة. الإسكندرية ١٩٧٨
- ١٥ - الفكر الجاهلى. القاهرة ١٩٨٢

- رابعاً - دراسات فى تاريخ العراق القديم:
- ١٦ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة
الرياض ١٩٧٦
- ١٧ - قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة
الإسكندرية ١٩٧٩
- خامساً - سلسلة تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم:
- ١٨ - حركات التحرير فى مصر القديمة
القاهرة ١٩٧٦
- ١٩ - إخناتون : عصره ودعوته
القاهرة ١٩٧٩
- ٢٠ - مصر، الجزء الأول، الطبعة العاشرة
الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢١ - مصر، الجزء الثانى، الطبعة العاشرة
الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢٢ - مصر، الجزء الثالث، الطبعة العاشرة
الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢٣ - الحضارة المصرية القديمة، ج ١، الطبعة الخامسة
الإسكندرية ١٩٨٩
- ٢٤ - الحضارة المصرية القديمة، ج ٢، الطبعة الخامسة
الإسكندرية ١٩٨٩
- ٢٥ - تاريخ العرب القديم، ج ١، الطبعة السابعة عشرة
الإسكندرية ١٩٩٤
- ٢٦ - تاريخ العرب القديم، ج ٢، الطبعة السابعة عشرة
الإسكندرية ١٩٩٤
- ٢٧ - الحضارة العربية القديمة، الطبعة الرابعة
الإسكندرية ١٩٩٤
- ٢٨ - بلاد الشام
الإسكندرية ١٩٩٠
- ٢٩ - تاريخ السودان القديم
الإسكندرية ١٩٩٤
- ٣٠ - المغرب القديم
الإسكندرية ١٩٩٠
- ٣١ - العراق القديم
الإسكندرية ١٩٩٠
- ٣٢ - التاريخ والتأريخ
الإسكندرية ١٩٩١
- ٣٣ - أرض الميعاد
الإسكندرية ١٩٩٨
- ٣٤ - بنو إسرائيل، الجزء الأول، طبعة ثالثة
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٣٥ - بنو إسرائيل، الجزء الثانى، طبعة ثالثة
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٣٦ - بنو إسرائيل، الجزء الثالث، طبعة ثالثة
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٣٧ - بنو إسرائيل، الجزء الرابع، طبعة ثالثة
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٣٨ - بنو إسرائيل، الجزء الخامس، طبعة ثالثة
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٣٩ - حضارات الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول
الإسكندرية ١٩٩٩
- ٤٠ - حضارات الشرق الأدنى القديم، الجزء الثانى
تحت الطبع
- سادساً - معجم المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم:
- ٤١ - الجزء الأول، مصر
الإسكندرية ١٩٩٩

تخست الطبع

٤٢ - الجزء الثاني - الشرق الأدنى القديم

(ب) دراسات إسلامية:

أولاً - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:

الإسكندرية ١٩٩٥

٤٣ - الجزء الأول - في بلاد العرب، طبعة ثالثة

الإسكندرية ١٩٩٥

٤٤ - الجزء الثاني - في مصر، طبعة ثانية

الإسكندرية ١٩٩٥

٤٥ - الجزء الثالث - في بلاد الشام، طبعة ثانية

الإسكندرية ١٩٩٥

٤٦ - الجزء الرابع - في العراق، طبعة ثانية

ثانياً - سلسلة في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين:

بيروت ١٩٩٠

٤٧ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول

بيروت ١٩٩٠

٤٨ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني

بيروت ١٩٩٠

٤٩ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث.

بيروت ١٩٩٠

٥٠ - السيدة فاطمة الزهراء

بيروت ١٩٩٠

٥١ - الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الأول)

بيروت ١٩٩٠

٥٢ - الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الثاني)

بيروت ١٩٩٠

٥٣ - الإمام الحسن بن علي

بيروت ١٩٩٠

٥٤ - الإمام الحسين بن علي

بيروت ١٩٩٠

٥٥ - الإمام علي زين العابدين

تحت الطبع

٥٦ - الإمام جعفر الصادق

ثالثاً - سلسلة الإمامة وأهل البيت:

بيروت ١٩٩٣

٥٧ - الإمامة

بيروت ١٩٩٣

٥٨ - الإمامة والإمام علي

بيروت ١٩٩٣

٥٩ - الإمامة وخلفاء الإمام علي

(ج) مقالات في مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية:

الإسكندرية ١٩٩٢

٦٠ - دراسة حول التأريخ للأنبياء - العدد ٣٩

٦١ - الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي، العدد

الإسكندرية ١٩٩٣

٤٠

الإسكندرية ١٩٩٧

٦٢ - النقارة الجنسية عند اليهود، العدد ٤٦

فهرس الموضوعات

١٩-٧ تقديم
١٥٤-٢١ الباب الأول : دراسات تمهيدية
 الفصل الأول
٥٠-٢٣ مقدمة جغرافية
٢٣ (١) موقع مصر الجغرافى
٢٩ (٢) مناخ مصر
٣٠ (٣) النيل
 الفصل الثانى
١٥٤-٥١ مصادر الدراسة
٥١ أولا - المصادر العامة:
٥١ ١ - الآثار المصرية
٥٩ ثانياً - كتابات المؤرخين القدامى من اليونان والرومان:
٦١ ١ - هيكلته الملىتى
٦١ ٢ - هيرودوت
٦٨ ٣ - هيكلته الابدري
٦٨ ٤ - ديودور الصقلى
٧٠ ٥ - سترابو
٧١ ٦ - بلوتارك الخيرونى
٧٤ ثالثاً - المصادر الأجنبية المعاصرة
٧٥ رابعاً - المصادر اليهودية
٧٦ ثانياً - المصادر الخاصة بموضوع البحث (الثورة الاجتماعية الأولى):
٧٦ أولاً - المصادر الأثرية:
٧٩ ١ - مقبرة المعلا
٨٢ ٢ - البرشا
٨٤ ٣ - بنى حسن
٨٦ ٤ - مير
٨٨ ثانياً - الوثائق (النصوص)

٩٠	١ - تحذيرات الحكيم إيسو - ور
١٠٢	٢ - نبوءة نقرتى:
١٠٥	١ - وصف حال البلاد
١٠٦	٢ - الدعوة إلى الملك الجديد
١٠٩	٣ - إرشادات إلى الملك مري كارع
١٢٦	٤ - صراع المتعب من الحياة مع روحه
١٣٨	٥ - قصة الفلاح الفصيح
١٥١	٦ - أغنية الضارب على العود
٢٩٢-١٥٥	الباب الثاني: المجتمع المصرى القديم فيما قبل الثورة
	الفصل الأول

التنظيم السياسى والإدارى والاقتصادى

٢٣٦-١٥٧	والمقضايا فيما قبل الثورة
١٥٧	أولا - التنظيم السياسى
١٥٧	١ - الملك المؤله
١٥٧	(١) نظرية ألوهية الملك:
١٦٦	(٢) الألقاب الملكية:
١٦٦	(١) اللقب الحورى:
١٦٧	(٢) اللقب النبى:
١٦٧	(٣) اللقب النسويى:
١٦٨	(٤) لقب حور الذهبى:
١٦٨	(٥) ابن رع:
١٦٩	(٣) أعياد فرعون:
١٦٩	١ - الأعياد الزراعية:
١٦٩	٢ - الأعياد الدينية:
١٦٩	٣ - أعياد فرعون:
١٦٩	(١) عيد التتويج:
١٧٠	(٢) عيد سد
١٧١	(٣) عيد احتفال الملك بأبيه «مين»

١٧٣	٢ - تطور سلطة الملك حتى عصر الثورة
١٧٣	(١) في عصر التأسيس والدولة القديمة:
١٧٦	(٢) عصر الثورة الاجتماعية الأولى:
١٧٨	٣ - في الدولة الوسطى:
١٨٢	ثانياً - التنظيم الإدارى
١٨٣	١ - الوزير:
١٩١	٢ - الأقاليم وحكامها في مصر الفرعونية:
١٩١	(١) الأقاليم في مصر الفرعونية:
١٩٢	(٢) حكام الأقاليم في الدولة القديمة:
١٩٨	(٣) حاكم الصعيد:
٢٠٤	ثالثاً - التنظيم الاقتصادى
٢٠٤	(١) الزراعة:
٢٠٧	(٢) التجارة:
٢١٣	(٣) التعدين:
٢١٧	رابعاً - التنظيم القضائى
٢١٧	(١) مصادر القانون المصرى وفلسفته:
٢٢٤	(٢) الهيئات القضائية:

الفصل الثانى

أسباب الثورة الاجتماعية الأولى ٢٣٧-٢٩٢

٢٣٧	تقديم:
٢٤١	(١) أسباب الاقتصادية:
٢٤٥	(٢) أسباب الاجتماعية:
٢٤٧	(١) الطبقة العليا:
٢٥١	(٢) الطبقة الوسطى:
٢٥٦	(٣) الطبقة الدنيا:
٢٦٦	(٣) قصة السخرة في بناء الأهرامات
٢٧٣	(١) نظرية السخرة في بناء الأهرامات
٢٧٣	أولاً - رواية هيرودوت:

٢٧٨ ثانياً - رواية مانيتو:
٢٧٨ ثالثاً - رواية المؤرخين المسلمين:
٢٨٠ (٢) نظرية القضاء على البطالة
٢٨٢ (٣) النظرية الدينية
٢٨٧ (٤) الأسباب السياسية:
٢٨٧ (٥) الأسباب النفسية:
٢٨٨ (٦) الأسباب الخارجية
	الباب الثالث: الأحداث السياسية في عصر الثورة
٣٢٩-٢٩٣ الاجتماعية الأولى
	الفصل الأول
٣٠١-٢٩٥ الأسرتان السابعة والثامنة
٢٩٥ (١) الأسرة السابعة
٢٩٧ (٢) الأسرة الثامنة
	الفصل الثاني
	العصر الإهناسي
٣٢٩-٣٠٣ (الأسرتان التاسعة والعاشرية)
٣٠٣ (١) الأسرة التاسعة:
٣٠٥ (٢) الأسرة العاشرية:
٣٠٦ (٣) الفوضى السياسية في عصر الثورة الاجتماعية الأولى:
٣١٠ (٤) الانهيار الاقتصادي في عصر الثورة الاجتماعية الأولى:
٣١٤ (٥) الحرب الأهلية بين «إهناسيا» و«طيبة»:
٣١٤ (١) إهناسيا:
٣١٦ (٢) طيبة:
٣١٩ (٣) الحرب الأهلية:
٣٥١-٣٢١ الباب الرابع: نتائج الثورة الاجتماعية
	الفصل الأول
٣٣٨-٣٢٣ في المجال السياسي

الفصل الثاني
في المجال الاجتماعي ٣٣٩-٣٤٢

الفصل الثالث
في المجال الديني ٢٤٢-٣٥١

المراجع المختارة ٣٥٣

فهرس الموضوعات ٣٥٧

